



عناصر الموضوع



مفهوم التواضع

أولًا: المعنى اللغوي:

وضع: الواو والضّاد والعين: أصلٌ واحدٌ -كما يقول ابن فارس- يدلّ على الخفض للشّيء وحطّه.

ووضعته بالأرض وضعًا، ووضعت المرأة ولدها، ووضع في تجارته يوضع: خسر، والوضائع: قومٌ ينقلون من أرضٍ إلى أرضٍ يسكنون بها[(١)].

والتواضع: التذلل[(٢)]. و(تواضع) فلان تذلل وتخاشع، والقوم على الأمر: اتّفقوا عليه، والأرض: انخفضت عمّا يليها[(٣)].

والمقصود: أن معنى الجذر (وضع) يدور حول الخفض للشيء وحطّه، كما ذكر ابن فارس، وجاء منه التواضع بمعنى التذلل، والتواضع بمعنى الانخفاض، كقول العرب: تواضعت الأرض: انخفضت عما يليها، ثم توسع المتأخرون في معنى الكلمة، فقالوا: أجرٌ متواضعٌ، وأصلٌ متواضعٌ، وهديةٌ متواضعةٌ... الخ، على سبيل المجاز.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

وأما في الاصطلاح فقد عرّف التواضع بعدة تعريفات، نذكر منها:

التّواضع: استعظام ذوي الفضائل من دونه في المال والجاه، وقيل: الرّضا بمنزلة دون ما يستحقّه فضله ومنزلته[(٤)].

وقيل: التّواضع: الاستسلام للحق، وترك الاعتراض على الحكم، وقيل: التواضع: قبول الحق، وقيل: افتخار بالقلة، واعتناق المذلة، وتحمل أثقال أهل الملّة[(٥)].

وعرّفه المناوي بقوله: «التواضع: تحقير النفس وإهانتها بالنسبة إلى عظمة الله، وقبول الحق بحسن الخلق. وقيل: ترك الصول، والتبرؤ من القوة والحول، قال التونسي: التواضع: تذلل القلوب لعلام الغيوب، بالتسليم لمجاري أحكام الحق»[(٦)].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ١١٧.
(٢) العين، الفراهيدي ٢/ ١٩٦، تهذيب اللغة، الأزهري ٣/ ٤٨.
(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ١٠٤٠.
(٤) مقاليد العلوم، السيوطي ص ٢٠٣.
(٥) انظر: المصدر السابق ص ٢١٧، التعرف لمذهب أهل التصوف، الكلاباذي ص ٩٧.
(٦) التوقيف ص ١١١.

وقيل: «التواضع: ضد التكبر، وهو أن يرى المرء نفسه دون غيره في صفة الكمال»[١].

وقيل: «التواضع: ألا ترى لنفسك قيمة، فمن رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب»[٢].

وسئل الفضيل بن عياض عن التواضع، فقال: يخضع للحق، وينقاد له، ويقبله ممن قاله[٣].

وقال الجنيد: «التواضع خفض الجناح، وكسر الجانب»[٤]. أي: لين الجانب.

وقال رويم: «التّواضع: تذلل القلوب لعلام الغيوب»[٥].

وعرّفه من المعاصرين سليمان بن عبد الرحمن الحقيل بقوله: «التواضع: معرفة المرء قدر نفسه، وتجنّب الكبر، ويتطلب أن يتجنب الإنسان المباهاة بما فيه من الفضائل، والمفاخرة بالجاه والمال»[٦].

ومما سبق ندرك أنه وإن اختلفت عبارات العلماء في تعريفهم للتواضع إلا أن كل هذه التعريفات مجتمعة تدل على أن التواضع هو: خفض النفس، وهضمها في ذات الله، ومعرفة المرء قدر نفسه، واجتناب الكبر والبطر والخيلاء، وقبول الحق، والانقياد له.

فالمعنى الاصطلاحي لا يخرج عن أصله اللغوي.

(١) معجم لغة الفقهاء، محمد قلعجي وحامد قنيبي ص ١٥٠.
(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ٣١٤.
(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، ١٠/ ٥١٠، رقم ٧٨٩٥.
وانظر: مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ٣١٤، ترتيب الأمالي الخميسية، الشجري ٢/ ٣٠٣.
(٤) التعرف لمذهب أهل التصوف، الكلاباذي ص ٩٧.
(٥) المصدر السابق ص ٩٧.
(٦) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ضوء كتاب الله ١/ ١٤٩.

التواضع في الاستعمال القرآني

لم يرد لفظ (التواضع) في القرآن، ولكن ورد جذره (وضع) في القرآن (١٢) مرة.

والمعاني التي استعمل القرآن فيها الجذر (وضع) لا تخرج عن المعنى اللغوي العام، الذي يدل على الخفض للشيء وحطه[١].

وقد تحدث القرآن عن التواضع باستخدام ألفاظٍ قريبة، مثل: الذل، واللين.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ١١٧.



الألفاظ ذات الصلة

١ العجب:

العجب لغةً:

العجب بالضم: الزّهو والكبر، ورجلٌ معجبٌ: مزهوٌّ بما يكون منه حسنًا أو قبيحًا[(١)].

العجب اصطلاحًا:

مسرة بحصول أمر، يصحبها تطاول به على من لم يحصل له مثله، بقول أو ما في حكمه، من فعل، أو ترك، أو اعتقاد[(٢)].

الصلة بين التواضع والعجب:

أن العجب بالشيء شدة السرور به حتى لا يعادله شيء عند صاحبه، تقول هو معجب بفلانة إذا كان شديد السرور بها، وهو معجب بنفسه إذا كان مسرورًا بخصالها،ولهذا يقال: أعجبه، كما يقال: سر به، فليس العجب من الكبر في شيء[(٣)]، بل هو أحد أسبابه الداعية إليه[(٤)].

٢ الكبر:

الكبر لغة:

تدل على خلاف الصّغر، والكبر: معظم الأمر، والكبر: العظمة، وكذلك الكبرياء[(٥)]، والكبر والتّكبّر والاستكبار تتقارب،وأصل ذلك أن يستعمل في الأعيان ثم استعير للمعاني.

الكبر اصطلاحًا:

قال الراغب الأصفهاني: «الكبر: الحالة التي يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره.»[(٦)].

الصلة بين التواضع والكبر:

التواضع ضد الكبر، فالأول محمود، والثاني مذموم.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ٢٤٣، لسان العرب، ابن منظور، ١/ ٥٨٢، تاج العروس، الزبيدي، ٣/ ٣١٨.
(٢) البحر الزخار، ابن المرتضى الصعدي ٦/ ٤٩٠.
(٣) الفروق اللغوية، العسكري، ص٣٥٢.
(٤) انظر: إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ٢/ ٤٥٦.
(٥) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٥٣-١٥٤.
(٦) المفردات، ص٥٤٥.

درجات التواضع

التواضع خلقٌ حميد، وجوهر لطيف، يستهوي القلوب، ويستثير الإعجاب والتقدير، وهو من أخصّ خصال المؤمنين المتقين، ومن كريم سجايا العاملين الصادقين، ومن شيم الصالحين المخبتين.

والتواضع هدوء وسكينة ووقار واتزان، والتواضع ابتسامة ثغر، وبشاشة وجه، ولطافة خلق، وحسن معاملة، بتمامه وصفاته يتميّز الخبيث من الطيب، والصادق من الكاذب.

وهو على ثلاث درجات: تواضع للدين، وتواضع للحق، وتواضع للخلق.

أولًا: التواضع للدين:

من أعظم درجات التواضع الانقياد لما جاء به الرسول، والاستسلام له والإذعان، وهذا هو معنى ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ في قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

فقوله: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي: ويخضعوا لأمرك في القضاء خضوعًا، وقال الزجاج: تسليمًا مصدر مؤكد، فإذا قلت ضربه ضربًا فكأنك قلت: لا شك فيه، كذلك ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي: ويسلّمون لحكمك تسليمًا، لا يدخلون على أنفسهم شكًّا[1].

ونلحظ أنه جمع بين الجملتين ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا﴾ ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ وكأن الأولى - المراد بها الانقياد في الباطن، والثانية - المراد منها: الانقياد في الظاهر[2].

نفى الله عنهم الإيمان أو كماله، إذا تحاكموا إلى غير الرسول، أو لم يرضوا بحكمه، والحرج هو الشك.

وليس المراد الحرج الذي يجده المحكوم عليه من كراهية ما يلزم به إذا لم يخامره شك في عدل الرسول، وفي إصابته وجه الحق، وقد بيّن الله تعالى في سورة النور كيف يكون الإعراض عن حكم الرسول كفرًا، سواء كان من منافق أم من مؤمن، إذ قال في شأن المنافقين: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ [النور: ٤٨-٥٠].

ثم قال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا﴾ [النور: ٥١].

لأن حكم الرسول بما شرع الله من الأحكام لا يحتمل الحيف؛ إذ لا يشرع الله

---

(١) تفسير السمرقندي ١/ ٣١٥.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ١٢٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٤٩.

إلا الحق، ولا يخالف الرسول في حكمه شرع الله تعالى ؛ ولهذا كانت هذه الآية خاصة بحكم الرسول صلى الله عليه وسلم، فأما الإعراض عن حكم غير الرسول فليس بكفر إذا جوّز المعرض على الحاكم عدم إصابته حكم الله تعالى، أو عدم العدل في الحكم[1].

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

والخيرة: الاختيار، أي: يريد غير ما أراد الله، ويمتنع مما أمر الله ورسوله.

ولفظ (ما كان) و(ما ينبغي) ونحوهما معناهما المنع، والحظر من الشيء، والإخبار بأنه لا يحل أن يكون شرعًا، وقد يكون لما يمتنع عقلًا، كقوله: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾ [النمل: ٦٠][2].

وإنما الواجب عليهم أن يخضعوا لما جاء من عند الله ورسوله، ويقبلوه ويتواضعوا له، ويتركوا التكبر عنه، فليس لهم الخيرة في قبوله أو عدم قبوله، وليس لهم الخيرة أن يختاروا من أمرهم ما شاءوا، بل يجب عليهم أن يجعلوا رأيهم تبعًا لرأيه صلى الله عليه وسلم، واختيارهم تلو اختياره.

فقطع سبحانه وتعالى التخيير بعد أمره وأمر رسوله، فليس لمؤمن أن يختار شيئًا بعد أمره صلى الله عليه وسلم، بل إذا أمر فأمره حتم، وإنما الخيرة في قول غيره إذا خفي أمره، وكان ذلك الغير من أهل العلم به وبسنته، فبهذه الشروط يكون قول غيره سائغ الاتّباع لا واجب الاتّباع، فلا يجب على أحد اتباع قول أحد سواه، بل غايته أنه يسوغ له اتباعه، ولو ترك الأخذ بقول غيره لم يكن عاصيًا لله ورسوله[3].

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]. أي: في الإسلام.

قال مجاهد: في أحكام أهل الإسلام وأعمالهم، ﴿كَافَّةً﴾ أي: جميعًا.

وقيل: ادخلوا في الإسلام إلى منتهى شرائعه كافين عن المجاوزة إلى غيره، وأصل السلم من الاستسلام والانقياد[4].

وقد ذكر الهروي هذه الدرجة من درجات التواضع، وهي التواضع للدين، وأنها تكون بثلاثة أشياء:

الأول: أن لا يعارض شيئًا مما جاء به بشيء من المعارضات الأربعة السارية في العالم المسماة: بالمعقول والقياس والذوق والسياسة.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ١١١.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٢٥.
(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٣/ ٢١٣.
(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ١/ ٢٦٧.

الثاني: أن لا يتهم دليلًا من أدلة الدين بحيث يظنه فاسد الدلالة أو ناقص الدلالة أو قاصرها، أو أن غيره كان أولى منه، ومتى عرض له شيء من ذلك فليتّهم فهمه، وليعلم أن الآفة منه، والبلية فيه.

الثالث: أن لا يجد إلى خلاف النص سبيلًا ألبتة لا بباطنه ولا بلسانه ولا بفعله ولا بحاله، بل إذا أحسّ بشيء من الخلاف فهو كخلاف المقدم على الزنا وشرب الخمر وقتل النفس، بل هذا الخلاف أعظم عند الله من ذلك، وهو داعٍ إلى النفاق، وهو الذي خافه الكبار والأئمةُ على نفوسهم[(١)].

وفي كلام الهروي -السابق- شرحٌ وافٍ لدرجة عظيمة من درجات التواضع، بل هي أعظم درجات التواضع وأعلاها، وهي التواضع للدين، بمعنى الاستسلام له، والانقياد لما جاء في الشرع دون معارضة، وألا يحكّم العقل في النقل، فمن يحكّم العقل في النقل فهو متكبّر، فالعقل لا يكون حاكمًا في النقل، وإنما العقل له ثلاث وظائف، هي: أن يتحقق من صحة النقل، وأن يفهم مضمون النقل، وأن يتفكر في خلق السماوات والأرض؛ لكي يعرف الله عز وجل، أما غير هذه الأمور فلا يمكن أن يدركها العقل الضعيف المحدود العلم.

فمن التواضع للدين ألا تعارض المنقول بالمعقول، وألا تتهم للدين دليلًا، والكبر أن تأبى حكمًا شرعيًا، أو آيةً أو حديثًا، أو أن تأخذ من الدين ما تحب وتدع ما لا تحب، فكل هذا كبرٌ وبطرٌ للحق، وردٌّ له.

ومن التواضع للدّين ألا تعارضه برأيٍ أو هوى، ولا تعرض عن تعلّمه والعمل به، وإذا أسدي إليك نصحًا فاقبله واشكر قائله، ومن أمرك بمعروفٍ أو نهاك عن منكرٍ فامتثل لرشده، فالحظوة في التواضع للطاعة، قال رجل لمالك بن مغول: «اتّق الله» فوضع خدّه على الأرض؛ تواضعًا لله[(٢)].

وروي أنه قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: اتق الله، فوضع خده على الأرض تواضعًا لله[(٣)].

ينسى بعض الناس هذا كله فيتعاظمون في أنفسهم، ويأخذهم العجب بأجسادهم وألوانهم، وامتداد قاماتهم، وجمال ثيابهم، فإذا هم يمشون في الأرض مشية الخيلاء المتكبرين، وينظرون إلى الناس نظرة احتقار وازدراء، ويظن أحدهم أنه خير الناس وهو أرذلهم.

وقد قسم ابن القيم التواضع بقوله: «والتواضع المحمود على نوعين:

النوع الأول: تواضع العبد عند أمر الله امتثالًا، وعند نهيه اجتنابًا، فإن النفس لطلب

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ٣١٨-٣١٩.

(٢) انظر: الدر المنثور، السيوطي ١/ ٥٧٥.

(٣) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٢٦٤، تفسير القرآن، السمعاني ١/ ٢٠٨.



الراحة تتلكأ في أمره، فيبدو منها نوع إباء وشراد هربًا من العبودية، وتثبّت عند نهيه طلبًا للظفر بما منع منه، فإذا وضع العبد نفسه لأمر الله ونهيه فقد تواضع للعبودية.

والنوع الثاني: تواضعه لعظمة الرب وجلاله، وخضوعه لعزته وكبريائه، فكلما شمخت نفسه ذكر عظمة الرب تعالى وتفرده بذلك، وغضبه الشديد على من نازعه ذلك، فتواضعت إليه نفسه، وانكسر لعظمة الله قلبه، واطمأن لهيبته، وأخبت لسلطانه، فهذا غاية التواضع، وهو يستلزم الأول من غير عكس، والمتواضع حقيقة من رزق الأمرين، والله المستعان»[1].

والمقصود أن التواضع يكون للشرع بالخضوع التام لأوامر الله، والاستسلام له، فلا يعارض بمعقول ولا رأي ولا هوى، والانقياد التام لما جاء به خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم، وأن يعبد الله وفق ما أمر، وأن لا يكون الباعث على ذلك داعي العادة.

ثانيًا: التواضع للحق:

ومن درجات التواضع وأنواعه: التواضع للحق، والعمل به، وقبوله، والفرح به، وقد أخبر الله عن قوم من أهل الكتاب أنهم قبلوا الحق لما جاءهم، وفرحوا به، وتواضعوا له، فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

وهذا وصف برقة القلوب، والتأثر بسماع القرآن، والظاهر أن الضمير يعود على قسيسين ورهبانًا فيكون عامًا، ويكون قد أخبر عنهم بما يقع من بعضهم، كما جرى للنجاشي، حيث تلا عليه جعفر سورة مريم إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [مريم: ٣٤].

وسورة طه إلى قوله: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩].

فبكى، وكذلك قومه الذين وفدوا على الرسول، حين قرأ عليهم يس فبكوا.

قال ابن عطية: «الضمير في ﴿سَمِعُوا﴾ ظاهره العموم، ومعناه الخصوص فيمن آمن من هؤلاء القادمين من أرض الحبشة، إذ هم عرفوا الحق وقالوا: آمنا، وليس كل النصارى يفعل ذلك، وصدر الآية في قرب المودة عامٌّ فيها، ولا يتوجه أن يكون صدر الآية خاصًّا فيمن آمن؛ لأن من آمن فهو من الذين آمنوا، وليس يقال فيه: ﴿قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾، ولا يقال في مؤمنين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ﴾ ولا يقال: إنهم أقرب مودة، بل من آمن فهو أهل مودة محضة... فالقوم الذين وصفوا بأنهم عرفوا الحق هم الذين بعثهم النجاشي ليروا النبي صلى الله عليه

(١) الروح ص ٢٣٣.

وسلم ويسمعوا ما عنده، فلما رأوه قرأ عليهم القرآن، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ فاضت أعينهم بالدمع من خشية الله، ورقت القلوب»[1].

وقال ابن كثير في قوله تعالى قبل الآية السابقة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢]: «تضمن وصفهم بأن فيهم العلم والعبادة والتواضع، ثم وصفهم بالانقياد للحق واتباعه والإنصاف، فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣]. أي: مما عندهم من البشارة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم.

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣]. أي: مع من يشهد بصحة هذا، ويؤمن به»[2].

قال الألوسي: «وفي الآية: دليل على أن صفات التواضع والإقبال على العلم والعمل، والإعراض عن الشهوات؛ محمودة أينما كان»[3].

وفي قوله: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ إشارة إلى أنهم يقبلون الحق إذا فهموه، ويتواضعون ولا يتكبرون كاليهود.

وأخبر الله تعالى عنهم بعد ذلك أنهم قالوا: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المائدة: ٨٤].

فكأنهم ليموا على إيمانهم ومسارعتهم فيه، فقالوا: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: وما الذي يمنعنا من الإيمان بالله والحال أنه قد جاءنا الحق من ربنا الذي لا يقبل الشك والريب، ونحن إذا آمنا واتبعنا الحق طمعنا أن يدخلنا الله الجنة مع القوم الصالحين، فأي مانع يمنعنا؟ أليس ذلك موجبًا للمسارعة والانقياد للإيمان، وعدم التخلف عنه.

قال الله تعالى: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا﴾ [المائدة: ٨٥].

أي: بما تفوهوا به من الإيمان، ونطقوا به من التصديق بالحق ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٨٥].

قال السعدي: «وهذه الآيات نزلت في النصارى الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، كالنجاشي وغيره ممن آمن منهم، وكذلك لا يزال يوجد فيهم من يختار دين الإسلام، ويتبين له بطلان ما كانوا عليه، وهم أقرب من اليهود والمشركين إلى دين الإسلام»[4].

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٢٢٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ١٦٨.
(٣) روح المعاني، ٤/ ٥.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٤٢.

وقد فسّر النبي صلى الله عليه وسلم الكبر بأنه بطر الحق، وغمط الناس[1]، يعني: وضده التواضع للحق، وهو قبوله حيث كان، ومع من كان.

وبطر الحق: جحده ودفعه ورده، والتعالي والتعاظم عن القيام به، والأنفة من اتّباعه، وتضييع الحق في أوامر الله ونواهيه، والمعنى: أن المتكبر يرفض الحق، ويأبى أن يدخل فيه، وأن يتبعه؛ ومن بطر الحق أيضًا الحيرة فيه، بمعنى: أن يتحير عند سماع الحق فلا يقبله، ولا يجعله حقًا، ومن بطر الحق أيضًا التكبر، يعني: أنه يتكبر عند سماع الحق فلا يقبله.

وغمط الناس: احتقارهم وازدراؤهم واستصغارهم. وهذا مما نهى الله عنه، فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدرًا عند الله، وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له؛ ولهذا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾ [الحجرات: ١١].

فنص على نهي الرجال، وعطف بنهي النساء[2].

والحاصل: أن اتباع الحق والانقياد له لهو من أهم علامات التواضع في العبد، بل لا يصح له خلق التواضع حتى يقبل الحق ممن يحب، وممن يبغض، فيقبله من عدوه كما يقبله من وليه.

ثالثًا: التواضع مع الخلق:

ومن درجات التواضع: التواضع مع الخلق، وهو: خفض جناح الذل والرحمة للخلق، حتى لا يرى له على أحد فضلًا، ولا يرى له عند أحد حقًّا.

قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

قال ابن كثير: «هذه صفات المؤمنين الكُمَّل: أن يكون أحدهم متواضعًا لأخيه ووليه، متعززًا على خصمه وعدوه، كما قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح: ٢٩]»[3].

فقوله: ﴿أَذِلَّةٍ﴾ يعني: أرقاء عليهم، رحماء بهم، من قول القائل: ذل فلان لفلان: إذا خضع له واستكان[4].

قال السمعاني: «﴿أَذِلَّةٍ﴾ ليس من الذل وإنّما هو من الذلة، وهي: اللين»[5].

وقال البغوي: «ولم يرد به الهوان، بل أراد به أن جانبهم ليّن على المؤمنين، وقيل: هو من الذل، من قولهم: دابة ذلول، يعني أنهم متواضعون، كما قال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، ١/ ٩٣، رقم ١٤٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٧٦.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ١٣٦.
(٤) جامع البيان، الطبري ٨/ ٥٢٧.
(٥) تفسير القرآن، ٢/ ٤٧.

﴿هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣](١).

﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ عدي ﴿أَذِلَّةٍ﴾ بـ﴿عَلَى﴾ وإن كان الأصل باللام؛ لأنه ضمّنه معنى: الحنو والعطف، كأنه قال: عاطفين على المؤمنين على وجه التذلل والتواضع، أو لأنه على حذف مضاف، والتقدير: على فضلهم على المؤمنين، والمعنى: أنهم يذلون ويخضعون لمن فضلوا عليه مع شرفهم وعلو مكانهم(٢).

وآثر الأسلوب الحكيم ﴿أَذِلَّةٍ﴾ على أحنّة وأحدبة لإغراء المؤمنين بالاتصاف بها دون سواها؛ لما فيها من نسيان الذات، وغياب الأنا، مع اللين واليسر والسماحة والود، إنها أخوة ترفع الحواجز، وتزيل الكلف، وتصفّي النفوس، ذلة ليس فيها مهانة، ذلة ليس معها حساسية بالذات تجعله عصيًّا على أخيه(٣).

وهي صفة مأخوذة من الطواعية واليسر واللين، فالمؤمن ذلول للمؤمن، غير عصي عليه ولا صعب، هيّنٌ ليّنٌ، ميسّر مستجيب، سمحٌ ودود، وهذه هي الذلة للمؤمنين، وما في الذلة للمؤمنين من مذلة ولا مهانة، إنما هي الأخوة، ترفع الحواجز، وتزيل التكلف، وتخلط النفس بالنفس، فلا يبقى فيها ما يستعصي، وما يحتجز دون الآخرين.

يقول سيد رحمه الله: «إن حساسية الفرد بذاته متحوصلة متحيزة هي التي تجعله شموسًا عصيًّا شحيحًا على أخيه، فأما حين يخلط نفسه بنفوس العصبة المؤمنة معه فلن يجد فيها ما يمنعه، وما يستعصي به، وماذا يبقى له في نفسه دونهم، وقد اجتمعوا في الله إخوانًا يحبهم ويحبونه، ويشيع هذا الحب العلوي بينهم ويتقاسمونه؟! ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فيهم على الكافرين إباء واستعلاء؛ ولهذه الخصائص هنا موضع، إنها ليست العزة للذات، ولا الاستعلاء للنفس، إنما هي العزة للعقيدة، والاستعلاء للراية التي يقفون تحتها في مواجهة الكافرين، إنها الثقة بأن ما معهم هو الخير، وأن دورهم هو أن يطوعوا الآخرين للخير الذي معهم لا أن يطوعوا الآخرين لأنفسهم، ولا أن يطوعوا أنفسهم للآخرين وما عند الآخرين! ثم هي الثقة بغلبة دين الله على دين الهوى، وبغلبة قوة الله على تلك القوى، وبغلبة حزب الله على أحزاب الجاهلية، فهم الأعلون حتى وهم ينهزمون في بعض المعارك، في أثناء الطريق الطويل»(٤).

ولما قيل: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ ربما توهم أنّ مفهوم القيد غير معتبر، وأنهم موصوفون

(١) معالم التنزيل، ٣/ ٧٢.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٢٩٨.
(٣) التضمين النحوي في القرآن الكريم، محمد فاضل ١/ ٣٤٤.
(٤) في ظلال القرآن ٢/ ٩١٩.

بالذل دائمًا، وعند كل أحد، فدفع بقوله: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

ففي قوله تعالى: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ تكميل؛ لأنه لما وصفهم بالتذلل ربما توهم أن لهم في نفسهم حقارة، فقال: ومع ذلك هم ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

واستدل بالآية على فضل التواضع للمؤمنين، والشدة على الكفار[2].

وهذا الوصف هو وصف لهؤلاء القوم بعد أن دخلوا في الإسلام، فكانت تلك صفتهم، وهذا سلوكهم، فهم ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: متخاضعين للمؤمنين، لا يلقونهم إلا باللّين والتواضع ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: أشدّاء وأقوياء، لا يلقى منهم أهل الكفر إلا بلاء في القتال، واستبسالاً في الحرب..، أما في السّلم فهم جبال راسخة في الإيمان، لا ينال أحد منهم نيلًا في دينه، ولا يطمع أحد من أعداء الإسلام في موالاتهم، أو في تعاطفهم معه[3].

والأذلة والأعزة وصفان متقابلان وصف بهما القوم باختلاف المتعلق بهما...، ويطلق الذل على لين الجانب والتواضع، وهو مجاز...، فالمراد هنا الذل بمعنى لين الجانب، وتوطئة الكنف، وهو شدة الرحمة، والسعي للنفع؛ ولذلك علق به قوله: ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، والأعزة: جمع العزيز، فهو المتصف بالعز، وهو القوة والاستقلال، ولأجل ما في طباع العرب من القوة صار العز في كلامهم يدل على معنى الاعتداء، ففي المثل (من عزّ بزّ) وقد أصبح الوصفان متقابلين؛ فلذلك قال السموأل[4]:

وما ضرّنا أنّا قليل وجارنا

عزيز وجار الأكثرين ذليل

وإثبات الوصفين المتقابلين للقوم صناعة عربية بديعية، وهي المسماة: الطباق، وبلغاء العرب يغربون بها، وهي عزيزة في كلامهم، وقد جاء كثير منها في القرآن، وفيه إيماء إلى أن صفاتهم تسيرها آراؤهم الحصيفة، فليسوا مندفعين إلى فعلٍ ما إلا عن بصيرة، وليسوا ممن تنبعث أخلاقه عن سجية واحدة، بأن يكون لينًا في كل حال، وهذا هو معنى الخلق الأقوم، وهو الذي يكون في كل حال بما يلائم ذلك الحال، كما قال[5]:

(١) حاشيه الشهاب على أنوار التنزيل، ٨/ ٦٨.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ١٧٢.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٣/ ١١٢٠.

(٤) انظر: البيان والتبيين، الجاحظ، ٣/ ١٢٨، العقد الفريد، ابن عبدربه ١/ ٢٠٨.
(٥) البيت لكعب بن سعد الغنوي، يرثي أخاه. انظر: جمهرة أشعار العرب، القرشي ص ٥٦٠ ، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٣٢٨.

حليم إذا ما الحلم زين أهله

مع الحلم في عين العدو مهيب[1]

فالقرآن عندما يعبّر عن الإنسان السويّ فهو لا يضع المؤمن في قالب حديدي، بحيث لا يستطيع أن يتغير، فيقول سبحانه: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

إذن فليس المؤمن مطبوعًا على الذلة، ولا مطبوعًا على العزة، لكنه ينفعل للمواقف المختلفة، فهذا موقف يتطلب ذلة وتواضعًا للمؤمنين، فيكون المؤمن ذليلًا، وهناك موقف آخر يتطلب عزة على الكافرين المتكبرين، فيكون المؤمن عزيزًا[2].

وكيف يكون الإنسان المؤمن ذليلًا وعزيزًا في آن واحد؟ لأن الحق لا يريد أن يطبع الناس على لون واحد من الانفعال، ولكنه يريد أن ينفعلوا تبعًا للموقف، فعندما يحتاج الموقف إلى أن يكون المؤمن عطوفًا فالمؤمن يواجه الموقف بالعاطفة، وعندما يحتاج الموقف إلى الشدة فالمؤمن يواجه الموقف بالشدة، وإن احتاج الموقف إلى الكرم فالمؤمن يقابل الموقف بالكرم، فالمسلم إذن ينفعل انفعالًا مناسبًا لكل موقف، وليس مطبوعًا على انفعال واحد، ولو انطبع المؤمن على موقف ذلة دائمة فقد يأتي لمواجهة موقف يتطلب العزة فلا يجدها، ولو طبع المؤمن على عزة دائمة فقد يأتي لمواجهة موقف يتطلب الذلة فلا يجدها؛ لذلك جعل الحق قلب المؤمن لينًا قادرًا على المواجهة كل موقف بما يناسبه[3].

فالشدة في محلّ اللين هي من الحمق والخرق، واللين في محلّ الشدة هو من الضعف والخور، والسداد والحكمة أن تكون الشدة في محلّ الشدة، واللين في محلّ اللين[4].

قال أبو السعود: أي: يظهرون لمن خالف دينهم الشدة والصلابة، ولمن وافقهم في الدين الرحمة والرأفة، قال المفسرون: وذلك لأن الله أمرهم بالغلظة عليهم: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣].

وقد بلغ من تشديدهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تمسّ أبدانهم، وكان الواحد منهم إذا رأى أخاه في الدين صافحه وعانقه.

وقد قال عطاء في هذا: إنهم للمؤمنين كالولد لوالده والعبد لسيده، وعلى الكافرين كالأسد على فريسته[5].

ومما يدل على التواضع للخلق قوله عز وجل: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر:

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٢٣٧-٢٣٨.
(٢) تفسير الشعراوي ٣/ ١٧١٦.
(٣) انظر: تفسير الشعراوي ٥/ ٣٢١٣.
(٤) العذب النمير، الشنقيطي ٢/ ١٥٢.
(٥) صفوة التفاسير، الصابوني ٣/ ٢١١.

88].

والخفض: معناه في اللغة: نقيض الرفع، ومنه قوله تعالى في وصف القيامة ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ [الواقعة: 3].

أي: أنّها تخفض أهل المعاصي، وترفع أهل الطّاعة، وجناح الإنسان: يده.

قال الليث: يد الإنسان جناحه، قال تعالى: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾[القصص: 32].

وخفض الجناح كناية عن اللّين والرّفق والتّواضع، والمقصود: أنه نهاه عن الالتفات إلى الأغنياء من الكفار، وأمره بالتّواضع لفقراء المؤمنين، ونظيره: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[الفتح: 29][1].

وإذا أردت أن تعرف نفسك هل أنت متواضع أو لا؟ فانظر لنفسك حين تخاطب الفقير والمسكين، صاحب الحاجة، فحين تخاطبه متذكرًا فضل الله عز وجل، وتحنّ عليه، وترحمه، فهذا هو التواضع.

فيظهر تواضعك مع من هو دونك من الخلق، وليس مع من هو أعلى منك؛ لأن الذي هو أعلى منك إما أن تتواضع له اختيارًا، وإما أن يجبرك على ذلك؛ لأنك لا تقدر أن تترفع عليه، ولن يقبل منك.

فالتواضع الحقيقي يكون لمن هو أقل منك، وتحمد ربك سبحانه على ما أعطاك من فضله.

وإذا تعارض التواضع للحق مع التواضع للخلق فأيهما يقدّم؟

يقدّم التواضع للحق، فمثلًا: لو كان هناك إنسان يسب الحق، ويفرح بمعاداة من يعمل به، فهنا لا تتواضع له، تواضع للحق، وجادل هذا الرجل حتى وإن أهانك، أو تكلم فيك، فلا تهتم به، فلابد من نصرة الحق[2].

قال ابن تيمية: «نهى الله على لسان نبيه عن نوعي الاستطالة للخلق الفخر والبغي؛ لأن الاستطالة إن بحق فافتخار، وإن بغيره فبغي، فلا يحل هذا ولا ذاك، مثل أن يذكر فضل بني هاشم أو قريش أو العرب أو بعضهم، فلا يكن حظه استشعار فضل نفسه، والنظر إلى ذلك، فإنه مخطيء في هذا؛ لأن فضل الجنس لا يستلزم فضل الشخص كما قدمناه، فرب حبشي أفضل عند الله من جمهور قريش»[3].

ويتأكد للشيخ التواضع مع طلبته...، وإذا طلب التواضع لمطلق الناس، فكيف لمن له حق الصحبة، وحرمة التودد وصدق المحبة؟! لكن لا يتواضع معهم مع اعتقاد أنهم دونه، وممن يتأكد التواضع لهم: الضعفة والمساكين.

قال الإمام النووي: «وليكن شريف

---

(1) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل 11/ 489.

(2) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين 26/ 218.

(3) اقتضاء الصراط المستقيم 1/ 453.

النّفس عفيفًا، متواضعًا للصّالحين، وضعفة المسلمين»[1].

والمقصود: أن الله يحب من عباده أن يتواضعوا، ولا يعلو أحد على أحد، متكئًا على نسب، أو مال، أو جاه، أو حسب.

والكتاب والسنة حافلان بما يحث على التواضع للخلق، وخفض الجناح لهم، وما سبق ذكره غيض من فيض، وقليل من كثير مما ورد في ذلك.

مع ملاحظة أن التواضع للخلق لا يعني الذلة للأغنياء من أجل غناهم وأموالهم؛ لأن العلماء قد قسّموا التواضع إلى نوعين هما: محمود، وهو: ترك التطاول على عباد الله، والإزراء بهم، ومذموم، وهو: تواضع المرء لذي الدنيا رغبة في دنياه، فالعاقل يلزم مفارقة التواضع المذموم على الأحوال كلها، ولا يفارق التواضع المحمود على الجهات كلها.

(١) المجموع شرح المهذب، النووي ٢/ ١٦٩.

مظاهر التواضع

التواضع وإن كان خلقًا من الأخلاق وعلاقته بالقلب، إلا أن له مظاهر ودلالات ظاهرية تدل عليه في المأكل والملبس وغيرها، ومن هذه المظاهر:

١ . قبول الحق والانقياد له.

من مظاهر التواضع قبول الحق ممن جاء به كائنًا من كان، وإن خالف الرأي والهوى، وقد جاء في تعريف التواضع أنه: قبول الحق[2].

وقال ابن عطاء: «التواضع: قبول الحق ممن كان»[3].

وقد امتدح الله المؤمنين بقوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

والمعنى: أن من صفات المؤمنين الصادقين أنهم إذا ما دعوا إلى حكم شريعة الله تعالى التي أوحاها إلى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقولوا عندما يدعون لذلك: سمعنا وأطعنا بدون تردد أو تباطؤ، وذلك لكمال إيمانهم، ومعرفتهم للحق، وتواضعهم له، وعدم تكبرهم عنه، ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ الذين يفعلون ذلك ﴿هُمُ

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف، الكلاباذي ص ٩٧.

(٣) مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ٣١٤.

﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ فلاحًا تامًّا في الدنيا والآخرة.

وهذه هي الصورة المشرقة لإيمان المؤمنين، وما في قلوبهم من صدق ويقين، إنهم إذا دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم أجابوا بالسّمع والطاعة، ورضوا بما يقضي به الله ورسوله فيهم، سواء أكان ذلك لهم أم عليهم، هكذا الإيمان، وهكذا شأن المؤمنين: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

إنه السمع والطاعة لما يأمر به الله ورسوله دون تردد أو ارتياب؛ إذ لا إيمان مع تردد في أمر من أمر الله، أو شك في حكم من أحكامه[(١)].

إذ لابد من الانقياد للحق في جميع الأمور، ظاهرًا وباطنًا، والتسليم له كليًّا من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة، والسمع والطاعة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم، يقول سيد رحمه الله: «فهو السمع والطاعة بلا تردد ولا جدال ولا انحراف، السمع والطاعة المستمدان من الثقة المطلقة في أن حكم الله ورسوله هو الحكم، وما عداه الهوى، النابعان من التسليم المطلق لله، واهب الحياة، المتصرف فيها كيف يشاء، ومن الاطمئنان إلى أن ما يشاؤه الله للناس خير مما يشاءونه لأنفسهم، فالله الذي خلق أعلم بمن خلق»[(٢)].

وقال في المقابل عن المنافقين المتكبرين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا﴾ [النساء: ٦١].

أي: تعالوا إلى ما أنزل الله في القرآن لنعمل به ونحكّمه فيما بيننا، وإلى الرسول ليحكم بيننا بما أراه الله، رأيتهم يعرضون عنك ويرغبون عن حكمك إعراضًا متعمدًا منهم بسبب ما فيهم من الضلال والكبر عن اتباع الحق.

وقال تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ [الحج: ٥٤].

والإخبات: هو الخشوع والتواضع والانقياد.

أي: ولكي يعلم أهل العلم بالله أن الذي أنزله الله من آياته التي أحكمها ونسخ ما ألقى الشيطان أنه الحق من ربهم، فيصدّقوا به، وتخضع له قلوبهم، وتذعن للإقرار به نفوسهم، وتعمل بما فيه من عبادات وآداب وأحكام وهي مثلجة الصدر هادئة مطمئنة ببرد اليقين، والسير على نهج سيد

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٩/ ١٣١٠.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٥٢٧.

المرسلين[1].

وكما هو معلوم أن من الأسباب المانعة من قبول الحق هو الكبر وعدم التواضع والخضوع للحق.

قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

فمن تكبّر لرياسة نالها دل على دناءة عنصره، ومن تفكر فى تركيب ذاته فعرف مبدأه ومنتهاه وأوسطه عرف نقصه، ورفض كبره، ومن كان تكبّره لغنية فليعلم أن ذلك ظل زائل، وعارية مستردة، وإنما قال: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ إشارة إلى أن التكبر ربما يكون محمودًا، وهو التكبر والتبختر بين الصفين[2].

ولهذا كان أكثر من يتكبر عن الحق هم المترفون المتكبرون، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

ومترفوها هم: أهل الرفاهية والمال في الغالب؛ لأنهم أهل الشر وعدم قبول الحق، خلاف الضعفاء والفقراء فإن الغالب عليهم التواضع وقبول الحق، فأهل الترف هم أصحاب الجاه وأصحاب المال ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ أي: أصحاب المال والجاه فيهم ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ أي: على ملة ودين، وإنّا متبعون لهم على دينهم، يعني: لسنا بحاجة إليكم أيها الرسل، يزعمون أن هذا يغنيهم عن اتباع الرسل عليهم الصلاة والسلام، فهذا هو التقليد الأعمى، وهو من أمور الجاهلية.

واحتقار المكذّبين للرسل عليهم السلام وأتباعهم، واعتقاد نقصهم، والتهكم بهم، والتكبر عليهم من الموانع الصادة عن وصول الإيمان إلى القلب، واتباع الحق، كما قال قوم نوح عليه السلام: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١].

وهذا الداء منشؤه من الكبر؛ فإذا تكبّر وتعاظم في نفسه، واحتقر غيره اشمأز من قبول ما جاء به من الحق، وقد سبق في الحديث أن الكبر (بطر الحق)[3] وهو ردّه، وعدم قبوله كبرًا، إذا خالف هواه، أو جاءه ممن هو دونه.

ومن هنا قال بعض السلف: التواضع أن تقبل الحق من كل من جاء به، وإن كان صغيرًا، فمن قبل الحق ممن جاء به، سواء أكان صغيرًا أم كبيرًا، وسواء أكان يحبه أم لا يحبه فهو متواضع، ومن أبى قبول الحق تعاظمًا عليه فهو متكبر[4].

(١) تفسير المراغي ١٧/ ١٣١.
(٢) روح البيان، إسماعيل حقي ٦/ ٤٠٨.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، ١/ ٩٣، رقم ١٤٧.
(٤) جامع العلوم والحكم، ابن رجب ١/ ٣٠٧.

فالمتواضع يقبل الحق ممن جاء به كائنًا من كان، ولو كان عدوًّا مخالفًا في الدين؛ لأنه يحب الحق، وينشده، ويخضع له.

قال صاحب المنازل: «التواضع: أن يتواضع العبد لصولة الحق».

قال ابن القيم: «يعني: أن يتلقى سلطان الحق بالخضوع له، والذل والانقياد، والدخول تحت رقه، بحيث يكون الحق متصرفًا فيه تصرف المالك في مملوكه، فبهذا يحصل للعبد خلق التواضع»[1].

والحاصل: أن من علامات التواضع قبول الحق، والانقياد له، وإن خالف الرأي والهوى.

وقد ذم الله قومًا بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٦].

وهؤلاء أقوام استولى عليهم التكبّر، وزال عنهم خضوع الإنصاف، فشمخت آنافهم عن قبول الحق، فإذا أمرته بمعروف قال: ألمثلي يقال هذا؟! وأنا كذا وكذا! ثم يتكبر عليك، فيقول: وأنت أولى بأن تؤمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فإن من حالك وقصتك كذا وكذا، ولو ساعده التوفيق، وأدركته الرحمة، وتقلّد المنة بمن هداه إلى رؤية خطئه، ونبّهه على سوء وصفه، لم يطوِ على النصيحة جنبيه[2].

٢ . اللين مع الخلق.

ومن مظاهر التواضع: اللين مع الخلق، والرفق بهم، والشفقة عليهم، والتواضع لهم، وترك الترفع عليهم، وخفض الجناح لهم، والرأفة والرحمة بهم، وبخاصة العوام والجهلة، ففي اللين والرحمة والشفقة بهم اقتضاءً للحكمة، وتحقيقًا للعدل والإنصاف والتواضع، ومن علامة حب الله تعالى للمؤمن أن يكون ليّن الجانب، متواضعًا لإخوانه المؤمنين، متسربلًا بالعزّة حيال الكافرين والمنافقين.

وقد مدح الله نبيّه يحيى بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا﴾ [مريم: ١٤].

أي: لم يكن متكبرًا على الناس، بل كان ليّن الجانب متواضعًا لهم[3].

وأمر الله نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بمثل هذا في قوله: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

ووصفه بقوله: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[آل عمران: ١٥٩].

وهذا الكلام لسيد البشر عليه الصلاة والسلام، فلا شك أن من هو دونه أولى بهذا.

وممن أمر الله بخفض الجناح لهم:

(١) مدارج السالكين ٢/ ٣١٧.

(٢) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ١/ ١٧١.

(٣) انظر: تفسير المراغي ١٦/ ٣٩، الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٤٦٦.

الوالدان، فهما أولى الناس بذلك، قال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤].

وخفض الجناح: كناية عن لين الجانب، ولطف المعاشرة، ورقّة الحديث.

والإنسان فيه جانبان من كل شيء: جانب الخير وجانب الشر، جانب القوة وجانب الضعف، جانب الشدة وجانب اللين، وهكذا، وبين جانبي الإنسان إرادة هي التي تنزع به إلى أي الجانبين، فهو في هذا أشبه بالطائر حين يريد الاتجاه إلى أية جهة يخفض جناحه لها، على حين يفرد الجناح الآخر، فكأنّ الإنسان حين دعي إلى أن يلين لأبويه، وأن يرّق لهما، قد مثّل بطائر أراد أن يأخذ هذا الجانب من جانبيه، وهو جانب الرحمة والعطف، فخفض جناحه ومال إليه[1].

وقد كان صلى الله عليه وسلم دائم البشر، سهل الخلق، لطيف المعاملة، ليّن الجانب، ليس بفظّ، ولا غليظ، ولا صخّاب، ولا فحّاش، ولا عيّاب، ولا مدّاح، يتغافل عما لا يشتهيه، ولا يؤيّس منه، ولا يجيب فيه، يتغافل عما لا يشتهي، ولا يقنط منه قاصده، ولا يذم أحدًا، ولا يعيّره، ولا يطلب عورته، وقد وسع الناس بسطه وخلقه، فصار لهم أبًا، وصاروا عنده في الحق سواء، فأحبوه حبًّا ملك مشاعرهم، فما حكاه التاريخ الصادق عنهم، من أنه ما كان أحد يحب أحدًا مثل ما كان يحب أصحاب محمد محمدًا صلى الله عليه وسلم.

وكان صلى الله عليه وسلم يؤلّف أصحابه ولا ينفّرهم، ويكرم كريم كل قوم، ويوليه عليهم، ويتفقد أصحابه، ويعطي كل جلسائه نصيبه، لا يحسب جليسه أن أحدًا أكرم عليه منه، ينصرف إلى من جالسه أو قاربه لحاجة حتى يكون هو المنصرف عنه، ومن سأله حاجة لم يردّه، قد وسع الناس بسطه وخلقه، فصار لهم أبًا.

وقد مدحه الله بقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وهذه الآية تبين ما كان عليه النبي عليه الصلاة والسلام من الأخلاق العظيمة تجاه أمة دعوته، من كونه يعزّ عليه مشقتهم وهلاكهم، وضررهم وأذاهم في سوء العاقبة من الوقوع في العذاب، ويحرص على هداهم، ويرأف بهم ويرحمهم.

وأخبره سبحانه فقال: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٨/ ٤٧٣.

أي: والحال أنهم مجتمعون حوله صلى الله عليه وسلم بفضل الله وبرحمته، فهو الذي جعل في قلبه الشفقة والحنان والرحمة على المؤمنين؛ ليقتدي به المؤمنون، فكل إنسان مؤمن قدوته النبي صلى الله عليه وسلم، فهو مهما أنفق على الناس من مال فلن يجمع قلوبهم، وقد يجمع أبدانهم، لكن القلوب يجمعها الله سبحانه وتعالى بما يجعله في خلق الإنسان من تواضع، ومن لين جانب، ومن حب للغير، فمن يحب الخلق يحبه الخلق، أما من يكره الناس تكرهه الناس؛ ولذلك كان الرجل الجاهلي يقول[1]:

لا أسأل الناس عما في ضمائرهم
ما في ضميري لهم من ذاك يكفيني

أي: لا أسأل أحدًا هل تحبني، أو لا تحبني؟ ولكن أبحث في قلبي إذا كنت أحب إنسانًا، فإن الله عز وجل يجعل في قلب هذا الإنسان المحبة لي، أما إذا كنت أكرهه فكيف أرجو المحبة منه؟! فعلى ذلك لا تطلب محبة من تكرهه.

فجعل الله عز وجل في قلب النبي صلى الله عليه وسلم المحبة للمؤمنين، فكان يدعو لهم، ويشفق عليهم، ويرحمهم، ويرأف بهم، فيحبونه، ويجتمعون حوله صلوات الله وسلامه عليه. وهكذا ينبغي أن يكون حال المسلم في معاملته مع الناس، وتواضعه معهم.

والمقصود: أن من علامات التواضع أن يكون المسلم لين الجانب للخلق على اختلاف طبقاتهم وطبائعهم، مع الأقارب والأجانب، وأن يكون حسن الصحبة، ذا رفق مع الشريف والضعيف، مع تواضعه للحق والدين؛ لأنه ربما يكون صاحب النار ليّن الجانب للناس، حسن الأخلاق، لكنه جبار بالنسبة للحق، مستكبر عن الحق، فلا ينفعه لينه وعطفه على الناس، بل هو موصوف بالجبروت والكبرياء ولو كان لين الجانب للناس؛ لأنه تجبر واستكبر عن الحق.

فيجب على الإنسان المسلم أن يكون ليّن الجانب لإخوانه، وبخاصة من اتبع الرسول صلى الله عليه وسلم، فليخفض له جناحه أكثر؛ لأن المتبع للرسول عليه الصلاة والسلام أهل لأن يتواضع له، وأن يكرم، وأن يعزز، قال تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

وقال الله تعالى لرسوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الكهف: ٢٨].

(١) البيت لذي الإصبع العدواني.
انظر: العقد الفريد، ابن عبدربه ٢/ ١٧٧.

فاصبر نفسك: احبسها مع هؤلاء القوم السادة الكرماء الشرفاء، الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي: يعني صباحًا ومساءً، لا رياء ولا سمعة، ولكنهم يريدون وجه الله عز وجل في دعائهم له، وعبادتهم وذكرهم وتسبيحهم له.

وتواضع المؤمن ولينه يجب أن يكون لينًا ليس معه ضعف، فيكون لين الجانب، سهل الأخلاق، مسفر الوجه، طليقه، يتواضع مع الصغير والكبير، ولكن بحيث لا يطمع فيه أهل الظلم، فيغتنم دينه ويخدعه، ويصرفه عن طريق الحق، لابد أن يكون لينًا، ولكن لا يكون مع اللين ضعف شديد، وأن يكون حليمًا فلا يعجل، وإذا تكلم عليه أحد لم يغضب، ولم يشتد في كلامه، بل يغلبه الحلم.

وليعلم المسلم: أن لين الجانب المعروف بالتواضع على ثلاثة أقسام:

١. واجب: كالتواضع لله ولرسوله وللحاكم والعالم والوالد.

٢. حرام: كالتواضع لأهل النار والظلم والكبر؛ لأن التواضع لهؤلاء هو الذل الذي لا عز معه، والخسة التي لا رفعة معها.

٣. مندوب: كالتواضع لعباد الله سوى من ذكر.

ومفهوم المؤمنين أن الكفار لا يجوز موالاتهم بالمعنى المذكور؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾[المجادلة: ٢٢].

وقد كان نبينا صلى الله عليه وسلم مبعوثًا بأعدل الأمور وأكملها، فهو نبي المرحمة، ونبي الملحمة، فكان صلى الله عليه وسلم في مظهر الكمال الجامع بين القوة والعدل والشدة في الله، وبين اللين والرأفة والرحمة، فشريعته أكمل الشرائع، وأمته أكمل الأمم، وأحوالهم ومقاماتهم أكمل الأحوال والمقامات؛ ولذلك تأتي شريعته بالعدل إيجابًا له وفرضًا، وبالفضل ندبًا إليه واستحبابًا، وبالشدة في موضع الشدة، وباللين في موضع اللين، ووضع السيف موضعه، ووضع الندى موضعه.

بل أمته موصوفون بذلك في مثل قوله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

٣. خفض الجناح للوالدين وللمؤمنين.

ومن مظاهر التواضع: التواضع للوالدين بطاعتهما بما لا يخالف الشرع، وبالإحسان إليهما وإكرامهما، وبالتواضع لهما، والشفقة

عليهما، والتلطف بهما، بأن يقول لهما قولًا حسنًا، وكلامًا طيبًا، مقرونًا بالاحترام والتعظيم، مما يقتضيه حسن الأدب، وغير ذلك مما يجب لهما، عملًا بقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

والعبادة: هي التذلل للمعبود والتواضع له، وكذلك الإحسان إلى الوالدين يقتضي التواضع لهما؛ وذلك ينافي الاختيال والعجب والتفاخر؛ ولهذا قرن بينهما.

ثم زاد الأمر بالإحسان إلى الوالدين تأكيدًا، فصوّر ما ينبغي أن تكون عليه حال الولد من والديه دائمًا، وأخرج معنى الرحمة بهما، والإحسان إليهما، والتواضع لهما في مظهر شيء متخيل محسوس مبالغة في الإلزام به، والدعوة إليه، فقال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤].

فصوّر الذلّ المأمور به بطائر خرّ هاويًا إلى الأرض، ثم صوّر مبالغة وضوح الذلّ والتواضع بنشر هذا الطائر -مع ذلك- جناحيه يخفضهما نحو الأرض، بيد أنه استدرك كي لا تحسب أنه ذلّ الحطّة والصغار، وهو ما ينهى عنه الإسلام، ولا يمكن أن يأمر به، فقال: ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي: بسبب ويعامل الرحمة بهما، وهو شرف لك، وليس بصغار عليك، ومع ذلك فلا تقتصر على أن تعاملهما برحمة من عندك، بل ادع الله لهما أيضًا على أن يشملهما برحمة من عنده ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ أي: رحمة كرحمتهما بي إذ كنت صغيرًا، أو في مقابل رحمتهما بي إذ ذاك[1].

والمقصود أن قوله: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ المقصود منه المبالغة في التواضع، أي: ابسط لهما جناح الذّل والمسكنة والتواضع، الناشئة من كمال الرّحمة والشفقة عليهما، وقد ورد: (**الجنة تحت أقدام الأمهات**)[2] معناه: أن التواضع للأمهات سبب دخول الجنة.

والأمر في ﴿وَٱخْفِضْ﴾ أمر للولد بالتواضع للوالدين تواضعًا يبلغ حد الذل لهما؛ لإزالة وحشة نفوسهما إن صارا في حاجة إلى معونة الولد؛ لأن الأبوين يبغيان أن يكونا هما النافعين لولدهما، والقصد من ذلك التخلق بشكره على إنعامهما السابقة عليه.

قال ابن عاشور: «وصيغ التعبير عن

---

(١) من روائع القرآن، البوطي ص ٢٦٠.

(٢) أخرجه الشهاب القضاعي في مسنده، ١/ ١٠٢، رقم ١١٩، والدولابي في الكنى والأسماء، ٣/ ١٠٩١، رقم ١٩١١.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع ص ٣٩٤، رقم ٢٦٦٦.

التواضع بتصويره في هيئة تذلل الطائر عند ما يعتريه خوف من طائر أشد منه؛ إذ يخفض جناحه متذللًا، ففي التركيب استعارة مكنية، والجناح تخييل بمنزلة تخييل الأظفار للمنية في قول أبي ذؤيب[1]:

وإذا المنية أنشبت أظفارها

ألفيت كل تميمة لا تنفع

وهذه أحكام عامة في الوالدين وإن كانا مشركين، ولا يطاعان في معصية ولا كفر، كما في آية سورة العنكبوت، ومقتضى الآية التسوية بين الوالدين في البر وإرضاؤهما معًا في ذلك؛ لأن موردها لفعل يصدر من الولد نحو والديه؛ وذلك قابل للتسوية، ولم تتعرض لما عدا ذلك مما يختلف فيه الأبوان، ويتشاحان في طلب فعل الولد إذا لم يمكن الجمع بين رغبتيهما، بأن يأمره أحد الأبوين بضد ما يأمره به الآخر، ويظهر أن ذلك يجري على أحوال تعارض الأدلة، بأن يسعى إلى العمل بطلبيهما إن استطاع»[2].

وقال الله تعالى عن يحيى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٤].

أي: ولم يكن مستكبرًا عن طاعة ربه وطاعة والديه، ولكنه كان لله ولوالديه متواضعًا متذللًا يأتمر لما أمر به، وينتهي عما نهي عنه، لا يعصي ربه، ولا والديه[3].

فجمع بين القيام بحق الله وحق خلقه؛ ولهذا حصلت له السلامة من الله في جميع أحواله، مبادئها وعواقبها؛ فلذا قال: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥].

وذلك يقتضي سلامته من الشيطان والشر والعقاب في هذه الأحوال الثلاثة وما بينها، وأنه سالم من النار والأهوال ومن أهل دار السلام، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى والده وعلى سائر المرسلين، وجعلنا من أتباعهم، إنه جواد كريم[4].

٤ . بذل السلام.

ومن مظاهر التواضع: بذل السلام على كل أحد، فالمؤمن المتواضع يفشي السلام، ويبذله لكل أحد، صغيرًا أو كبيرًا، غنيًا أو فقيرًا، عرفه أو لم يعرفه، فإفشاء السلام من أجل القربات، وهو من صفات المؤمنين المتواضعين، ومن أسباب المحبة والألفة، والمحبة من أسباب دخول الجنة، فمن أراد دخول الجنة فعليه أن يفشي السلام، ويسلم على كل من لقي، وفي هذا إزالة للوحشة؛ فإنك إذا لقيت شخصًا ولم تسلّم عليه دخلت الجفوة والوحشة بينك وبينه.

وقد روي: «رأس التّواضع ثلاثةٌ: الابتداء

(١) انظر: جمهرة أشعار العرب، القرشي ص ٥٣٦، تهذيب اللغة، الأزهري ١١/ ٢٦٠.

(٢) التحرير والتنوير ١٥/ ٧٠.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٨/ ١٦٠.

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٩١.

بالتّسليم على كلّ أحدٍ، والرّضا بالمجلس عن شرف المجلس، وحبّ العبد المساجد، وترك الرّياء والسّمعة في شيءٍ من دينه»[1].

وقد أمر الله في القرآن بإلقاء السلام على أهل البيوت التي يدخلها المسلم، فالسلام هنا للاستئذان والاستئناس والتواضع والبركة، قال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور: ٦١].

وجعل الله عز وجل السلام علمًا وشعارًا فيما بين المسلمين، وأمانًا يؤمّن بعضهم بعضًا من شره؛ ألا ترى أن أهل الريبة لا يسلّمون، ولا يردّون السلام، وإن كانوا لا يعرفون تفسيره ولا معناه؟! ولكن على الطبع جعل ذلك لهم[2].

وقوله: ﴿بُيُوتًا﴾ نكرة في سياق الشرط فتعمّ البيوت المسكونة وغير المسكونة، فأطلق القول ليدخل تحت هذا العموم كل بيت كان للغير أو لنفسه، فإذا دخل بيتًا لغيره استأذن، وإذا دخل بيتًا لنفسه سلّم.

قال السعدي: «﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ نكرة في سياق الشرط، يشمل بيت الإنسان وبيت غيره، سواء كان في البيت ساكن أم لا، فإذا دخلها الإنسان ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: فليسلّم بعضكم على بعض؛ لأن المسلمين

كأنهم شخص واحد من توادّدهم وتراحمهم وتعاطفهم، فالسلام مشروع لدخول سائر البيوت من غير فرق بين بيت وبيت»[3].

وقوله: ﴿تَحِيَّةً﴾ أصل التحية: الدعاء بالحياة وطولها، ثم استعملت في كل دعاءٍ، وكانت العرب إذا لقي بعضهم بعضًا يقول: حياك الله، ثم استعملها الشرع في السلام، وهي تحية الإسلام، قال تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [يونس: ١٠].

وقال: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤].

وقال: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النور: ٦١].

قالوا: في السلام مزيةٌ على التحية؛ لما أنه دعاءٌ بالسلامة من الآفات الدينية والدنيوية، وهي مستلزمةٌ لطول الحياة، وليس في الدعاء بطول الحياة ذلك؛ ولأن السلام من أسمائه تعالى، فالبداءة بذكره مما لا ريب في فضله ومزّيته، أي: إذا سلّم عليكم من جهة المؤمنين[4].

وقوله: ﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي: ثابتة بأمره تعالى، مشروعة من لدنه عز وجل، وكانت ﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ لأنه أمر بها؛ ولأنها يحفّها رضاه وبركته وطيبه، ولا شيء أبرك وأكرم

(١) ترتيب الأمالي الخميسية، الشجري ٢/ ٣٠١.
(٢) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٣/ ٢٨٥.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٧٥.
(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٢٧٠، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ٢١١.

مما جاء من عند الله، واختاره وأحبه وشرعه!

قال ابن عاشور: «ولكون كلمة (السلام) جامعة لهذا المعنى امتن الله على المسلمين بها بأن جعلها من عند الله؛ إذ هو الذي علّمها رسوله بالوحي»[1]. وقيل: ذكر القرآن السلام من عند الله تعالى على معنى كونه معاملة منه سبحانه بكرامة الثناء، وحسن الذكر للذين رضي الله عنهم من عباده في الدنيا[2].

فلا يليق بالمسلم أن يدع هذه التحية إلى تحية الجاهلية، أو ما شابهها من ألفاظٍ مستحدثة، كقولهم: احتراماتي، تحياتي، صباح الخير، إلى غير ما هنالك من ألفاظ وعبارات ليس فيها ذلك المعنى اللطيف أو المغزى الدقيق الذي قصد إليه الإسلام، دين الإنسانية الخالد[3].

و ﴿مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ أي: حسنة جميلة، ويقال: ذكر البركة والطيب ها هنا لما فيه من الثواب، ومن أهدى سلامًا إلى إنسان فهي هدية خفيفة المحمل، طيبة الريح، مباركة العاقبة[4]. فوصف سبحانه هذه التحية بالبركة والطيب لأنها دعوة مؤمن لمؤمن، وكلاهما يرجو بها من الله تعالى زيادة الخير، وطيب الرزق.

قال السعدي: «ثم مدح هذا السلام فقال: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور: ٦١].

أي: سلامكم بقولكم: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أو: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين؛ إذ تدخلون البيوت ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: قد شرعها لكم، وجعلها تحيتكم ﴿مُبَٰرَكَةً﴾ لاشتمالها على السلامة من النقص، وحصول الرحمة والبركة والنماء والزيادة، ﴿طَيِّبَةً﴾؛ لأنها من الكلم الطيب المحبوب عند الله، الذي فيه طيب نفس للمحيا، ومحبة وجلب مودة»[5].

فالتعبير في قوله: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ تعبير لطيف عن قوة الرابطة بين المذكورين في الآية، فالذي يسلّم منهم على قريبه أو صديقه يسلّم على نفسه، والتحية التي يلقيها عليه هي تحية من عند الله، تحمل ذلك الروح، وتفوح بذلك العطر، وتربط بينهم بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، وهكذا ترتبط قلوب المؤمنين بربهم في الصغيرة والكبيرة[6].

ونظير الآية السابقة قوله: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم

(١) التحرير والتنوير ١٨/ ٣٠٤.
(٢) المصدر السابق ٢٠/ ٧.
(٣) روائع البيان تفسير آيات الأحكام، الصابوني ٢/ ٢٣٤.
(٤) تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٥٥٣.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٧٥.
(٦) في ظلال القرآن ٤/ ٢٥٣٤.

﴿بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۚ﴾ [النساء: ٨٦].

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم﴾ أي: سلّم عليكم فإن التحية في ديننا بالسلام في الدارين ﴿بِتَحِيَّةٖ﴾ هي تفعلة من حيّا يحيّي تحية ﴿فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ﴾ أي: قولوا: وعليكم السلام ورحمة الله، إذا قال: السلام عليكم، وزيدوا: وبركاته، إذا قال: ورحمة الله، ويقال لكل شيء منتهى، ومنتهى السلام وبركاته ﴿أَوۡ رُدُّوهَآ﴾ أي: أجيبوها بمثلها، ورد السلام جوابه بمثله؛ لأن المجيب يرد قول المسلّم، وفيه حذف مضاف، أي: ردوا مثلها[(١)].

وقد كان من هدي النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه يبدأ من لقيه بالسلام، ويسلّم على الصبيان إذا مر بهم[(٢)].

٥. ترك التفاخر والبغي.

ومن علامات التواضع: ترك التفاخر والبغي، فهما صفتان تنافيان التواضع.

وقد ضرب الله في القرآن مثلًا لرجلين:

الأول: متكبر فخور بما آتاه الله من فضله.

والآخر: متواضع خاشع لله.

فقال عن الأول: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾ [الكهف: ٣٤-٣٦].

إلى آخر الآيات التي ساق فيها مثلًا للنفس الإنسانية المغرورة المتفاخرة بزينة الحياة الدنيا، الجاحدة لنعم الله، وللنفس الإنسانية المتواضعة المعتزة بعقيدتها السليمة، الشاكرة لربها؛ لكي يكون في هذا المثل عبرة وعظة لمن كان له قلب.

فقال تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾ أي: فقال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن الشاكر: أنا أكثر منك مالًا، وأعز منك عشيرة وحشمًا وأعوانًا، وهذا شأن المطموسين المغرورين، تزيدهم شهوات الدنيا وزينتها بطرًا وفسادًا في الأرض.

ثم انتقل صاحب الجنتين من غروره هذا إلى غرور أشد، حكاه القرآن في قوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾ أي: أن هذا المغرور لم يكتف بتطاوله على صاحبه المؤمن، بل سار به

---

(١) مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٣٨٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب التسليم على الصبيان، ٨/ ٥٥، رقم ٦٢٤٧، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب استحباب السلام على الصبيان، ٤/ ١٧٠٨، رقم ٢١٦٨.

نحو جنته حتى دخلها، وهو ظالم لنفسه بسبب كفره وجحوده وغروره، وقوله: ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أي: وهو معجب بما أوتي مفتخر به، كافر لنعمة ربه، معرّضٌ بذلك نفسه لسخط الله، وهو أفحش الظلم، وقوله: ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ أي: قال هذا الكافر لصاحبه: ما أظن أن هذه الجنة تفنى أو تهلك أبدًا.

والمتدبر لحال صاحب الجنتين يراه أولًا: قد زعم أن مدار التفاضل هو الثروة والعشيرة، ويراه ثانيًا: قد بنى حياته على الغرور والبطر، واعتقاد الخلود لزينة الحياة.

ثم حكى سبحانه بعد ذلك ما قاله الرجل المؤمن المتواضع لصاحب الجنتين، الذي نطق بأفحش، وأفجر الفجور، فقال تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ أي: قال الرجل الفقير المؤمن في رده على صاحبه الجاحد المغرور، منكرًا عليه كفره، قال له على سبيل المحاورة والمجاوبة: يا هذا ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾ بقدرته ﴿مِن تُرَابٍ﴾ أي: خلق أباك الأول من تراب ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: خلق أباك آدم من تراب، ثم أوجدك أنت من نطفة عن طريق التناسل والمباشرة بين الذكر والأنثى ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ أي: ثم صيّرك إنسانًا كاملًا، ذا صورة جميلة، وهيئة حسنة، والاستفهام في قوله: ﴿أَكَفَرْتَ﴾ للإنكار والاستبعاد؛ لأن خلق الله تعالى له من تراب ثم نطفة، ثم تسويته إياه رجلًا، يقتضي منه الإيمان بهذا الخالق العظيم، وإخلاص العبادة له، وشكره على نعمائه، وترك الفخر والتكبر.

ثم يعلن الرجل الصالح موقفه بشجاعة ووضوح، فيقول لصاحبه صاحب الجنتين: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ أي: إن كنت أنت يا هذا قد كفرت بالله الذي خلقك من تراب، ثم من نطفة، ثم سوّاك رجلًا، فإني لست بكافر، ولكني أنا مؤمن، أعترف له بالعبادة والطاعة، وأخضع وأتواضع[1].

فمما ينافي التواضع: البغي، وهو العدوان على الناس بالقول وبالفعل ونحو ذلك.

قال ابن منظور: «وأصل البغي مجاوزة الحدّ»[2]، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣].

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٨/ ٥١٦.
(٢) لسان العرب ١٤/ ٧٨.

أي: إن اسم البغي وعقوبة البغي على الباغي (على أنفسكم الباغية).

والمقصود أن من مظاهر التواضع ترك هذه الأمور، وهي: (الغرور والعجب والكبر والبغي) فكلها رذائل، والتواضع فضيلة، وقد جعل الله تعالى الدار الآخرة للذين لا يريدون علوًا في الأرض، قال الكلبي ومقاتل: استكبارًا عن الإيمان، وقال عطاء: استطالة على الناس، وتهاونًا بهم، وقال الحسن: لم يطلبوا الشرف والعز عند ذي سلطانهم، وعن علي رضي الله عنه: أنها نزلت في أهل التواضع من الولاة وأهل المقدرة، يعني: من كان من الولاة وأهل القدرة متواضعًا فهو لا يريد علوًّا في الأرض ولا فسادًا[1].

قال السعدي: «﴿وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣] وهذا شامل لجميع المعاصي، فإذا كانوا لا إرادة لهم في العلو في الأرض والإفساد لزم من ذلك أن تكون إرادتهم مصروفة إلى الله، وقصدهم الدار الآخرة، وحالهم التواضع لعباد الله، والانقياد للحق، والعمل الصالح»[2].

ومدح الله من عباده ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

أي: وعباد الله المخلصين الربانيين الذين لهم الجزاء الحسن من ربهم هم الذين يمشون في سكينة ووقار من غير تجبّر ولا استكبار، يطؤون الأرض برفق، ويعاملون الناس بلين، لا يريدون علوًّا في الأرض ولا فسادًا، كما قال تعالى حاكيًا وصية لقمان لابنه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنّعًا ورياء، وإنما بعزة وأنفة، هي عزة المؤمن المتواضع لله وحده.

فلا ينبغي التفاخر بمظاهر الدنيا، فإن كل ما فيها من ثروات وقصور ومبانٍ وآلات هو متاع يستمتع به في أيام قليلة تنقضي وتذهب، وما عند الله من الثواب على الطاعة خير وأدوم للذين صدّقوا بالله ووحّدوه، وتوكلوا على ربهم وفوّضوا إليه أمورهم.

وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم العباد أن يتواضع بعضهم لبعض، حتى لا يبغي أحد على أحد، ولا يفخر أحد على أحد، فقال: **(وإن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد)**[3].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

(١) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥٤٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٢٥.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، ٤/ ٢١٩٨، رقم ٢٨٦٥.

تعالى في اقتضاء الصراط المستقيم في التعليق على هذا الحديث: «فنهى سبحانه عن نوعي الاستطالة على الخلق، وهو الفخر والبغي؛ لأن المستطيل إن استطال بحقٍّ فقد افتخر، وإن كان بغير حقٍّ فقد بغى، فلا يحل لا هذا ولا هذا»(١).

٦ مشاركة الضعفاء والمساكين.

ومن مظاهر التواضع: مشاركة الضعفاء والمساكين، والجلوس معهم، وتفقّد أحوالهم، وقد نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن طرد المؤمنين الضعفاء، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢].

يعني: المصلّين، بلالًا وابن أم عبد، كانا يجالسان النبي صلى الله عليه وسلم، قالت قريش محقرتهما: لولاهما وأمثالهما لجالسناه، فنهي عن طردهم(٢).

وقد امتثل صلى الله عليه وسلم هذا الأمر أشد امتثال، فكان إذا جالس الفقراء من المؤمنين صبر نفسه معهم، وأحسن معاملتهم، وألان لهم جانبه، وحسّن خلقه، وقرّبهم منه، بل كانوا هم أكثر أهل مجلسه رضي الله عنهم(٣).

قال الطبري: «ذكر أن هذه الآية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبب جماعة من ضعفاء المسلمين، قال المشركون له: لو طردت هؤلاء عنك لغشيناك وحضرنا مجلسك!»(٤).

وروى مسلم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ستة نفر، فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم: اطرد هؤلاء عنك لا يجترئون علينا! قال: وكنت أنا، وابن مسعود، ورجل من هذيل، وبلال، ورجلان لست أسميهما، فوقع في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾

وهذه وصية له صلى الله عليه وسلم في باب الفقراء والمستضعفين؛ وذلك لما قصروا لسان المعارضة عن استدفاع ما كانوا بصدده من أمر إخلاء الرسول صلوات الله عليه وسلامه مجلسه منهم، وسكنوا متضرعين بقلوبهم بين يدي الله، أراد أن يبيّن له أثر حسن الابتهال، فتولّى سبحانه خصيمتهم، وقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٤٥٣.
(٢) انظر: تفسير مجاهد ١/ ٣٢٢.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٥٨
(٤) جامع البيان، الطبري ١١/ ٣٧٤.



﴿رَبَّهُم بِالْغَدَوْةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ لا تنظر يا محمد إلى خرقتهم على ظاهرهم، وانظر إلى حرقتهم في سرائرهم، ويقال: كانوا مستورين بحالتهم، فشهرهم بأن أظهر قصتهم، ولولا أنه سبحانه قال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ فشهد لهم بالإرادة وإلا فمن يتجاسر أن يقول: إن شخصًا مخلوقًا يريد الحق سبحانه؟![1].

وجاء هذا النهي إلى النبي الكريم ليقرع أسماع المشركين، وليريهم أن محمدًا لن يتخلى أبدًا عن هؤلاء الفقراء الذين تزدري أعينهم، وأنه إذا كان ألف صحبة هؤلاء الفقراء، وأنس بهم قبل أن يتلقى أمر ربه بشأنهم، فإنه الآن وقد جاءه من ربه هذا النهي الذي يلبس صورة الأمر بالحفاظ على تلك الجماعة الفقيرة المؤمنة، وملء يده منها، وإعطائها وجهه كله، إنه لن يتخلّى أبدًا عن تلك الجماعة، ولو وقعت السماء على الأرض، إنه لن يعصي أمر ربه، ولن يخرج عنه بحال أبدًا، هذا ما تعرفه قريش فيما عرفت من محمد، وأخذه بكل كلمة جاءته من ربه، أو يقول إنها جاءته من ربه، كما تزعم قريش، إذن فهذا النهي هو كبتٌ لقريش ولزعمائها خاصة، واستخفاف بهم، وأنهم أقلّ شأنًا، وأخفّ ميزانًا عند الله الذي يدعوهم محمد إليه، وأن حساب الناس في

(١) لطائف الإشارات، القشيري ١/ ٤٧٥.

هذا الدين الذي يدعو إليه ليس بجاههم وسلطانهم وأنسابهم وأحسابهم، وإنما هو مائدة ممدودة من الله لعباد الله، فمن أخذ مكانه منها لم يكن لأحد أن يزحزحه عنه[2].

ومن كمال تواضعه صلى الله عليه وسلم مع الضعفة والمساكين: أن الأمة من إماء أهل المدينة كانت تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتنطلق به إلى حيث شاءت[3].

وفي رواية الإمام أحمد: **«إن كانت الأمة من أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتنطلق به في حاجتها»**[4]. وفي رواية أخرى له: **«إن كانت الوليدة من ولائد أهل المدينة لتجيء فتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا ينزع يده من يدها حتى تذهب به حيث شاءت»**[5].

٧ الاعتدال في اللباس.

ومن مظاهر التواضع: عدم المباهاة باللباس، ولبس المتوسط منه، وقد ذكر الله

(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٤/ ١٩٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الكبر، ٨/ ٢٠، رقم ٦٠٧٢.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ١٩/ ٩، رقم ١١٩٤١.

قال المحقق: «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

(٥) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٠/ ١٧٨، رقم ١٢٧٨٠.

قال المحقق: «إسناده ضعيف، لضعف علي بن زيد، وهو ابن جدعان، وقد صح الحديث بغير هذا اللفظ».

تعالى في القرآن الحكمة من اللباس، فهو من أجل أن يقي من الحر والبرد، ويستر العورة، لا للفخر والمباهاة ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١].

قال قتادة: من القطن والكتان والصوف، وقد قال في أول السورة: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ [النحل: ٥] من البرد[1].

وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[الأعراف: ٢٦].

فقد امتن الله على الخلق بأن جعل لهم لباسًا وريشًا، والرياش: جمع ريش: وهو اللباس، قال الفراء: ريش ورياش كما يقال: لبس ولباس، وريش الطائر ما ستره الله به، وقيل المراد بالريش هنا: الخصب ورفاهية العيش، قال القرطبي: والذي عليه أكثر أهل اللغة أن الريش ما ستر من لباس أو معيشة، وحكى أبو حاتم عن أبي عبيدة: وهبت له دابة وريشها، أي: وما عليها من اللباس، وقيل المراد بالريش هنا: لباس الزينة؛ لذكره بعد قوله: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ وعطفه عليه[2].

ولما كان هذا هو المقصود من اللباس، وهو الوقاية والستر، عقب بعده بقوله: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ أي: ولباس التقوى ذلك الذي قد علمتموه، خير لكم يا بني آدم، من لباس الثياب التي تواري سوءاتكم، ومن الرياش التي أنزلناها إليكم، هكذا فالبسوه[3].

والحاصل: أن من علامات التواضع التوسط في اللباس، وعدم المبالغة فيه، وقد قال صلى الله عليه وسلم: (البذاذة من الإيمان)[4].

والبذاذة: رثاثة الهيئة، يقال: بذّ الهيئة، وباذّ الهيئة، أي: رثّ اللبسة، والمراد: التواضع في اللباس، وترك التبجّح به[5].

وقوله: (من الإيمان) أي: من كمال أهله، والمراد من الحديث: أن التواضع في اللباس، والتوقي عن الفائق في الزينة من أخلاق أهل الإيمان، والإيمان هو الباعث عليه[6].

ولا يمنع هذا من التجمل، فخير الهدي -في قضية اللباس- هو هدي النبي صلى الله عليه وسلم، ولا شك أن هديه في اللباس أجمل الهدي وأحسنه، فقد كان صلى الله عليه وسلم متواضعًا في لباسه،

(١) انظر: تفسير يحيى بن سلام ١/ ٨٠.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٢٢٤.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٣٧٠.
(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب من لا يؤبه له، ٢/ ١٣٧٩، رقم ٤١١٨. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ٦٠١، رقم ٣٤١.
(٥) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير ١/ ١١٠.
(٦) مرقاة المفاتيح، الملا علي القاري ٧/ ٢٧٨٢.

ومع ذلك كان يتجمل للوفود، وفي يوم الجمعة، ويحث أمته على إظهار نعمة الله عليهم، فقد قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم: إن الرجل يحبّ أن يكون ثوبه حسنًا، ونعله حسنة؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله جميل، يحبّ الجمال)[1].

فكان صلى الله عليه وسلم يلبس ما وجد، فتارة يلبس لباس الأغنياء من حلل اليمن، وثياب الشام ونحوها، وتارة يلبس لباس المساكين، فيلبس جبّة من صوف أحيانًا، وأحيانًا يتّزر بعباءة ويهيئ إبل الصدقة، يعني: أنه يطلبها بيده ويصلحها، كما يفعل أرباب الإبل بها[2].

والمقصود: أن ترك اللباس الفاخر والثياب الغالية -وإن كانت حلالًا- تواضعًا لله ليس بخلًا على النفس ولا شهرة؛ علامة على التواضع، فالتوجيه الشرعي في أمر اللباس أنه يستحب للناس أن يتوسطوا ويعتدلوا فيه، من غير إسراف ولا مخيلة، ومن غير رداءة ولا رثاثة، فالاعتدال مندوب في جميع الأمور، ومنها اللباس الذي يقي الإنسان من الحر أو البرد، ويتزين به للناس.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، ١/ ٩٣، رقم ١٤٧.

(٢) اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى، ابن رجب ص ١١١.

نماذج قرآنية في التواضع

التواضع للحق وللخلق من صفات الأنبياء والمرسلين، الذين عرفوا الحق فاتبعوه، والباطل فاجتنبوه، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة، وهو كذلك من صفات أتباعهم الصالحين، كما سيأتي بيانه في الآتي:

أولًا: تواضع الأنبياء والرسل:

١. تواضع النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

أشار القرآن في غير موضع إلى تواضعه صلى الله عليه وسلم فقال له: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[آل عمران: ١٥٩].

والمعنى: من رحمة الله عليك أن عاملت أصحابك باللين والرفق، وهذا شيء خصّك الله به، فقد حباك بآداب القرآن العالية، وحكمه السامية، فهانت عليك المصائب، هذا مع أنّ كثيرًا من أصحابك قد استحقوا اللوم والتعنيف؛ إذ تركوك وقت اشتداد الهول فيما الحرب قائمة على أشدها.

وتنوين ﴿رَحْمَةٍ﴾ للتعظيم. أي: فبرحمةٍ عظيمة لهم كائنةٍ من الله تعالى، وهي ربطه على جأشه، وتخصيصه بمكارم الأخلاق، كنت ليّن الجانب لهم، وعاملتهم بالرفق،

والتلطّف بهم...»، ولو ﴿كُنتَ فَظًّا﴾ جافيًا في المعاشرة قولًا وفعلًا، والفظّ: هو الكريه الخلق، أو هو الغليظ الجانب، السيئ الخلق ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ قاسيه ﴿لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ لتفرّقوا من عندك، ولم يسكنوا إليك، وتردّوا في مهاوي الردى[1].

والفظاظة والشراسة والخشونة في المعاشرة، والقسوة والغلظة والتكبر من الأخلاق المنفّرة للناس، لا يصبرون على معاشرة صاحبهما وإن كثرت فضائله، ورجيت فواضله، بل يتفرّقون ويذهبون من حوله، ويتركونه وشأنه، لا يبالون ما يفوتهم من منافع الإقبال عليه، والتحلق حواليه ﴿لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ وإذًا لفاتهم هدايتك، ولم يبلغ قلوبهم دعوتك.

وتقديم المجرور ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ﴾ مفيد للحصر الإضافي، أي: برحمة من الله لا بغير ذلك من أحوالهم، وهذا القصر مفيد التعريض بأن أحوالهم كانت مستوجبة الغلظ عليهم، ولكن الله ألان خلق رسوله؛ رحمة بهم، لحكمة علمها الله في سياسة هذه الأمة[2].

ودل الفعل الماضي في قوله: ﴿لِنتَ﴾ على أن ذلك وصف تقرر وعرف من خلقه، وأن فطرته على ذلك برحمة من الله؛ إذ خلقه كذلك، والله أعلم حيث يجعل رسالته، فخلق الرسول مناسب لتحقيق حصول مراد الله تعالى من إرساله؛ لأن الرسول يجيء بشريعة يبلغها عن الله تعالى، فالتبليغ متعين لا مصانعة فيه، ولا يتأثر بخلق الرسول، وهو أيضًا مأمور بسياسة أمته بتلك الشريعة، وتنفيذها فيهم، وهذا عمل له ارتباط قوي بمناسبة خلق الرسول لطباع أمته؛ حتى يلائم خلقه الوسائل المتوسل بها لحمل أمته على الشريعة الناجحة في البلوغ بهم إلى مراد الله تعالى منهم[3].

وهذه الآية: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ دلالة على اختصاص نبينا بمكارم الأخلاق، ومن عجيب أمره صلى الله عليه وسلم أنه كان أجمع الناس لدواعي العظمة، ثم كان -مع ذلك- أدناهم إلى التواضع، فكان أشرف الناس نسبًا، وأوفرهم حسبًا، وأزكاهم عملًا، وأسخاهم كرمًا، وأفصحهم بيانًا، وكلها من دواعي العظمة، ثم كان من تواضعه عليه السلام أنه كان يرقع الثوب، ويخصف النعل، ويركب الحمار، ويجلس على الأرض، ويجيب دعوة العبد المملوك، فصلوات الله وسلامه على السراج المنير بحر المكارم والفضائل[4].

ويبيّن السعدي رحمه الله ما للأخلاق

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ١٠٥.
(٢) التحرير والتنوير ٤/ ١٤٤.
(٣) انظر: التحرير والتنوير ٤/ ١٤٥.
(٤) صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ٢٢١.

الحسنة في الرئيس من أثر على عامة الناس، فيقول: «والأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين تجذب الناس إلى دين الله، وترغّبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفّر الناس عن الدين، وتبغّضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص، فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول، فكيف بغيره؟! أليس من أوجب الواجبات، وأهم المهمات، الاقتداء بأخلاقه الكريمة، ومعاملة الناس بما يعاملهم به صلى الله عليه وسلم من اللين وحسن الخلق والتأليف؛ امتثالًا لأمر الله، وجذبًا لعباد الله لدين الله»[1].

والمقصود: أن هذه الآية وما أشبهها من الآيات الدالات على اتصافه صلى الله عليه وسلم بمكارم الأخلاق، ومن جملة هذه الأخلاق التواضع، ولين الجانب لأصحابه، فهو سيد المتواضعين صلى الله عليه وسلم، فليس هناك خلق تجلّى في سيرة سيد المتواضعين، وسيد الخلق أجمعين -صلوات الله وسلامه عليه- كما تجلّى خلق التواضع، وإنك لتجد هذا الخلق سجيّة في شخصه الكريم، في سائر أحواله، في بيته، وبين أصحابه، في سفره وإقامته، في لباسه ومركبه، ومأكله ومشربه، ويقظته ومنامه، وفي سائر حياته، يسلّم على الغلمان ويداعبهم، ويذهب مع الفقير والجارية وسائر أصحاب الحاجات ليقضي لهم حاجاتهم، وكان يخيط ثوبه، ويخصف نعله، وكان لا يشرب حتى يفرغ أصحابه فيشرب فضلتهم، وكان ينام على الحصير فيؤثر في جنبه.

فتواضعه ظاهر في كل أخلاقه، ركب الحمار، وأردف عليه، والعرب في كبرياء نفوسهم لا يرون ذلك لذوي الزعامة والشأن منهم، أجاب دعوة الداعي الذي دعاه إلى إهالة سنخة وخبز من شعير فأجاب، يغشى الأنصار في بيوتهم فيسلم على صبيانهم، ويمسح رؤوسهم، -صلوات الله وسلامه عليه-، توقظه الأمة حتى يقضي حاجتها، كلّمه رجل يوم فتح مكة فلما كلّمه أصاب ذلك الرجل رعدة احترامًا وتقديرًا لرسول الله، فقال: **(هوّن عليك! إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد)**[2].

سئلت عائشة رضي الله عنها: ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يصنع في بيته؟ قالت: **(كان يكون في مهنة أهله -تعني خدمة أهله- فإذا حضرت الصلاة خرج إلى**

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ١٥٤.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الأطعمة، باب القديد، ٢/ ١١٠١، رقم ٣٣١٢.
وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢/ ١١٨٥، رقم ٧٠٥٢.

الصلاة)[1]

وقالت: (كان يخصف نعله، ويرقّع ثوبه)[2].

والمقصود: أن التواضع خلقه وصفته في حضره وسفره، والتواضع خلقه مع أصحابه ومع أعدائه، والتواضع خلقه مع الأغنياء والفقراء، مع الصغار والكبار، رقيق القلب، رءوفًا بأمته، حريصًا عليهم، ساعٍ في تأليفهم، فأحبّوه المحبة الصادقة فوق محبة المال والأهل والولد، يقول له أحد أصحابه: يا رسول الله! إني أحبك، فكلما ذكرتك لم تقر عيني حتى أنظر إليك، ولكنني أفكر بعد موتي وعلو منزلتك ماذا سأفعل؟ فأنزل الله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩][3].

٢. تواضع إبراهيم عليه السلام.

من تواضعه عليه السلام: أنه خدم أضيافه بنفسه، قال تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٦-٢٧].

قوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ الروغان: هو الذهاب في اختفاء بحيث يكاد لا يشعر به، وهذا من كرم رب المنزل المضيّف، أن يذهب في اختفاء بحيث لا يشعر به الضيف، فيشق عليه ويستحي، فلا يشعر به إلا وقد جاءه بالطعام، بخلاف من يسمع ضيفه وهو يقول له أو لمن حضر: مكانكم حتى آتيكم بالطعام، ونحو ذلك مما يوجب حياء الضيف واحتشامه[4].

والمقصود أنه ذبحه، فشواه في الرضف، وأتاهم به، قال تعالى: ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ يدل على خدمته للضيف بنفسه، ولم يقل: فأمر لهم، بل هو الذي ذهب وجاء به بنفسه، ولم يبعثه مع خادمه، وهذا أبلغ في إكرام الضيف[5].

وقوله: ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ أخذ العلماء فقهًا آخر من فقه الضيافة، ألا وهو أن صاحب البيت نفسه يستحب له أن يباشر خدمة الأضياف بنفسه، ولا يجعل الخدم فقط هم الذين يتولون تقديم الطعام، فإن مباشرة صاحب البيت تقديم الطعام بنفسه للأضياف تفهمهم مدى حفاوته واهتمامه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب من كان في حاجة أهله فأقيمت الصلاة فخرج، ١/ ١٣٦، رقم ٦٧٦.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٤١/ ٢٦٩، رقم ٢٤٧٤٩.
قال المحقق: «حديث صحيح».

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير، ١/ ٥٣، رقم ٥٢، وفي المعجم الأوسط، ١/ ١٥٢، رقم ٤٧٧، والبيهقي في شعب الإيمان، ٢/ ٥٠٤، رقم ١٣١٧.

(٤) التفسير القيم، ابن القيم ص ٤٨٨.

(٥) المصدر السابق.

بهم، وإن كان المؤدى واحد، لكن حسن الاستقبال مع القيام على الخدمة كل ذلك يشعر الأضياف باهتمام صاحب البيت بهم، وهذا ينعكس بمودة ومحبة في قلب الضيف؛ لأن المضيف جمع له بين الحسنيين: حسن الضيافة، وحسن البشاشة والاستقبال.

ومن أوجه تسميتهم مكرمين، قيل: لأن إبراهيم عليه السلام أكرمهم بتعجيل قراهم، والقيام بنفسه عليهم، وطلاقة الوجه، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: خدمته بنفسه إياهم[1].

والمقصود أن من تواضعه عليه السلام أنه ذهب إلى أهله، وأحضر العجل، وذبحه بنفسه، وقرّبه إليهم، مع الإمكان أن يقوم غيره بهذه المهمة.

٣. تواضع موسى عليه السلام.

وهذا موسى كليم الرحمن، أحد أولي العزم من الرسل، يذكر الله عنه قصته مع الخضر العبد الصالح، التي تعلّمنا كيف يتعلم الأكبر والأعلم من الأصغر، والأقل منه رتبة، فإن موسى عليه السلام كليم الله، مع كثرة علمه وعمله أمره الله أن يصحب العبد الصالح وهو الخضر، في رحلة استطلاعية، وجولة ميدانية، تدل على أن التواضع خير من العجب والكبر، قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ [الكهف: ٦٦].

فموسى وهو نبيٌّ عظيم، ورسول كريم عزم على الذهاب إلى الخضر، والتفتيش عنه، ولو أنّه يمضي حقبًا من الزمان، قيل: ثمانين سنة، ثمّ لما اجتمع به، تواضع له، وعظّمه، واتبعه في صورة مستفيد منه.

قال الزجاج: وفيما فعل موسى عليه السلام، وهو من جلة الأنبياء من طلب العلم، والرحلة في ذلك، ما يدل على أنه لا ينبغي لأحد أن يترك طلب العلم، وإن كان قد بلغ نهايته، وأن يتواضع لمن هو أعلم منه[2].

قال الرازي: «اعلم أن هذه الآيات تدل على أن موسى عليه السلام راعى أنواعًا كثيرة من الأدب واللطف عندما أراد أن يتعلم من الخضر.

فأحدها: أنه جعل نفسه تبعًا له؛ لأنه قال: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ﴾

وثانيها: أن استأذن في إثبات هذا التبعية، فإنه قال: هل تأذن لي أن أجعل نفسي تبعًا لك، وهذا مبالغة عظيمة في التواضع.

وثالثها: أنه قال: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ وهذا إقرار له على نفسه بالجهل، وعلى أستاذه بالعلم.

ورابعها: أنه قال: ﴿مِمَّا عُلِّمۡتَ﴾ وصيغة (من) للتبعيض، فطلب منه تعليم بعض ما

(١) معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٢٨٥.

(٢) الوسيط، الواحدي ٣/ ١٥٨.

علمه الله، وهذا أيضًا مشعر بالتواضع؛ كأنه يقول له: لا أطلب منك أن تجعلني مساويًا في العلم لك، بل أطلب منك أن تعطيني جزّءا من أجزاء علمك، كما يطلب الفقير من الغني أن يدفع إليه جزءًا من أجزاء ماله.

وخامسها: أن قوله: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ اعتراف بأن الله علمه ذلك العلم.

وسادسها: أن قوله: ﴿رُشْدًا﴾ طلب منه للإرشاد والهداية، والإرشاد هو الأمر الذي لو لم يحصل لحصلت الغواية والضلال.

وسابعها: أن قوله: ﴿تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ معناه: أنه طلب منه أن يعامله بمثل ما عامله الله به، وفيه إشعار بأنه يكون إنعامك علي عند هذا التعليم شبيهًا بإنعام الله تعالى عليك في هذا التعليم.

وثامنها: أن المتابعة عبارة عن الإتيان بمثل فعل الغير لأجل كونه فعلًا لذلك الغير، فإنا إذا قلنا: لا إله إلا الله، فاليهود الذين كانوا قبلنا كانوا يذكرون هذه الكلمة، فلا يجب كوننا متبعين لهم في ذكر هذه الكلمة، لأنا لا نقول هذه الكلمة لأجل أنهم قالوها، بل إنما نقولها لقيام الدليل على أنه يجب ذكرها، أما إذا أتينا بهذه الصلوات الخمس على موافقة فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنما أتينا بها لأجل أنه عليه السلام أتى بها؛ لا جرم كنا متابعين في فعل هذه الصلوات لرسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا ثبت هذا فنقول قوله: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ يدل على أنه يأتي بمثل أفعال ذلك الأستاذ لمجرد كون ذلك الأستاذ آتيًا بها، وهذا يدل على أن المتعلم يجب عليه في أول الأمر التسليم، وترك المنازعة والاعتراض.

وتاسعها: أن قوله: ﴿أَتَّبِعُكَ﴾ يدل على طلب متابعته مطلقًا في جميع الأمور، غير مقيد بشيء دون شيء.

وعاشرها: أنه ثبت بالأخبار أن الخضر عرف أولًا أنه نبي بني إسرائيل، وأنه هو موسى صاحب التوراة، وهو الرجل الذي كلّمه الله عز وجل من غير واسطة، وخصّه بالمعجزات القاهرة الباهرة، ثم إنه عليه السلام مع هذه المناصب الرفيعة، والدرجات العالية الشريفة أتى بهذه الأنواع الكثيرة من التواضع؛ وذلك يدل على كونه عليه السلام آتيًا في طلب العلم بأعظم أنواع المبالغة، وهذا هو اللائق به؛ لأن كل من كانت إحاطته بالعلوم أكثر كان علمه بما فيها من البهجة والسعادة أكثر، فكان طلبه لها أشد، وكان تعظيمه لأرباب العلم أكمل وأشد.

والحادي عشر: أنه قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ فأثبت كونه تبعًا له أولًا، ثم طلب ثانيًا أن يعلّمه، وهذا منه ابتداء بالخدمة، ثم في المرتبة الثانية طلب منه التعليم.

والثاني عشر: أنه قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن

﴿تُعَلِّمَنِ﴾ فلم يطلب على تلك المتابعة على التعليم شيئًا، كأنه قال: لا أطلب منك على هذه المتابعة المال والجاه، ولا غرض لي إلا طلب العلم»[1].

والمقصود: أنه راعى في ذلك غاية التواضع والأدب، فاستجهل نفسه، واستأذن أن يكون تابعًا له، وسأل منه أن يرشده وينعم عليه بتعليم بعض ما أنعم الله عليه، وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم.

وأيضًا مما يدل على تواضعه عليه السلام أنه سقى للفتاتين اللتين أرادتا السقيا فعجزتا، قال جل وعلا: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ [القصص: ٢٣-٢٤].

فسقى لهما، وأعانهما على سقيهما، فارتاحتا من انتظار من هو أقوى منهن.

ثم هو عليه السلام لما خطب من صاحب مدين ابنته جعل مهر ابنته أن يرعى غنم مدين ثماني أو عشر سنين، كل ذلك من التواضع الذي يتخلق به عليه السلام.

٤. تواضع عيسى عليه السلام.

وهذا نبي الله عيسى عليه السلام يقول الله عنه: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠].

فتواضع لله بأنه عبد لله، والعبد خاضع لمالكه وسيده.

وفي آية أخرى قال الله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ [النساء: ١٧٢].

وعدل عن طريق الإضافة في قوله: ﴿عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ فأظهر الحرف الذي تقدّر الإضافة عليه؛ لأن التنكير هنا أظهر في العبودية، أي: عبدًا من جملة العبيد، ولو قال: «عبد الله» لأوهمت الإضافة أنه العبد الخصيص، أو أن ذلك علم له، وأما ما حكى الله عنه في الآية السابقة: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠]، فلأنه لم يكن في مقام خطاب من ادعوا له الإلهية[2].

وقال الله تعالى عنه أنه قال: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢].

أي: ولم يجعلني متعظّمًا عاصيًا مستكبرًا عن عبادة ربي، وطاعته وبر والدتي، فأشقى بذلك.

والجبار: المتعظّم، وهي صفة مقرونة بالشقاء؛ لأنّها مناقضة لجميع الناس، فلا يلقى صاحبها من كل أحد إلا مكروهًا، وكان عيسى عليه السلام في غاية التّواضع، يأكل الشجر، ويلبس الشّعر، ويجلس على الأرض، ويأوي حيث جنّه الليل، لا مسكن له، قال قتادة: وكان يقول: سلوني فإني ليّن

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤٨٣-٤٨٤.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٥٩.

القلب، صغيرٌ في نفسي[1].

وقوله: ﴿شَقِيًّا﴾ أي: في دنياي أو أخراي، فلم يجعلني كذلك، بل جعلني مطيعًا له خاضعًا خاشعًا متذللًا متواضعًا لعباد الله، سعيدًا في الدنيا والآخرة، أنا ومن اتبعني.

فلما تم له الكمال ومحامد الخصال قال: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٣].

أي: من فضل ربي وكرمه حصلت لي السلامة يوم ولادتي، ويوم موتي، ويوم بعثي، من الشر والشيطان والعقوبة؛ وذلك يقتضي سلامته من الأهوال ودار الفجار، وأنه من أهل دار السلام، فهذه معجزة عظيمة، وبرهان باهر على أنه رسول الله، وعبد الله حقًا[2].

٥. تواضع داود عليه السلام.

ومن الأنبياء الذي عملوا بأعمال البشر داود عليه السلام، فقد كان حدّادًا يصنع الدروع، وفي نفس الوقت كان ملكًا، وكان يأكل مما تصنعه يداه، وهذا من كرم أخلاقه، وعظيم تواضعه.

قال الله تعالى عنه: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

يقول تعالى ذكره: وعلّمنا داود صنعة لبوس لكم، واللبوس عند العرب: السلاح كله، درعًا كان أو جوشنًا أو سيفًا أو رمحًا، يدلّ على ذلك قول الهذليّ[3]:

ومعي لبوسٌ للّبيس كأنّه
روقٌ بجبهة ذي نعاجٍ مجفل

وإنما يصف بذلك رمحًا.

وأما في هذا الموضع فإن أهل التأويل قالوا: عني الدروع[4].

قال قتادة: أول من صنع الدروع داود عليه السلام، وإنما كانت صفائح، فهو أول من سردها وحلقها[5].

وبيّن الله تعالى العلة من هذا التعليم، فقال: ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾ أي: لتحرزكم وتمنعكم ﴿مِّن بَأْسِكُمْ﴾ أي: من حرب عدوكم[6].

وهذا دليل على جواز اتخاذ الصنائع والأسباب، فالسبب سنة الله في خلقه، وهي شهادة للعمال وأهل الحرف والصنائع بأن العمل شرف، واتخاذ الحرفة كرامة، وهذه الآية: فيها إشارة لحث أهل الإيمان على العمل والإبداع، والأخذ بأسباب النصر

(١) الجواهر الحسان، الثعالبي ٤/ ١٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٩٢.
(٣) البيت منسوب لأبي كبير الهذلي.
انظر: الجليس الصالح الكافي، أبو الفرج الجريري ص ٣١٣.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٤٨٠.
(٥) الكشف والبيان، الثعلبي ٦/ ٢٨٦.
(٦) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٣٠١.

على الأعداء، ومحاربة الفساد بإعداد الجيوش مقودة بقيم الإيمان، وتعاليم الرحمن، وشريعة الديان[1].

ونتعلم من هؤلاء الأنبياء عدم الاعتماد على أحد إلا على الله سبحانه وتعالى، في مطعمنا ومشربنا وملبسنا، فهو الذي يرزقنا، وقد كانوا عليهم السلام أصحاب حرف وصناعات...، يأكلون ويشربون من هذه الحرف، ومما عملت أيديهم...، وما من أحد إلا ويعلّمه الله عز وجل شيئًا يصلح له، ويكون فيه معاشه ورزقه، فمن الناس من لا يستفيد مما علّمه الله سبحانه، فيترك العمل ويسأل الناس، ويستسهل أن يأخذ رزقه من الحرام، وما من مخلوق إلا وقد قسم له الله عز وجل رزقه، ولابد أن يأتيه هذا الرزق، فعلى الإنسان المؤمن أن يبحث عن وظيفته بالطرق الحلال، ولا يقول: قد ضيّق الله عز وجل عليّ، ثم يتوجّه إلى الحرام؛ فإن رزقك مقسوم، وكسبك معلوم، ولن يزداد شيئًا على ما قسمه الله عز وجل، فابحث عن الحلال تجد الحلال، ويرزقك الله سبحانه وتعالى، واتس بهؤلاء الأنبياء الذين كانوا لا تلهيهم صنعتهم ولا كسبهم الرزق عن الدعوة إلى الله عز وجل، ولا تشغلهم عن المرتبة العظيمة التي هم فيها، وهي مرتبة النبوة.

(١) الإيمان بالقدر، الصلابي ص ٢٠٧.

ثانيًا: تواضع الصالحين:

لقد حكى القرآن بعض النماذج من تواضع الصالحين، منها:

١ . لقمان.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: ١٢].

فأخبر تعالى عن امتنانه على عبده الفاضل لقمان بالحكمة، وهي العلم بالحق على وجهه وحكمته، وهي أيضًا العلم بالأحكام ومعرفة ما فيها من الأسرار والإحكام، فقد يكون الإنسان عالمًا ولا يكون حكيمًا، وأما الحكمة فهي مستلزمة للعلم والعمل؛ ولهذا فسّرت الحكمة بالعلم النافع والعمل الصالح...، وهذه الوصايا التي وصى بها لقمان لابنه تجمع أمهات الحكم، وتستلزم ما لم يذكر منها، وكل وصية يقرن بها ما يدعو إلى فعلها إن كانت أمرًا، وإلى تركها إن كانت نهيًا، وهذا يدل على ما ذكرنا في تفسير الحكمة أنها العلم بالأحكام وحكمها ومناسباتها[2].

فمن حكمته وتواضعه: أنه أوصى ابنه بعدة وصايا.

منها: أنه قال له: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٤٨.

﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٨-١٩].

أي: ولا تمش في الأرض مختالًا متبخترًا؛ لأن تلك مشية الجبارين المتكبرين الذين يبغون في الأرض، ويظلمون الناس، بل امش هونًا؛ فإن ذلك يفضي إلى التواضع.

وهذه كلمة جامعة من الحكمة والتقوى؛ إذ جمع لابنه الإرشاد إلى فعله الخير، وبثّه في الناس، وكفّه عن الشر، وزجره الناس عن ارتكابه.

وهي وصايا نافعة قد حكاها الله تعالى عن لقمان الحكيم ليمتثلها الناس، ويقتدوا بها، بعد أن امتثلها هو فكان حكيمًا متواضعًا لله ولخلقه.

فبعد أن أمر ابنه بأصل الدين وهو التوحيد، ونهاه عن الشرك...، نهاه عن التكبر، وأمره بالتواضع، ونهاه عن البطر والأشر والمرح، وأمره بالسكون في الحركات والأصوات، ونهاه عن ضد ذلك.

وفي قوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًا﴾ [لقمان: ١٨].

قالوا في معناها: لا تمل خدك للناس كبرًا عليهم، وإعجابًا بنفسك، واحتقارًا للخلق...، وقيل في معناها أيضًا: ﴿تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي: أن تولي شدقك إذا ذكر الرجل عندك كأنك تحتقره، فكل إنسان له قدر عند نفسه، وله قدر عند خالقه سبحانه وتعالى، والله أعلم بهذا الإنسان، فلا تحتقر أحدًا من الخلق، ولكن ادع إلى الله سبحانه وتعالى، وظنّ الخير في غيرك؛ لعل هذا الذي تنظر إليه بازدراء واحتقار يكون أفضل منك في يوم من الأيام.

فعامل الناس بالصورة التي تحب أن يعاملوك بها، وانظر للذي تأمره وتنهاه وضع نفسك مكانه، إذا كنت أنت مكانه في هذه المعصية وهو يأمرك، فإنك تحب أن يأمرك باللين، فكن ليّنًا أنت معه، وأمره بالطريقة التي تحب أن يأمرك هو بها في يوم من الأيام، وعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به.

يقول الإمام القرطبي رحمه الله: «فالمعنى: أقبل عليهم -أي: الناس- متواضعًا مؤنسًا مستأنسًا، وإذا حدّثك أصغرهم فاصغ إليه حتى يكمل حديثه، وكذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل»[(١)].

قال سيد قطب: «ويستطرد لقمان في وصيته التي يحكيها القرآن هنا إلى أدب الداعية إلى الله، فالدعوة إلى الخير لا تجيز التعالي على الناس، والتطاول عليهم باسم قيادتهم إلى الخير، ومن باب أولى يكون التعالي والتطاول بغير دعوة إلى الخير أقبح وأرذل.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٧٠.

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ والصعر: داء يصيب الإبل فيلوي أعناقها، والأسلوب القرآني يختار هذا التعبير للتنفير من الحركة المشابهة للصّعر، حركة الكبر والازورار، وإمالة الخد للناس في تعالٍ واستكبار! والمشي في الأرض مرحًا هو المشي في تخايل ونفخة، وقلة مبالاة بالناس، وهي حركة كريهة يمقتها الله، ويمقتها الخلق، وهي تعبير عن شعور مريض بالذات، يتنفس في مشية الخيلاء!

ومع النهي عن مشية المرح بيان للمشية المعتدلة القاصدة ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ والقصد هنا من الاقتصاد، وعدم الإسراف، وعدم إضاعة الطاقة في التبختر والتثني والاختيال ومن القصد كذلك؛ لأن المشية القاصدة إلى هدف لا تتلكأ ولا تتخايل ولا تتبختر، إنما تمضي لقصدها في بساطة وانطلاق.

والغض من الصوت فيه أدب وثقة بالنفس واطمئنان إلى صدق الحديث وقوته، وما يزعق أو يغلظ في الخطاب إلا سيء الأدب، أو شاكٌّ في قيمة قوله، أو قيمة شخصه، يحاول إخفاء هذا الشك بالحدة والغلظة والزعاق!

والأسلوب القرآني يرذل هذا الفعل ويقبّحه في صورة منفّرة محتقرة بشعة حين يعقب عليه بقوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ لَٱلْحَمِيرِ﴾ فيرتسم مشهد مضحك يدعو إلى الهزء والسخرية مع النفور والبشاعة، ولا يكاد ذو حس يتصور هذا المشهد المضحك من وراء التعبير المبدع، ثم يحاول شيئًا من صوت هذا الحمير!»[1].

٢. ذو القرنين.

ذو القرنين هذا الملك الصالح الذي ملك الأرض، وهو أحد أربعة[2] حكموا الناس شرقًا وغربًا، حكى الله قصته في سورة الكهف في عدة آيات، وفي قصته دروس عظيمة، وفوائد جمة، تدل على عقله الراجح، وحنكته السياسية، ومقدرته على الحكم، وعلى الرغم من ذلك فإنه كان في قمة التواضع لربه وخالقه جل وعلا، ولعباده.

حكى الله عنه أنه قال: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٧-٨٨].

وقال: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف:

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٩٠.

(٢) مسلمان، وهما: ذو القرنين وسليمان عليهما السلام، وكافران، وهما: النمرود وبختنصر، كذا قيل، والله أعلم.

انظر: فنون العجائب، أبو سعيد النقاش ص ١٠٩.

٩٥-٩٦].

وقال تعالى عنه أنه قال: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨].

قال سيد: «﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ وبذلك تنتهي هذه الحلقة من سيرة ذي القرنين النموذج الطيب للحاكم الصالح، يمكّنه الله في الأرض، وييسّر له الأسباب، فيجتاح الأرض شرقًا وغربًا، ولكنه لا يتجبّر ولا يتكبّر، ولا يطغى ولا يتبطر، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للغنم المادي، واستغلال الأفراد والجماعات والأوطان، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق، ولا يسخّر أهلها في أغراضه وأطماعه، إنما ينشر العدل في كل مكان يحلّ به، ويساعد المتخلفين، ويدرأ عنهم العدوان دون مقابل، ويستخدم القوة التي يسّرها الله له في التعمير والإصلاح، ودفع العدوان، وإحقاق الحق، ثم يرجع كل خير يحققه الله على يديه إلى رحمة الله، وفضل الله، ولا ينسى وهو في إبان سطوته قدرة الله وجبروته، وأنه راجع إلى الله»[1].

والمقصود: أن التواضع خلق الصالحين في أحوالهم كلها، ولقد كان سلف هذه الأمة لا تغيّرهم المناصب ولا الدنيا، ولا يحتقرون أحدًا صغر عنهم أو كبر، بل كانوا شديدي التواضع والانكسار لله، والأمثلة على ذلك كثيرة جدًا.

فهذا ابن عباس رضي الله عنهما مع جلالته يأخذ بركاب زيد بن ثابت الأنصاري ويقول: «هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا وكبرائنا»[2]. وقال مجاهد: «ربما أخذ لي ابن عمر بالركاب»[3].

وقد كان بكر بن عبد الله المزني رحمه الله آية في التواضع في ملبسه وكلامه وتصرفاته ومعاملته للخلق، يعامل جميع الناس على حد سواء، في الرفق والاحتفاء والبشر والاهتمام بأحاديثهم، فلا يفرّق بين غني وفقير، وبين عالم وجاهل، وشريف ووضيع، لا يعنف أحدًا، ولا يترفع على أحد مع عظم منزلته، حتى إنه يقول: «إذا رأيت من هو أكبر منك فقل: سبقني بالإيمان والعمل الصالح؛ فهو خير مني، وإذا رأيت من هو أصغر منك فقل: سبقته إلى الذنوب والمعاصي؛ فهو خير مني، وإذا رأيت إخوانك يكرمونك ويعظّمونك فقل: هذا فضل أخذوا به، وإذا رأيت منهم تقصيرًا فقل: هذا ذنب أحدثته»[4].

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٩٣.

(٢) انظر: تاريخ الإسلام، الذهبي ٤/ ٥٧، البداية والنهاية، ابن كثير ١٢/ ٩٤.

(٣) انظر: تاريخ الإسلام، الذهبي ٧/ ٢٣٧، تاريخ دمشق، ابن عساكر ٥٧/ ٣٤.

(٤) صفة الصفوة، ابن الجوزي ٢/ ١٤٦.

فوائد التواضع

لا شك أن خلق التواضع من أعظم الأخلاق الكريمة، والشمائل الحميدة، التي يتحلى بها المؤمن الكريم، فيضفي على إخوانه المسلمين المحبة والمودة والألفة، ويرضي ربه، ويقتدي برسوله صلى الله عليه وسلم سيد المتواضعين، وللتواضع فوائد عديدة، نذكر بعضًا منها:

أولًا: دخول الجنة.

من أعظم ما يناله المتواضعون هو دخول جنات النعيم.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

والمعنى: تلك الدار الآخرة نجعل نعيمها للذين لا يريدون تكبرًا عن الحقّ في الأرض، وتجبرًا عنه ولا فسادًا، يقول: ولا ظلم الناس بغير حقّ، وعملًا بمعاصي الله فيها[١].

و ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ إشارة تعظيم، كأنه قال: تلك التي سمعت خبرها، وبلغك وصفها، تعظيم لها، وتفخيم لشأنها[٢].

ويراد بالدار الآخرة هنا: الجنة؛ وذلك معهود في إطلاقها على الجنة، ومعلوم أن ما يجعل لهؤلاء هو الجنة...، والأحسن أن يكون ذلك على حذف مضاف دل عليه المعنى، أي: نعيم الدار الآخرة وحظوتها وخيرها؛ لأن الدار الآخرة هي موضع الإقامة بعد انقضاء الدنيا، وسميت آخرة؛ لأنها متأخرة عن الدنيا، أو هي آخر ما يسكن[٣].

ومعنى جعلها لهم: أنها محضرة لأجلهم ليس لهم غيرها، وأما من عداهم فلهم أحوال ذات مراتب، أفصحت عنها آيات أخرى، وأخبار نبوية[٤].

وعن الفضيل: أنه قرأها -أي: هذه الآية-، ثم قال: ذهبت الأماني هاهنا.

وعن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه كان يرددها حتى قبض[٥].

وقوله: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ أي: ليس لهم إرادة، فكيف العمل للعلو في الأرض على عباد الله، والتكبر عليهم وعلى الحق ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ وهذا شامل لجميع المعاصي، فإذا كانوا لا إرادة لهم في العلو في الأرض والإفساد لزم من ذلك أن تكون إرادتهم مصروفة إلى الله، وقصدهم الدار الآخرة، وحالهم التواضع لعباد الله،

---

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٦٣٧.
(٢) مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٦٦٠، أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٨٦.
(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٤٩٧.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ١٨٩.
(٥) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ٢٨١

والانقياد للحق، والعمل الصالح[1].

ومعنى: ﴿لَا يُرِيدُونَ﴾ كناية عن: لا يفعلون؛ لأن من لا يريد الفعل لا يفعله إلا مكرهًا...، والعلو: التكبر عن الحق وعلى الخلق، والطغيان في الأعمال. والفساد: ضد الصلاح، وهو كل فعل مذموم في الشريعة أو لدى أهل العقول الراجحة، وقوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ العاقبة: وصف عومل معاملة الأسماء لكثرة الوصف به، وهي الحالة الآخرة بعد حالة سابقة، وغلب إطلاقها على عاقبة الخير[2].

فهؤلاء متواضعون: لا يريدون التكبر على خلق الله، ولا الاستعلاء على عباد الله، ولا يتيهون بأحسابهم ولا بأنسابهم ولا بأمومتهم أو أبوتهم، ولا بأموالهم، ولا بما ملّكهم الله في هذه الدنيا، وإلا لكان ذلك ابتلاءً وفتنة، كما كانت كنوز قارون لقارون، فقد فتن بها وعذّب في الدنيا؛ وعذاب يوم القيامة أشد.

والدار الآخرة إنما جعلها الله للذين لا يستعلون على عباد الله، ولا يتكبرون على الإيمان والمؤمنين...، والدار الآخرة وجنتها ورضاها ورحمتها مقصورة على الذين لا يتكبرون، ومن ينازع الله في كبريائه أذله وحقره[3].

وقال في آية أخرى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤].

يعني: بالجنة[4]. وعن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ قال: «هم المتواضعون»[5].

ثانيًا: محبة الله للمتواضع.

ومن فوائد التواضع العظيمة محبة الله للمتواضع، يقول الله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

فأخبر تعالى المؤمنين في هذه الآية الكريمة: أنهم إن ارتد بعضهم فإن الله يأتي عوضًا عن ذلك المرتد بقوم من صفاتهم الذل للمؤمنين، والتواضع لهم، ولين الجانب، والقسوة والشدة على الكافرين، وهذا من كمال صفات المؤمنين؛ وبهذا أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم فأمره بلين الجانب للمؤمنين، بقوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

وقوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥][6].

فالتواضع يورث محبة الله للمتواضع،

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٢٥.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ١٩٠.
(٣) انظر: تفسير المنتصر الكتاني ٦/ ١٥٦.
(٤) انظر: تفسير يحيى بن سلام ١/ ٣٧٥.
(٥) أخرجه عبدالرزاق في تفسيره، ٢/ ٤٠٦، والطبري في تفسيره ١٦/ ٥٥١.
(٦) أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٤١٥.

ومحبة الله للعبد هي أجل نعمة أنعم بها عليه، وأعظم فضيلة تفضل الله بها عليه، وإذا أحب الله عبدًا يسر له الأسباب، وهوّن عليه كل عسير، ووفّقه لفعل الخيرات، وترك المنكرات، وأقبل بقلوب عباده إليه بالمحبة والوداد.

ومحبة الله حال من أحوال الذات العلية لا نعرف كنهها، ولا ندرك حقيقتها، وهي تليق بذاته الكريمة، وتتفق مع صفات الجلال والكمال التي يتصف بها واجب الوجود، والذي خلق بقدرته كل موجود، وهي غير الإحسان، وإن كانت من فضل الله، وغير الرحمة وغير الرضا؛ لأن الله سبحانه وتعالى جعلها لبعض عباده، والإحسان والرحمة يعمّان كل موجود، والرضا وإن جعله جزاء أعلى للمحسنين، كما قال في جزاء المؤمنين بعد ذكر الجنات والنعيم المقيم: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

فالمحبة أكبر منه، وقد ذكرها الله سبحانه وتعالى، فكان هذا دليلًا على أنهما متغايران بالنسبة لذاته العلية، كما أن المدلول اللفظي لهما متغاير، وإن كانت المحبة تتضمن الرضا لا محالة، بل إنها لا تكون إلا حيث يكون أقصى الرضا، هذه إشارة إلى محبة الله لبعض عباده الذين اصطفاهم[1].

والمقصود: أن من الأسباب التي يترتب عليها محبة الله: الذّلة على المؤمنين بأن يكون المسلم للمؤمنين كالولد لوالده والعبد لسيده، وعلى الكافرين كالأسد على فريسته، والعزة على الكافرين، أي: لا يخضعون للكافرين، ولا يحالفونهم على المؤمنين، ولا يختارون أن يدخلوا في ولايتهم ويتركوا ولاية المؤمنين.

موضوعات ذات صلة:

الاستكبار، الخشوع، الذل، الغرور

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١١٨٧.



عناصر الموضوع

مفهوم التوبة

أولًا: المعنى اللغوي:

توب: التّاء والواو والباء كلمةٌ واحدةٌ تدلّ على الرّجوع. يقال: تاب من ذنبه، أي رجع عنه، يتوب إلى اللّه توبةً ومتابًا، فهو تائبٌ. والتّوب: التّوبة. قال اللّه تعالى: ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ [غافر: ٣][1].

وتاب إلى اللّه توبًا وتوبةً ومتابًا وتابةً وتتوبةً: رجع عن المعصية، وهو تائبٌ وتوّابٌ، وتاب الله عليه: وفّقه للتّوبة، أو رجع به من التّشديد إلى التّخفيف، أو رجع عليه بفضله وقبوله، وهو توّابٌ على عباده[2].

والتائب يقال لباذل التوبة ولقابل التوبة؛ فالعبد تائب إلى الله، والله تائب على عبده.

والتّوّاب: العبد الكثير التوبة، وذلك بتركه كلّ وقت بعض الذنوب على الترتيب حتى يصير تاركًا لجميعه، وقد يقال ذلك لله تعالى؛ لكثرة قبوله توبة العباد حالًا بعد حال[3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

التوبة في الشرع: الرجوع عن الأفعال المذمومة إلى الممدوحة.

والتوبة النصوح: ألا يبقي على عمله أثرًا من المعصية، سرًّا وجهرًا[4].

قال الطبري رحمه الله: «التوبة من العبد إلى ربه: إنابته إلى طاعته، وأوبته إلى ما يرضيه بتركه ما يسخطه من الأمور التي كان عليها مقيمًا مما يكرهه ربه، فكذلك توبة الله على عبده هو أن يرزقه ذلك، ويتوب من غضبه عليه إلى الرضا عنه، ومن العقوبة إلى العفو والصفح عنه»[5].

وهذا التعريف في الاصطلاح لا يخرج عن معناه في اللغة.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٣٥٧.
(٢) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٦٢.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٦٩.
(٤) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٧٠.
(٥) جامع البيان، الطبري، ١/ ٥٨٧.



التوبة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (توب) في القرآن(٨٧) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣٤	﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾[التوبة:١١٧]
الفعل المضارع	٢١	﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء:١٧]
الفعل الأمر	٨	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم:٨]
المصدر	٨	﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى:٢٥]
اسم الفاعل	٢	﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ [التوبة:١١٢]
صيغة المبالغة	١٢	﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ③﴾[النصر:٣]

وجاءت التوبة في القرآن على وجهين[٢]:

أحدها: الندم على فعل الشيء والرجوع عنه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٤٣﴾[الأعراف:١٤٣].يعني: ندمت ورجعت إليك.

والثاني: التجاوز، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:٢٧].يعني: يتجاوز عنكم.

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ١٥٦ - ١٥٨، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص ٣٦٩-٣٧١.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص ٢٣٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ الاعتذار:

الاعتذار لغة:

(اعتذر) فلان: صار ذا عذر، وإليه: طلب قبول معذرته، ويقال: اعتذر من ذنبه واعتذر عن فعله: تنصل واحتج لنفسه[١].

الاعتذار اصطلاحًا:

تحري الإنسان ما يمحو به أثر ذنبه، وذلك ثلاثة: الأول: أن يقول: لم أفعل أو فعلت لأجل كذا، فيذكر ما يخرجه عن كونه ذنبًا، الثاني: أن يقول: فعلت ولا أعود ونحو ذلك، والثالث: هو التوبة، فكل توبة عذر ولا عكس[٢].

الصلة بين التّوبة والاعتذار:

التوبة من الذنب الذي لا عذر في اقترافه، والمعتذر يذكر أن له في ما أتاه من المكروه عذرًا، ولو كان الاعتذار التّوبة لجاز أن يقال: اعتذر إلى الله، كما يقال: تاب إليه، وأصل العذر: إزالة الشّيء عن جهته، أي: أزال ما كان في نفسه عليه في الحقيقة أو في الظّاهر[٣].

٢ النّدم:

النّدم لغة:

(ندم) على الأمر ندمًا وندامة: أسف وكرهه بعدما فعله فهو نادم[٤].

النّدم اصطلاحًا:

التّحسّر من تغيّر رأيٍ في أمر فائتٍ[٥].

الصلة بين النّدم والتّوبة:

التّوبة من النّدم؛ وذلك أنّك قد تندم على الشّيء ولا تعتقد قبحه، ولا تكون التّوبة من غير قبح، فكل توبة ندم، وليس كل ندم توبة[٦].

---

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٥٩٠.
(٢) انظر: التوقيف، المناوي ص ٧٤.
(٣) الفروق اللغوية، العسكري، ١/ ٢٣٥.
(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٩١١.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٧٩٦.
(٦) الفروق اللغوية، العسكري، ١/ ٢٣٥.



٣ الاستغفار:

الاستغفار لغة:

(استغفر): أي طلب المغفرة، واستغفر اللّه ذنبه: طلب منه غفره[١]، وفي اللغة العربية إذا دخلت السين والتاء على الفعل أفادت معنى الطلب.

وبهذا، فإنّ معنى الاستغفار في اللغة: طلب السّتر، وطلب ترك المؤاخذة على الذّنب.

الاستغفار اصطلاحًا:

طلب ستر الذنب بالعفو عنه، وعدم العقوبة عليه[٢].

الصلة بين التوبة والاستغفار:

قال ابن القيم: «الاستغفار يتضمن التوبة، والتوبة تتضمن الاستغفار، وكل منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق، وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى، فالاستغفار: طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله»[٣].

٤ الإصرار:

الإصرار لغة:

(أصر) على الأمر: ثبت عليه ولزمه، وأكثر ما يستعمل في الآثام[٤].

الإصرار اصطلاحًا:

وهو: التّعقّد في الذّنب والتّشدّد فيه، والامتناع من الإقلاع عنه، قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[آل عمران: ١٣٥].

الصلة بين التوبة والإصرار:

علاقة تضاد، فالعبد إذا عصى وطال زمان التوبة وقع في الإصرار، قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾، أي تبتدئ التوبة من زمانٍ قريب من زمان المعصية؛ لئلا يقع في الإصرار[٥].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٢٧٤.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ١٨٥، روح المعاني، الألوسي ١١/ ٢٠٧.
(٣) مدارج السالكين ١/ ٣٠٨.
(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٥١٢.
(٥) الدر المصون، السمين الحلبي ٣/ ٦٢٤.

اقتران التوبة بالإصلاح والاستغفار

أولًا: اقتران التوبة بالإصلاح:

قرن الله سبحانه بين التوبة والإصلاح في مواضع من كتابه، منها: قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[البقرة: ١٦٠].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[آل عمران: ٨٩].

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[النساء١٦].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء: ١٤٦].

وقوله تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[المائدة٣٩].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الأنعام: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النور: ٥].

فالآيات تدل دلالةً واضحةً على أنه ليس المقصود بالتوبة ترك القبيح فحسب، بل يجب فعل الحسن، وهو الإصلاح.

ومن أجل ذلك شرط سبحانه وتعالى في توبة أهل الكتاب الذين كان ذنبهم كتمان ما أنزل الله من البينات والهدى؛ ليضلوا الناس بذلك، شرط أن يصلحوا العمل في نفوسهم، ويبيّنوا للناس ما كانوا يكتمونهم إياه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩ - ١٦٠].

وشرط في توبة المنافقين الذين كان ذنبهم إفساد قلوب ضعفاء المؤمنين، وتحيزهم واعتصامهم باليهود والمشركين أعداء الرسول، وإظهارهم الإسلام رياءً وسمعةً: أن يصلحوا بدل إفسادهم، وأن يعتصموا بالله بدل اعتصامهم بالكفار من أهل الكتاب والمشركين، وأن يخلصوا دينهم لله بدل إظهارهم رياءً وسمعةً،

فهكذا تفهم شرائط التوبة وحقيقتها[1]، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٦].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هناك أعمالًا طلب الله فيها التوبة فقط، وأعمالًا طلب فيها التوبة والإصلاح، وأعمالًا طلب فيها التوبة والإصلاح والبيان.

ثانيًا: اقتران التوبة بالاستغفار:

قرن الله سبحانه وتعالى بين التوبة والاستغفار على ألسنة رسله.

قال محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣].

وقال هود عليه السلام: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٥٢].

وقال صالح عليه السلام: ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٦١].

وقال شعيب عليه السلام: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٩٠].

الاستغفار: طلب وقاية شرّ ما مضى، والتوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله[2].

وقيل في العلاقة بينهما: التوبة: هي الرجوع إلى الله مما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا إلى ما يحبه الله ظاهرًا وباطنًا؛ ندمًا على ما مضى، وتركًا في الحال، وعزمًا على أن لا يعود، والاستغفار: طلب المغفرة من الله، فإن اقترن به توبة فهو الاستغفار الكامل الذي رتّبت عليه المغفرة، وإن لم تقترن به التوبة فهو دعاء من العبد لربه أن يغفر له، فقد يجاب دعاؤه وقد لا يجاب، وهو بنفسه عبادة من العبادات، فهو دعاء عبادة، ودعاء مسألة[3].

(١) عدة الصابرين، ابن القيم ص ١٧.
(٢) مدارج السالكين، ابن القيم، ١/ ٣٤٥
(٣) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، السعدي ٢/ ٣٦٤.

التواب من أسماء الله تعالى

اشتقّ الله سبحانه وتعالى من التوبة اسمًا له، وهو التوّاب؛ دلالة على عظم التوبة وفضلها:

أولًا: معنى اسم الله التواب:

قال الطبري رحمه الله: «إن الله جل ثناؤه هو التوّاب على من تاب إليه من عباده المذنبين من ذنوبه، التارك مجازاته بإنابته إلى طاعته بعد معصيته بما سلف من ذنبه»[1].

وجاء (توّاب) على أبنية المبالغة لقبوله توبة عباده، وتكرير الفعل منهم دفعة بعد دفعة، وواحدًا بعد واحد على طول الزمان، وقبوله عز وجل ممن يشاء أن يقبل منه؛ فلذلك جاء على أبنية المبالغة، فالعبد يتوب إلى الله عز وجل ويقلع عن ذنوبه، والله يقبل توبته. فالعبد تائب والله توّاب[2].

وقال ابن القيم في نونيته[3]:

وكذلك التوّاب من أوصافه
والتوّاب في أوصافه نوعان
إذن بتوبة عبده وقبولها
بعد المتاب بمنة المنان

ويقول السعدي رحمه الله: «فهو التائب على التائبين أولًا بتوفيقهم للتوبة، والإقبال بقلوبهم إليه، وهو التائب عليهم بعد توبتهم قبولًا لها، وعفوًا عن خطاياهم»[4].

ثانيًا: الأسماء المقترنة باسمه التوّاب:

ورد اسم الله سبحانه وتعالى (التَّوَّاب) في إحدى عشرة آية في القرآن الكريم[5]:

١ . الرحيم.

اقترن اسم التواب باسم الرحيم في (٩) آيات، منها:

قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة: ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[التوبة: ١٠٤].

وقوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[الحجرات: ١٢].

ومناسبة هذا الاقتران: أن توبة الله على عباده وتوفيقهم إليها ثم قبولها منهم، هو من آثار رحمته تعالى وبره وإحسانه.

قال الطبري رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[التوبة: ١١٨]: «إن الله هو الوهاب لعباده الإنابة إلى طاعته، الموفق من أحب توفيقه منهم

(١) جامع البيان، الطبري، ١/ ٥٨٧
(٢) اشتقاق أسماء الله، ص ٦٢.
(٣) الكافية الشافية، ابن القيم ص٢٠٩.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٤٦.
(٥) المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص٣٧٠.

لما يرضيه عنه، الرحيم بهم أن يعاقبهم بعد التوبة، أو يخذل من أراد منهم التوبة والإنابة ولا يتوب عليه»[1].

وقال السعدي رحمه الله: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ أي: كثير التوبة والعفو، والغفران عن الزلات والعصيان، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ وصفه الرحمة العظيمة التي لا تزال تنزل على العباد في كل وقت وحين، في جميع اللحظات، ما تقوم به أمورهم الدينية والدنيوية»[2].

٢. الحكيم.

اقترن اسم التواب باسم الحكيم مرة واحدة، في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾[النور: ١٠].

فهو ﴿تَوَّابٌ﴾ يقبل العاصين منكم، ويردّهم إلى دائرة المؤمنين الصالحين، إذا هم تابوا وأصلحوا، وهو سبحانه: ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما حدّ من حدود ورصد من عقوبات، للمعتدين على حدوده[3].

وفي ذكر وصف ﴿حَكِيمٌ﴾ هنا مع وصف ﴿تَوَّابٌ﴾ إشارةٌ إلى أن في هذه التوبة حكمة، وهي استصلاح الناس[4].

(١) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٥٤.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٥٤.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٩/ ١٢٢٦.
(٤) التحرير والتنوير، ١٨/ ١٣٥.

مجالات التوبة

تنوّعت مجالات التوبة وتنوّعت معها شروطها. وشرط التوبة من ذنب هي فعل ضده، فشرط توبة المشرك: الإيمان؛ لأن ذنبه الإشراك، وشرط توبة المنافق الإخلاص؛ لأن ذنبه الرياء، وشرط توبة الكاتمين ما أنزل الله من البينات والهدى: البيان، وتوبة القاذف إكذابه نفسه؛ لينتفي عن المقذوف العار الذي ألحقه به بالقذف.

وسوف نوضّح مجالات التوبة فيما يلي:

أولًا: التوبة عن الشرك والكفر:

أرسل الله الأنبياء والرسل لدعوة أقوامهم إلى التوبة من الشرك والكفر، بأمرهم بالاستغفار من الشرك ثم بالتوبة من بعده:

قال هود عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾[هود: ٥٢].

أي: آمنوا به حتى يغفر لكم ذنوبكم. والاستغفار: هو الإيمان بالله في هذا الموضع؛ لأن هودًا عليه السلام إنما دعا قومه إلى توحيد الله؛ ليغفر لهم ذنوبهم، ثم توبوا إلى الله من سالف ذنوبكم وعبادتكم غيره بعد الإيمان به[5].

(٥) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٤٤٤.

والذنب الذي طلب هود عليه السلام قومه التوبة منه هو ذنب الشرك، قال أبو بكر الأصم: «استغفروا: أي سلوه أن يغفر لكم ما تقدم من شرككم، ثم توبوا من بعده بالندم على ما مضى، وبالعزم على أن لا تعودوا إلى مثله»[(١)].

وقال صالح عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾[هود: ٦١].

«اعملوا عملًا يكون سببًا لستر الله عليكم ذنوبكم، وذلك الإيمان به، وإخلاص العبادة له دون ما سواه واتباع رسوله صالح، ثم اتركوا من الأعمال ما يكرهه ربكم إلى ما يرضاه ويحبه، إن ربي قريب ممن أخلص له العبادة ورغّب إليه في التوبة، مجيب له إذا دعاه»[(٢)].

ويظهر من ختام الآية بجملة: ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ أنهم استعظموا أن يكون جرمهم مما يقبل الاستغفار عنه، فطمأنهم صالح عليه السلام إلى استجابته سبحانه وتعالى لتوبتهم إذا تابوا وقبولها منهم.

ويستفاد من الآيات أنه: يجب على كل داعٍ إلى الله أن يحبّب عباد الله إلى خالقهم، ويبشّرهم بحبه سبحانه لتوبتهم واستجابته ممن تاب إليه.

وقال شعيب عليه السلام: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

واستغفروا ربكم من سالف الذنوب، ثم توبوا إليه فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة، ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ أي: لمن تاب وأناب[(٣)]. ويستفاد من الآية: أن الله شديد المحبة لمن يتقرب إليه بالتوبة.

وأخبر سبحانه وتعالى أن الذين عملوا السيئات من الكفر والمعاصي، ثم رجعوا من بعد فعلها إلى الإيمان والعمل الصالح، فإنه سبحانه وتعالى من بعد التوبة النصوح لغفور لأعمالهم.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الأعراف: ١٥٣].

هذا خبر من الله تعالى ذكره أنه قابل من كل تائب إليه من ذنب أتاه صغيرة كانت معصيته أو كبيرة، كفرًا كانت أو غير كفر، كما قبل من عبدة العجل توبتهم بعد كفرهم به بعبادتهم العجل، وارتدادهم عن دينهم[(٤)].

ويستفاد من الآية: أنه سبحانه وتعالى يقبل توبة عباده من أي ذنب كان، حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق.

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٨/ ٣٦٣.
(٢) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٤٥٣.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٢٩٧.
(٤) جامع البيان، الطبري، ١٠/ ٤٦٥.

وأخبر سبحانه وتعالى إن رجع المشركون عن كفرهم، ودخلوا الإسلام، والتزموا شرائعه من إقام الصلاة وإخراج الزكاة، فاتركوهم، فقد أصبحوا إخوانكم في الإسلام.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة: ٥].

﴿فَإِن تَابُوا﴾ من شركهم ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: أدوها بحقوقها ﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ لمستحقيها ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ أي: اتركوهم، وليكونوا مثلكم، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر الشرك فما دونه، للتائبين، ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة، ثم قبولها منهم.

وفي هذه الآية دليل على أن من امتنع من أداء الصلاة أو الزكاة، فإنه يقاتل حتى يؤديهما، كما استدل بذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه[(١)].

ورغّب سبحانه وتعالى المشركين في التوبة، ورهّبهم من الاستمرار على الشرك، فقال: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[التوبة: ٣].

«يقول تعالى: فإن تبتم من كفركم أيها المشركون، ورجعتم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأنداد، فالرجوع إلى ذلك خير لكم من الإقامة على الشرك في الدنيا والآخرة، وإن أدبرتم عن الإيمان بالله وأبيتم إلا الإقامة على شرككم، فأيقنوا أنكم لا تفيتون الله بأنفسكم من أن يحل بكم عذابه الأليم وعقابه الشديد على إقامتكم على الكفر، كما فعل بذويكم من أهل الشرك، من إنزال نقمه به وإحلاله العذاب عاجلًا بساحته، وأعلم يا محمد الذين جحدوا نبوتك وخالفوا أمر ربهم بعذاب موجع يحل بهم»[(٢)].

والترغيب والترهيب في آية البراءة يشيران إلى أن المنهج الإسلامي منهج هداية قبل كل شيء، فهو يتيح للمشركين هذه المهلة لا لمجرد أنه لا يحب أن يباغتهم ويفتك بهم متى قدر- كما كان الشأن في العلاقات الدولية ولا يزال!- ولكنه كذلك يمهلهم هذه المهلة للتروي والتدبر، واختيار الطريق الأقوم، ويرغّبهم في التوبة عن الشرك والرجوع إلى الله، ويرهّبهم من التولي، وييئسهم من جدواه، وينذرهم بالعذاب الأليم في الآخرة فوق الخزي في

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٢٩.

(٢) جامع البيان، الطبري، ١١/ ٣٤٠.

الدنيا. ويوقع في قلوبهم الزلزلة التي ترجها رجًّا، لعل الركام الذي ران على الفطرة أن ينفض عنها، فتسمع وتستجيب![1].

ثانيًا: التوبة عن النفاق:

استثنى الله سبحانه وتعالى من الوعيد بالدرك الأسفل من النار من آمن من المنافقين، وأصلح حاله، واعتصم بالله دون الاعتزاز بالكافرين، وأخلص دينه لله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٥-١٤٦].

يخبر تعالى عن مآل المنافقين أنهم في أسفل الدركات من العذاب، وأشرّ الحالات من العقاب، فهم تحت سائر الكفار؛ لأنهم شاركوهم بالكفر بالله ومعاداة رسله، وزادوا عليهم المكر والخديعة والتمكن من كثير من أنواع العداوة للمؤمنين، على وجه لا يشعر به ولا يحس، ورتبوا على ذلك جريان أحكام الإسلام عليهم، واستحقاق ما لا يستحقونه، فبذلك ونحوه استحقوا أشد العذاب، وليس لهم منقذ من عذابه ولا ناصر يدفع عنهم بعض عقابه، وهذا عام لكل منافق إلا من منّ الله عليهم بالتوبة من السيئات، وأصلحوا له الظواهر والبواطن، والتجأوا إلى الله في جلب منافعهم ودفع المضار عنهم ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ﴾ الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان ﴿لِلَّهِ﴾ فقصدوا وجه الله بأعمالهم الظاهرة والباطنة، وسلموا من الرياء والنفاق، فمن اتصف بهذه الصفات ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يعلم كنهه إلا الله، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وتأمل كيف خصّ الاعتصام والإخلاص بالذكر، مع دخولهما في قوله: ﴿وَأَصْلَحُوا﴾؛ لأن الاعتصام والإخلاص من جملة الإصلاح؛ لشدة الحاجة إليهما خصوصًا في هذا المقام الحرج، فلا يزيله إلا شدة الاعتصام بالله، ودوام اللجأ والافتقار إليه في دفعه، وكون الإخلاص منافيًا كل المنافاة للنفاق، فذكرهما لفضلهما وتوقف الأعمال الظاهرة والباطنة عليهما، ولشدة الحاجة في هذا المقام إليهما.

وتأمل كيف لما ذكر أن هؤلاء مع المؤمنين لم يقل: وسوف يؤتيهم أجرًا عظيمًا، مع أن السياق فيهم، بل قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ لأن هذه القاعدة الشريفة لم يزل الله يبدئ فيها

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٥٩٩.

ويعيد، إذا كان السياق في بعض الجزئيات، وأراد أن يرتّب عليه ثوابًا أو عقابا وكان ذلك مشتركًا بينه وبين الجنس الداخل فيه، رتّب الثواب في مقابلة الحكم العام الذي تندرج تحته تلك القضية وغيرها، ولئلا يتوهم اختصاص الحكم بالأمر الجزئي، فهذا من أسرار القرآن البديعة، فالتائب من المنافقين مع المؤمنين وله ثوابهم[1].

والمتدبر لآيات التوبة في مواضعها في القرآن يلحظ أنه «كان يكتفي بأن يقول: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا﴾ فالتوبة والإصلاح يتضمنان الاعتصام بالله، وإخلاص الدين لله، ولكنه هنا ينص على الاعتصام بالله، وإخلاص الدين لله؛ لأنه يواجه نفوسًا تذبذبت، ونافقت، وتولت غير الله، فناسب أن ينص عند ذكر التوبة والإصلاح، على التجرد لله، والاعتصام به وحده، وخلاص هذه النفوس من تلك المشاعر المذبذبة، وتلك الأخلاق المخلخلة.. ليكون في الاعتصام بالله وحده قوة وتماسك، وفي الإخلاص لله وحده خلوص وتجرد.

بذلك تخف تلك الثقلة التي تهبط بالمنافقين في الحياة الدنيا إلى اللصوق بالأرض، وتهبط بهم في الحياة الآخرة إلى الدرك الأسفل من النار.

وبذلك يرتفع التائبون منهم إلى مصاف المؤمنين المعتزين بعزة الله وحده، المستعلين بالإيمان، المنطلقين من ثقلة الأرض بقوة الإيمان»[2].

وأخبر سبحانه وتعالى عن المنافقين أنهم إذا رجعوا إلى الإيمان والتوبة فهو خير لهم، وإن يعرضوا، أو يستمروا على حالهم، يعذّبهم الله العذاب الموجع في الدنيا على أيدي المؤمنين، وفي الآخرة بنار جهنم.

قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[التوبة: ٧٤].

قال أبو جعفر: «اختلف أهل التأويل في الذي نزلت فيه هذه الآية، والقول الذي كان قاله، الذي أخبر الله عنه أنه يحلف بالله ما قاله، ثم قال: والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى أخبر عن المنافقين أنهم يحلفون بالله كذبًا على كلمة كفر تكلموا بها أنهم لم يقولوها، وجائز أن يكون ذلك القول ما روي عن عروة أن الجلاس قاله، وجائز أن يكون قائله عبد الله بن أبي بن سلول، والقول ما ذكره قتادة عنه أنه قال، ولا علم لنا بأن ذلك من أيٍّ؛ إذ كان

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢١١.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٧٨٥.

لا خبر بأحدهما يوجب الحجة ويتوصل به إلى يقين العلم به، وليس مما يدرك علمه بفطرة العقل، فالصواب أن يقال فيه كما قال الله جل ثناؤه: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾[التوبة: ٧٤]»[1].

ثم دعاهم الله تبارك وتعالى إلى التوبة رفقًا بهم ولطفًا بالرغم من أفعالهم العظيمة، فقال تعالى: ﴿فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[التوبة: ٧٤].

فإن يتب هؤلاء القائلون كلمة الكفر من قيلهم الذي قالوه فرجعوا عنه، يك رجوعهم وتوبتهم من ذلك خيرًا لهم من النفاق، وإن يدبروا عن التوبة فيأبوها، ويصروا على كفرهم يعذّبهم عذابًا موجعًا في الدنيا، إما بالقتل، وإما بعاجل خزي لهم فيها، ويعذّبهم في الآخرة بالنار[2].

وفي الآية دلالة أنه لا يحصل الخير إلا عند التوبة؛ لأن التوبة أصل السعادة في الدنيا والآخرة.

ثالثًا: التوبة عن المعاصي:

أخبر سبحانه وتعالى أن العبد إذا تاب من أمهات الكبائر: الشرك والقتل والزنا، وفقه للتوبة وقبلها منه.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۝٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٠ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾[الفرقان: ٦٨-٧١].

روى مسلم بسنده، عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما أنّ ناسًا من أهل الشّرك قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثمّ أتوا محمّدًا صلّى اللّه عليه وسلّم فقالوا: إنّ الّذي تقول وتدعو لحسنٌ، ولو تخبرنا أنّ لما عملنا كفّارةً، فنزل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾[3].

ومعنى الآية: «والذين لا يعبدون مع الله إلها آخر فيشركون في عبادتهم إياه، بل يخلصون له العبادة ويفردونه بالطاعة، ولا يقتلون النفس بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق المزيل لحرمتها وعصمتها، كالكفر بعد الإيمان، والزنا بعد الإحصان، وقتل النفس بغير حق، ولا يأتون ما حرّم الله عليهم إتيانه من الفروج، ومن يفعل خصلة من خصال الفجور السالفة، يلق في الآخرة

(١) جامع البيان، ١١/ ٥٧٢.
(٢) المصدر السابق ١١/ ٥٧٥.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحجّ،١/ ٣٠٥، رقم١٧٤.

جزاء إثمه وذنبه الذي ارتكبه، بل سيضاعف له ربه العذاب يوم القيامة ويجعله خالدا أبدًا في النار مع المهانة والاحتقار، فيجتمع له العذاب الجسمي والعذاب الروحي. وبعد أن أتم تهديد الفجار على هذه الأوزار أتبعه بترغيب الأبرار في التوبة والرجوع إلى حظيرة المتقين فيفوزون بجنات النعيم، فقال: لكن من رجع عن هذه الآثام مع إيمانه وعمله الصالحات فأولئك يمحو الله سوابق معاصيهم بالتوبة، ويثبت لهم لواحق طاعته، ومن تاب عن المعاصي التي فعلها، وندم على ما فرط منه، وزكى نفسه بصالح الأعمال، فإنه يتوب إلى الله توبة نصوحًا، مقبولة لديه، ماحية للعقاب، محصلة لجزيل الثواب، إلى أنه ينير قلبه بنور من عنده يهديه إلى سواء السبيل، ويوفقه للخير، ويبعده عن الضير»[1].

● التوبة من القتل خطأ.

أخبر سبحانه وتعالى بأنه لا يحق لمؤمن الاعتداء على أخيه المؤمن وقتله بغير حق، إلا أن يقع منه ذلك على وجه الخطأ الذي لا عمد فيه.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[النساء: ٩٢].

اختلف المفسرون فيمن نزلت: منهم من قال: نزلت في عياش بن أبي ربيعة وقتيله.

قال السدي: «نزلت في عياش بن أبي ربيعة المخزومي، فكان أخًا لأبي جهل بن هشام لأمه، وإنه أسلم وهاجر في المهاجرين الأولين قبل قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فطلبه أبو جهل والحارث بن هشام ومعهما رجل من بني عامر بن لؤي، فأتوه بالمدينة، وكان عياش أحب إخوته إلى أمه، فكلّموه وقالوا: إن أمك قد حلفت أن لا يظلها بيت حتى تراك وهي مضطجعة في الشمس، فأتها لتنظر إليك ثم ارجع.

وأعطوه موثقًا من الله لا يحجزونه حتى يرجع إلى المدينة، فأعطاه بعض أصحابه بعيرًا له نجيبًا، وقال: إن خفت منهم شيئًا فاقعد على النجيب، فلما أخرجوه من المدينة أخذوه فأوثقوه، وجلده العامري، فحلف ليقتلن العامري. فلم يزل محبوسًا بمكة حتى خرج يوم الفتح، فاستقبله العامري وقد أسلم ولا يعلم عياش بإسلامه، فضربه فقتله، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن

(١) تفسير المراغي، ١٩/ ٤٠.

﴿يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ يقول: وهو لا يعلم أنه مؤمن ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ فيتركوا الدية»[1].

وقال آخرون: نزلت في أبي الدرداء: قال ابن زيد في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ الآية. قال: نزل هذا في رجل قتله أبو الدرداء كانوا في سرية، فعدل أبو الدرداء إلى شعب يريد حاجة له، فوجد رجلًا من القوم في غنم له، فحمل عليه بالسيف، فقال: لا إله إلا الله قال: فضربه ثم جاء بغنمه إلى القوم. ثم وجد في نفسه شيئًا، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم، فذكر ذلك له، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا شققت عن قلبه؟) فقال: ما عسيت أجد. هل هو يا رسول الله إلا دم أو ماء؟ قال: (فقد أخبرك بلسانه، فلم تصدّقه) قال: كيف بي يا رسول الله؟ قال: (فكيف بلا إله إلا الله؟) قال: فكيف بي يا رسول الله؟ قال: (فكيف بلا إله إلا الله؟) حتى تمنيت أن يكون ذلك مبتدأ إسلامي. قال: ونزل القرآن: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ حتى بلغ: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾

قال الطبري رحمه الله: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله عرّف عباده بهذه الآية ما على من قتل مؤمنًا خطأ من كفارة ودية. وجائز أن تكون الآية نزلت في عياش بن أبي ربيعة وقتيله، وفي أبي الدرداء وصاحبه. وأي ذلك كان: فالذي عنى الله تعالى بالآية تعريف عباده ما ذكرنا، وقد عرف ذلك من عقل عنه من عباده تنزيله، وغير ضائرهم جهلهم بمن نزلت فيه»[2].

ومعنى الآية: «على القاتل الخطأ ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ كفارة لذلك، تكون في ماله، ويشمل ذلك الصغير والكبير، والذكر والأنثى، والصحيح والمعيب، في قول بعض العلماء، ولكن الحكمة تقتضي أن لا يجزئ عتق المعيب في الكفارة؛ لأن المقصود بالعتق نفع العتيق، وملكه منافع نفسه، فإذا كان يضيع بعتقه، وبقاؤه في الرق أنفع له فإنه لا يجزئ عتقه، مع أن في قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ ما يدل على ذلك؛ فإن التحرير: تخليص من استحقت منافعه لغيره أن تكون له، فإذا لم يكن فيه منافع لم يتصور وجود التحرير.

وأما الدية فإنها تجب على عاقلة القاتل في الخطأ وشبه العمد ﴿مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ جبرًا لقلوبهم، والمراد بأهله هنا هم ورثته، فإن الورثة يرثون ما ترك الميت، فالدية داخلة فيما ترك.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ أي: يتصدق ورثة القتيل بالعفو عن الدية، فإنها

(١) جامع البيان، ٧/ ٣٠٨.

(٢) المصدر السابق ٧/ ٣١٠.

تسقط، وفي ذلك حث لهم على العفو؛ لأن الله سماها صدقة، والصدقة مطلوبة في كل وقت ﴿فَإِن كَانَ﴾ المقتول ﴿مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾ أي: من كفار حربيين ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي: وليس عليكم لأهله دية؛ لعدم احترامهم في دمائهم وأموالهم ﴿وَإِن كَانَ﴾ المقتول ﴿مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ وذلك لاحترام أهله بما لهم من العهد والميثاق ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الرقبة ولا ثمنها، بأن كان معسرًا بذلك، ليس عنده ما يفضل عن مؤنته وحوائجه الأصلية شيء يفي بالرقبة، ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ أي: لا يفطر بينهما من غير عذر، فإن أفطر لعذر، فإن العذر لا يقطع التتابع، كالمرض والحيض ونحوهما. وإن كان لغير عذر انقطع التتابع ووجب عليه استئناف الصوم. ﴿تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: هذه الكفارات التي أوجبها الله على القاتل توبة من الله على عباده ورحمة بهم، وتكفيرًا لما عساه أن يحصل منهم من تقصير وعدم احتراز، كما هو واقع كثيرًا للقاتل خطأ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: كامل العلم كامل الحكمة، لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، في أي وقت كان وأي محل كان[1].

❁ التوبة من الذنوب.

أخبر الله سبحانه أنه يقبل التوبة من الذين يرتكبون المعاصي والذنوب بجهل منهم لعاقبتها.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[النساء: ١٧].

المعنى: ما التوبة على الله لأحد من خلقه إلا للذين يأتون ما يأتونه من ذنوبهم جهالة منهم وهم بربهم مؤمنون، ثم يراجعون طاعة الله ويتوبون منه إلى ما أمرهم الله به من الندم عليه والاستغفار، وترك العود إلى مثله من قبل نزول الموت بهم[2]، فالله سبحانه لا يطارد عباده الضعاف، ولا يطردهم متى تابوا إليه وأنابوا. وهو سبحانه غني عنهم، وما تنفعه توبتهم، ولكن تنفعهم هم أنفسهم، وتصلح حياتهم وحياة المجتمع الذي يعيشون فيه. ومن ثمّ يفسح لهم في العودة إلى الصف تائبين متطهرين[3].

وأجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن كل معصية هي بجهالة عمدًا كانت أو جهلًا[4].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٩٢.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٦/ ٥٠٧.
(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٦٠٤.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢٤.

قبول التوبة لا يجب على الله عقلًا، وأما من جهة السمع فتضافرت ظواهر الآي والسنة على قبول الله التوبة، وأفادت القطع بذلك[1].

اتفقت الأمة على أن التوبة فرض على المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

وذهب الجمهور إلى أنها تصح من ذنب دون ذنب؛ خلافًا للمعتزلة[2].

❁ التوبة من الربا.

أخبر سبحانه وتعالى أن المرابي محارب لله ورسوله، قد آذنه الله بحربه.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٧٨ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾[البقرة: ٢٧٨-٢٧٩].

أي: عقاب شديد من نوع الحروب، فإنّ الإصرار على عمل الربا إن كان من شخص يقدر الإمام عليه قبض عليه وأجرى عليه حكم الله: من التعزير والحبس، إلى أن تظهر منه التوبة، وإن كان له عسكر وشوكة حاربه الإمام كما يحارب الفئة الباغية، وكما حارب أبو بكر رضي الله عنه مانعي الزكاة[3].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ يعني إن تركتم الربا وتبتم إلى الله منه، وقد عاقدتم عليه، فإنما لكم رؤوس أموالكم، لا تزدادون عليها فتظلمون الآخذ، ولا تنقصون منها فيظلمكم من أخذها[4].

❁ التوبة عن السرقة.

أخبر سبحانه وتعالى أنه من تاب من بعد سرقته، وأصلح في كل أعماله، فإن الله يقبل توبته.

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٣٨ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[المائدة:٣٨-٣٩].

يقول جل ثناؤه: من رجع من هؤلاء السراق عما يكرهه الله من معصيته إياه إلى ما يرضاه من طاعته من بعد ظلمه، وظلمه: هو اعتداؤه وعمله ما نهاه الله عنه من سرقة أموال الناس، وأصلح نفسه بحملها على مكروهها في طاعة الله والتوبة إليه مما كان عليه من معصيته، فإن الله عزو جل يرجعه إلى ما يحب ويرضى عما يكرهه ويسخط من معصيته، إن الله -عز ذكره- ساتر على من تاب وأناب عن معاصيه إلى طاعته ذنوبه

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٥٦٠.
(٢) فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٥٠٥.
(٣) تفسير آيات الأحكام، السايس، ص١٨٠.
(٤) التفسير القيم، ابن القيم، ص١٧٥.

بالعفو عن عقوبته عليها يوم القيامة، وتركه فضيحته بها على رؤوس الأشهاد، رحيم به وبعباده التائبين إليه من ذنوبهم[1].

قال الشافعي: «إذا تاب السارق قبل أن يتلبس الحاكم بأخذه، فتوبته ترفع عنه حكم القطع قياسًا على توبة المحارب»[2]. «فأما أموال الناس فلابد من ردّها إليهم أو بدلها عند الجمهور»[3]، أو الاستحلال منها[4].

رابعًا: التوبة عن التقصير:

المؤمن الحق لا يمكنه القطع أنه أتى بالعبادات كما ينبغي، فخوف التقصير ملازم له طالما فيه عين تطرف، وقلب ينبض، وقد يحدث التقصير: إما على سبيل السهو، أو على سبيل ترك الأولى.

وهذا الخلق من شيم الكرماء، يأتون بأبلغ وجوه الكرم ويستقلونه، ويعتذرون من التقصير، وفي قمة هؤلاء: الأنبياء عليهم السلام، والصحابة الكرام رضي الله عنهم.

وقد ذكر الله لنا أن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام طلبا التوبة بالرغم من أنهما قاما ببناء قواعد البيت بتكليف إلهي، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[البقرة: ١٢٨].

عن وهيب بن الورد أنه قرأ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[البقرة: ١٢٧].

ثم يبكي ويقول: يا خليل الرحمن، ترفع قوائم بيت الرحمن، وأنت مشفق أن لا يتقبل منك[5].

وقال تعالى عن رحمته بالنبي والمهاجرين والأنصار: ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة: ١١٧].

قال ابن عطية رحمه الله: «التوبة من الله رجوعه بعبده من حالة إلى أرفع منها، فقد تكون في الأكثر رجوعًا من حالة طاعة إلى أكمل منها، وهذه توبته في هذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه رجع به من حاله قبل تحصيل الغزوة وأجرها وتحمل مشقاتها إلى حاله بعد ذلك كله، وأما توبته على «المهاجرين والأنصار» فحالها معرضة، لأن تكون من تقصير إلى طاعة وجدٌّ في الغزو ونصرة الدين، وأما توبته على الفريق الذي كاد أن يزيغ فرجوع من حالة محطوطة إلى حال غفران ورضا»[6].

(١) جامع البيان، الطبري، ٨/ ٤١١.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٩٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ١٠٠.
(٤) البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٢٥٦.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٣٠٢.
(٦) المحرر الوجيز، ٣/ ٩٢.

هذا وقد حكى الله تعالى لنا عن حال المؤمنين الخلّص في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

أي: يعطون ما أعطوا من الصدقات والنفقات والقربات وقلوبهم وجلة[1].

في الآيات: دلالة على أنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار، حتى الأنبياء عليهم السلام والمهاجرون والأنصار رضي الله عنهم، والخلّص من المؤمنين.

خامسًا: التوبة عن كتمان العلم:

أخبر سبحانه وتعالى أن من شروط قبول توبة كاتم العلم أن يصلح ما أفسده، وأن يبيّن ما كتمه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَٰتِ وَالْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَٰبِ أُولَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[البقرة: ١٥٩-١٦٠].

أي: إن أهل الكتاب الذين كتموا أمر الإسلام وأمر محمد صلى الله عليه وسلم وهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل بيّنًا واضحًا، يستحقون الطرد والبعد من رحمة الله، ويستوجبون بأعمالهم الدعاء عليهم باللعن من الملائكة والناس أجمعين. وحكم هذه الآية شامل لكل من كتم علمًا فرض الله بيانه للناس، ومن هنا ترى أن الذي يرى حرمات الله تنتهك أمام عينيه، والدين يداس جهارًا بين يديه، ويرى البدع تمحو السنن، والضلال يغشى الهدى، ثم هو لا ينتصر بيد ولا لسان، يكون ممن يستحق وعيد الآية.

ثم استثنى سبحانه وتعالى من الوعيد من تاب إليه: فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي: إلا من أناب عن كتمانه، وراجع التوبة بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وأقرّ بنبوته، وصدّق ما جاء به من عند الله، وأصلح حال نفسه بالتقرّب إلى الله بصالح الأعمال، وبيّن ما علم من وحي الله إلى أنبيائه، وما عهد إليهم في كتبه، فلم يكتمه ولم يخفه، فهؤلاء يتوب الله عليهم، ويفيض عليهم مغفرته تفضّلًا منه ورحمة، وهو الذي يرجع قلوب عباده المنصرفة عنه ويردّها إليه بعد إدبارها عن طاعته، وهو الرّحيم بالمقبلين عليه يتغمدهم برحمته ويشملهم بعفوه، ويصفح عما كانوا اجترحوا من السيئات. وفي الآية: ترغيب للقلوب الواعية التي تخاف سخط الله وشديد عقابه في التوبة عما فرط من

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٣٠٢.

الذنوب، وطرد لليأس من رحمة الله مهما ثقلت الذنوب وكثرت الآثام[1].

وفي هذه الآية: دلالة على أن الداعية إلى كفر أو بدعة إذا تاب إلى الله تاب الله عليه[2]، وتوبته أن يبيّن للناس أن ما كان يدعو إليه بدعة وضلالة، وأن الهدى في ضده، ولا يكفي اعترافه وحده أو في خلواته.

قال ابن عاشور رحمه الله: «فالعالم يحرم عليه أن يكتم من علمه ما فيه هدى للناس؛ لأن كتم الهدى إيقاع في الضلالة، سواء في ذلك العلم الذي بلغ إليه بطريق الخبر كالقرآن والسنة الصحيحة، والعلم الذي يحصل عن نظر كالاجتهادات إذا بلغت مبلغ غلبة الظن بأن فيها خيرًا للمسلمين، ويحرم عليه بطريق القياس الذي تومىء إليه العلة أن يبثّ في الناس ما يوقعهم في أوهام بأن يلقّنها وهو لا يحسن تنزيلها ولا تأويلها، وكذلك كل ما يعلم أن الناس لا يحسنون وضعه»[3].

(١) تفسير المراغي، ٢/ ٢٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٣٤٣.
(٣) التحرير والتنوير، ٢/ ٧٢.

قبول التوبة

أخبر سبحانه وتعالى أنه غافر الذنب للمذنبين، وقابل التوب من التائبين، قال تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾[غافر: ٣].

عطف قابل التوب على صفة غافر الذنب؛ لإفادة أنه يجمع للمذنب التائب بين رحمتين: بين أن يقبل توبته فيجعلها له طاعة، وبين أن يمحو عنه بها الذنوب التي تاب منها وندم على فعلها، فيصبح كأنه لم يفعلها. وهذا فضل من الله[4].

وأخبر الله سبحانه وتعالى أنه هو وحده الذي يقبل التوبة عن عباده إذا رجعوا إلى توحيده وطاعته.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾[التوبة: ١٠٤].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[الشورى: ٢٥].

يقول تعالى ذكره: والله الذي يقبل مراجعة العبد إذا رجع إلى توحيد الله وطاعته من بعد كفره، ويعفو أن يعاقبه على سيئاته من الأعمال، وهي معاصيه التي تاب منها، ويعلم ربكم أيها الناس ما تفعلون من خير وشر، لا يخفى عليه من ذلك شيء، وهو مجازيكم على كل ذلك جزاءه، فاتقوا

(٤) المصدر السابق ٢٤/ ٨٠.

الله في أنفسكم، واحذروا أن تركبوا ما تستحقون به منه العقوبة[1]. ومن الحكمة في استخدام الحرف (عن) بدلًا من (من) في قوله تعالى: ﴿يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ أن التوبة التي يقبلها الله من عباده تضع عنهم ما حمّلوا به من أوزار، وما أثقل كاهلهم من ذنوب، فكان في قبول التوبة منهم رفع لهذه الآثام عنهم، ولهذا ضمّن الفعل (يقبل) معنى الفعل يضع، أو يسقط.. ونحو هذا، كما نظر إلى التوبة على أنها شيء محمّل بالذنوب والآثام؛ لأن التوبة لا تكون إلا عن ذنب وقع، أو إثم اقترف.. فكان قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ يعني: ألم يعلموا أن الله يضع الذنوب والآثام عن عباده[2].

شروط قبول التوبة:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧].

ذكرت الآية لقبول التوبة قيدين: ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ و﴿مِن قَرِيبٍ﴾.

والجهالة تطلق على سوء المعاملة، وعلى الإقدام على العمل دون روية، وهي ما قابل الحلم؛ ولذلك تطلق الجهالة على الظلم. قال عمرو بن كلثوم[3]:

ألا لا يجهلن أحد علينا
فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وقال تعالى حكاية عن يوسف: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

والمراد هنا ظلم النفس[4]. وعلى ذلك فالجهالة: سفاهة وقلة تحصيل أدى إلى المعصية[5].

وقوله: ﴿مِن قَرِيبٍ﴾ إلى وقت الذنب، ومدة الحياة كلها.

وجمهور المفسرين على أنها التوبة قبل المعاينة، قال عكرمة: قبل الموت، وقال الضحاك: قبل معاينة ملك الموت، وقال السدي والكلبي: أن يتوب في صحته قبل مرض موته[6].

وقد روى الترمذي بسنده عن ابن عمر، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: (**إنّ الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**)[7].

(١) جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٥٠٦.
(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب، ٦/ ٨٩٠.
(٣) البيت من معلقته المشهورة.
انظر: ديوان عمرو بن كلثوم ص ٧٨.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ٢٧٨.
(٥) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢٤.
(٦) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٢٩٥.
(٧) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدّعوات، باب إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر، رقم ٣٥٣٧.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ١٩٠٣.

وإنما صحت التوبة من العبد في هذا الوقت؛ لأن الرجاء فيه باقٍ، ويصح منه الندم، والعزم على ترك الفعل(١).

ولا خلف في وعده سبحانه وتعالى على قبول توبة العبد «إذا كانت بشروطها المصححة لها، وهي أربعة: الندم بالقلب، وترك المعصية في الحال، والعزم على ألا يعود إلى مثلها، وأن يكون ذلك حياء من الله تعالى لا من غيره، فإذا اختل شرط من هذه الشروط لم تصح التوبة. وقد قيل من شروطها: الاعتراف بالذنب وكثرة الاستغفار»(٢).

عدم قبول التوبة:

أخبر سبحانه وتعالى أنه لا يكون قبول التوبة من الذين يصرّون على ارتكاب المعاصي، ولا يرجعون إلى ربهم إلى أن تأتيهم سكرات الموت، ولا تقبل توبة الذين يموتون وهم كافرون.

قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[النساء: ١٨].

يعني بذلك جل ثناؤه: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ من أهل الإصرار على معاصي الله، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ يقول: إذا حشرج أحدهم بنفسه، وعاين ملائكة ربه قد أقبلوا إليه لقبض روحه قال: وقد غلب على نفسه، وحيل بينه وبين فهمه بشغله بكرب حشرجته وغرغرته: ﴿إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾، يقول: فليس لهذا عند الله تبارك وتعالى توبة؛ لأنه قال ما قال في غير حال توبة(٣).

وسنة الله عز وجل أن العبد إذا عاين الانتقال الى الله تعالى لم ينفعه توبة ولا إقلاع(٤)؛ وذلك أن التوبة في هذه الحاله توبة المضطر، لجّت به الغواية، وأحاطت به الخطيئة، توبة الذي يتوب لأنه لم يعد لديه متسع لارتكاب الذنوب، ولا فسحة لمقارفة الخطيئة. وهذه لا يقبلها الله؛ لأنها لا تنشيء صلاحًا في القلب ولا صلاحًا في الحياة، ولا تدل على تبدل في الطبع ولا تغير في الاتجاه.

﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾، وهؤلاء قد قطعوا كل ما بينهم وبين التوبة من وشيجة، وضيّعوا كل ما بينهم وبين المغفرة من فرصة(٥).

وأخبر سبحانه وتعالى أنه لا يقبل التوبة عندما يأتي بعض أشراط الساعة وعلاماتها الدالة على مجيئها، وهي طلوع الشمس

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢٥.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٥/ ٩١.
(٣) جامع البيان، الطبري، ٦/ ٥١٦.
(٤) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ٢٨٣.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٦٠٤

من مغربها، قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

والحكمة في هذا ظاهرة، فإنه إنما كان الإيمان ينفع إذا كان إيمانًا بالغيب، وكان اختيارًا من العبد، فأما إذا وجدت الآيات صار الأمر شهادة، ولم يبق للإيمان فائدة؛ لأنه يشبه الإيمان الضروري، كإيمان الغريق والحريق ونحوهما، ممن إذا رأى الموت أقلع عما هو فيه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤- ٨٥][1].

قال جمهور أهل التأويل: الآية التي لا تنفع التوبة من الشرك أو من المعاصي بعدها، هي طلوع الشمس من المغرب[2].

وقد روى البخاري بسنده، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تقوم السّاعة حتّى تطلع الشّمس من مغربها، فإذا رآها النّاس آمن من عليها، فذاك حين ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ﴾)[3].

ومن نماذج الذين لم تقبل توبتهم عند المعاينة: فرعون، قال تعالى في وصف فرعون: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠-٩١]، فلم يقبل الله توبته عند مشاهدة العذاب[4].

ومن استمر على ذنوبه وأصر على عيوبه، حتى صارت فيه صفاتٍ راسخةً، فإنه يعسر عليه إيجاد التوبة التامة، والغالب أنه لا يوفّق للتوبة، ولا ييسّر لأسبابها، الذي يعمل السوء على علم تام ويقين وتهاون بنظر الله إليه، فإنه سدّ على نفسه باب الرحمة[5].

وقوله: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ﴾ تنبيهٌ على نفي القبول عن نوع من التوبة، وهي التي تكون عند اليأس من الحياة[6].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٨١.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٣٦٧.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، سورة الأنعام، باب لا ينفع نفس إيمانها، ١٤/ ١٧٤، رقم ٤٢٦٩.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٠/ ٨.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٧١.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ٢٨٠.

نماذج من التائبين في القرآن

أولًا: الأنبياء:

١ . توبة آدم عليه السلام.

أخبر الله سبحانه وتعالى أن آدم عصاه بأكله من الشجرة التي نُهي عن الأكل منها، قال تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾[طه: ١٢١].

ثم أخبر سبحانه وتعالى أنه وفّق آدم إلى التوبة؛ وذلك بإلهامه قوله سبحانه وتعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[الأعراف: ٢٣].

فتلقاها آدم بالقبول، فتاب الله عليه، وغفر له ذنبه، قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[البقرة: ٣٧].

أي: استقبلها بالأخذ والقبول، والعمل بها حين علمها، ووفّق لها[١].

القراءات في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾:

قرأ ابن كثير: (فتلقى آدمَ) بالنصب (كلماتٌ) بالرفع، جعل الفعل للكلمات؛ لأنها تلقت آدم عليه السلام، وحجته أن العرب تقول: تلقيت زيدًا، وتلقاني زيد، والمعنى واحد؛ لأن من لقيته فقد لقيك، وما نالك فقد نلته.

وقرأ الباقون: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ رفع بفعله؛ لأنه تلقى من ربه الكلمات، أي أخذها منه وحفظها وفهمها، والعرب تقول: تلقيت هذا من فلان، المعنى: إن فهمي قبلها منه، وحجتهم ما روي في التفسير في تأويل قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ أي قبلها، فإذا كان آدم القابل، فالكلمات مقبولة[٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ تأكيد فائدته أن التوبة على العبد إنما هي نعمة من الله، لا من العبد وحده؛ لئلا يعجب التائب، بل الواجب عليه شكر الله تعالى في توبته عليه[٣].

والتعقيب بالرحيم؛ لأن الرحيم جارٍ مجرى العلة للتواب؛ إذ قبوله التوبة عن عباده ضرب من الرحمة بهم[٤].

٢ . توبة نوح عليه السلام.

أخبر سبحانه وتعالى عن توبة نوح عليه السلام في مسألته ربه عن ابنه.

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ إِنِّي

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١/ ٩٢.

(٢) حجة القراءات، ابن زنجلة ص٩٤- ٩٥.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١٣١.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤٣٩.

﴿أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٤٦ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٥-٤٧].

«يقول تعالى ذكره مخبرًا نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم عن إنابة نوح عليه السلام بالتوبة إليه من زلته في مسألته التي سألها ربه في ابنه، قال: رب إني أستجير بك أن أتكلف مسألتك، مما قد استأثرت بعلمه، وطويت علمه عن خلقك، فاغفر لي زلتي في مسألتي إياك ما سألتك في ابني، وإن أنت لم تغفرها لي وترحمني فتنقذني من غضبك أكن من الذين غبنوا أنفسهم حظوظها وهلكوا»[1]. فحينئذ ندم نوح عليه السلام ندامة شديدة، على ما صدر منه.

ودلت الآية على أن نوحًا عليه السلام لم يكن عنده علم بأن سؤاله لربه في نجاة ابنه محرّم، داخل في قوله: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ بل تعارض عنده الأمران، وظن دخوله في قوله: ﴿أَهْلَكَ﴾، وبعد ذلك تبين له أنه داخل في المنهي عن الدعاء لهم، والمراجعة فيهم[2].

٣. توبة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

أخبر سبحانه وتعالى عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أنهما دعوا الله أن يتوب عليهما.

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨].

قال الطبري رحمه الله: «فإن قال لنا قائل: وهل كان لهما ذنوب فاحتاجا إلى مسألة ربهما التوبة؟ قيل: إنه ليس أحد من خلق الله إلا وله من العمل فيما بينه وبين ربه ما يجب عليه الإنابة منه والتوبة. فجائز أن يكون ما كان من قبلهما ما قالا من ذلك، وإنما خصا به الحال التي كانا عليها من رفع قواعد البيت؛ لأن ذلك كان أحرى الأماكن أن يستجيب الله فيها دعاءهما، وليجعلا ما فعلا من ذلك سنة يقتدى بها بعدهما، وتتخذ الناس تلك البقعة بعدهما موضع تنصل من الذنوب إلى الله»[3].

وقال السعدي رحمه الله: «ولما كان العبد -مهما كان- لابد أن يعتريه التقصير، ويحتاج إلى التوبة قالا: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾»[4].

٤. توبة موسى عليه السلام.

أخبر الله سبحانه وتعالى أنه تاب على موسى عليه السلام من مسألته الرؤية في هذه الحياة الدنيا.

(١) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٤٣٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣٨٢.
(٣) جامع البيان، الطبري، ٢/ ٥٧٢.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، ص٦٦.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

أي: من أن أسألك الرؤية في الدنيا وأنت لا تبيحها[١]، أو إني تبت إليك من سؤال الرؤية بغير إذنك، وأنا أول المؤمنين بأنك لا ترى في الدنيا، أو يقال: وأنا أول المؤمنين بأنه لا يجوز السؤال منك الا بإذنك[٢].

قال ابن عاشور رحمه الله: «ولا نشك في أنه سأل رؤية تليق بذات الله تعالى، وهي مثل الرؤية الموعود بها في الآخرة، فكان موسى عليه السلام يحسب أن مثلها ممكن في الدنيا، حتى أعلمه الله بأن ذلك غير واقع في الدنيا، ولا يمتنع على نبي عدم العلم بتفاصيل الشؤون الإلهية قبل أن يعلّمها الله إياه؛ ولذلك كان أئمة أهل السنة محقين في الاستدلال بسؤال موسى رؤية الله على إمكانها بكيفية تليق بصفات الإلهية، لا نعلم كنهها، وهو معنى قولهم: «بلا كيف»، وكان المعتزلة غير محقين في استدلالهم بذلك على استحالتها بكل صفة»[٣].

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٥٢.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٤/ ٣٥٩.
(٣) التحرير والتنوير، ٩/ ٩١.

٥. توبة داود عليه السلام.

ذكر الله تعالى نبأ خصمين اختصما عند داود في قضية جعلها الله فتنة له، وموعظة لخلل ارتكبه، فتاب الله عليه، وغفر له، وقيّض له هذه القضية، فقال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ٢١ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ٢٢ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ٢٣ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ ۩ ٢٤ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ [ص: ٢١-٢٥].

فسأل داود ربه غفران ذنبه، وخرّ ساجدًا لله، ورجع إلى رضا ربه، وتاب من خطيئته[٤]، وهذا الذنب الذي صدر من داود عليه السلام، لم يذكره الله لعدم الحاجة إلى ذكره، فالتعرض له من باب التكلف، وإنما الفائدة ما قصه الله علينا من لطفه به وتوبته وإنابته، وأنه ارتفع محله، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها[٥].

(٤) جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٦٤.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي

٦. توبة يونس عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧ -٨٨].

أي: واذكر عبدنا ورسولنا ذا النون وهو: يونس، أي: صاحب النون، وهو الحوت، بالذكر الجميل، والثناء الحسن، فإن الله تعالى أرسله إلى قومه، فدعاهم، فلم يؤمنوا، فوعدهم بنزول العذاب بأمد سمّاه لهم، فجاءهم العذاب ورأوه عيانًا، فعجّوا إلى الله، وضجّوا وتابوا، فرفع الله عنهم العذاب، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾[يونس: ٩٨].

وقال: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات١٤٧-١٤٨].

وهذه الأمة العظيمة، الذين آمنوا بدعوة يونس من أكبر فضائله، ولكنه عليه الصلاة والسلام، ذهب مغاضبًا، وأبق عن ربه لذنب من الذنوب، التي لم يذكرها الله لنا في كتابه، ولا حاجة لنا إلى تعيينها؛ لقوله: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾[الصافات: ١٤٠]. ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾[الصافات: ١٤٢].

أي: فاعل ما يلام عليه، وظن أن الله لا يضيّق عليه في بطن الحوت، فركب في السفينة مع أناس، فاقترعوا، من يلقون منهم في البحر؟ لما خافوا الغرق إن بقوا كلهم، فأصابت القرعة يونس، فالتقمه الحوت، وذهب به إلى ظلمات البحار، فنادى في تلك الظلمات: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فأقرّ لله تعالى بكمال الألوهية، ونزّهه عن كل نقص، وعيب وآفة، واعترف بظلم نفسه وجنايته، ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ أي الشدة التي وقع فيها ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا وعد وبشارة لكل مؤمن وقع في شدة وغم أن الله تعالى سينجيه منها، ويكشف عنه ويخفف لإيمانه كما فعل بـيونس عليه السلام[1].

ثانيًا: التوبة على الثلاثة الذين خلّفوا:

أخبر سبحانه وتعالى عن توبته على الثلاثة الذين خلّفوا من الأنصار، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾

[التوبة: ١١٨].

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٢٩.

يخبر سبحانه وتعالى عن الثلاثة الذين خلّفوا عن غزوة تبوك -وهم كعب بن مالك، وهلال بن أميّة، ومرارة بن الربيع- حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بسعتها غمًا وندمًا على تخلفهم عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وضاقت عليهم أنفسهم بما نالهم من الوجد والكرب بذلك، وأيقنوا بقلوبهم أن لا شيء لهم يلجئون إليه مما نزل بهم من أمر الله من البلاء بتخلفهم خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم ينجّيهم من كربه، ولا مما يحذرون من عذاب الله إلا الله. ثم رزقهم الإنابة إلى طاعته، والرجوع إلى ما يرضيه عنهم؛ لينيبوا إليه ويرجعوا إلى طاعته والانتهاء إلى أمره ونهيه، إن الله هو الوهاب لعباده الإنابة إلى طاعته، الموفّق من أحب توفيقه منهم لما يرضيه عنه، الرحيم بهم أن يعاقبهم بعد التوبة، أو يخذل من أراد منهم التوبة والإنابة ولا يتوب عليه[1].

قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ لما كان هذا القول في تعديد نعمه بدأ في ترتيبه بالجهة التي هي عن الله عز وجل ؛ ليكون ذلك منبّهًا على تلقي النعمة من عنده لا رب غيره، ولو كان القول في تعديد ذنب لكان الابتداء بالجهة التي هي عن المذنب، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]؛ ليكون هذا أشد تقريرًا للذنب عليهم، وهذا من فصاحة القرآن وبديع نظمه ومعجز اتساقه.. وإنما عظم ذنبهم واستحقوا عليه ذلك؛ لأن الشرع يطلبهم من الجد فيه بحسب منازلهم منه وتقدّمهم فيه؛ إذ هم أسوة وحجة للمنافقين والطاعنين، إذ كان كعب من أهل العقبة وصاحباه من أهل بدر. وفي هذا ما يقتضي أن الرجل العالم والمقتدى به أقل عذرًا في السقوط من سواه[2].

وفي الآية: دليل على أن توبة الله على عبده بحسب ندمه وأسفه الشديد.

وقد ذكر البخاري في صحيحه حديث كعب بن مالك وهو أحد الثلاثة الذين تاب الله عليهم، عن عبد الرّحمن بن عبد اللّه بن كعب بن مالكٍ عن أبيه قال: سمعت أبي كعب بن مالكٍ وهو أحد الثّلاثة الّذين تيب عليهم أنّه لم يتخلّف عن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم في غزوةٍ غزاها قطّ غير غزوتين، غزوة العسرة، وغزوة بدرٍ، قال: فأجمعت صدقي رسول اللّه صلى الله عليه وسلم ضحًى، وكان قلّما يقدم من سفرٍ سافره إلّا ضحًى، وكان يبدأ بالمسجد فيركع ركعتين، ونهى النّبيّ صلى الله عليه وسلم عن كلامي وكلام صاحبيّ، ولم ينه عن كلام أحدٍ من المتخلّفين غيرنا، فاجتنب النّاس كلامنا،

(١) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٥٤.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٩٤.

فلبثت كذلك حتّى طال عليّ الأمر، وما من شيءٍ أهمّ إليّ من أن أموت فلا يصلّي عليّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم، أو يموت رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فأكون من النّاس بتلك المنزلة، فلا يكلّمني أحدٌ منهم ولا يصلّي ولا يسلّم عليّ، فأنزل اللّه توبتنا على نبيّه صلى الله عليه وسلم حين بقي الثّلث الآخر من اللّيل، ورسول اللّه صلى الله عليه وسلم عند أمّ سلمة، وكانت أمّ سلمة محسنةً في شأني معنيّةً في أمري، فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: (يا أمّ سلمة، تيب على كعبٍ). قالت: أفلا أرسل إليه فأبشّره، قال: (إذًا يحطمكم النّاس فيمنعونكم النّوم سائر اللّيلة). حتّى إذا صلّى رسول اللّه صلى الله عليه وسلم صلاة الفجر آذن بتوبة اللّه علينا وكان إذا استبشر استنار وجهه حتّى كأنّه قطعةٌ من القمر، وكنّا أيّها الثّلاثة الّذين خلّفوا عن الأمر الّذي قبل من هؤلاء الّذين اعتذروا حين أنزل اللّه لنا التّوبة، فلمّا ذكر الّذين كذبوا رسول اللّه صلى الله عليه وسلم من المتخلّفين واعتذروا بالباطل ذكروا بشرّ ما ذكر به أحدٌ، قال اللّه سبحانه: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾[1].

ثالثًا: توبة حفصة وعائشة رضي الله عنهما:

أخبر سبحانه وتعالى عن حفصة وعائشة رضي الله عنهما أنه وجد منهما ما يوجب التوبة حيث مالت قلوبهما إلى محبة ما كرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم، من إفشاء سرّه.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ۝ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾[التحريم: ٣-٤].

«يقول تعالى ذكره: إن تتوبا إلى الله أيتها المرأتان فقد مالت قلوبكما إلى محبة ما كرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم من اجتنابه جاريته، وتحريمها على نفسه، أو تحريم ما كان له حلالًا مما حرمه على نفسه بسبب حفصة»[2].

فلما سمعن -رضي الله عنهن- هذا التخويف والتأديب، بادرن إلى رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، سورة براءة، ١٤/ ٢٤٨، رقم ٤٣٠٩.

(٢) جامع البيان، الطبري، ٢٣/ ٩٣.

الأسلوب القرآني في الحث على التوبة

تنوعت أساليب القرآن في الحث على التوبة على النحو الآتي:

أولًا: أسلوب الطلب:

قال تعالى على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في طلبهما التوبة من الله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨].

قوله تعالى: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا﴾ استتابة لذريتهما وحكايتها عنهما لترغيب الكفرة في التوبة والإيمان، أو توبةٌ لهما عما فرط منهما سهوًا، قالاه هضمًا لأنفسهما وإرشادًا لذريتهما، ﴿إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ وهو تعليلٌ للدعاء، ومزيد استدعاء للإجابة، قيل: إذا أراد العبد أن يستجاب له فليدع الله عز وجل بما يناسبه من أسمائه وصفاته[(١)].

ففي هذا الدعاء إرشاد للمؤمنين للاقتداء بإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في طلب التوبة من الله تعالى.

ثانيًا: أسلوب الأمر:

قال تعالى آمرًا عباده بالتوبة مما يقع منهم من تقصير: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١/ ١٦١.

أي: وارجعوا أيها المؤمنون إلى طاعة الله فيما أمركم ونهاكم، من غضّ البصر، وحفظ الفرج، وترك دخول بيوت غير بيوتكم من غير استئذان ولا تسليم، وغير ذلك من أمره ونهيه[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا﴾ أمر. ولا خلاف بين المسلمين في وجوبها، وأنها فرض من فرائض الدين[(٣)].

وهو دعوة للمؤمنين والمؤمنات إلى التوبة إلى الله، والرجوع إليه من قريب؛ حيث إن الإنسان في هذه المواقف معرّض للزلل والعثار، من خطرات نفسه، أو نظرات عينه، أو فحش لسانه، إلى غير هذا مما لا يكاد يسلم منه أحد، وليس لهذا من دواء إلا التوبة إلى الله من كل زلّة أو عثرة.. فإن هذه التوبة هي التي تصحّح للمؤمن إيمانه، وتبقي على ما في قلبه من جلال وخشية لله رب العالمين[(٤)].

وفي الآية: أمر بالتوبة مطلقًا من كل شيء صغير وكبير.

وأمر الله المؤمنين بالتوبة النصوح، ووعد عليها بتكفير السيئات، ودخول الجنات، والفوز والفلاح.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى

(٢) جامع البيان، الطبري، ١٧/ ٢٧٣.
(٣) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٣٠.
(٤) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٩/ ١٢٦٩.

﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾[التحريم: ٨].

أمر بالتوبة، وهي فرض على الأعيان في كل الأحوال وكل الأزمان(١).

قال العلماء: التوبة النصوح هي: أن يقلع عن الذنب في الحاضر، ويندم على ما سلف منه في الماضي، ويعزم على أن لا يفعل في المستقبل، ثم إن كان الحق لآدمي رده إليه بطريقه(٢).

وكان من أساليب الرسل في دعوة أقوامهم أمرهم بالتوبة: قال موسى عليه السلام لقومه: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾[البقرة: ٥٤]. أي: خالقكم.

وقال هود عليه السلام آمرًا قومه بالتوبة: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣].

وقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾[هود: ٥٢].

وقال صالح عليه السلام آمرًا قومه بالتوبة: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾[هود: ٦١].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤].

قال الفراء: «هذا أمر في لفظ الاستفهام»(٣).

ثالثًا: أسلوب الترغيب والترهيب:

قال تعالى في سياق الحديث عن المنافقين مرغّبًا لهم في التوبة، ومرهّبًا لهم إن أعرضوا عنها كعادة القرآن في ذكر الترهيب بعد الترغيب والعكس: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[التوبة: ٧٤].

هو تنبيه لهؤلاء الضالّين، وإشارة مضيئة تطلع في ليلهم المطبق عليهم؛ رجاء أن يتوبوا إلى الله، ويستقيموا على طريق الحقّ، فإن فعلوا رشدوا وأمنوا، وإن أبوا، ضلوا وهلكوا، وأخذهم الله بالعذاب الأليم في الدنيا، بما يصيبهم على يد المؤمنين من خزى وبلاء، وبعذاب السعير في الآخرة، حيث لا ولىّ لهم، ولا نصير، يردّ عنهم بأس

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٨/ ١٩٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ١٩٠.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٢/ ٤٠٩.

الله الواقع بهم[1].

رابعًا: الأسلوب الخبري:

أخبر سبحانه وتعالى أنه يتوب على عباده كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦].

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٣].

وإظهار اسم الجلالة في قوله: ﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ﴾ وكان الظاهر إضماره؛ لزيادة العناية بتلك التوبة؛ لما في الإظهار في مقام الإضمار من العناية[2].

ومن أمثلة الأسلوب الخبر: الإخبار عن محبة الله للتائبين.

فقد أخبر الله سبحانه وتعالى أنه يحب من يرجع إليه تائبًا من ذنوبه، وهذا من لطفه بعباده، وحثًا للاقتداء بهم.

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٥/ ٨٤٨.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١٣٢.

قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

أي: من ذنوبهم على الدوام[3].

فهي دعوة إلى التزام الطريق القويم لمن كان قد انحرف عنه، وأتى المرأة من غير المأتى الطبيعي لها، فباب التوبة مفتوح لمن أناب إلى الله والتزم حدوده، فالتوبة تغسل الحوبة.. وليس مصيبة الإنسان في أن يخطيء ويزل، فالإنسان بحكم أنه بشرٌ عرضة للخطأ والزلل، ولكن المصيبة ألّا يتأثّم من الإثم، ولا يتحرج من الانحراف، فيقيم على إثمه، ويصر على انحرافه، وليس يستنقذ الإنسان من أن يحيط به ذنبه إلّا أن يرجع إلى الله من قريب، وأن يلقاه نادمًا تائبًا، هنالك يجد من ربه رحمة ومغفرة، ورضى ورضوانًا[4].

وقد روى مسلم بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم (للّه أشدّ فرحًا بتوبة أحدكم من أحدكم بضالّته إذا وجدها)[5].

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٠٠.

(٤) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١/ ٢٥٤.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التّوبة، باب في الحضّ على التّوبة والفرح بها، ٤/ ٢١٠٢،

ومن أمثلة الأسلوب الخبري: الثناء على التائبين.

فأخبر الله سبحانه وتعالى أن من صفات المؤمنين الذين لهم البشارة بدخول الجنة أنهم الراجعون عما كرهه الله إلى ما يحبه ويرضاه؛ وذلك حثًّا لعباده على الاقتداء بهم.

قال تعالى: ﴿التَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[التوبة: ١١٢].

التائبون: هم الراجعون عن الحالة المذمومة في معصية الله إلى الحالة المحمودة في طاعة الله، والتائب هو الراجع. والراجع إلى الطاعة هو أفضل من الراجع عن المعصية لجمعه بين الأمرين[(١)].

«والتوبة شعور بالندم على ما مضى، وتوجّهٌ إلى الله فيما بقي، وكفٌّ عن الذنب، وعمل صالح يحقق التوبة بالفعل كما يحققها بالترك. فهي طهارة وزكاة، وتوجّهٌ، وصلاح»[(٢)].

وفي سياق تهديد زوجات النبي صلى الله عليه وسلم بالطلاق وإبداله خيرًا منهن من النساء اللاتي من صفاتهن أنهن راجعات إلى ما يحبه الله من طاعته، حثًّا للمؤمنات على الاقتداء بهن في الخيرية، قال تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾[التحريم: ٥].

والتوبة هي الندم على ما وقع من معصية، والاتجاه إلى الطاعة[(٣)].

رقم ٢٦٧٥.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٨/ ٢٦٩.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٧١٩.

(٣) المصدر السابق، ٦/ ٣٦١٦.

ثمرات التوبة وعاقبة الإعراض عنها

للتوبة إلى الله ثمرات، وللمعرضين عنها عاقبة، نتناولهما فيما يلي:

أولًا: ثمرات التوبة:

ذكر القرآن ثمرات للتوبة؛ لحض العباد على المسارعة إليها، منها:

١. الفلاح في الدنيا والآخرة.

علّق الله سبحانه وتعالى الفلاح على التوبة، فقال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١]

فمن سبل الفلاح التوبة، وهي الرجوع مما يكرهه الله، ظاهرًا وباطنًا، إلى ما يحبه ظاهرًا وباطنًا، ودل هذا أن كل مؤمن محتاج إلى التوبة؛ لأن الله خاطب المؤمنين جميعًا، وفيه الحث على الإخلاص بالتوبة في قوله: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: لا لمقصد غير وجهه، من سلامة من آفات الدنيا، أو رياء وسمعة، أو نحو ذلك من المقاصد الفاسدة[(١)].

٢. دعاء حملة العرش للتائبين.

ذكر سبحانه وتعالى دعاء الذين يحملون عرش الرحمن من الملائكة ومن حول العرش ممن يحف به منهم، بالمغفرة للذين تابوا من الشرك والمعاصي.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾[غافر: ٧].

أي: فاصفح عن المسيئين إذا تابوا وأنابوا، وأقلعوا عما كانوا فيه، واتبعوا ما أمرتهم به من فعل الخيرات وترك المنكرات[(٢)].

٣. المتاع الحسن.

ذكر الله سبحانه وتعالى أن هودًا عليه السلام دعا قومه أن يسألوا الله أن يغفر لهم ذنوبهم، ثم يرجعوا إليه نادمين يمتعهم في دنياهم متاعًا حسنًا بالحياة الطيبة فيها، إلى أن يحين أجلهم.

قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾[هود: ٣].

أي: استغفروا ربكم، ثم توبوا إليه، فإنكم إذا فعلتم ذلك بسط عليكم من الدنيا، ورزقكم من زينتها، وأنسأ لكم في آجالكم إلى الوقت الذي قضى فيه عليكم الموت[(٣)].

وهذه القاعدة التي يقررها القرآن في مواضع متفرقة، قاعدة صحيحة تقوم على أسبابها من وعد الله، ومن سنة الحياة،

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٥٦٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ١١٩.

(٣) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٣١٣.

كما أن الواقع العملي يشهد بتحققها على مدار القرون. والحديث في هذه القاعدة عن الأمم لا عن الأفراد. وما من أمة قام فيها شرع الله، واتجهت اتجاهًا حقيقيًا لله بالعمل الصالح والاستغفار المنبيء عن خشية الله، ما من أمة اتقت الله وعبدته وأقامت شريعته، فحققت العدل والأمن للناس جميعًا، إلا فاضت فيها الخيرات، ومكّن الله لها في الأرض، واستخلفها فيها بالعمران وبالصلاح سواء[1].

ووصف المتاع «بالحسن» إنما هو لطيب عيش المؤمن برجائه في الله عز وجل وفي ثوابه وفرحه بالتقرب إليه بمفترضاته والسرور بمواعيده[2]. وفي الآية دلالة على أن ثمرة الاستغفار والتوبة سعة الرزق ورغد العيش.

٤ . إبدال السيئات حسنات.

ذكر الله سبحانه وتعالى أن من تاب من الذنوب توبة نصوحًا وآمن إيمانًا جازمًا مقرونًا بالعمل الصالح، فأولئك يمحو الله عنهم سيئاتهم ويجعل مكانها حسنات؛ بسبب توبتهم وندمهم.

قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

أي: تتبدل أفعالهم وأقوالهم السيئة تتبدل حسنات، فيتبدل شركهم إيمانًا، ومعصيتهم طاعة، وتتبدل نفس السيئات التي عملوها ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة وإنابة وطاعة تبدّل حسنات[3]، وهو فيض من عطاء الله لا مقابل له من عمل العبد إلا أنه اهتدى ورجع عن الضلال، وثاب إلى حمى الله، ولاذ به بعد الشرود والمتاهة[4].

وفي الآية دلالة على أن باب التوبة دائمًا مفتوح، يدخل منه كل من استيقظ ضميره، وأراد العودة والمآب، لا يصد عنه قاصد، ولا يغلق في وجه لاجئ، أيًا كان، وأيًا ما ارتكب من الآثام.

وقد روى مسلم بسنده عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم **(إنّي لأعرف آخر أهل النّار خروجًا من النّار، وآخر أهل الجنّة دخولًا إلى الجنّة، يؤتى برجلٍ فيقول: نحّوا كبار ذنوبه، وسلوه عن صغارها، قال: فيقال له: عملت يوم كذا، كذا وكذا، وعملت يوم كذا، كذا وكذا، فيقول: نعم لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئًا، فيقال: فإنّ لك بكلّ سيّئةٍ حسنةً، فيقول: يا ربّ عملت أشياء لا أراها هاهنا)** قال: فضحك رسول اللّه صلى الله عليه

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٦/ ٣٧١٣.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٣/ ١٤٩.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٥٨٧.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٢٥٧٩.

وسلم حتى بدت نواجذه[1].

٥. الإمداد بالمطر وقت الحاجة إليه.

أخبر سبحانه وتعالى أن هودًا عليه السلام قال لقومه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾[هود: ٥٢].

يقول سبحانه: «فإنكم إن آمنتم بالله، وتبتم من كفركم به، أرسل قطر السماء عليكم، يدرّ لكم الغيث في وقت حاجتكم إليه، وتحيا بلادكم من الجدب والقحط، ورزقكم المال والولد»[2].

قيل: إنهم «كانوا أصحاب زروع وبساتين، وعمارات، حراصًا عليها أشد الحرص، فكانوا أحوج شيء إلى الماء، وكانوا مدلين بما أوتوا من هذه القوة والبطش والبأس، مهيبين في كل ناحية»[3].

في الآية دلالة على أن من ثمرة التوبة حياة البلاد من الجدب والقحط، وحياة العباد بزيادة الأموال والأولاد.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان باب، ما أدنى أهل الجنة منزلة، رقم ٣٠٨.
(٢) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٤٤٤.
(٣) البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ١٦٦.

ثانيًا: عاقبة المعرضين عن التوبة:

ذكر القرآن الكريم عاقبة المعرضين عن التوبة، والتي منها:

١. عذاب جهنم.

عرض الله سبحانه وتعالى على من قتل أولياءه التوبة، وهدّدهم إن لم يتوبوا بالعذاب الشديد، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾[البروج: ١٠].

أي: ثم لم يتوبوا، أي لم يقلعوا عما فعلوا، ويندموا على ما أسلفوا، ﴿فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل، قال الحسن رحمه الله: انظروا إلى هذا الكرم والجود، هم قتلوا أولياءه وأهل طاعته، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة[4].

وفي الآية تعريض للمشركين بأنهم إن تابوا وآمنوا سلموا من عذاب جهنم[5].

٢. استحقاق العقاب.

وأخبر سبحانه وتعالى أن على العبد أن يتوب إلى الله تعالى، ويخرج من حق أخيه المسلم، باستحلاله، والاستغفار، والمدح له مقابل ذمه، وإلا أصبح ظالمًا لنفسه مستحقًا لعقاب الله.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ٣٦٥.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٢٤٦.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[الحجرات: ١١].

قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، «يقول تعالى ذكره: ومن لم يتب من نبزه أخاه بما نهى الله عن نبزه به من الألقاب، أو لمزه إياه، أو سخريته منه، فأولئك هم الذين ظلموا أنفسهم، فأكسبوها عقاب الله بركوبهم ما نهاهم عنه»[1].

وإذا كان كل من السخرية واللمز والتنابز معاصٍ فقد وجبت التوبة منها، فمن لم يتب فهو ظالم؛ لأنه ظلم الناس بالاعتداء عليهم، وظلم نفسه بأن رضي لها عقاب الآخرة مع التمكن من الإقلاع عن ذلك، فكان ظلمه شديدًا جدًّا. فلذلك جيء له بصيغة قصر الظالمين عليهم، كأنه لا ظالم غيرهم؛ لعدم الاعتداد بالظالمين الآخرين في مقابلة هؤلاء على سبيل المبالغة ليزدجروا. والتوبة واجبة من كل ذنب، وهذه الذنوب المذكورة مراتب، وإدمان الصغائر كبيرة[2].

٣. العذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

دعا الله سبحانه المنافقين الذين أساءوا للرسول صلى الله عليه وسلم وحاولوا الإضرار به وارتدوا عن الإسلام أن يرجعوا إلى الإيمان والتوبة، فإن رجعوا فهو خير لهم، وإن يعرضوا، أو يستمروا على حالهم، يعذّبهم الله العذاب الموجع في الدنيا على أيدي المؤمنين، وفي الآخرة بنار جهنم، قال تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾[التوبة: ٧٤].

أي: وإن يستمروا على طريقهم ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: بالقتل والهم والغم، ﴿وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ أي: بالعذاب والنكال والهوان والصغار، ﴿وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ أي: وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم، لا يحصّل لهم خيرًا، ولا يدفع عنهم شرًا[3].

وفي الآية دليل على قبول توبة الزنديق المسرّ الكفر، المظهر للإيمان، وهو مذهب أبي حنيفة والشافعي. وقال مالك: لا تقبل، فإن جاء تائبًا من قبل نفسه قبل أن يعثر عليه قبلت توبته بلا خلاف[4].

(١) جامع البيان، الطبري، ٢١/ ٣٧٣.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٦/ ٢٥٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ١٦١.
(٤) البحر المحيط، أبو حيان، ٥/ ٤٦٦.

٤ . العذاب الكبير .

دعا هود عليه السلام قومه للرجوع إلى الله نادمين، وهدّدهم إن أعرضوا عمّا يدعوهم إليه فسوف يحل عليهم عذاب كبير، وهو يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾[هود: ٣].

«يقول تعالى ذكره: وإن أعرضوا عما دعوتهم إليه من إخلاص العبادة لله، وترك عبادة الآلهة، وامتنعوا من الاستغفار لله، والتوبة إليه فأدبروا مولين عن ذلك، فإني أيها القوم أخاف عليكم عذاب يوم كبير شأنه، عظيم هوله»[١]، ووصفه بالكبير لزيادة تهويله[٢].

موضوعات ذات صلة:

الاستغفار، الاستقامة، الذنب

(١) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٣١٥.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١١/ ٣١٩.





عناصر الموضوع

مفهوم التوحيد

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (وح د) تدل على الانفراد[1].

والوَحْدة: الانفراد[2].

و(أحد) اسم الله جل ثناؤه، لا يوصف شيء بالأحدية غيره؛ لأن أحدًا صفة من صفات الله التي استأثر بها، فلا يشركه فيها شيء، وليس كقولك: (الله واحد)، و(هذا شيء واحد)، لأنه لا يقال: شيء أحد[3].

والتوحيد: الإيمان بالله تعالى وحده لا شريك له[4].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحيّ:

عرف الجرجاني التوحيد بأنه: معرفة الله تعالى بالربوبية، والإقرار بالوحدانية، ونفي الأنداد عنه جملة[5].

وعرفه السعدي بأنه: العلم والاعتراف بتفرد الرب بصفات الكمال والإقرار بتوحده بصفات العظمة والجلال أو إفراده وحده بالعبادة[6].

ولم تأت مفردة (التوحيد) بهذه الصيغة في القرآن الكريم، وإنما استعمل القرآن الكريم جذرها (و ح د) في معانٍ أخرى، لا صلة لها بموضوع البحث.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ٩٠.
(٢) الصحاح، الجوهري ٢/ ٥٤٧.
(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٥/ ١٢٧.
(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٥٤٧.
(٥) التعريفات ص٦٩.
(٦) القول السديد ص٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ الشرك:

الشرك لغة:

مأخوذ من شرك، ومنه: (أشرك بالله: كفر أي: جعل له شريكًا في ملكه تعالى الله عن ذلك)[1]، وقد يأتي بمعنى المخالطة والنصيب، لكن المراد هنا هو الكفر.

الشرك اصطلاحًا:

تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائصه سبحانه[2].

الصلة بين الشرك والتوحيد:

الشرك هو الظلم العظيم، ولا يغفره الله لصاحبه -إن مات عليه-؛ لأنه يناقض أصل التوحيد، ويخرج صاحبه عن الملة، ويحبط عمله ويخلّده في النار.

٢ الإلحاد:

الإلحاد لغة:

مادة (ل ح د) تدل على معنى ميل عن استقامة، فيقال: (لحد السهم عن الهدف)، أي: عدل عنه، ولحد الرجل في الدين: طعن وحاد عنه وعدل وجادل وماري. ولحد، أي: مال عن طريق القصد، وجار وظلم[3].

والملحد: «الطاعن في الدين المائل عنه»[4].

الإلحاد اصطلاحًا:

هو: «الميل، والجور، والانحراف عن الإسلام، أو الإيمان»[5].

الإلحاد المعاصر: الإلحاد المصطلح عليه في هذا العصر يعني: إنكار وجود الله، والقول بأن الكون وجد بلا خالق، وأن المادة أزلية أبدية، واعتبار تغيرات الكون قد تمت بالمصادفة، أو بمقتضى طبيعة المادة وقوانينها، واعتبار ظاهرة الحياة، وما تستتبع من شعور وفكر عند

(١) تاج العروس، الزّبيدي، ٢٧/ ٢٢٤.
(٢) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، نخبة من العلماء، ص ٥٨.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس٥/ ١٩٠، المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٩٥، مختار الصحاح، الرازي ص٢٤٧.
(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٢٨٥٠.
(٥) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٩/ ١٧٢.

الإنسان، من أثر التطور الذاتي في المادة[١].

الصلة بين الإلحاد والتوحيد:

العلاقة بينهما علاقة تضاد، فالملحد انحرف عن التوحيد والدين القويم.

٢ العبادة:

العبادة لغةً:

من الفعل عبد يعبد، عبادةً وعبوديةً، والمفعول: معبود، وعبد الله بمعنى وحّده وأطاعه، وانقاد وخضع وذلّ له، والتزم شرائع دينه، وأدّى فرائضه[٢].

العبادة اصطلاحًا:

قال المناوي: «العبادة فعل المكلف على خلاف هوى نفسه؛ تعظيمًا لربه، وقيل: هي الأفعال الواقعة على نهاية ما يمكن من التذلل والخضوع المتجاوز لتذلل بعض العباد لبعض، ولذلك اختصّت بالرب، وهي أخص من العبودية التي تعني مطلق التذلل»[٣].

وقال الراغب: «العبودية: إظهار التّذلل، والعبادة أبلغ منها؛ لأنها غاية التّذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى»[٤].

الصلة بين العبادة والتوحيد:

وعلاقة العبادة بالتوحيد علاقة واضحةٌ، فالله جل وعلا هو المستحق للعبادة دون سواه، وتفريده جل وعلا بالعبادة على اختلاف صورها هو حقيقة التوحيد (توحيد الإلهية) وهو مضمون شهادة: لا إله إلا الله.

---

(١) انظر: التعريفات الاعتقادية، سعد آل عبد اللطيف ص ٥٨، الألفاظ والمصطلحات المتعلقة بتوحيد الربوبية، آمال العمرو ص ٣٢٧.

(٢) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ٢/ ١٤٤٨.

(٣) التوقيف، ص ٢٣٤.

(٤) المفردات، ص ٣١٨.



التوحيد حقيقة فطرية

القلوب مفطورة على حب خالقها وتأليهه:

إن الإيمان بوجود الله جل وعلا والإيمان بوحدانيّته تعالى في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، له دلائله الكثيرة، وشواهده المتعددة، وفي مقدّمة هذه الدلائل والشواهد (الفطرة)، إن التوحيد حقيقةٌ فطريّةٌ قبل أن يكون معرفةً نظريّةً جدليّةً، وإنّ أرقّ أساليب الإقناع وأبلغ أساليب الإذعان بأصول الإيمان: إحالة المخاطبين إلى فطرهم وغرائزهم[1]، وكذلك كان منهج القرآن الكريم في اعتماده دليل (الفطرة) في معالجة قضايا التوحيد.

لقد جاءت كلمة (الفطرة) بلفظها مرة واحدة في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وقد فسّر العلماء (الفطرة) بمعانٍ مختلفةٍ متقاربةٍ، وأنسبها في هذا المقام أنّ المقصود بـ(الفطرة): هو الشعور المغروس في النفس الإنسانية بوجوده سبحانه، وبتوحيده سبحانه وتعالى بربوبيته وألوهيته، إن هذه الغريزة الدينية المركوزة في داخل كل إنسان منذ بداية خلقه، هي البوصلة التي توجّه قلبه وعقله إلى توحيد الله تعالى قبل أيّ دليلٍ آخر[2].

والسنة النبوية أيضًا تؤكد ذلك: أن الله تعالى قد خلق الإنسان مؤمنًا بربه، متّجهًا إليه بفطرته بالطاعة والعبادة، وأنّ غايته هي تحقيق العبودية والتوحيد، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: (كلّ مولودٍ يولد على الفطرة)، وفي روايةٍ: (على هذه الملّة)، (فأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه)، وفي رواية: (ويشرّكانه)، (كما تولد البهيمة بهيمةً جمعاء، هل تحسّون فيها من جدعاء؟!، حتّى تكونوا أنتم تجدعونها) قالوا: يا رسول الله؛ أفرأيت من يموت منهم وهو صغيرٌ؟، قال: (الله أعلم بما كانوا عاملين)، ثمّ يقول أبو هريرة رضي الله عنه: واقرءوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠][3].

(١) انظر: منهج الشيخ محمد رشيد رضا في العقيدة، تامر متولي ص ١٦٦.

(٢) العقائد الإسلامية، سيد سابق ص ٤٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، رقم ١٣٥٨، ٢/ ٩٤، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، رقم ٢٦٥٨، ٤/ ٢٠٤٧.

فلم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث: (يسلمانه)؛ لأنّ الإسلام موافقٌ للفطرة[1].

بل هو الفطرة المركوزة في النفس الإنسانية، وهو الوضع الطبيعي لها، فلا يحتاج إذًا لتأثير الأبوين، أما باقي المذاهب الإلحادية فهي تغطي الفطرة، وتنكّسها وتصادمها؛ لذلك فهي لا تأتي على النفس من داخلها، إنما تأتي بمؤثر خارجي[2].

ويضرب الرسول صلى الله عليه وسلم لذلك مثلًا محسوسًا، وهو ولادة البهيمة سالمةً من العيب، ثم يطرأ عليها العيب بعد ذلك بجناية الإنسان.

يقول ابن القيم رحمه الله: «فجمع عليه الصلاة والسلام بين الأمرين: تغيير الفطرة بالتّهويد والتّنصير، وتغيير الخلقة بالجدع، وهما الأمران اللذان أخبر إبليس أنه لابدّ أن يغيّرهما، فغيّر فطرة الله بالكفر، وهو تغيير الخلقة التي خلقوا عليها، وغيّر الصورة بالجدع والبتك، فغيّر الفطرة إلى الشّرك، والخلقة إلى البتك والقطع، فهذا تغيير خلقة الرّوح، وهذا تغيير خلقة الصورة».

ويقول كذلك: «فالقلوب مفطورةٌ على حبّ إلهها وفاطرها وتأليهه، فصرف ذلك التألّه والمحبّة إلى غيره تغييرٌ للفطرة»[3].

وبما أن معرفة الله وتوحيده فطرةٌ في النفوس؛ لذلك لمّا شك الأقوام المكذبون لرسلهم في الدعوة لتوحيد الله، استغرب الرسل هذا الشك فقالوا: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾؟! [إبراهيم: ١٠].

الفطرة السليمة والعقل الصحيح ينطقان الإنسان بتوحيد الخالق:

والمخاطبون حين نزول القرآن يعرفون ربهم الذي خلقهم، وتنطق فطرهم بالحق عندما تسأل، ويؤازر هذه الفطرة العقل الصحيح؛ إذ جعله الله تعالى نورًا للإنسان.

قال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤- ٨٩].

ويقول تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١].

وقد أدرك الأعرابيّ بفطرته السليمة وعقله الصحيح أنّ هذه المخلوقات العظيمة، من أرض وسماء، وليل ونهار،

(١) شرح الطحاوية، ابن أبي العزّ ١/ ٣٤.
(٢) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ٢٦.
(٣) إغاثة اللهفان، ابن القيم ١/ ١٠٧.

وشمس وقمر، وإنسان وحيوان، ونبات وكواكب، ورياح وسحاب، وغيرها، تدل على الخالق تبارك وتعالى، حيث قال: «البعرة تدلّ على البعير، والأثر يدلّ على المسير، ليلٌ داجٍ، ونهارٌ ساجٍ، وسماءٌ ذات أبراجٍ، أفلا تدلّ على الصانع الخبير؟!»[1].

الفطرة تنطق الحيوان والجمادات أيضًا بالتوحيد:

وهذه الغريزة الفطرية لم تكن مقتصرة على النفوس البشرية وحدها، بل حتى الطير والجمادات وغيرها، قد فطرها ربّها وخالقها على تسبيحه وتحميده وتنزيهه، نطقًا لا يفهمه إلاّ الذي أنطقها.

قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾[الحج: ١٨].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«والمقصود إذا كانت هذه الجمادات قد فطرت على معرفة ربها وتسبيحه وتنزيهه، والإنسان أشرف منها، فلأن يفطر على معرفته بربه بطريق الأولى والأحرى؛ لما ركّب فيه من العقل والتمييز والفطنة»، إلى أن يقول: «وهذا الهدهد طير من الطيور، وفي نظرنا عديم العقل، يصيح كغيره من الطيور، قد خاطب سليمان بأعظم التوحيد، وأعلمه بغير ذلك، فقال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢].

إلى قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٦].

هذا كله كلام الهدهد، كما اتفق على ذلك المفسرون» اهـ[2].

منهج القرآن في الدعوة إلى التوحيد بتحريك الفطرة وإيقاظها:

وحيث إن القرآن الكريم يعتبر هذه القضية -قضية معرفة وجود الله والإيمان به وتوحيده- أمرًا فطريًا في النفوس البشرية السليمة، وحقيقة بدهية لا تحتاج إلى جدال أو نقاش، فكل إنسان عاقل يدرك بنفسه هذه الحقيقة، بما أودعه الله تعالى فيه من فطرة يحس بها، دون الحاجة إلى منهج إضافي يسلكه لمعرفة ربه خالقه ورازقه؛ لذلك

(١) منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، حمود الرحيلي ص ٣٣٨.

(٢) المصدر السابق ص ٣٣٩- ٣٤٠.

فإنّ منهج القرآن الكريم ومسلكه في هذه القضية، البدء بالفطرة يوقظها، ويذكّرها بما هو مغروس في أعماقها؛ ليجد أنها معترفة ومقرة بوجود الخالق العظيم، وأنها في ذلك لا تحتاج إلى دليل.

والدلائل التي تحرّك هذه الفطرة، وتشير إلى وجود الله تعالى أكثر من أن تحصى، إنها تنبعث من كل شيء على وجه الأرض، بل ومن كل شيء في السماء، أضف إلى ذلك النظام البديع، والدقة المتناهية في صنع هذه المخلوقات، والترتيب في سيرها وحركتها، فيدرك الإنسان بعقله وبصيرته أنّ هذا النظام وذلك الإبداع، لا يمكن أن يحدث من غير محدث، أو يوجد من غير موجد؛ لأنّ تلك المخلوقات عاجزة عن إيجاد ذلك النظام الدقيق، والترتيب المحكم من تلقاء نفسها[1].

قيمة التزام التوحيد والتديّن الصحيح في إرواء الفطرة:

ولأن عقيدة التوحيد ليست غريبةً عن الفطرة أو مغايرة لها، بل هي تلائم الفطرة وتنميها ولا تصادمها، فهي العقيدة الوحيدة التي تستطيع أن تشبع الجوعة الفطرية التي لا تشبعها النظم الفلسفية، ولا المذاهب الوثنية، ولا السلطان السياسي، ولا الثراء المالي[2].

فمهما استعلنت المذاهب المادية الإلحادية وتزخرفت، ومهما تعددت الأفكار والنظريات، فلن تغني الأفراد والمجتمعات عن الدين الصحيح، ولن تستطيع أن تلبي متطلبات الروح والجسد، بل كلما توغل الفرد فيها أيقن تمام اليقين أنها لا تمنحه أمنًا، ولا تروي له ظمأ، وألا مهرب منها إلا إلى الدين الصحيح.

فالتدين الحق -الذي يعتمد على إفراد الله بالتوحيد، والتعبد له وفق ما شرع- هو عنصر ضروري للحياة؛ ليحقق المرء من خلاله عبوديته لله رب العالمين، ولتحصيل سعادته وسلامته من العطب والنصب والشقاء في الدارين، وهو ضروري لتكتمل القوة النظرية في الإنسان، فبه وحده يجد العقل ما يشبع نهمته، ومن دونه لا يحقق مطامحه العليا، وهو عنصر ضروري لتزكية الروح وتهذيب قوة الوجدان؛ إذ العواطف النبيلة تجد في الدين مجالًا ثرًا، ومنهلًا لا ينفد معينه تدرك فيه غايتها[3].

(١) المصدر السابق ص ٣٣٦.

(٢) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ٢٦.

(٣) الإسلام أصوله ومبادئه، محمد السحيم ٢/ ٤٨-٥٠.

انحراف الفطرة وتشوّهها بجناية الإنسان والشيطان:

وقد يقال هنا: لو كان التوجّه إلى الله أمرًا فطريًا حقًّا، لما عبد النّاس في مختلف العصور آلهةً شتى، فهذا واقعٌ مسلّمٌ به يخالف المدّعى.

والجواب: أنّ الفطرة -كما سبق- تدعو المرء إلى الاتجاه إلى الخالق، لكنّ الإنسان تحيط به مؤثرات كثيرة تجعله ينحرف، ففيما يغرسه الآباء في نفوس الأبناء، وفيما يلقيه الكتّاب والمعلمون والباحثون في أفكار الناشئة ما يبدّل هذه الفطرة ويقذرها، ويلقي عليها غشاوة، فلا تتجه إلى الحقيقة.

وقد يقال: إذا تركنا الطفل من غير أن نؤثّر في فطرته، هل يخرج موحدًا عارفًا بربّه؟!، فنقول: إذا ترك شياطين الإنس البشر، ولم يدّنسوا فطرهم، فإنّ شياطين الجنّ لن يتركوهم، فقد أخذ الشيطان على نفسه العهد بإضلال بني آدم.

قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣][1].

وأعطي الشيطان القدرة على أن يصل إلى قلب الإنسان، كما في الحديث الصحيح: **(إنّ الشّيطان يجري من ابن آدم مجرى الدّم، وإنّي خشيت أن يقذف في قلوبكما شرًّا) أو** قال: **(شيئًا)**[2].

والقرآن الكريم وصف الشيطان المطلوب الاستعاذة منه بأنه: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٥].

وقد صحّ أيضًا أنّ لكل إنسان قرينًا من الجنّ، يأمره بالشرّ، ويحثه عليه، وفي القرآن الكريم: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٢٧].

وكما أمدّ الله الإنسان بملكٍ يهديه ويؤيده، فإنه كذلك يمدّه بشيطانٍ يوسوس له، ويزيّن له السّوء، ويغريه بالمنكر، ويدعوه إلى الفتنة، يستوي في ذلك الأنبياء وغيرهم.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢][3].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم من عندي ليلًا، فغرت عليه، فجاء فرأى ما أصنع، -وفي روايةٍ: فأدخلت يدي في شعره-، فقال: **(ما لك يا عائشة، أغرت؟)**، قلت: وما لي لا يغار مثلي على مثلك؟ فقال: **(أقد جاءك شيطانك؟)**، قلت: يا رسول الله، أو معي

(١) العقيدة في الله، عمر الأشقر ص ٦٩-٧٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب التكبير والتسبيح عند التعجب، رقم ٦٢١٩، ٨/٤٨، عن صفية أم المؤمنين رضي الله عنها.

(٣) العقائد الإسلامية، سيد سابق ص ١٤٣.

شيطانٌ؟ قال: (نعم)، قلت: ومع كلّ إنسانٍ شيطانٌ؟ قال: (نعم)، قلت: ومعك يا رسول الله؟، قال: (نعم، ولكن ربّي أعانني عليه حتّى أسلم)[1].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(ما منكم من أحدٍ إلا وقد وكّل به قرينه من الجنّ) قالوا: وإيّاك يا رسول الله؟ قال: (وإيّاي، إلاّ أنّ الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلاّ بخيرٍ)**[2].

وشياطين الجنّ يقومون بدورٍ كبيرٍ في إفساد الفطرة وتدنيسها؛ لأنّ أعمالهم تتّجه دائمًا إلى التمرّد على الله، وإلى التفريق والتمزيق والتخريب والتدمير، وقطع ما أمر الله به أن يوصل، ووصل ما أمر الله به أن يقطع، فما من شر في الأرض ولا فساد في الوجود، إلا ولهم به صلة.

وهم الذين زيّنوا للأمم السابقة سوء العمل، وحسّنوا لهم الكفر والمعاصي، ودعوهم إلى تكذيب الرّسل ومخالفة أوامر الله، ولا تزال هذه أعمالهم[3].

قال تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ٦٣].

وعن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم في خطبته: **(ألا إنّ ربّي أمرني أن أعلّمكم ما جهلتم ممّا علّمني يومي هذا، كلّ مالٍ نحلته عبدًا حلالٌ، وإنّي خلقت عبادي حنفاء كلّهم، وإنّهم أتتهم الشّياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا...) إلى آخر الحديث**[4].

فالشياطين هي التي دعت إلى تحريف الدّين، والخروج على الفطرة، وإلى الإشراك بالله، وحرّمت الحلال، وأحلّت الحرام، ولا تزال الشياطين تقعد للإنسان بكلّ طريقٍ صادّةً عن سبيل الله، ومحاولةً صرفه عن جلائل الأعمال.

ففي حديث سبرة بن فاكهٍ (أو: أبي فاكهٍ) رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(إنّ الشّيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: تسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك؟!، فعصاه فأسلم، ثمّ قعد له بطريق الهجرة، فقال: تهاجر وتدع أرضك وسماءك؟!،**

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة، باب تحريش الشيطان وبعثه، رقم ٢٨١٥، ٤/ ٢١٦٨.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة، باب تحريش الشيطان وبعثه، رقم ٢٨١٤، ٤/ ٢١٦٧.

(٣) العقيدة في الله، عمر الأشقر ص ١٤٠.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، رقم ٢٨٦٥، ٤/ ٢١٩٧.

وإنّما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطّول، فعصاه فهاجر، ثمّ قعد له بطريق الجهاد، فقال: تجاهد فهو جهد النّفس والمال، فتقاتل فتقتل، فتنكح المرأة، ويقسم المال، فعصاه فجاهد)، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فمن فعل ذلك كان حقًّا على الله عز وجل أن يدخله الجنّة، ومن قتل كان حقًّا على الله عز وجل أن يدخله الجنّة، وإن غرق كان حقًّا على الله أن يدخله الجنّة، أو وقصته دابّته كان حقًّا على الله أن يدخله الجنّة)[1].

والشيطان هو الذي قام بدور رئيس في محاولة القضاء على دعوة الإسلام في أول صدام له مع أعدائه.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

وهذا الشيطان هو الذي يزين لكل فرد ما تهفو إليه نفسه، ويميل إليه هواه من حب للجنس، أو طمع في المال، أو حرصٍ على المنصب، أو تطلّع إلى الجاه، أو إيثار للاستبداد، أو ميل إلى الطغيان، بل إنه ليتسلط على المتدينين أنفسهم؛ ليزيدوا في شرع الله، أو ينقصوا منه؛ ليطوّعوا الدين لأهوائهم، ويخضعوه لشهواتهم.

وهو الذي يغري العداوة والبغضاء بين الناس، فيفرّق بين الأخ وأخيه، وبين الزوج والزوجة، وبين طوائف الأمة وجماعاتها، وهو الذي يوقد نيران الحروب بين الأمم والشعوب، وينفخ فيها لتهلك الحرث والنسل، وتأتي على الأخضر واليابس.

وكلما كان الشيطان أقدر على الشر، كان أقرب منزلة وأعلى قدرًا لدى رئيسه إبليس لعنه الله.

عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(إنّ إبليس يضع عرشه على الماء، ثمّ يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلةً أعظمهم فتنةً.. يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئًا، قال: ثمّ يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتّى فرّقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه ويقول: نعم أنت)**[2].

إن كل ما يعانيه الإنسان من فتن وويلات،

---

(١) أخرجه أحمد، رقم ١٥٩٥٨، ٢٥/ ٣١٥، والنسائي في سننه الصغرى، كتاب الجهاد، باب ما لمن أسلم وهاجر وجاهد، رقم ٣١٣٤، ٦/ ٢١.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٢٩٧٩، ٦/ ١١٨٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة، باب تحريش الشيطان وبعثه، رقم ٢٨١٣، ٤/ ٢١٦٧.

إنما هو من نتاج إبليس وجنوده الأشرار[1].

وعودٌ على بدءٍ، فلأجل كلّ هذا الانحراف الناشئ عن الدّخائل المبطلة من جنايات الإنسان والشيطان في تلويث الفطرة، فقد جاء تمام الآية الكريمة في الفطرة قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

فكثيرٌ من الناس قد فقدوا الاعتقاد والمعرفة والإدراك لتلك الحقيقة العظيمة المرتبطة بحياة البشر ودينهم وأعمالهم[2].

المصائب قد تجلو الفطرة وتصحّح مسارها:

وكثيرًا ما تنكشف الحجب عن الفطرة المشوّهة؛ فتزول عنها الغشاوة التي رانت عليها، عندما تصاب بمصاب أليم، أو تقع في مأزق لا تجد فيه من البشر عونًا، وتفقد أسباب النجاة، فكم من ملحد عرف ربّه وآب إليه عندما أحيط به، وكم من مشرك أخلص دينه لله لضرٍّ نزل به.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢][3].

ومهما بلغ الإنسان في الطغيان والكفر والعناد، تبقى هذه الفطرة لا يستطيع القضاء عليها مهما كابر في ذلك، وتظل دلائلها تظهر وهو يشعر أو لا يشعر.

قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

وفرعون أجرم طاغية في البشر؛ أنكر وجود الله، ودعا الناس إلى عبادته، وهدد موسى عليه السلام إن اتخذ إلهًا غيره، قال له موسى عليه السلام كما قصّ الله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢].

ثم كانت العاقبة أن قال فرعون وهو في أحضان الموج وقد أدركه الغرق: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠][4].

أقدمية التوحيد وأسبقيته على الشرك:

وإذا كان التوحيد حقيقةً فطريّة، فمن البدهيّ أن يكون الأصل في البشرية هو

(١) العقائد الإسلامية، سيد سابق ص ١٤٠-١٤٣.

(٢) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، عثمان ضميرية ص ٢.

(٣) حماية الرسول صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد، محمد الغامدي ص ٢٠٠.

(٤) العقيدة في الله، عمر الأشقر ص ٧١.

التوحيد، وأن يكون الشرك انحرافًا طارئًا دخيلًا عليها، فالتوحيد له أقدميته وأسبقيته على الشرك، خلافًا لما تقول به بعض النظريات الضالّة في تطوّر الأديان.

لقد حكى الله تعالى في القرآن الكريم أن أبا البشرية الأول آدم عليه السلام وذريته كانوا على التوحيد، يتبعون منهجًا إلهيًّا منزّلًا إليهم من ربهم تبارك وتعالى، فهم أول البشر، يدينون بالتوحيد الخالص، وبذلك يكون التوحيد سابقًا للشرك، وليس تطوّرًا عنه، ولم يعرف الشرك والانحراف إلا بعد قرون، حينما انحرف القوم عن دين الله وتوحيده، فبعث الله تعالى لهم نوحًا عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩][1].

بل لقد بيّن الله سبحانه أن البشرية كانت أول أمرها على التوحيد ثم طرأ عليها الشرك وتعدد الآلهة في آية واضحةٍ، وهي قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقد روى الحاكم في المستدرك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان بين نوحٍ وآدم عشرة قرونٍ كلّهم على شريعةٍ من الحقّ، فاختلفوا فبعث الله النّبيّين مبشّرين ومنذرين»، قال: «وكذلك في قراءة عبد الله: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ فاختلفوا»[2].

ويؤيد هذا التفسير لهذه الآية، الآية الأخرى في سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ١٩].

وعن قتادة قال: «ذكر لنا أنه كان بين آدم ونوح عليهما السلام عشرة قرون كلهم على الهدى وعلى شريعةٍ من الحق، ثم اختلفوا بعد ذلك؛ فبعث الله عز وجل نوحًا، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض»[3].

وجمهور المفسرين يقولون بأن الناس كانوا أمة واحدة على الهدى والتوحيد، فظهر فيهم الشرك عن طريق تعظيم الموتى، فبعث الله إليهم رسله؛ ليردوهم إلى التوحيد، قال

(١) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، عثمان ضميرية ص ٢١٧.

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، ذكر نوح النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ٤٠٠٩، ٢/ ٥٩٦.
وصححه الحاكم على شرط البخاري، ولم يتعقبه الذهبي.

(٣) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ١/ ٢١٥.

الطبري: «إن دليل القرآن واضحٌ على أن الذين أخبر الله عنهم أنهم كانوا أمة واحدة، إنما كانوا أمة واحدة على الإيمان ودين الحق دون الكفر بالله والشرك به. وذلك أن الله -جل وعز- قال في السورة التي يذكر فيها (يونس): ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ١٩].

فتوعّد جلّ ذكره على الاختلاف، لا على الاجتماع، ولا على كونهم أمة واحدة، ولو كان اجتماعهم قبل الاختلاف كان على الكفر ثمّ كان الاختلاف بعد ذلك، لم يكن إلا بانتقال بعضهم إلى الإيمان، ولو كان ذلك كذلك، لكان الوعد أولى بحكمته جل ثناؤه في ذلك الحال من الوعيد؛ لأنها حال إنابة بعضهم إلى طاعته، ومحالٌ أن يتوعّد في حال التوبة والإنابة، ويترك ذلك في حال اجتماع الجميع على الكفر والشرك»[1].

ورجّح ابن كثير أيضًا قول ابن عباس وقتادة معلّلًا ترجيحه بقوله: «لأن الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام؛ فبعث الله إليهم نوحًا عليه السلام، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض»، ويقول: «ثم أخبر الله تعالى أن هذا الشرك حادث في الناس كائن بعد أن لم يكن، وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد، وهو الإسلام،...، ثم وقع الاختلاف بين الناس، وعبدت الأصنام والأنداد والأوثان؛ فبعث الله الرسل بآياته وبيناته وحججه البالغة وبراهينه الدامغة»[2].

ونقول أيضًا أنه لا عجب في ذلك ولا غرابة؛ لأن الإنسان كلّما كان قريبا من النبع، كان الماء أكثر صفاءً ونقاءً، وكلما ابتعد عن النبع، وجد الماء أقلّ صفاءً ونقاءً؛ لما يطرأ عليه من الأذى، وما يداخله من القذى، والشوائب التي تنصبّ فيه، وهكذا كانت البشرية الأولى على الفطرة والتوحيد؛ لقرب عهدها بربها تعالى، ثم اختلطت بعد ذلك الينابيع، وتضافرت العوامل التي أدّت إلى الانحراف عن التوحيد، فكان ظهور الشرك طارئًا بعد ذلك التوحيد، وكان انحرافًا عنه[3].

تفنيد مزاعم تطور الأديان من الشرك إلى التوحيد:

يزعم بعض الباحثين الغربيين -ممّن يسمّون بعلماء مقارنة الأديان-، وكذلك مقلدتهم من الكتاب المسلمين بأن الشرك سابق على التوحيد، وأن عبادة الإله قد تطورت من جيل إلى جيل، حتى وصلت

(١) جامع البيان، الطبري ٤/ ٢٨٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٥٧.

(٣) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، عثمان ضميرية ص ٢٢٠.

إلى التوحيد الخالص، حتى زعم بعضهم أن عقيدة الإله الأحد عقيدة جد حديثة، وأنها وليدة عقلية خاصة بالجنس السامي.

وقد اعتمد هؤلاء على نظرية التطور والارتقاء، حيث قاسوا التوحيد في حياة البشر على نمو وتطور العلوم والصناعات التي تنمو وتتطور بسبب الجهد البشري[1].

وقد يظن بعض المسلمين أن في ذلك ترقيًا للإنسان وتزكية للإسلام؛ لأنهم يزعمون أن البشرية لما كانت في حال من التأخر كانت تعبد آلهة متعددة، ولما ترقّت وتقدّمت أصبحت تعبد إلهًا واحدًا؛ فنشأت ديانات التوحيد، يظنون ذلك ويدافعون عنه، وإننا لنأسف كل الأسف لانخداعهم بهذه الأفكار الغربية، وتبنيهم لتلك النظرية الملحدة[2].

ولا يخفى أن هذه الأباطيل فيها إنكار سافر لكل ما سبق من الوحي السماوي والسنة النبوية، علاوةً على منافاتها للفطرة والمنطقِ في مكابرةٍ صارخةٍ، ولو كان هناك تطورٌ حقًا -كما تقول هذه النظريات-، لكان من الطبيعي والمنطقي أن يكون هذا التطور من الوحدة إلى الكثرة؛ لأن الواقع يدل على ذلك، فأنت عندما تبدأ بالعدّ والحساب -مثلًا- تبدأ بالواحد وتنتهي بما بعده من كثرة، وليس العكس[3].

أما استدلال القائلين بأسبقية الوثنية على التوحيد بآثار الحفريات التي زعموا بأنها تدل على أن الناس في بادئ الأمر قد تدينوا بالوثنية، ثم تطورت عباداتهم مع تطورهم الفكري، فإن ذلك ما هو إلا مجرد التخمينات والتخرصات الوهمية، والتي لا تقاوم القرآن الكريم، والسنة الثابتة.

ومن الممكن والمعقول جدًا أن تكون تلك الآثار التي اكتشفوها قد وقعت لذرية آدم عليه السلام، وقد حدث الشرك الأول كما أشرنا في قوم نوحٍ عليه السلام، والدليل متى تطرق إليه الاحتمال، فلا يصح أن يكون دليلًا يحتج به، فكيف وأدلتهم تصطدم بنصوص القرآن والسنة؟![4].

(١) منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، حمود الرحيلي ١/ ٥٨.

(٢) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، عثمان ضميرية ص ٢٢١.

(٣) المصدر السابق ص ٢٢٠.

(٤) منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، حمود الرحيلي ١/ ٦٥-٦٨.

التوحيد أساس دعوة جميع الرسل

إن الدعوة إلى الإيمان بالله تبارك وتعالى، وتقرير توحيده، وتنزيهه عن الند والصاحبة والولد، وإفراده بالعبادة، والتذلل إليه، والانقياد لأمره وحكمه، هي القضية الأساسية التي من أجلها بعث الله جميع أنبيائه ورسله، وقد جاء ذلك واضحًا جليًا فيما قصه الله تعالى علينا في القرآن الكريم من دعوة الرسل إلى أممهم وأقوامهم[1]، يقول ابن أبي العز الحنفي رحمه الله: «اعلم أنّ التّوحيد أوّل دعوة الرّسل، وأوّل منازل الطّريق، وأوّل مقامٍ يقوم فيه السّالك إلى اللّه عز وجل»[2].

ويلاحظ أن الجانب الأهم في دعوة الرسل عليهم السلام هو توحيد الله تعالى بالعبادة وإفراده بها، فلم يبعثهم الله لدعوة الناس إلى مجرد الإيمان بالله وأنه خالقهم، إذ هم مقرّون بذلك تناسقًا مع الفطرة التي فطرهم الله تعالى عليها، ولم تكن قضية وجود الله في يوم من الأيام هي القضية التي يقف الناس عندها، إلا في فترات قليلة، ولظروف خاصة عند بعض الأوروبيين الذين عرف عنهم الإلحاد، وحاولوا أن يجدوا له فلسفة خاصة؛ تبريرا لانحرافهم وفساد فطرتهم[3].

ولا ريب أن توحيد الربوبية لم ينكره المشركون، بل أقرّوا بأنه -سبحانه وحده- خالقهم، وخالق السموات والأرض، والقائم بمصالح العالم كله، وإنما أنكروا توحيد الإلهيّة والمحبّة، كما قد حكى الله تعالى عنهم في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[البقرة: ١٦٥].

فلما سووا غيره به في هذا التّوحيد كانوا مشركين، كما قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

وقد علّم الله سبحانه وتعالى عباده كيفية مباينة الشّرك في توحيد الإلهيّة، وأنه تعالى حقيق بإفراده وليًّا وحكمًا وربًّا، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[الأنعام: ١٤].

وقال: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ [الأنعام: ١١٤].

وقال: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الأنعام: ١٦٤].

(١) المصدر السابق ١/ ٦٩.
(٢) شرح الطحاوية، ابن أبي العز ١/ ٢١.
(٣) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، عثمان ضميرية ص ٣٠٥.

فلا وليّ ولا حكم ولا ربّ إلاّ الله، الذي من عدل به غيره، فقد أشرك في ألوهيّته -ولو وحّد ربوبيّته-، فتوحيد الربوبيّة هو الذي اجتمعت فيه الخلائق مؤمنها وكافرها، وتوحيد الإلهيّة مفرق الطرق بين المؤمنين والمشركين[1].

ولذلك حكى الله تعالى عن الأقوام السابقين تعجّبهم من دعوة الأنبياء إلى التوحيد وعبادة الله تعالى وحده.

قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠].

أي: لنفرده بالعبادة ونخصه بها من دون آلهتنا؟! فلم ينكروا إلا طلب الرسل منهم إفراد العبادة لله، ولم ينكروا الله تعالى، ولا قالوا: إنه لا يعبد، بل أقروا بأنه يعبد، وأنكروا كونه يفرد بالعبادة، فعبدوا مع الله غيره وأشركوا معه سواه واتخذوا معه أندادا، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

فأرسل الله الرسل تأمر بترك عبادة كل ما سواه، وتبين أن هذا الاعتقاد الذي يعتقدونه في الأنداد باطل، وأن التقرب إليهم باطل، وأن ذلك لا يكون إلا لله وحده، وهذا هو توحيد العبادة، وقد كانوا مقرّين بتوحيد الربوبية، وهو أن الله هو الخالق وحده والرازق وحده.

ولقد قرر القرآن الكريم هذا المعنى وأكده بطريقين:

الأول: الطريق الإجمالي.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

فهذا تعميم على سبيل الحصر، بأن كل رسول قد أوحي إليه أن الله تعالى متصف بالوحدانية، لا إله إلا الله، ومستحق للتوحيد، وذلك في قول الله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾؛ أي: أفردوني بالعبادة؛ لأني متفرد بالألوهية.

وقال تعالى في هذا المعنى أيضًا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل: ٣٦].

هذه الآية تقرر أن الله تعالى قد بعث في كل أمة رسولًا، وكان أول دعوة كل رسول في كل أمة: أن اعبدوا الله ولا تشركوا به الطواغيت، والطواغيت: كل ما يعبد من دون الله تعالى، وهو مشتق من الطغيان.

وننوه إلى أن هذا الطريق الإجمالي في إثبات القرآن الكريم أن توحيد العبادة هو أساس دعوة الرسل، له صيغتان مختلفتان ومدلولهما واحد، ونمثّل لهما بقوله تعالى: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾[الأعراف: ٥٩].

---

(١) تجريد التوحيد المفيد، المقريزي ص ٧-٨.

وقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود: ٢].

فإن مدلول الصيغة الأولى: الأمر بعبادة الله، وتقرير أن ليس هناك إله يعبد غيره، ومدلول الصيغة الثانية: النهي عن عبادة غير الله، فالقرآن الكريم دعا لعبادة الله، ونهى عن عبادة غيره؛ لأن النفس البشرية بحاجة إلى النصّ القاطع على شطري هذه الحقيقة، فلم يكتف القرآن بالنهي الضمنيّ المفهوم من الأمر الصريح- على ما هو مقرر في علم الأصول من: «أن الأمر بالشيء نهيٌ عن ضده الذي لا يجتمع معه»، بل أتى بالنهي الصريح عن عبادة غير الله؛ لأن كثيرًا من الناس يعبدون الله ويعبدون معه غيره، فيقعون في الشرك ويحسبون أنهم مسلمون[(١)].

الثاني: الطريق التفصيلي الاستقرائي:

هذا الطريق يذكر فيه القرآن الرسل بأسمائهم، وكيف كان التوحيد رأس دعوتهم جميعًا، ومن ذلك:

١. ما جاء في قصة نوح عليه السلام وهو أول رسول من أولي العزم بعث إلى أهل الأرض. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

٢. قال تعالى عن هود عليه السلام: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٦٥].

٣. ونفس الألفاظ قال تعالى عن صالح عليه السلام: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٣].

٤. وهي الألفاظ التي جاءت على لسان شعيب عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾[الأعراف: ٨٥].

٥. أما إبراهيم عليه السلام فقد تحدّث القرآن بتفصيل وافر عن دعوته إلى النبوة، وتحدث القرآن عن دعوة إبراهيم بشتى الصيغ والأساليب، في المواقف المتعددة والأحوال المختلفة، ولعل السر في توسيع حديث القرآن عن إبراهيم عليه السلام أنه أبو الأنبياء الذين جاءوا بعده صلى الله عليه وسلم وعلى الرسل أجمعين. وكان اليهود والنصارى والعرب يعترفون بنبوته وأبوته لهم، بل ويعتزون بالانتساب إلى إبراهيم عليه السلام، وبذلك تقوم الحجة على المتسبين إليه جميعًا الذين انحرفوا عن دين الحق، ووقفوا في دروب من الوثنية الطامسة

---

(١) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ١٠٣.

الدامسة، وبذلك تسقط دعواهم أنهم على دين إبراهيم، كما قال تعالى ردًا عليهم مجتمعين: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]. ويقول تعالى عنه وعن المؤمنين معه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

٦. وكذلك يقول القرآن الكريم عن موسى عليه السلام وهو يدعو إلى وحدانية الله: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾ [طه: ١٣ - ١٤].

٧. وكذلك يخبر القرآن عن عيسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

٨. ويخبر القرآن عن دعوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى التوحيد، لقد بعث سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالدعوة العالمية الشاملة، وبالتقرير الأوفى، وبالبيان الأعلى في شأن الدين كله عامة، والتوحيد منه خاصة، وقد أمده القرآن الكريم بأتمّ الحجج والبراهين، وسجّل أقاويل الكفار وردود الوحي عليها؛ حتى تكون حجة الله بالغة باهرة إلى يوم الدين، وحتى لا تكون للناس على الله حجة بعد ختم النبوة؛ لأن القرآن صوتها الممدود ونداؤها الموصول، وفيه أكمل حديث عن التوحيد تقريرًا وإثباتًا، وردًّا على المشركين والملحدين، وإبطالًا للشرك وكل دروب الوثنية والانحراف عن التوحيد. ويكفي مثالًا لهذا ما أمره الله تعالى أن يقول للناس في كلمات جامعة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤].

فهذه السورة الكريمة على وجازتها جامعة لكل ما يليق بالله -تعالى وحده-، من صفات الكمال: أحدية، استغناء، تنزيه له عن الشركاء والأشباه، ثم هي مصحّحة لضلالات المشركين وأهل الكتاب في باب الاعتقاد[1].

(١) التفسير الموضوعي ج ١، جامعة المدينة ص١٣-١٦.

الربوبية والألوهية حقيقتا التوحيد

التوحيد هو إفراد الله بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته جميعًا:

(التوحيد) يعني اتصاف الله تعالى بالربوبية والألوهية والأسماء والصفات، و(التوحيد) يعني وجوب إفراده سبحانه وتعالى بالأمور الثلاثة، وهذه هي الحقيقة الشرعية للتوحيد: أن يؤمن العبد بأن الله تعالى هو وحده الرب، صاحب كل صفات التأثير والكمال، وأنه لذلك هو وحده الإله المستحقّ للعبادة والطاعة بلا شريك، وأنه لذلك هو الجدير وحده بالأسماء الحسنى والصفات العلا، فلا يصلح للمخلوق منها اسم ولا صفة، فإذا أقر العبد بأحد هذه الأركان الثلاثة فقط لم يكن موحدًا، وإنما يقال: هو مقرٌّ أو معترفٌ بأحدها، ولكن لا يصح أن يسمى موحدًا؛ لأن التوحيد هو مجموعها معًا.

ولهذا لم يطلق القرآن على الكفار أنهم موحدون توحيد الربوبية، حين أقروا أن الله تعالى هو الخالق المالك الرازق، وإنما سماهم كفارًا مشركين.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [يونس: ٣١-٣٤].

لقد سماهم القرآن كفارًا مشركين؛ لأنهم لم يأتوا بحقيقة التوحيد الجامعة، وإنما أقروا بوصفٍ منها، والتوحيد لا يقبل التجـزئة أصلًا، فمن أشرك في وصفٍ فقد أشرك في الكل؛ لأنه لم يأت بحقيقة مسمى التوحيد الشرعي الجامعة.

ولذلك يقول سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨][(١)].

الربوبية والألوهية إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا:

ولأجل هذا الترابط الوثيق بين وصفي الربوبية والألوهية، وائتلافهما في تكوين حقيقة التوحيد، نجد أن القرآن الكريم قد استعمل كل لفظ مكان الآخر، أي: هناك تلازم بين الربوبية والألوهية، فإذا ذكر أحدهما دل على الآخر، باعتبارهما وصفين متفردين لذات واحدة، ولا يليق أحدهما إلا بالله، فإذا ذكر الرب فهم منه استلزامًا أنه المستحق للعبادة والطاعة وحده، وإذا ذكر

(١) المصدر السابق ص ١٧-١٨.

الإله فهم منه استلزامًا أنه الخالق الرازق المالك؛ لأنه لا يكون إلهًا حقًّا إلا بهذه الصفات.

ومن أمثلة ذلك قول الله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠].

فالسؤال في أول الآية وقع عن أشياء تتصل بالخلق والرزق والقدرة والتدبير، وغيرها من صفات التأثير التي هي معنى لفظ الرب، فكان المقام يقتضي سؤالهم في آخر الآية عن ذلك، فيقال: أربٌّ مع الله؟!، لكن وقع السؤال بقوله: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾؛ لأن اللفظين متلازمان، لا فرق بينهما من حيث الواقع.

الإلهية تتضمن الربوبية، والربوبية تستلزم الإلهية:

ويلاحظ أن استعمال كلمة (إله) هنا في الآية السابقة قد جاء لحكمة عظيمة؛ لأنه جل وعلا قد سألهم عن محل النزاع مباشرة، والمعنى: أربٌّ يخلق ويرزق مع الله فيستحق التأليه معه؟!، ولما كان الخلق والرزق والتدبير ليس محل نزاع كثير، وإنما النزاع في عبادة غير الله؛ لذلك عاجلهم باستنكار اتخاذ آلهة مع الله تعالى[1].

ونضرب مثلًا آخر بقوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ٧٢].

والمقام يقتضي أن يقول: اعبدوا الله إلهي وإلهكم، لكن استعمل كلمة الرب مكان الإله؛ للتلازم التام بين الكلمتين. والحكمة هنا -والله أعلم- أن ذكر الرب فيه تصريح بعلة العبادة، وهو ما يتضمنه لفظ الرب من معاني الخلق والرزق... إلى آخره، والمعنى: اعبدوا الله الذي خلقكم ورزقكم وتولاكم في سائر أموركم.

بل ما رأيك أنّ هذا الرّبط بين العبادة وعلّتها -وهي الربوبية وما تتضمّنه من المعاني- قد نطق به أول أمر في القرآن الكريم!!

وهو قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١ - ٢٢].

فتأمل هاتين الآيتين العجيبتين في نظمهما، كيف أنّ الله تبارك وتعالى ذكر في البداية: الأمر بعبادته، وفي النهاية: النهي عن اتخاذ الأنداد والشركاء مع الله، وما بين البداية والنهاية: التعليل الصريح لذلك

---

(١) المصدر السابق ص ٢٣.

بتفرده تعالى خلقًا ورزقًا وتدبيرًا للكون.

ولنتأمل أخيرًا في سورة الناس، وكيف جاءت الاستعاذة فيها بالأسماء الحسنى الثلاثة: الربّ، والملك، والإله، مبيّنةً هذا التناسق والتواثق بين الربوبية والألوهية، فإنه لما قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ كان فيه إثبات أنه خالقهم وفاطرهم، فبقي أن يقال: لمّا خلقهم هل كلّفهم وأمرهم ونهاهم؟ قيل: نعم، فجاء: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ فأثبت الخلق والأمر ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فلما قيل ذلك، قيل: فإذا كان ربًّا موجدًا، وملكًا مكلفًا، فهل يحب ويرغب إليه، ويكون التوجه إليه غاية الخلق والأمر؟ قيل: ﴿إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: مألوههم ومحبوبهم، الذي لا يتوجّه العبد المخلوق المكلّف العابد إلا له، فجاءت الإلهيّة خاتمة وغاية، وما قبلها كالتوطئة لها[(١)].

أساليب القرآن في الدعوة للتوحيد

جاءت أساليب القرآن في الدعوة إلى التوحيد على غاية التفنن والإبداع؛ تلطفًا في استدعاء الناس إلى التوحيد، وتأليفًا لقلوبهم، ولفتًا لأسماعهم وأبصارهم، وإقامة للحجة عليهم بكل الأساليب، ولا شكّ أن في هذا التنويع والتفنّن ظهورًا فائقًا للسمو البلاغي والبياني للقرآن الكريم.

وتقريبًا للوقوف على شيءٍ من هذه الأساليب القرآنية الرفيعة نقسّمها إلى ما يلي:

أولًا: أسلوب الخبر المجرّد:

في كثير من الآيات القرآنية يقرر الله تبارك وتعالى حقائق التوحيد بأسلوب الخبر المجرد، تقريرًا سهلًا مباشرًا، ليس معزّزًا بالتوكيدات، ولا مشفوعًا بالمحاورات والتشبيهات، وكأنّ الحقّ تبارك وتعالى يلقي هذه الحقائق الإيمانية والأصول التوحيديّة إلى الفطرة النقيّة السويّة، التي لا تعرف المكابرة ولا الالتواء، أو كأن القرآن الكريم يعرّض بأولئك المشركين المعاندين، ويقول لهم بمفهوم الكلام دون منطوقه: إن حقائق التوحيد لهي أوضح من الشمس، كيف لا والدلائل عليها تحاصركم من كلّ جانب فطرةً وحسًّا وعقلًا وشرعًا؟! فجدير إذا أن ينزّل أولئك المعاندين المكابرين

(١) تجريد التوحيد المفيد، المقريزي ص ٩.

منزلة الخالين من العناد والمكابرة؛ فيلقى إليهم الكلام أيضًا خبرًا مجرّدًا؛ لأن معهم من الأدلّة ما يقطع كلّ شكٍّ، ويستدعي كل يقين.

والآيات التي نستطيع بها التمثيل لهذا الأسلوب كثيرة، وتكفينا الإشارة بقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الزمر: ٦٢-٦٣].

ثانيًا: أسلوب الخبر المؤكد:

من أساليب القرآن الكريم (التوكيد)، وهو أسلوبٌ قيمته البلاغية في تقوية الكلام ابتداءً، وإضفاء مزيدٍ من الصرامة في تقريره وإثباته؛ ليكون أدعى لقبول السامع واقتناعه، أو في مجابهة المتلقّي الجاحد المنكر بما يليق بحاله من مضادّةٍ له ومدافعة، والمؤكدات التي جاء بها القرآن الكريم في شأن الوحدانية والتوحيد كثيرة ومتنوعة؛ ومنها:

١. التأكيد بـ(إنّ).

٢. التأكيد باللام (لام التقوية).

٣. التأكيد بالقسم.

ومثالها جميعًا قوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ [الصافات: ١ - ٥].

٤. التأكيد بأساليب القصر.

كأسلوب النفي والاستثناء في قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل: ٢].

وأسلوب القصر بـ(إنما): ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنعام: ١٩].

وأسلوب القصر بالتقديم والتأخير، مثل قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥].

فتقديم المفعول (إياك) أفاد قصر العبادة على الله وحده، وأصل الجملة: نعبدك.

وكذلك أيضًا أسلوب القصر بتعريف طرفي الجملة: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾ [الشورى: ١٠].

فتعريف الخبر (ربّي) أفاد أنه مقصور على المبتدأ، أي: الربوبية مقصورة على الله تعالى[1].

(١) انظر: منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، حمود الرحيلي ١/ ٤٧٧.

ثالثًا: الأساليب الإنشائية:

من أساليب القرآن الكريم أيضًا في تقرير التوحيد: أسلوب الطلب، كالاستفهام التقريري أو الإنكاري، فهذا أسلوب قرآني عالٍ في نقاش المشركين، إنه يوالي عليهم الأسئلة ويترك لهم في كثيرٍ من الأحيان إجاباتها؛ ليصلوا إلى الحق بأنفسهم، ويلزمهم الحجة، ويقودهم إلى الصواب.

قال تعالى: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣].

وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩-٢٣].

والمعنى: أن هذه التي تسمونها آلهة ليس لها من حقيقة الألوهية أدنى نصيب، وإنما هي أسماء على غير حقائق، كالغول والعنقاء وغيرهما من الأشياء المتوهمة.

ولذلك يقول القرآن الكريم متحديًا المشركين: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الرعد: ٣٣].

والمعنى: أن الله تعالى رقيب وعليم بكل شيء، وقد جعل له المشركون شركاء لا حقيقة لهم، وإنما عبدوها بظنون من القول وأوهام من الفكر باطلة.

ويقول تعالى منددًا بالمشركين، الذين يعبدون الأوهام المطلقة، تحت هذه الأسماء المخترعة: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

ومن ذلك أيضًا: الأسلوب التلقيني، فيستعمل القرآن الكريم هذا الأسلوب في تلقين الجواب الظاهر، حيث إنه لوضوحه لا ينكره المشركون، بل يسلمون به، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٣-٦٤].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الرعد: ١٦].

وفي ذات الآية: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [سبأ: ٢٤].

ففي هذه الآيات: يأمر الله نبيه صلى

الله عليه وسلم أن يسألهم عمن ينجيهم من المخاطر، ومن رب السماوات والأرض، ومن يرزقهم، ويأمره بأن يجيب: «الله»؛ لاعترافهم أن آلهتهم لا تملك شيئًا من ذلك، وتلقينهم الجواب فيه إشارة إلى أنهم لا ينكرون ذلك، وليس عندهم جواب غيره، وأن سكوتهم عن الجواب لوضوحه فيه حجة عليهم؛ إذ إنهم ما داموا قد اعترفوا بأن فاعل ذلك هو الله، فلم يشركون به غيره؟ ومثل هذا الأسلوب يعجز الخلق كلهم عن الإتيان بمثله.

ومما يلتحق بهذا الأسلوب التلقيني: الجواب المباشر من الله تعالى على ألسنة خلقه من الملائكة أو الأنبياء وهم يدفعون عنهم دعاوى الألوهية والبنوة لله، فليسوا سوى عباد مكرمين، خاضعين لأمره، ولن يجرؤ واحد منهم على ادعاء الألوهية، أما من تجرأ منهم على تلك الدعوى؛ فجزاؤه جهنم؛ لأنه ظالم مبين، وهل هناك أقوى في هدم الدعوى من اعتراف هؤلاء العباد أنفسهم الذين يدعونهم أبناء، بأنهم ليسوا سوى عبيد خاضعين، ومن جرأة منهم على دعوى الألوهية، كان جزاؤه عذاب جهنم خالدا فيها.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء ٢٦ - ٢٩].

وعلى هذا النسق نفسه جرى في الرد على من زعم ألوهية المسيح، فقد جعل المسيح نفسه يتبرأ من ذلك وينفيه، إذ قال: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة ١١٦ - ١١٧][1].

رابعًا: أسلوب ضرب المثل:

كذلك أسلوب الأمثال، وهو باب واسع في القرآن الكريم، يقصد به تقرير المعاني في نفس السامع، وتصويرها في صورة محسوسة ملموسة، عن طريق التشبيه أو الاستعارة أو غيرهما من أساليب البيان، ولقد مدح الله جل وعلا كتابه باشتماله على

(١) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ٣٤٩، من بلاغة القرآن، أحمد البيلي ص ١٩٧.

أسلوب الأمثال فقال: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١ - ٤٣].

فقد ضرب الله تعالى مثلًا للذين يستنصرون بآلهة غير الله، صوّرهم فيه بأنهم يستنصرون بأضعف شيء، وكأنهم العنكبوت في بيتها الهش الذي تمزقه الريح، وتقتحمه الحشرات، ويعبث به الصبيان، فلا يغني عن أهله شيئًا.

وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

فهذان مثلان للمشرك في تخبطه وحيرته، وللموحد في راحته وسلامته، ولا يستويان أبدًا، كما لا يستوي عبد مملوك يسومه سادته لسوء أخلاقهم سوء العذاب، وعبد مملوك لمالكٍ واحدٍ لطيفٍ لا يشق عليه بكثرة الأوامر، واختلاف المذاهب والمشارب.

ويضرب الله الأمثال مبينا ضياع أعمال المشركين، وهو بهذه التشبيهات البليغة يدعوهم إلى التفكّر في العاقبة الخاسرة لأعمالهم -مهما كانت صالحة- ما دامت غير نابعةٍ من إيمانهم وتوحيدهم لله.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٣٩- ٤٠].

وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨].

ويضرب الله المثل بالمشركين أنفسهم، وما يعانونه من اضطراب العقيدة وفساد التصور، وما ينشأ عن ذلك من حيرة القلب، وقلق الضمير.

يقول تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ۗ قُلْ

﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١].

وحينًا يصوّرهم هلكى في أشد صور الهلاك وأفتكها، إذ يقول: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

وضرب الله سبحانه وتعالى مثلًا لقلب المؤمن الموحّد بالبلد الطيب، ومثلًا لقلب المشرك الكافر الذي لا ينبت فيه توحيد ولا إيمان بالبلد الخبيث، فقال تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨][1].

خامسًا: أسلوب المحاورة:

كذلك استخدم القرآن أيضًا أسلوب المحاورة، وهو الذي يورد فيه الحديث عن التوحيد من خلال حوار يجري بين طرفين أو أكثر؛ فيتقرر في النفس أكثر من الخبر المجرد، والمحاورات في القرآن كثيرةٌ، كمحاورات سيدنا إبراهيم عليه السلام مع أبيه آزر.

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤١- ٤٢] إلى آخر الآيات المتضمنة لهذه المحاورة.

فالآيات الكريمة تورد حوارًا بين إبراهيم عليه السلام وبين أبيه المشرك، فيسأل إبراهيم أباه: لم تعبد آلهة صماء عمياء لا تغني عنك شيئًا؟! هو سؤال يبين حقيقة هذه الآلهة الباطلة، ويتضمن صفات الله وحده بالعبادة، فهو السميع البصير الغني المغني عز وجل[2].

وكتلك المحاورة بين الرجلين المؤمن والكافر: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٣٥-٣٨].

ففي هذه المحاورة يصوّر الله جل وعلا مشهد الرجل الكافر بإزاء متجبّري قريش أو بني تميم، ومشهد الرجل المؤمن المقر بالربوبية الذي هو بإزاء بلال وعمار وصهيب وأقرانهم، وكيف أن الرجل المؤمن الذي خالطت قلبه بشاشة التوحيد؛ قد علم ما يجب عليه من شكر خالقه ورازقه.

وكتلك المحاورة الحادة يوم القيامة بين

---

(١) انظر: من بلاغة القرآن، أحمد البيلي ص ٢٠٠، عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ١٧٧.

(٢) التفسير الموضوعي ج ١، جامعة المدينة ص ٢٧.

فئتين من أهل الضلال: بين الضعفاء الأتباع، وبين المتبوعين السادة، والمحاورة الأخرى بين الشيطان وأتباعه من الإنس، وهم في دركات الجحيم، ينبّهنا الله تعالى سلفًا في قرآنه على بنود هذا الحوار بنوعيه؛ ليحذر العاقل، ويتجنّب الانزلاق مع دعاة السوء.

قال تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (٢١) وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢١-٢٢].

وفي هذه الآية الكريمة يرسم الله جل وعلا للمشرك صورته المستقبلية، وهو في حالٍ من الحسرة والندامة، عندما يتبرأ منه الشيطان الذي اتبعه، ويقع بينهما التلاوم والشجار؛ لعله يتبصّر؛ فيختار لنفسه مصيرًا خيرًا من هذا المصير![(١)].

(١) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١١٩١.

سادسًا: أسلوب القصة:

كذلك أيضًا أسلوب القصة، وهو أسلوب من أوسع أساليب القرآن في التوحيد وغيره، وقد عني القرآن بهذا الأسلوب وأكثر منه؛ لما في القصة من تأثير في النفوس، وسهولة في الحفظ، وانتشار وذيوع بين الناس.

وقد قصّ الله جل وعلا في القرآن الكريم من قصص الأنبياء وأخبارهم، وما تعرضوا له في سبيل الدعوة إلى التوحيد من صعابٍ ومشاقٍّ، وفي ثنايا ذلك: قص علينا القرآن الكريم محاوراتهم ومجادلاتهم مع ذوي الكفر والعناد والتجبّر، وما أظهره الله على أيدي رسله من باهر المعجزات، وصادق الأدلة.

وقد ألمحنا إلى بعض هذه القصص فيما سبق، ونضيف هنا تذكيرًا بقصة أصحاب الأخدود، وقصة أولئك القوم الموحدين المؤمنين الذين لقوا الموت في سبيل عقيدة التوحيد، وقد خلّد الله ذكرهم بهذه الآيات الكريمات، ولعن الكافرين أصحاب تلك الفعلة الشنيعة، مبيّنًا مصير الفريقين.

قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨)

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١-١٠].

لقد بيّن الله سبب قتلهم لهؤلاء المؤمنين وهو إيمانهم بالله العزيز الحميد، وعدم إيمانهم بالكفر والوثنية اليهودية وعقائدها المزيفة، والعبرة هنا موجهة بخاصة للكفار من أهل مكة، في هذه القصة القريبة العهد منهم، إما أن يكفوا عن إيذاء محمد وأصحابه المؤمنين الموحدين، ويدخلوا في دينه؛ فيكون لكم جنات تجري من تحتها الأنهار، وإما أن يستمروا على إيذائهم الموحدين من المؤمنين والسخرية بهم، كما صنع ذو نواس بالموحدين، فعندئذ يدخلون مع اليهود في اللعنة والغضب، والوعيد الشديد بعذاب جهنم وعذاب الحريق[1].

الأدلة القرآنية على صحة التوحيد

لقد استوعب القرآن الكريم الاستدلال على صحة عقيدة الوحدانية، وأنها الحق المبين، وأن كل شريك أو معبود مع الله هو كذب وافتراء، بل كلها أصنام وأوهام لا حق فيها، بل لا حقيقة لها في باب الألوهية، ولم يترك القرآن الكريم دليلًا يصلح لخطاب البشر إلا أورده على أتم الوجوه؛ حتى لا نقول: إنه لم يسق الدليل على صحة الوحدانية أو وجوب التوحيد فقط، وإنما أوجب على الناس أن يتدبروا هذه الأدلة، وأن يفهموها ويحصلوها -ولو إجمالًا-؛ حتى يكونوا على بينة في أعظم حقائق الوجود، وحتى يكون إيمانهم على غاية الاستقرار؛ ولذلك نوّع الأدلة في هذا تنويعًا عجيبًا؛ حتى تناسب جميع الناس على اختلاف مستوياتهم وعصورهم[2].

أولًا: الأدلة الوجدانية:

المقصود بالأدلة الوجدانية، أي: النفسية أو الداخلية، هي التي تعتمد في انتزاع الدليل على الوجدانية من داخل الإنسان، لا من خارجه، ومن أعماق شعوره الداخلي ووجدانه الباطني، لا من مدركات حواسه المعروفة.

(١) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ٢٢٩.

(٢) التفسير الموضوعي ج ١، جامعة المدينة ص ٢٨- ٢٩.

وهذا الدليل بالغ الأهمية للإنسان، وفي قضية الإيمان بالذات؛ حتى يحاط به من خارجه ومن داخله جميعًا؛ فتمتلئ نفسه يقينًا لا يتسرب إليه ريب ولا قلق، وكم من إنسان امتلأ عقله بالمعارف والأرقام وفنون الإحصاء، وامتلأ عقله بعجائب هذا الكون، ولكنه يمضي متبلّد الإحساس، والسبب في ذلك تعطل وجدانه الداخلي، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

ومن هنا اهتم القرآن العظيم ببيان هذا الدليل النفسي، وساق الآيات؛ تذكيرًا للناس بهذا الجانب الفذ، الذي أهملوه وعطّلوه وطمروه تحت ركام من الشبهات والشهوات، التي رانت على قلوبهم؛ فأظلمتها وأماتتها.

ونجتزئ بهذه الإشارة إلى دليل الفطرة، فقد تقدّم له فيما سبق مزيد شرح واستفاضة.

ثانيًا: الأدلة الكونية الحسية، والتذكير بنعم الله فيها:

آيات الله جل وعلا وعجائبه في خلقه كثيرة وعظيمة، وأنّى التفت الإنسان ببصره وجد دليل وحدانية الله تعالى ماثلًا أمامه، وإذا مني الإنسان لسببٍ أو آخر بجفاف الفطرة وضمورها، فلم يعد صوتها المنادي له بالتوحيد يصل إلى آذان قلبه، فإنّ القرآن الكريم يرشد الإنسان إلى أدواتٍ أخرى قد تسعفه وتنقذه من ورطة الغيّ والضلال، لقد زوّد الله الإنسان بمداركه وقواه الحسّيّة من سمعٍ وبصرٍ وذوقٍ وشمٍّ ولمسٍ، حواسٌّ يكتشف بها العالم من حوله، ويقف بها على عجائب مصنوعات الله، فلعلّ في ذلك ما يأخذ بناصيته إلى معارج التوحيد، ويرحم أقدامه من مواطئ الشّرك والكفران.

والقرآن الكريم إذ يذكّر الإنسان بهذه الأدلة الكونية الحسية على وحدانية الله تعالى، فإنه كثيرًا ما يسلك -من أجل هذا التذكير والتقرير- سبيل الامتنان بها كنعمٍ وعطايا حبا الله الإنسان بها، فلولاها لَم يكن لهذا الإنسان من وجودٍ ولا ذكرٍ، فهي إذًا آياتٌ كبرى تحيط بالإنسان، ونعمٌ عظيمةٌ تستوعب تفاصيل حياته، فكيف له بعد ذلك أن يعمى عن توحيد الله واستحقاقه للعبادة؟!.

وهذا المنهج القرآني لم نتفطّن إليه بالتأمل والتدبر، بل إن القرآن الكريم هو من يشرح بنفسه منهجه هذا، وتأمل في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ

﴿أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١-٧٣].

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [غافر: ٦١-٦٢].

إن الله جل وعلا يربط ربطًا أكيدًا في هذه الآيات بين توجيه النظر إلى التأمل في هذه الآيات الكبيرة، وبين الامتنان بما فيها من النعم العظيمة، وبين دلالتها المفترضة ونتيجتها المتوقعة في توحيد الناس العبادة لله وقيامهم بالشكر له، أو ليس في الليل السرمد والنهار السرمد ما يبعث الخوف في النفس، والحب لمن جعل الليل والنهار خلفة؟![1].

ولذلك فقد قال تعالى في آية سورة القصص: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: يرجى ويتوقع منكم أن تشكروا الله على مخالفته بين الليل والنهار؛ فتوحّدوه وتعبدوه.

يقول الطبري: «أفلا ترون بأبصاركم اختلاف الليل والنهار عليكم رحمة من الله بكم، وحجة منه عليكم؛ فتعلموا بذلك أن العبادة لا تصلح إلا لمن أنعم عليكم بذلك دون غيره، ولمن له القدرة التي خالف بها بين ذلك... فعل ذلك بكم؛ لتفردوه بالشكر، وتخلصوا له الحمد؛ لأنه لم يشركه في إنعامه عليكم بذلك شريك؛ فلذلك ينبغي أن لا يكون له شريك في الحمد عليه»[2].

وفي آية سورة غافر يقول تعالى بعد ذكر نعمته على الناس: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾، فأخبر تعالى أن أكثر الناس لا يقومون بشكر نعم الله عليهم والاعتراف بوحدانيته، الذي هو المقصود الأعظم من التذكير بالنعم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾؛ أي: الذي فعل هذه الأشياء وأنعم بها هو الله الواحد الأحد، الذي لا إله غيره ولا رب سواه، فكيف تعبدون الأصنام التي لا تنعم عليكم؟![3].

وما من مجالٍ هنا لاستقصاء جميع ما ورد في القرآن من الآيات الكونية، ولا كل ما ورد فيه من نعم امتن الله بها على الإنسان، وإنما الغرض هو التنبيه على الاستدلال بهذا النوع من الآيات والنعم، فنكتفي بما يدل

(١) من بلاغة القرآن، أحمد البيلي ص ٢٠٠.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٦١٣.

(٣) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ٢٣٦.

على المقصود.

الصورة الأولى: آيات الأرض والسماء والجبال.

إن الله جل وعلا ليضع الإنسان أمام حقيقة يسيرة ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

بل إنه يسأله سؤالًا فيه إدلال بالتحدي: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧].

إن كان الإنسان مغترًّا بخلقه اغترارًا؛ أغراه بالجحود والنكران لخالقه أن يشكره ويعبده، فهذه الآيات العظيمة في خلق الأرض والسماء تعرّف الإنسان بحجمه الحقيقي في هذا الكون، وتنبّهه إلى أن الذي خلقها وأبدعها ليس بعاجزٍ عن إحياء الموتى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف:٣٣].

ومن كان هذا خلقه؛ فهو متعالٍ عن الشريك، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٣].

فأنى يكون له شريك، وقد خلقهما بالحق وهو التوحيد، منفردًا بخلقهما وإبداعهما من غير حاجة لأحد؟![1].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

قال ابن كثير: «وهذه الآية دالة على توحيده تعالى بالعبادة وحده لا شريك له»[2].

وقال الزمخشري: «أي: هو الذي خصكم بهذه الآيات العظيمة والدلائل النيرة الشاهدة بالوحدانية؛ فلا تتخذوا له شركاء»[3].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٣ - ١٦٤].

قال الطبري: «وهذا تنبيه من الله تعالى ذكره أهل الشرك به على ضلالهم، ودعاءٌ منه لهم إلى الأوبة من كفرهم والإنابة من شركهم، ثم عرّفهم تعالى ذكره بالآية

(١) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ١٥٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٩٧.
(٣) الكشاف، الزمخشري ١/ ٩٥.

التي تتلوها موضع استدلال ذوي الألباب منهم على حقيقة ما نبههم عليه من توحيده وحججه الواضحة القاطعة عذرهم، فقال تعالى ذكره: أيها المشركون، إن جهلتم أو شككتم في حقيقة ما أخبرتكم من الخبر من أن إلهكم إله واحد دون ما تدعون ألوهيته من الأنداد والأوثان؛ فتدبروا حججي وفكّروا فيها، فإن من حججي خلق السماوات والأرض»[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠].

يقول الطبري: «ولقد وطّناكم أيها الناس في الأرض، وجعلناها لكم قرارًا تستقرون فيها، ومهادًا تمتهدونها، وفراشًا تفترشونها، ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ تعيشون بها أيام حياتكم من مطاعم ومشارب؛ نعمةً مني عليكم، وإحسانًا مني إليكم ﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ وأنتم قليل شكركم على هذه النعم التي أنعمتها عليكم؛ لعبادتكم غيري واتخاذكم إلهًا سواي»[2].

وقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ١٠].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ۝ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٥ - ٢٦].

إن الله سبحانه وتعالى يذكّر عباده بنعمة الأرض التي جعلها لهم كالفراش ممهّدة وموطأة ومستقرة، وهو الذي ذللها لنا؛ للاستفادة من خيراتها، ولولا تذليل الله لها ما استطعنا أن نشق فيها الطرق ولا البناء عليها ولا الحرث ولا سائر أنواع المنافع، والتي منها أن الأموات يكفتون في بطنها، فهي تكنّ الأحياء على ظهرها في المساكن والأموات في القبور، فكأنها كفتت أذى الناس أحياء، وجيفهم أمواتًا[3].

وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥ - ١٦].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧].

---

(١) جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٦٧.
(٢) المصدر السابق ١٢/ ٣١٥.
(٣) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ٢٣٨.

هذه نعمة عظيمة من الله تعالى على عباده، حيث ثبّت الأرض بالجبال؛ حتى لا تميد بأهلها وتضطرب فلا يستطيعون التصرف لمعاشهم؛ لعدم استقرارها.

والجبال كذلك علامات يستدل بها المسافرون برًّا وبحرًا إذا ضلوا الطريق؛ فإنها متنوعة الأشكال والألوان، وقد قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧].

هذه الآيات الكبرى والنعم العظيمة في الأرض والجبال، توجب على العباد شكر المنعم وتوحيده وعبادته دون الآلهة والأوثان؛ لأنه هو الذي خلقهم، وخلق هذه النعم، فيكون هو وحده المستحق عليهم الطاعة والشكر والعبادة، وقد استعمل موسى عليه السلام هذا الدليل في الدعوة لتوحيد الله فقال لفرعون وقومه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٣ - ٥٤].[1]

يقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: «أي: لدلالات وحججًا وبراهين لأولي النهى، أي: لذوي العقول السليمة على أنه لا إله إلا الله، ولا رب سواه»[2].

(١) المصدر السابق ص ٢٣٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٩٩.

الصورة الثانية: آيات الشمس والقمر والليل والنهار.

ويحدثنا القرآن الكريم أيضًا عن نعمة تبادل الليل والنهار، وعما خلق له الليل من نعمة الهدوء والسكون، وعن الشمس والقمر يجريان في دقة ونظام؛ فيحسب الناس بهما حياتهم، وينظمون أعمالهم، وعن النجوم في السماء تزينها كمصابيح، ويهتدي بها السائر في ظلمات البر والبحر.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٥-٦].

في هاتين الآيتين تنبيهٌ على أن الله وحده هو الذي خلق الشمس والقمر والليل والنهار بغير معين ولا شريك، والمتدبر لذلك يعلم حقيقة الوحدانية، قال الطبري: «القوم يعلمون إذا تدبروها حقيقة وحدانية الله، وصحة ما يدعوهم إليه محمد صلى الله عليه وسلم، من خلع الأنداد، والبراءة من الأوثان»[3].

وانظر هذا التقدير الحكيم بأن جعل الله الليل والنهار مرتبطين بدورة الشمس، فلا يستطيع أحد إيقاف الشمس عن دورتها، أو

(٣) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٢٤.

حبس الليل والنهار عن جزء من الأرض؛ لأن الله وحده هو الذي يتولى ذلك كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦١-٦٢].

يقول الطبري في تفسيره لهذه الآية: «فعلت هذا الفعل من إيلاجي الليل في النهار، وإيلاجي النهار في الليل؛ لأني أنا الحق الذي لا مثل لي، ولا شريك، ولا ند، وأن الذي يدعوه هؤلاء المشركون إلهًا من دونه هو الباطل الذي لا يقدر صنعة شيء، بل هو المصنوع»[1].

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

يقول ابن كثير: «يقول تعالى منبّهًا خلقه على قدرته العظيمة، وأنه الذي لا نظير له، وأنه على ما يشاء قدير: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ أي: أنه خلق الليل بظلامه والنهار بضيائه، وهما متعاقبان لا يفتران، والشمس ونورها وإشراقها، والقمر وضياءه وتقدير منازله في فلكه، واختلاف سيره في سمائه؛ ليعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار، والجمع والشهور والأعوام، ويتبين بذلك حلول الحقوق، وأوقات العبادات والمعاملات، ثم لمّا كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة في العالم العلوي والسفلي؛ نبّه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عبيده تحت قهره وتسخيره فقال: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي: لا تشركوا به، فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره؛ فإنه لا يغفر أن يشرك به»[2].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٥ - ٤٦].

فهذه نعمة أخرى تتعلق بنعمة الشمس، وهي نعمة الظل، وقد نبّه سبحانه وتعالى عباده لهذه النعمة؛ لما فيها من الفوائد للكائنات جميعها؛ مما يستوجب على الناس الشكر للمنعم؛ لأنه لو شاء سكون الظل وعدم تحوله لفعل، ولما استطاع أحد تحويله.

كما نبّه على ما تتم به فائدة الظل هو قبضه تدريجيًّا، ولولا ذلك لم ينتفع به أهله؛ لأن في مدِّه وتحوله من مكان إلى مكان، ثم

(١) المصدر السابق ١٨/ ٦٧٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٨٢.

قبضه شيئًا فشيئًا من المصالح والمنافع مما لا يحصى، وبسكونه دائمًا أو قبضه دفعة واحدة تتعطل المرافق والمصالح[1].

وقال تعالى عن النجوم: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

وأقسم به: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١].

وتمدح الله جل وعلا فقال: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ﴾ [النجم: ٤٩].

بل أقسم بمواقعها في السماء: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥ - ٧٦].

ولقّبها بمصابيح السماء وبروجها: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر: ١٦ - ١٧].

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥].

وأقسم بها: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١].

وأقسم بأحد نجومها واستعجب منه: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ١-٣].

أليس في هذه النجوم -وأصغرها قد يفوق شمس الدنيا حجمًا بمرات ومرات- ما يدعو إلى توحيد الله؟!.

(١) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ٢٣٤.

لقد أفحم القرآن بهذه الآيات المربوبة المسخّرة من ادّعى الألوهية من البشر إفحامًا لا مخلص له منه، وذلك في الحديث الذي دار بين إبراهيم وهذا الملك، الذي ادعى أنه إله، إذ يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٢٥٨﴾ [البقرة: ٢٥٨][2].

الصورة الثالثة: آيات ونعم الرياح والسحاب والمطر والنبات.

الرياح آية كبرى ونعمة عظيمة، يقول تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢].

ويقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ [الروم: ٤٨].

يقول ابن القيم: «فإذا شاء الله حرّكه بحركة الرحمة؛ فجعله رخاء ورحمة

(٢) من بلاغة القرآن، أحمد البيلي ص ٢٠٣.

وبشرى بين يدي رحمته، ولاقحًا للسحاب يلقحه بحمل الماء، ومن آياته السحاب المسخر بين السماء والأرض كيف ينشئه سبحانه بالرياح؛ فتثيره كسفًا، ثم يؤلف بينه، ويضم بعضه إلى بعض، ثم تلقحه الريح وهي التي سماها -سبحانه- لواقح، ثم يسوقه على متونها إلى الأرض المحتاجة إليه، فإذا علاها واستوى عليها؛ أهراق ماءه عليها، فيرسل سبحانه الرياح وهو في الجو، فتذروه وتفرقه؛ لئلا يؤذي ويهدم ما ينزل عليه بجملته، حتى إذا رويت وأخذت حاجتها منه؛ أقلع عنها وفارقها، فهي روايا الأرض محمولة على ظهور الرياح»[1].

ويقول تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ [المؤمنون: ١٨ - ١٩].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨ - ٥٠].

وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨ - ٧٠].

إن المطر نعمة عظيمة من الله على عباده؛ لأن حياة الحيوان والنبات متوقفة على الماء، والله وحده هو الذي ينزل علينا الماء من السحاب عذبًا فراتًا، ولم يجعله ملحًا أجاجًا، ثم يسكنه في الأرض؛ فيخرج ينابيع ويجري أنهارًا؛ لسقي الإنسان والحيوان والنبات والثمار في الجنات.

فانظر كيف تتجلى النعمة العظمى بإنزال المطر بالقدر المطلوب، لا كثيرًا فيفسد الأرض والعمران، ولا قليلًا فلا يكفي الزروع والثمار، وكيف جعل في الأرض قابلية خزنه للاستفادة منه فيما بعد، ولو شاء الله أن لا تمطر السماء لفعل، ولو شاء جعله أجاجًا لفعل، ولو شاء ذهابه في أعماق الأرض بحيث لا ينال لفعل، فامتن الله على عباده إذن بكل هذه النعم؛ منبّهًا إياهم لوجوب شكره.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥].

يقول الطبري: «وهذا تنبيه من الله جل ثناؤه هؤلاء العادلين به الآلهة والأوثان على موضع حجته عليهم، وتعريفٌ منه لهم خطأ

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ٢٠٢.

ما هم عليه مقيمون من إشراك الأصنام في عبادتهم إياهم، يقول تعالى ذكره: إن الذي له العبادة أيها الناس دون كل ما تعبدون من الآلهة والأوثان هو الله، الذي فلق الحب، يعني: شقّ الحب من كل ما ينبت من النبات؛ فأخرج منه الزرع والنوى من كل ما يغرس مما له نواة؛ فأخرج منه الشجر»[(١)].

ويقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

إن التفكير في النبات والثمار وكيفية تكونها من البذرة حتى صارت زرعًا أخضر وثمرًا طيبًا بعد جفافها، واختلاف ألوان الثمار وطعومها -مع كونها متشابهة في الشكل والورق-، لا شكّ يؤدي لمعرفة الله ووحدانيته؛ ولذلك حثّ الله على النظر للثمار فقال: ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ فهي تدل دلالة واضحة على وحدانية الله؛ لذلك ذم الله تعالى المشركين بعد هذه الآية مباشرة فقال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٠٠ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝١٠١ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٠ - ١٠٢].

قال الطبري في تفسيره لهذه الآية: «يا أيها الناس، إذا نظرتم إلى ثمره عند عقد ثمره، وعند ينعه وانتهائه، فرأيتم اختلاف أحواله وتصرفه في زيادته ونموه؛ علمتم أن له مدبرًا ليس كمثله شيء، ولا تصلح العبادة إلا له دون الآلهة والأنداد، وكان فيه حجج وبرهان وبيان يصدقون بوحدانية الله وقدرته على ما يشاء»[(٢)].

إن العبد يشق الأرض ويضع فيها الحب، والزارع المنبت هو الله، دون الأنداد والأوثان، ولو شاء الله أن يجعل هذا الزرع حطامًا يابسًا قبل موعد حصاده ما استطاع أحد إنباته، وأقصى ما يعمله الإنسان هو التعجب والتفجع والحزن على ما فاته من الزرع والثمر، وإن الله تعالى ليضع الإنسان أمام عجزه وضعفه في أسلوب من الاستفهام المثير فيقول تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ۝٦٤ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣ - ٦٥].

وقد استنكر الهدهد على قوم بلقيس

---

(١) جامع البيان، الطبري ١١/ ٥٥٠.

(٢) المصدر السابق ١١/ ٥٨٢- ٥٨٣.

سجودهم للشمس من دون الله، مستدلًا على وحدانية الله ووجوب إفراده بالعبادة؛ بأنه خلق الماء والنبات، وأخرجه بعد أن كان مخبوءًا في السماء والأرض، وجعل ذلك حجة على المخالفين، حيث قال تعالى عنه: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٥-٢٦].

ومن مجموع هذه النعم من رياح وسحاب ومطر ونبات؛ يمتن الله جل وعلا على عباده بالرزق؛ فهو الذي يرزقهم، ويرزق ما على الأرض من دواب، لا تستطيع أن تتكفل برزق نفسها.

قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت ٦٠].

ويسترعي انتباههم إلى طعامهم الذي هو من فيض فضله، فيقول: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس ٢٤ - ٣٢][1].

الصورة الرابعة: الآيات والنعم في الأنعام.

آية الله جل وعلا في الأنعام عظيمة، وعجيب صنعه فيها بالغ، وليس أدلّ على ذلك من أن الله تبارك وتعالى قد قرنها بآيات السماء والأرض والجبال في سياقٍ، بل وابتدأ بها في توبيخ المشركين الغافلين عن النظر إليها نظر الاعتبار والافتكار، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

ولا شك أن للأنعام في حياة العرب بالبادية ما يستحق أن يذكّروا به، وأن يسجّل فضله عليهم بها، فكانت الإبل دليلًا قريبًا ينبغي أن توجّه أنظارهم إليه.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ [يس: ٧١ - ٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[النحل: ٦- ٨].

النعمة الأولى في الأنعام هي نعمة تذليلها؛ لأن الله وحده هو الذي جعلها مقهورة ذليلة، لا تمتنع على صاحبها عند الحاجة إليها في تسييرها وتوجيهها للرعي أو للطرق، أو للحمل، أو للوقوف، ويرتبط

---

(١) من بلاغة القرآن، أحمد البيلي ص ١٩٦.

بتذليلها كونها جمالًا وزينة لنا في رجوعها من المرعى عشيًّا؛ فتكون شبعانة وخواصرها مليئة، وفي بعثها صباحًا إلى المرعى، ولولا تذليلها ما كانت زينة وجمالًا؛ لأنها تكون نافرة مستعصية.

وقال تعالى: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٣ - ١٤].

إن نعمة ركوب الأنعام والحمل عليها تلفت النظر وتوجب الشكر؛ لأنها توفّر كثيرًا من الجهد والتعب، فيستطيع الإنسان السير في المصالح البعيدة كالحج والغزو والتجارة بلا مشقة؛ لأن هذه الأنعام تحمله، وتحمل متاعه وطعامه وشرابه، وبدون هذه الأنعام فإن الإنسان عاجزٌ عن ذلك، وتظهر نعمة الحمل والركوب بشكل خاص في الخيل والبغال والحمير؛ ولذلك أفردت معًا في آية خاصة بها فقال تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ [النحل: ٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى الْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧٣].

اللبن نعمة لا توصف على هذه البشرية؛ لأن مصالح العباد كلهم قائمة عليه في معظم وجباتهم الغذائية، وخاصة الصغار، وهذا اللبن يخرج من بطون الأنعام من بين الفرث والدم خالصًا بياضه وطعمه وحلاوته، فانظر كيف يكون الطعام في المعدة؟!

فإذا نضج ذهب أقسامًا للدم والعظم واللحم، وقسم يصير لبنًا، والباقي فضلات من روث وبول، ولا يمتزج قسم بآخر ولا يتغير به؛ فيخرج اللبن خالصًا سائغًا للشاربين لا يغص به أحد.

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧٢].

هذه النعمة خاتمة النعم في الأنعام، فرغم تعدد منافع الأنعام في حياتهم، فهي كذلك يؤكل لحمها، وهو أعلى أنواع الأطعمة، وعليه اعتماد كبير في حياة الناس، بل إن شعوبًا كثيرة تعيش على الرعي والتجارة بالأنعام اللاحمة[1].

إن هذه النعم الكثيرة في الأنعام تستحق الشكر لله، والاعتراف بوحدانيته، وإفراده بالعبادة، وإخلاص الطاعة له، وهذا هو المقصود الأعظم من التذكير بهذه النعم الجليلة؛ لذلك نجد في الآيات دعوة لشكر الله، وعدم اتباع خطوات الشيطان.

(١) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ٢٤٨-٢٥١.

يقول تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأنعام: ١٤٢].

وكذلك بعد ذكر نعمة الأنعام في سورة النحل يقول تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل: ٨١-٨٣].

يقول الطبري في تفسيره لهذه الآيات في سورة النحل: «وإن الله جلّ ثناؤه إنما عرّف عباده بهذه الآية وسائر ما في أوائل هذه السورة نعمته عليهم، ونبّههم به على حججه عليهم، وأدلته على وحدانيته، وخطأً فعل من يشرك به من أهل الشرك»[1].

وقال ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى في سورة يس بعد ذكر نعمة الأنعام: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾، قال: «أفلا يوحّدون خالق ذلك ومسخّره، ولا يشركون به غيره؟!»[2].

الصورة الخامسة: نعمة البيوت وآيتها.

ويوجّه القرآن الكريم أنظار البشر إلى النعمة الكبرى التي أودعها قلوبهم، وهي نعمة الهدوء والسكينة، يحسون بها عند ما يعودون إلى بيوتهم، مكدودين منهوكي القوى، وإلى هدايتهم إلى بناء بيوت من جلود الأنعام، يجدونها خفيفة المحمل في الظعن والإقامة، وإلى اتخاذ أثاثهم وأمتعتهم من أصوافها وأوبارها، وإلى نعمة الظل يجدون عنده الأمن والاستقرار، وإن للشمس وحرارتها لوقعًا مؤلمًا في النفوس وعلى الأجسام، ومن أجمل وسائل الاستتار هذه الثياب، تقي صاحبها الحر، وبها تتم نعمة الله، فيقول: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ عَلَيْكَ الْبَلَاغُ بِأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل ٨٠ - ٨١][3].

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ١٧٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٩٢.
(٣) من بلاغة القرآن، أحمد البيلي ص ١٩٤.

الصورة السادسة: آية ونعمة الأزواج.

ويوجّه القرآن الكريم أنظار البشر أيضًا إلى ما في خلق الزوج من نعمة تسكن إليها النفس، وتجد في ظلها الرحمة والمودة، فيقول: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].

إن التفكر في احتياج الكائنات وافتقارها إلى الزوجية، ووجودها بهذه الثنائية «الذكر والأنثى»، لأمرٌ يدفع إلى تسبيح وتقديس الإله العظيم ذي الوحدانية، الذي لم تكن له صاحبة، إنها آية عظيمة تدعو إلى تذكّر التوحيد.

يقول تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الذاريات: ٤٩-٥١].

ختامًا: فإن في إكثار القرآن من الحديث عن هذه النعم، وتوجيه أنظارهم إليها، وتقريرهم بها، ما يدفعهم إلى التفكير في مصدرها، وأنه جدير بالعبادة، ولا سيما أن تلك النعم ليست في طاقة بشر، وأنها باعترافهم أنفسهم من خلق العليّ القدير، وهكذا يتكئ القرآن على عاطفة إنسانية يثيرها؛ لتدفع صاحبها إلى الإيمان بالله وإجلاله وتقديسه، وإلى عبادته عبادةً منبعثة عن حبه وشكر أياديه[1].

ثالثًا: الأدلة العقلية:

وهي الأدلة التي تعتمد على عمليات نظرية وفكرية، كترتيب المقدمات واستخراج نتائجها، حسب ضوابط وقوانين وراء بداهة الحسّ ومشاعر النفس، وإن كان الإدراك في الجميع راجعًا إلى العقل[2].

فهذا تنبيه إلى أن أدلة القرآن كلها سمعية عقلية، سمعية؛ لورودها في القرآن، وعقلية؛ لأن للعقل قدرة على التفكير فيها، والنظر والاعتبار إذا سلك المسلك الصحيح[3].

ولكنا نتوسع هنا بذكر بعض الأدلة التي لم تندرج تحت ما سبق ذكره من أدلة توحيد الله، وأيضًا قد لوحظ فيها عناية القرآن بنظمها بأسلوبٍ جدليٍّ مرتّبٍ مقصودٍ للمناظرة والمحاجّة ابتداءً، وهذا أسلوب يختلف قليلا عن أسلوب الشواهد القرآنية السابقة في أدلة الآيات الكونية، فالأسلوب هناك سمته الأوضح هي السّرد والحشد للصّور والمشاهد، ويأتي التدليل والتعليل للوحدانية في ركاب السياق والسباق.

---

(١) المصدر السابق ص ١٩٦.

(٢) التفسير الموضوعي ج ١، جامعة المدينة ص ٣٦.

(٣) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ٢٦٠.

وقد استخرج العلماء من الأدلة العقلية القرآنية لتقرير التوحيد أنواعًا.

١ . الدليل البدهي.

هو دليل (بدهي) لأنه يقوم على استخدام الحقائق المشهورة والبدهيات المستقرة، في ابتناء الدليل عليها، فيذعن الخصم للدليل إذعانًا إن كان منصفًا.

وهو دليل الخلق والملك؛ لأنه مبني على أصلين:

أن الموجودات مخترعة.

- وأن كل مخترعٍ لابدّ له من مخترعٍ ومالكٍ[1].

ونأخذ لهذا الدليل أمثلةً من آيات القرآن الكريم في نفي الولد عن الله.

فنجد القرآن الكريم قد حدثنا في صراحة عن أن الله جل وعلا ليس في حاجة إلى هذا الولد، يعينه أو يساعده، فكل من في الوجود خاضع لأمره، لا يلبث أن ينقاد إذا دعي.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٦-١١٧].

وحينًا يدفع ذلك دفعًا طبيعيًّا: بأن الولد لا يكون إلا إذا كان ثمة له زوجة تلد، أما وقد خلق كل شيء، فليس ما يزعمونه ولدًا سوى خلق ممن خلق: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

ويعرض مرة أخرى لهذه الدعوى، فيقرر غناه عن هذا الولد، ولم يحتاج إليه، وله ما في السموات وما في الأرض.

يقول تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [يونس: ٦٨ - ٦٩].

ويعجب القرآن: كيف يتوهّم للمشركين أن يخصوا أنفسهم بالبنين، ويجعلوا البنات لله؟! فيقول: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠].

ويصور القرآن -في أقوى صور التعبير- موقف الطبيعة الساخطة المستعظمة نسبة الولد إلى الله، فتكاد- لشدة غضبها- أن تنفجر غيظا، وتنشق ثورة، وتخرّ الراسيات لهول هذا الافتراء، وضخامة هذا الكذب.

وأصغ إلى تصوير هذا الغضب في قوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن

---

(١) التفسير الموضوعي ج ١، جامعة المدينة ص ٣٧.

﴿دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾ [مريم: ٨٨-٩١][1].

فهذا الدليل (دليل الخلق والملك) دليل عقليٌّ يتكامل مع الأدلة الحسية الكونية السابقة، فمتى تدبر الإنسان تلك الآيات والشواهد؛ استنتج منها: أن كل ما في الكون مخلوق، والمخلوق لابد له من خالق؛ لأنه يستحيل أن يكون خلق من غير خالق، والخالق يجب أن يكون ممتازًا عن المخلوق بكل وجهٍ، وإلا لما كان بينهما فرقٌ.

٢. دليل التمانع.

ويسمى دليل النظام أو التناسق؛ لأنه ينطلق بنا ضمن الآيات الكونية؛ ليوصلنا إلى أن الذي نظم الكون وربط أجزاءه -بحيث يكمل بعضها بعضًا-، وقدّر كل شيء فيه تقديرًا، هو الله الواحد الأحد، ويمتنع أن يكون له تعالى أيّ شريكٍ في ألوهيته أو ربوبيته؛ لأنّ ذلك سيفضي حتمًا إلى الخلل والفساد.

ومن الآيات التي قرر القرآن فيها هذا الدليل: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وتوضيح الآية الكريمة أن يقال: لو كان للعالم صانعان لكان تدبيرهما لا يجري على نظام، ولكان العجز يلحقهما أو أحدهما؛ وذلك لأنه لو أراد أحدهما إحياء جسم وأراد الآخر إماتته، فحينئذٍ إما أن تنفذ إرادتهما معًا، فيتناقض النظام لاجتماع الضدين، وإما ألا تنفذ إرادتهما معًا؛ فيؤدي إلى عجزهما، أو لا تنفذ إرادة أحدهما؛ فيؤدي إلى عجزه، والإله لا يكون عاجزًا؛ فبطل ما أدى إليه، وهو افتراض التعدد، وثبت نقيضه، وهو الوحدانية[2].

٣. دليل الفرض والتسليم.

وهذا النوع من الاستدلال يقوم على التسليم بدعوى الخصم تسليمًا جدليًّا -ولو كانت دعواه مستحيلة-، ثم يستدل على إبطال الدعوى بالنتائج الخاطئة المتناقضة التي تترتب على هذه الدعوى.

ومثاله: قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

فالحقيقة أن لا إله إلا الله، ولم يتخذ الله سبحانه وتعالى ولدًا، ولكننا لو سلمنا جدلًا بهذا الافتراض الخاطئ فما هي النتائج التي تترتب على ذلك: يترتب على ذلك استعلاء بعضهم على بعضٍ؛ فلا ينتظم أمر الكون، ولا ينفذ فيه حكم، ولا تتحقق مصلحة،

(١) من بلاغة القرآن، أحمد البيلي ص ١٩٦-١٩٧.

(٢) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ٢٦٠.

ومن ثمّ ففي ذلك اختلال نظام المخلوقات واستحالة استمراره.

والواقع المشاهد خلاف ذلك؛ فدل هذا الواقع على أن تعدد الآلهة محال لما يلزم عليه من المحال، كما أن افتراض وجود آلهة متعددة يؤدي إلى استعلاء بعضهم على بعضٍ، ومنع كل منهم غيره من التدخل في شؤونه، وهو محال مصادم لما تستلزمه صفات الكمال المطلق للإله المعبود بحقٍّ.

قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[1].

٤ . الشرك ظنون وأوهام .

في ختام هذه الاستدلالات على صحة التوحيد، يبرز القرآن العظيم وجهًا آخر من وجوه الاستدلال، حين يطالب المشركين ويتحدّاهم أن يقيموا دليلًا واحدًا من أي نوعٍ على صحة عقيدتهم، فلا يستطيعون، بل لا يملكون إلا التعلق بالظنون والأوهام، والاحتجاج بفعل آبائهم، كما قال عنهم القرآن: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

ولمّا كانوا عاجزين عن إتيان ذلك، بيّن القرآن الكريم حقيقة عقائدهم، وأنها مجرّد ظنونٍ فاسدةٍ.

قال تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

لقد وجّه القرآن نظرهم إلى أن هذه الأصنام أقل منهم؛ فإن لعابديها أرجلًا يمشون بها، وأعينًا يبصرون بها، وآذانًا يسمعون بها، أما هذه الأوثان فجاثمة، لا تستطيع الحركة والانتقال، ولا تستطيع البطش والدفاع، ولا تبصر، ولا تسمع، ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾ [الأعراف: ١٩٥].

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤].

أو يليق بالعاقل أن يعبد من دونه، ومن يراه عاجزًا لا يستطيع شيئًا؟! ولم يعبد المرء إلهًا لا يسمع دعاءه، ولا يستطيع أن يجيبه إلى مبتغاه، ولا يقدر على أن يرد عن عابده أذى نزل به.

قال سبحانه: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦].

وإذا استنصره لم يجد عنده ما يؤمل من

(١) مباحث من التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم ص ١٥٣ - ١٥٤.

النصر، والمرء عند الشدائد يلجأ إلى الله، ويطلب منه المعونة والمساعدة، فماذا يصنع بعبادة إلهٍ لا يمده بهما؟! بل إن هذه الأوثان لا تستطيع أن تحمي نفسها، ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٧].

وأي ضلال أشد من عبادة من لا يملك الضر والنفع؟ وماذا بقي لهم من صفات الآلهة؟!، أخلقوا شيئًا في السماوات والأرض؟ أبأيديهم الموت والحياة والبعث؟ لا: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

والقرآن يمضي في التحدي، مؤكدًا لهم أن أولئك الذين يدعونهم شركاء لله لا يستطيعون أن يخلقوا ذبابًا، ولو ظاهر بعضهم بعضًا، برغم حقارة الذباب وضعفه، بل إن هذا الذباب الحقير الضعيف لا يستطيعون استخلاص شيء منه، إن سلبهم إياه، ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُۥٓ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

وإذا كانوا لم يخلقوا شيئًا، فهل يملكون من شيء في السماء أو الأرض؟ لا، إنهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى السَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٢٢].

وإذا كانت هذه الأوثان لا تنفع ولا تضر، ولا تملك من أمر نفسها شيئًا، ولا تخلق شيئًا، وليس بيدها حياة ولا موت، بل هي أقل من عابديها قدرًا، فقد انمحت عنها حقيقة الألوهية، ولا يعدو الأمر بعدئذٍ: أن تكون المسألة أسماء وضعوها، من غير أن تدل هذه الأسماء على آلهةٍ حقيقيةٍ لها ما للآلهة من سلطان وقوة، وتستحق العبادة رغبةً أو رهبةً، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللَّٰتَ وَالْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم ١٩ - ٢٣].

وها هو ذا يتهكم بهم تهكمًا لاذعًا عندما منحوا هذه الأسماء التي لا حقيقة لها صفة الشفعاء؛ فيقول: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى السَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

والقرآن يثير في نفوسهم الخوف والفزع من سوء المصير، حين يصوّر لهم يوم القيامة، وما ينالهم فيه من خيبة الأمل، عندما يرون هذه الآلهة التي اتخذوها؛ ليعتزوا بها، قد أنكرت أن تكون أهلًا

لعبادتهم، ويشهدون عليهم بأنهم لم يكونوا عقلاء في هذه العبادة، فيقول: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١- ٨٢][1].

موضوعات ذات صلة

الألوهية، الإيمان، الدعوة، الشرك

(١) من بلاغة القرآن، أحمد البيلي ص ٢٥٥- ٢٥٧.





عناصر الموضوع



مفهوم التوراة

أولًا: المعنى اللغوي:

قال أبو حيان: «التّوراة: اسمٌ عبرانيٌّ، وقد تكلّف النّحاة في اشتقاقها، وفي وزنها، وذلك بعد تقرير النّحاة أنّ الأسماء الأعجميّة لا يدخلها اشتقاقٌ، وأنّها لا توزن، يعنون اشتقاقًا عربيًّا»[1].

وقال الطاهر بن عاشور: «هو اسمٌ عبرانيٌّ أصله (طورا) بمعنى الهدى، والظّاهر أنّه اسمٌ للألواح الّتي فيها الكلمات العشر الّتي نزلت على موسى عليه السلام في جبل الطّور؛ لأنّها أصل الشّريعة الّتي جاءت في كتب موسى، فأطلق ذلك الاسم على جميع كتب موسى، واليهود يقولون (سفر طورا) فلمّا دخل هذا الاسم إلى العربيّة أدخلوا عليه لام التّعريف الّتي تدخل على الأوصاف والنّكرات لتصير أعلامًا بالغلبة: مثل العقبة»[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

جاء في تفسير المنار: «أما التوراة في عرف القرآن فهي ما أنزله الله تعالى من الوحي على موسى عليه الصلاة والسلام؛ ليبلغه قومه لعلهم يهتدون به»[3].

وقيل: «التوراة اسمٌ للكتاب المنزّل على موسى عليه السلام»[4].

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:٤٤].

وقد أمر الله كثيرًا من الأنبياء بعد موسى بتبليغها؛ قال الرازي: «قوله ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ يريد النبيين الذين كانوا بعد موسى، وذلك أن الله تعالى بعث في بني إسرائيل ألوفًا من الأنبياء ليس معهم كتاب، إنما بعثهم بإقامة التوراة، حتى يحدوا حدودها، ويقوموا بفرائضها، ويحلوا حلالها، ويحرموا حرامها»[5].

ولقد اعتمد اليهود تسعة وثلاثين سفرًا أطلق عليها اسم (العهد القديم)، ويعتبرونها

(١) البحر المحيط، أبو حيان، ٣/ ٥.
(٢) التحرير والتنوير، ٣/ ١٤٨.
(٣) المنار، محمد رشيد رضا ٣/ ١٢٩.
(٤) المصدر السابق.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب ١٢/ ٣٦٥، التحرير والتنوير ٦/ ٢٠٨.



أسفارًا مقدسة، أي: موصى بها، ويطلقون على خمسة منها إطلاقًا حقيقيًّا اسم التوراة، أو كتب موسى؛ لأنها في زعمهم قد أنزلها الله على موسى عليه السلام وكتبها موسى بنفسه، وهذه الأسفار الخمسة هي: سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر التثنية، وسفر اللاويين، وسفر العدد.

ولا علاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي؛ لكون اللفظة أصلها أعجمية ثم عربت.

التوراة في الاستعمال القرآني

وردت التوراة في القرآن (١٨) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الاسم	١٨	﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ۝﴾ [آل عمران:٣]

وجاءت التوراة في الاستعمال القرآني اسمًا للكتاب الذي أنزله الله على نبيه موسى عليه السلام[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ١٥٨.
(٢) انظر: تفسير ابن عطية ١/ ٣٩٨، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٦٨.



الألفاظ ذات الصلة

١ القرآن:

القرآن لغة:

القاف والراء والياء أصل صحيح يدل على الشيء المجموع، وقرأت الشيء قرآنًا: جمعته، وضممت بعضه على بعض، وقرأت الكتاب قراءةً وقرآنًا، ومنه سمّي القرآن؛ لأنه يجمع السور فيضمّها[١].

القرآن اصطلاحًا:

كلام الله تعالى، المنزّل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، بواسطة سيدنا جبريل عليه السلام، المتعبَّدُ بتلاوته، المنقولُ إلينا بالتواتر، المقروءُ في المصاحف، المبدوء بسورة الفاتحة، والمنتهي بسورة الناس»[٢].

الصلة بين التوراة والقرآن:

تتفق الكلمتان في كونهما كلام الله المنزل من عنده بواسطة جبريل لتبليغه للناس، وتختلفان في اللغة، والإعجاز، والتحريف؛ فالتوراة نزلت على موسى عليه السلام بالعبرية غير معجزة، ولم يتكفل الله بحفظها، فدخل عليها التحريف، بينما القرآن نزل على محمد صلى الله عليه وسلم بالعربية، وهو معجز، وقد تكفل الله بحفظه؛ فهو بعيد عن التحريف.

٢ الإنجيل:

الإنجيل لغةً:

قال ابن منظور: «الإنجيل: كتاب عيسى، على نبيّنا وعليه -الصّلاة والسّلام-، يؤنث ويذكّر، فمن أنّث أراد الصّحيفة، ومن ذكّر أراد الكتاب»[٣]. ويجمع على أناجيل.

وقد اختلف العلماء في أصله اللغوي، وهل هو عربي أو معرّب، والراجح هو أن كلمة الإنجيل معرّبة.

الإنجيل اصطلاحًا:

كلمة إنجيل إذا أطلقت فلها معنيان:

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري، ١/ ٦٤، مجمل اللغة، ابن فارس، ١/ ٧٥٠.
(٢) انظر: التعليقات المختصرة على متن العقيدة الطحاوية، صالح الفوزان، ص٦٦.
(٣) لسان العرب، ١١/ ٦٤٨.

الأول: الكتاب المنزل من عند الله تعالى على المسيح عليه السلام، وهو مفقود، ولم يبق منه إلا نتف قليلة مما بين أيدي النصارى الآن، قال الطاهر بن عاشور في تعريفه بهذا المعنى: «اسمٌ للوحي الّذي أوحي به إلى عيسى عليه السلام فجمعه أصحابه»[١].

الثاني: الإنجيل الذي تعظّمه النصارى الآن، وهو عبارة عن «أربعة كتبٍ تعرف بالأناجيل الأربعة».

الصلة بين التوراة والإنجيل:

تتفق التوراة والإنجيل في كونهما كلام الله أنزله من عنده على أنبيائه لتبليغه بني إسرائيل، وهما غير معجزين، ولم يتكفل الله بحفظهما، ويختلفان بأن التوراة أنزلت على موسى، بينما الإنجيل أنزل على عيسى عليهما السلام.

٣ الزبور:

الزبور لغةً:

قال ابن فارس: (زبر) «الزاي والباء والراء أصلان: أحدهما يدل على إحكام الشيء وتوثيقه، والآخر يدل على قراءة وكتابة وما أشبه ذلك، زبرت الكتاب، إذا كتبته، ومنه الزبور»[٢]. وقال الكفوي: «كل كتاب غليظ الكتابة يقال له زبور»[٣].

الزبور اصطلاحًا:

هو كلام الله المنزل وحيًا على رسوله داود عليه السلام ليبلغه لقومه.

الصلة بين التوراة والزبور:

تتفق التوراة والزبور في كونهما كلام الله أنزله من عنده على أنبيائه لتبليغه بني إسرائيل، وهما غير معجزين، ولم يتكفل الله بحفظهما، ويختلفان بأن التوراة أنزلت على موسى، بينما الزبور أنزل على داود عليهما السلام.

(١) التحرير والتنوير، ٣/ ١٤٩.
(٢) مقاييس اللغة ٣/ ٤٥.
(٣) الكليات، ص٤٨٦.



٤ صحف إبراهيم وموسى:

الصحف لغةً:

قال ابن فارس: «الصاد والحاء والفاء أصل صحيح يدل على انبساط في شيء وسعة. يقال: إن الصحيف: وجه الأرض، ومن الباب: الصحيفة، وهي التي يكتب فيها، والجمع: صحائف، والصحف أيضًا، كأنه جمع صحيف»[١].

الصحف اصطلاحًا:

وهي كلام الله الذي أنزله على نبيه إبراهيم، وتسمى صحف إبراهيم، وكلام الله المنزل على موسى، وهو التوراة، وتسمى صحف موسى، وهو مذهب أكثر المفسرين، والله أعلم.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: **لما نزلت** ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١] **قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كلها في صحف إبراهيم وموسى)**[٢].

الصلة بين التوراة وصحف إبراهيم وموسى:

مما سبق يتضح أنه لا فرق بين التوراة وبين صحف موسى، فهما اسمان لمسمى واحد، أما صحف إبراهيم؛ فقد قال ابن عاشور: «وأما صحف إبراهيم فكان المأثور منها أشياء قليلة، وقدرت بعشر صحف، أي مقدار عشر ورقات بالخط القديم، تسع الورقة قرابة أربع آيات من آي القرآن، بحيث يكون مجموع صحف إبراهيم مقدار أربعين آية»[٣].

(١) مقاييس اللغة ٣/ ٣٣٤.
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم ٢٩٣٠، ٢/ ٢٥٨.
(٣) التحرير والتنوير ٢٧/ ١٣٠.

اقتران التوراة بالإنجيل في القرآن

اقترن ذكر التوراة والإنجيل في القرآن ست مرات؛ وفي ذلك إشارة لأمر معين ولحكمة معينة؛ فالتوراة والإنجيل نزلتا على بني إسرائيل، «فالرسالة التي أنزلت على عيسى عليه السلام، مكمّلة لرسالة موسى عليه السلام، ومتممة لما جاء في التوراة من تعاليم، موجهة إلى بني إسرائيل، داعية إلى التوحيد والفضيلة والتسامح»[(١)].

فالتوراة أصل كالقرآن؛ قال ابن تيمية: «والقرآن أصل كالتوراة وإن كان أعظم منها؛ ولهذا علماء النصارى يقرنون بين موسى ومحمد صلى الله عليه وسلم، كما قال النجاشي ملك النصارى لما سمع القرآن: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة.»[(٢)].

ولشيخ الإسلام في هذا الأمر كلام نفيس حيث قال: لقد علّم الله المسيح التوراة والإنجيل.

قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ [آل عمران:٤٨].

ومن المعلوم أنه لولا أنه متبع لبعض ما في التوراة لم يكن تعلمها له منّة؛ ألا ترى أنا نحن لم نؤمر بحفظ التوراة والإنجيل وإن كان كثير من شرائع الكتابين يوافق شريعة القرآن؛ فهذا وغيره يبين ما ذكره علماء المسلمين من أن الإنجيل ليس فيه إلا أحكام قليلة، وأكثر الأحكام يتبع فيها ما في التوراة، وبهذا يحصل التغاير بين الشرعتين.

ولهذا كان النصارى متفقين على حفظ التوراة وتلاوتها كما يحفظون الإنجيل، ولهذا لما سمع النجاشي القرآن قال: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، وكذلك ورقة بن نوفل قال للنبي صلى الله عليه وسلم -لما ذكر له ما يأتيه- قال: هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى.

وكذلك قالت الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف:٣٠].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ [القصص:٤٨].

فهذا وما أشبهه مما فيه اقتران التوراة بالقرآن وتخصيصها بالذكر يبين ما ذكروه من أن التوراة هي الأصل، والإنجيل تبع لها في كثير من الأحكام، وإن كان مغايرًا لبعضها؛ فلهذا يذكر الإنجيل مع التوراة والقرآن في مثل قوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ٢/ ٥٦٤.
(٢) الجواب الصحيح ١/ ١١٦.

﴿٣﴾ [آل عمران:٣].

وقال: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ [التوبة:١١١]، فيذكر الثلاثة تارة، ويذكر القرآن مع التوراة وحدها تارة لحكمة، وهي: أن الإنجيل من وجه أصل ومن وجه تبع، بخلاف القرآن مع التوراة؛ فإنه أصل من كل وجه، بل هو مهيمن على ما بين يديه من الكتاب، وإن كان موافقًا للتوراة في أصول الدين وكتبه من الشرائع، والله أعلم[١].

كما ارتبط إنزال التوراة والإنجيل بكيفية واحدة، وهي النزول كاملة غير منجمة بخلاف القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٣﴾ [آل عمران:٣].

قال الرازي: «وإنما خص القرآن بالتنزيل، والتوراة والإنجيل بالإنزال، لأن التنزيل للتكثير، والله تعالى نزل القرآن نجمًا نجمًا، فكان معنى التكثير حاصلًا فيه، وأما التوراة والإنجيل فإنه تعالى أنزلهما دفعة واحدة، فلهذا خصهما بالإنزال»[٢].

وقال أبو السعود: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ [آل عمران:٣]. تعيينٌ لما بين يديه، وتبيينٌ لرفعة محلّه، تأكيدًا لما قبله وتمهيدًا لما بعده؛ إذ بذلك يترقى شأن ما يصدّقه رفعةً ونباهةً، ويزداد في القلوب قبولًا ومهابةً، ويتفاحش حال من كفر بهما في الشناعة واستتباع ما سيذكر من العذاب الشديد والانتقام، أي أنزلهما جملةً على موسى وعيسى عليهما السّلام، وإنما لم يذكرا لأن الكلام في الكتابين لا فيمن أنزلا عليه[٣].

ومن أركان العقيدة الإسلامية الإيمان بجميع الكتب السماوية.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٣٦﴾ [النساء:١٣٦].

والإيمان بها يعني الإيمان بصحف إبراهيم، والتوراة المنزلة على سيدنا موسى، والإنجيل على عيسى، والزبور على داود، والقرآن الكريم على سيدنا محمد عليهم الصلاة والسلام أجمعين، هذا مع الانتباه الشديد إلى أمرين: أولًا: أننا نؤمن أن هذه الكتب بأصلها من عند الله إلا أن يد البشر امتدت إليها، تعبث وتحرف، وتؤول وتغير، كما أخبرنا القرآن الكريم عن أهل الكتاب، ثانيًا: أن القرآن هو المنهاج الرباني الأخير للبشر، وهو آخر أمر يسأل الله عنه البشر يوم القيامة، فنزل القرآن ناسخًا لما قبله، مهيمنًا

(١) انظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية ١٦/ ٤٥.
(٢) مفاتيح الغيب ٧/ ١٣٠.
(٣) إرشاد العقل السليم ٢/ ٤.

على ما قبله من الكتب.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨].

وسيتناول هذا المبحث: وجوب الإيمان بالكتب المنزلة، والكفر بإحداها كفر بها جميعًا، والإيمان بأن التوراة كتاب منزل من عند الله سبحانه وتعالى، وتصديق الإنجيل والقرآن للتوراة المنزلة، ثم القرآن مكذّب للتوراة المحرفة، وفيما يلي تفصيل ذلك[1].

أولًا: وجوب الإيمان بالكتب المنزلة والكفر بإحداها كفر بها:

جاء ذكر الإيمان بالكتب السماوية في القرآن في صيغة الأمر تارة، وصفة للمؤمنين تارة أخرى، وبوصف الكفر لمن لم يؤمن بها تارة ثالثة.

فصيغة الأمر في قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة:١٣٦].

أما وصف المؤمنين بأنهم هم الذين يؤمنون بالكتب المنزلة كلها ففي قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة:٢٨٥].

أما وصف الذين لا يؤمنون بالكتب كلها أو الذين يؤمنون ببعضها ويكفرون ببعض بأنهم كفار ففي قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء:١٣٦].

ومفهوم هذه الآيات وأمثالها، سواء كانت أمرًا مباشرًا أو وصفًا للمؤمنين أو وصفًا للكافرين، هو أن الإيمان بالكتب السماوية كلها أمر واجب لا يتم إيمان المرء إلا به.

إنّ الكتب السماوية كلها تحتوي على حقيقة واحدة، هي الأمر بعبادة الله وحده ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥][2].

والإيمان بالكتب ينقسم إلى: إيمان إجمالي، وإيمان تفصيلي؛ فالإيمان الإجمالي: وجوب الإيمان بكلّ كتابٍ أنزله الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾ [الشورى:١٥].

فكل كتاب يجب على العباد أن يؤمنوا به، علموه أم لم يعلموه.

---

(١) انظر: موقع د. محمد راتب النابلسي.

(٢) انظر: كائز الإيمان، محمد قطب، ص١٨١.

والإيمان التفصيلي: وهو الإيمان بكل ما سمى الله من كتبه على وجه التفصيل، وقد علمنا من ذلك: القرآن والتوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم وموسى، وأن لله سوى ذلك كتبًا أنزلها على أنبياءه، لا يعرف أسماءها وعددها إلا الذي أنزلها[1].

ثانيًا: الإيمان بأن التوراة كتاب منزل من عند الله سبحانه وتعالى:

تمتاز العقيدة الإسلامية بالتكامل؛ فهي عقيدة متكاملة، فالإيمان بالكتب السماوية، يتضمن جميع الكتب، ما علمنا وما لم نعلم، ومن هذه الكتب: التوراة؛ فقد وردت آيات كثيرة تتحدث عن إنزال التوراة.

قال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣﴾

[آل عمران:٣].

وقال ايضًا: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٥﴾

[آل عمران:٦٥].

قال السمرقندي: «يعني أنزل التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى من قبل هذا الكتاب»[2].

وقال الرازي: «فاعلم أنه تعالى بين أنه أنزل التوراة والإنجيل قبل أن أنزل القرآن، ثم بين أنه إنما أنزلهما هدى للناس»[3].

وقالت نعمة النخجواني: «وأنزل أيضًا التّوراة والإنجيل على موسى وعيسى عليهما السّلام مصدقين كذلك لعموم ما مضى من الكتب السابقة، ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: قبل إنزال القرآن عليك، ومن سنته سبحانه إنزال اللاحق مصدقًا للسابق، لكون الكل هدىً للنّاس أي نازلًا من عنده سبحانه لمصلحة الهداية، يهديهم الى توحيده الذاتي عند ظهور أمارات الغي والضلال»[4].

ولقد ذم الله اليهود حيث لم يؤمنوا بما جاء في توراتهم.

قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٤٣﴾

[المائدة:٤٣].

قال المراغي: «إن أمرهم لمن أعجب العجب، وما سبب ذلك إلا أنهم ليسوا مؤمنين بالتوراة إيمانًا صحيحًا، ولا هم مؤمنين بك، إذ المؤمن بشرع لا يرغب عنه إلى غيره إلا إذا آمن بأن ما رغب إليه شرع من الله أيضًا، آيد به الأول، أو نسخه لحكمة اقتضت ذلك، ولكن هؤلاء تركوا حكم التوراة التي يدعون الإيمان بها؛ لأنه لم يوافق

(١) انظر: دراسات في العقيدة، سعد عاشور ص٢١٠.
(٢) تفسير السمرقندي ١/ ١٩٣.
(٣) مفاتيح الغيب ٧/ ١٣٢.
(٤) الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية ١/ ٩٨.

أهواءهم وجاءوك يطلبون حكمك، رجاء أن يوافق أهواءهم، ثم يتولون ويعرضون عنه، إذ لم يأت وفق مرادهم»[1].

ثالثًا: تصديق الإنجيل والقرآن للتوراة المنزلة:

جاء القرآن مؤيدًا للحق الذى ورد في الكتب السماوية من عبادة الله وحده، والإيمان برسله، والتصديق بالجزاء، ورعاية الحق والعدل، والتخلق بالأخلاق الصالحة؛ وهو في الوقت ذاته مهيمنٌ عليها، ومبينٌ ما وقع فيها من أخطاء وأغلاط، وتحريف وتصحيف، وتغيير وتبديل.

وإذا انتفت هذه الأخطاء التي أدخلها رجال الدين على الكتب السماوية وزوروها على الناس باسم الله، ظهر الحق، واستبان، والتقى القرآن مع التوراة والإنجيل.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة:٦٨].

وإقامتها لا تتحقق إلا بعد تطهيرها من الزيف[2].

ولقد جاءت الآيات تؤكد على تصديق القرآن للتوراة.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة:٩١].

وقال أيضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ [النساء:٤٧].

وقال أيضًا: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣﴾ [آل عمران:٣].

قال الطبري: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني بذلك القرآن، أنه مصدّق لما كان قبله من كتب الله التي أنزلها على أنبيائه ورسله، ومحقق ما جاءت به رسل الله من عنده[3].

وقال السمعاني: «القرآن مصدق لما قبله من التوراة والإنجيل»[4].

وقال السعدي: «فهو المزكي لها، فما شهد له فهو المقبول، وما رده فهو المردود، وهو المطابق لها في جميع المطالب التي اتفق عليها المرسلون»[5].

والإنجيل أيضًا جاء مصدقًا للتوراة؛ قال تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝٥٠﴾ [آل عمران:٥٠].

وفي مفهوم هذه الآية أيضًا تصديق عيسى للتوراة كما قال الطبري: «وإنما قيل:

(١) تفسير المراغي ٦/ ١٢١.
(٢) انظر: العقائد الإسلامية، سيد سابق، ص ١٦٨.
(٣) جامع البيان ٦/ ١٦٠.
(٤) تفسير القرآن ١/ ٢٩١.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، ص١٢١.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾؛ لأن عيسى صلوات الله عليه، كان مؤمنًا بالتوراة مقرًّا بها، وأنها من عند الله. وكذلك الأنبياء كلهم، يصدّقون بكل ما كان قبلهم من كتب الله ورسله، وإن اختلف بعض شرائع أحكامهم، لمخالفة الله بينهم في ذلك، مع أنّ عيسى كان -فيما بلغنا- عاملًا بالتوراة لم يخالف شيئًا من أحكامها، إلا ما خفّف الله عن أهلها في الإنجيل، مما كان مشددًا عليهم فيها»[1].

وقال ابن عطية: «وكان عيسى عليه السلام مصدقًا للتوراة متبعًا عاملًا بما فيها، قال وهب بن منبه: كان يسبت، ويستقبل بيت المقدس»[2].

وقال الرازي: «يجب على كل نبي أن يكون مصدقًا لجميع الأنبياء عليهم السلام، لأن الطريق إلى ثبوت نبوتهم هو المعجزة، فكل من حصل له المعجز، وجب الاعتراف بنبوته، فلهذا قلنا: بأن عيسى عليه السلام يجب أن يكون مصدقًا لموسى بالتوراة، ولعل من جملة الأغراض في بعثة عيسى عليه السلام إليهم: تقرير التوراة، وإزالة شبهات المنكرين وتحريفات الجاهلين»[3].

ولقد جاء القرآن مهيمنًا على جميع الكتب السابقة، أي: رقيب عليها، لأنه يشهد بصحتها، ويقرر أصولها، وما يتأبّد من فروعها، ويبيّن أحكامها المنسوخة بتعين وقت انتهاء مشروعيتها، أو على معنى أنه أمين عليها، فما أخبر عن صدقه مما ورد فيها صدّق، وما أخبر بزيفه فهو باطل أو على معنى أنه الحافظ لها، فهو الذي حفظ ما جاء فيها من التوحيد، وكليات الدين إلى يوم القيامة، أو على معنى أنه دال على صدقها، أي هو دليل على أنها من عند الله، لأنه جاء كما نعتته هذه الكتب، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨].

قال الطبري: «أنزلنا الكتاب الذي أنزلناه إليك، يا محمد، مصدّقًا للكتب قبله، وشهيدًا عليها أنها حق من عند الله، أمينًا عليها، حافظًا لها»[4].

وقال الزمخشري: «مهيمنًا ورقيبًا على سائر الكتب؛ لأنه يشهد لها بالصحة والثبات»[5].

قال الواحدي: «أي: شاهدًا وأمينًا وحفيظًا ورقيبًا على الكتب التي قبله»[6].

رابعًا: القرآن مكذّب للتوراة المحرفة:

أنزل الله التوراة على اليهود، فحرفوها وخلطوا الحق بالباطل.

(١) جامع البيان، الطبري ٦/ ٤٣٨.
(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤٤١.
(٣) مفاتيح الغيب ٨/ ٢٣٠.
(٤) جامع البيان ١٠/ ٣٧٧.
(٥) الكشاف ١/ ٦٤٠.
(٦) الوجيز ٣٢٢.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [البقرة:٤٢].

ولم يتكفل الله بحفظ التوراة، لكنه فند لنا كذب اليهود وافتراءهم عليه وعلى أنبيائه في كثيرٍ من الآيات، نقف على بعض الأمثلة.

المثال الأول: وصفوا الله بأنه ندم على فعله؛ فمن ذلك قولهم: «فندم الرب على الشر الذي قال إنه يفعله بشعبه»[(١)].

وقد كذبهم الله في ذلك فقال: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء:٢٣].

وقال أيضًا: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾ [الفرقان:٧٧]. وهل يندم إلا الغر الجاهل بالعواقب، والله عز وجل منزه عن ذلك[(٢)].

المثال الثاني: وصفهم الله عز وجل بالتعب، فقد زعم اليهود في كتابهم أن الله عز وجل تعب من خلق السموات والأرض فاستراح في اليوم السابع، فقد ورد في توراتهم المحرفة ما نصه: «وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل»[(٣)].

وورد أيضًا: «لأنه في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض، وفي اليوم السابع استراح وتنفس»[(٤)].

وقد ردّ الله عز وجل عليهم، وبيّن بطلان قولهم هذا في قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق:٣٨].

المثال الثالث: تزعم التوراة أن بني إسرائيل رأوا الله عز وجل، فتقول: «لأنه في اليوم الثالث ينزل الرب أمام عيون جميع الشعب على جبل سيناء»[(٥)]، «وفيها ورأوا إله إسرائيل، وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف، وكذات السماء في النقاوة، ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بني إسرائيل فرأوا الله، وأكلوا وشربوا»[(٦)]، وجاء أيضًا: «ويكلم الرب موسى وجهًا لوجه، كما يكلم الرجل صاحبه»[(٧)].

وقد فند القرآن كذبهم فقال: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [البقرة:٥٥].

وقال أيضًا: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ

(١) سفر الخروج ٣٢/ ١٤.
(٢) دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، سعود الخلف، ص ١٠٦.
(٣) سفر التكوين ٢/ ٢.
(٤) سفر الخروج ٣١/ ١٧.
(٥) سفر الخروج ١٩/ ١١.
(٦) سفر الخروج ٢٤/ ١٠.
(٧) المصدر السابق ١٣/ ١١.

شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ﴾ [الأعراف:١٥٥].

بل إن موسى عليه السلام نفسه لم ير الله عز وجل كما قال القرآن الكريم: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾ [الأعراف:١٤٣].

المثال الرابع: ولقد اعتدوا على أنبياء الله، فقالوا عن نوح عليه السلام: «وابتدأ نوح يكون فلاحًا، وغرس كرمًا، وشرب من الخمر وتعرى داخل خبائه»[1].

هكذا وصفوا نبي الله نوحًا عليه السلام وهو أول أنبياء الله إلى المشركين، والذي دعا قومه إلى دين الله ألف سنة إلا خمسين عامًا كما ذكر الله عز وجل، حيث قال: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٤﴾ [العنكبوت:١٤].

ولقد امتن الله على بني إسرائيل أنهم ذرية ذلك العبد الصالح نوح عليه السلام فقال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا ٢ ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ٣﴾ [الإسراء:٢-٣][2].

المثال الخامس: زعموا أن هارون عليه السلام هو الذي صنع لهم العجل ودعاهم إلى عبادته، فقالوا: «ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل، اجتمع الشعب على هارون، وقالوا له: قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا... فقال لهم هارون: انزعوا أقراط الذهب التي في أذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتوني بها.... فأخذ ذلك من أيديهم، وصوره بالإزميل، وصنعه عجلًا مسبوكًا، فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل»[3].

وقد بين الله عز وجل في القرآن أن الذي صنع لهم العجل هو السامري، فقال عز وجل: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ٨٥﴾ [طه:٨٥].

أما هارون عليه السلام فقد قام بواجبه من ناحية نهيهم عن عبادة العجل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ٩٠﴾ [طه:٩٠].

(١) سفر التكوين ٩/ ٢٠.

(٢) انظر: الأديان والمذاهب، جامعة المدينة، ص١٥٧.

(٣) سفر الخروج ٣٢/ ١.

تلقي موسى عليه السلام ألواح التوراة

لقد أنزل الله على النبيين الرسالات، واختص موسى بالتوراة؛ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة:٤٤].

والصحف؛ ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩﴾ [الأعلى:١٩].

والألواح؛ ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾[الأعراف:١٤٥].

وهناك من فرّق بينهم، قال ابن كثير: «وقيل: الألواح أعطيها موسى قبل التوراة»[١].

ولم يثبت بخبرٍ صحيح أن التوراة غير الألواح وغير الصحف، بينما كثير من المفسرين اعتبروها شيئًا واحدًا.

قال القرطبي: «﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف:١٤٥]: يريد التوراة»[٢].

قال السمعاني: «في قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾أراد به التوراة»[٣].

وقال الزحيلي: «أنزل الله تعالى على موسى الألواح، وفيها التوراة المشتملة على أصول العقيدة والأخلاق والآداب والشريعة والأحكام المفصلة المبينة للحلال والحرام»[٤].

«وتختلف الروايات والمفسرون في شأن هذه الألواح، ويصفها بعضهم أوصافًا مفصلة- نحسب أنها منقولة عن الإسرائيليات التي تسربت إلى التفسير- ولا نجد في هذا كله شيئًا عن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فنكتفي بالوقوف عند النص القرآني الصادق لا نتعداه، وما تزيد تلك الأوصاف شيئًا أو تنقص من حقيقة هذه الألواح، أما ما هي، وكيف كتبت، فلا يعنينا هذا في شيء، بما أنه لم يرد عنها من النصوص الصحيحة شيء»[٥].

وما ذكره القرآن بشأنها هو تلقي موسى عليه السلام لها، وذهابه بها إلى قومه، ثم إلقائها عند غضبه منهم، وفيما يلي تفصيل ذلك.

أولًا: موسى عليه السلام يتلقى الألواح على جبل الطور:

لقد تلقى موسى الألواح عند ذهابه لميقات ربه على جبل الطور.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٧٤.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٢٨١.
(٣) تفسير القرآن ٢/ ٢١٤.
(٤) التفسير المنير، الزحيلي ٩/ ٨٧.
(٥) انظر: في ظلال القرآن ٣/ ١٣٧٠.

﴿سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾ [الأعراف:١٤٣-١٤٤].

بعد أن ذكر الله ما أنعم به على بني إسرائيل، من النجاة من العبودية، ومن جعلهم أمة حرة مستقلة قادرة على القيام بما يشرعه الله لها من العبادات والأحكام، ذكر هنا بدء وحي الشريعة لموسى عليه السلام، ممتنًا عليهم بما حصل لهم من الهداية بتكليم موسى وإعطائه التوراة، وفيها تفاصيل شرعهم وبيان ما يقرّبهم من ربهم من الأحكام، وقد روي أن موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل وهو بمصر، إن أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب من عند الله؛ فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب، فبينت هذه الآيات كيفية نزول هذا الكتاب، وهو التوراة[1].

قال الواحدي: «ولمّا جاء موسى في الوقت الذي وقّتنا له، وسمع كلام الله، قال: ربّ إنّي قد سمعت كلامك فأنا أحبّ أن أراك، قال: لن تراني في الدّنيا، ولكن اجعل بيني وبينك ما هو أقوى منك وهو الجبل، فإن استقرّ مكانه أي: سكن وثبت، فسوف تراني، وإن لم يستقرّ مكانه فإنّك لا تطيق رؤيتي، كما أنّ الجبل لا يطيق رؤيتي، فلمّا ظهر وبان جعله دكًّا، أي: مدقوقًا مع الأرض كسرًا ترابًا، وسقط موسى مغشيًّا عليه، فلما أفاق قال: سبحانك! تبت إليك من مسألتي الرّؤية في الدّنيا، وأنا أوّل قومي إيمانًا، قال: يا موسى إني اتّخذتك صفوةً على الناس بوحيي، وكلّمتك من غير واسطة، فخذ ما آتيتك من الشّرف والفضيلة، وكن من الشاكرين لأنعمي في الدنيا والآخرة»[2].

وقد أمر الله موسى عليه السلام أن يأخذ ما في الألواح بقوة، لأن الأمور العقدية بحاجة للأخذ بقوة.

قال تعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٤٥﴾ [الأعراف:١٤٥].

يقول سيد قطب: إن العقيدة أمر هائل عند الله، وأمر هائل في حساب هذا الكون، وقدر الله الذي يصرفه، وأمر هائل في تاريخ الإنسان وحياته في هذه الأرض، وفي الدار الآخرة كذلك...وأمر له هذه الخطورة عند الله، وفي حساب الكون، يجب أن يؤخذ بقوة، وأن تكون له جديته في النفس، وصراحته وحسمه، ولا ينبغي أن يؤخذ في رخاوة، ولا في تميع، ولا في ترخص، ذلك أنه أمر هائل في ذاته، فضلًا على أن تكاليفه باهظة لا يصبر عليها من طبيعته الرخاوة

(١) انظر: تفسير المراغي ٩/ ٥٥.

(٢) الوجيز، ص٤١٢.

والتميع والترخص[1].

ثانيًا: موسى عليه السلام يذهب بالألواح إلى قومه:

ولقد بدّلت بنو إسرائيل في غياب موسى عليه السلام لميقات ربه، فعبدوا العجل.

قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأعراف:١٤٨].

قال الثعلبي: «وكانت بنو إسرائيل في القبط بمنزلة أهل الجزية في الإسلام، وكان لهم يوم عيد يتزينون فيه ويستعيرون من القبط الحلي، فزامن ذلك عيدهم، فاستعاروا الحلي للقبط، فلما أخرجهم الله من مصر وغرق فرعون؛ بقيت تلك الحلي في أيديهم فاتخذ السامري منها عجلًا، وهو ولد البقر عجلًا جسدًا مجسّد لا روح فيه»[2].

فعبدوه، ثم تبين لهم الحق فندموا.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأعراف:١٤٩].

قال القشيري: «حين تحققوا بقبح صنيعهم تجرّعوا كاسات الأسف ندمًا، واعترفوا بأنهم خسروا إن لم يتداركهم من الله جميل لطفه»[3].

ويقول ابن عطية: «وقول بني إسرائيل ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ إنما كان بعد رجوع موسى وتغييره عليهم، ورؤيتهم أنهم قد خرجوا عن الدين ووقعوا في الكفر»[4].

ولقد رجع موسى من ميقات ربه حاملًا الألواح لقومه.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٥٠].

يقول بعض المفسرين إن الله قد أخبره بصنيع قومه قبل عودته، قال الطبري: «لأن الله كان قد أخبره أنه قد فتن قومه، وأن السامري قد أضلّهم، فكان رجوعه غضبان أسفًا لذلك»[5].

وقال البعض الأخر أنه عرف ذلك الصنيع بعد أن رآهم، قال الرازي مفصلًا المسألة: «اعلم أن قوله: ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفًا لا يمنع من أن يكون قد عرف خبرهم من قبل في عبادة العجل، ولا يوجب ذلك؛ لجواز أن يكون عند الرجوع ومشاهدة أحوالهم صار كذلك، فلهذا السبب اختلفوا فيه؛ فقال قوم: إنه عند هجومه عليهم عرف ذلك. وقال أبو مسلم: بل كان عارفًا بذلك من قبل، وهذا أقرب.

(١) انظر: في ظلال القرآن ٣/ ١٣٧٠.
(٢) الكشف والبيان ٤/ ٢٨٥.
(٣) لطائف الإشارات ١/ ٥٧٢.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٦.
(٥) جامع البيان ١٣/ ١٢٠.

ويدل عليه وجوه:

الأول: أن قوله تعالى ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ يدل على أنه حال ما كان راجعًا كان غضبان أسفًا، وهو إنما كان راجعًا إلى قومه قبل وصوله إليهم، فدل هذا على أنه عليه السلام قبل وصوله إليهم كان عالمًا بهذه الحالة.

الثاني: أنه تعالى ذكر في سورة طه أنه أخبره بوقوع تلك الواقعة في الميقات»[1].

قال السمعاني: «وكأن موسى رجع نادمًا حزينًا يقول: ليتني كنت فيهم فلم يقع لهم ما وقع»[2].

وفي قول موسى لهم: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾، قال البيضاوي: «أعجلتم وعد ربكم الذي وعدنيه من الأربعين، وقدرتم موتي، وغيرتم بعدي كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم»[3].

وقال الخازن: «وقيل معناه: أعجلتم سخط ربكم بعبادة العجل»[4].

ويقول ابن كثير: «استعجلتم مجيئي إليكم، وهو مقدر من الله تعالى»[5].

وخلاصة الأمر: أن موسى رجع من الطور بعد أن كلمه ربه، حاملًا ألواح التوراة، وقد استشاط غضبًا من قومه بسبب عبادتهم العجل.

ثالثًا: مشهد إلقاء موسى عليه السلام للألواح عند غضبه من قومه:

لقد عاد موسى من جبل الطور غضبان أسفًا حزينًا على ما صدر من قومه، ويصور لنا القرآن الكريم مشهد عودته غاضبًا مترجمًا غضبه بإلقاء الألواح، وجر رأس أخيه هارون.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأعراف:١٥٠].

لقد عاد موسى إلى قومه غضبان أشد الغضب، يبدو انفعال الغضب في قوله وفعله، يبدو في قوله لقومه ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾، ويبدو في فعله إذ يأخذ برأس أخيه يجره إليه ويعنفه، ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾، وحق لموسى عليه السلام أن يغضب، فالمفاجأة قاسية، والنقلة بعيدة: تركتكم على الهدى فخلفتموني بالضلال، وتركتكم على عبادة الله، فخلفتموني بعبادة عجل جسد له خوار.

---

(١) مفاتيح الغيب ١٥/ ٣٧١.
(٢) تفسير القرآن ٢/ ٢١٧.
(٣) أنوار التنزيل ٣/ ٣٥.
(٤) لباب التأويل ٢/ ٢٥٢.
(٥) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٧٦.

﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾، وهي حركة تدل على شدة الانفعال، فهذه الألواح هي التي كانت تحمل كلمات ربه، وهو لا يلقيها إلا وقد أفقده الغضب زمام نفسه، وكذلك أخذه برأس أخيه يجره إليه، وأخوه هو هارون العبد الصالح الطيب، فأما هارون فيستجيش في نفس موسى عاطفة الأخوة الرحيمة، ليسكن من غضبه، ويكشف له عن طبيعة موقفه، وأنه لم يقصر في نصح القوم ومحاولة هدايتهم. ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾.

وهنا ندرك كيف كان القوم في هياجهم واندفاعهم إلى العجل الذهب، حتى لهموا بهارون إذ حاول ردهم عن التردي والانتكاس.

﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، وهذه أخرى يستجيش بها هارون وجدان الأخوة الناصرة المعينة، حين يكون هناك الأعداء الذين يشمتون، ولا تجعلني مع القوم الذين ضلوا وكفروا بربهم الحق، فأنا لم أضل ولم أكفر معهم، وأنا بريء منهم، عندئذ تهدأ ثائرة موسى أمام هذه الوداعة وأمام هذا البيان، وعندئذ يتوجه إلى ربه، يطلب المغفرة له ولأخيه، ويطلب الرحمة من أرحم الراحمين. ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١)﴾ [الأعراف:١٥١].

وهنا يجيء الحكم الفاصل من الله[١]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٥٣)﴾ [الأعراف:١٥٢-١٥٣].

واستكمالًا للمشهد، فلما هدأت نفس موسى وأذهب الله عنه الغضب عاد فأخذ الألواح.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤)﴾ [الأعراف:١٥٤].

قال المراغي: «أي ولما سكن غضب موسى باعتذار أخيه إليه، ولجأ إلى رحمة ربه وفضله، وجأر بالدعاء له أن يغفر له ولأخيه خطاياهما؛ عاد إلى الألواح فأخذها، وفيها الهدى والرشاد من بارئ النسم لمن يرهب الله، ويخشى عقابه، ويرجو ثوابه»[٢].

---
(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣٧٥.
(٢) تفسير المراغي ٩/ ٧٦.

صفات التوراة في القرآن

لقد وصف الله التوراة في القرآن الكريم بصفات عديدة؛ فقد وصفها بأنها هدى، وأنها نور، كما وصفها بالفرقان، والضياء، والذكر، والرحمة، وفيما يلي تفصيلٌ لتلك الصفات:

١. هدى.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة:٤٤].

قال الطبري: «إنا أنزلنا التوراة فيها بيان ما سألك هؤلاء اليهود عنه من حكم الزانيين المحصنين»(١).

قال الزمخشري: «فيها هدىً يهدى للحق والعدل»(٢).

وقال الرازي: «فالهدى: محمول على بيان الأحكام والشرائع والتكاليف»(٣).

ويقول ابن الجوزي: «والهدى: البيان؛ فالتّوراة مبيّنة صحة نبوّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم، ومبينة ما تحاكموا فيه إليه»(٤).

وقال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢﴾ [الإسراء:٢].

قال ابن أبي حاتم: «جعله الله لهم هدى، يخرجهم من الظلمات إلى النور وجعله رحمة لهم»(٥).

وجاء في روح البيان: «هاديًا لأولاد يعقوب، يهتدون إلى الحق والصواب بما فيه من الأحكام»(٦).

وقال تعالى أيضًا: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران:٣-٤].

قال السمرقندي: «هدىً للنّاس معناه: وأنزل التّوراة على موسى، والإنجيل على عيسى عليهما السلام، بيانًا لبني إسرائيل من الضلالة»(٧).

٢. نور.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة:٤٤].

قال الطبري: «﴿وَنُورٌ﴾ يقول: فيها جلاء ما أظلم عليهم، وضياء ما التبس من الحكم»(٨).

يقول الزمخشري: «ونورٌ يبين ما استبهم من الأحكام»(٩).

ويقول ابن الجوزي: «والنور: الضياء الكاشف للشبهات، والموضح

(١) جامع البيان ١٠/ ٣٣٨.
(٢) الكشاف ١/ ٦٣٦.
(٣) مفاتيح الغيب ١٢/ ٣٦٥.
(٤) زاد المسير ١/ ٥٥١.
(٥) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٠٩.
(٦) روح البيان ٥/ ١٣١.
(٧) تفسير السمرقندي ١/ ١٩٣.
(٨) جامع البيان ١٠/ ٣٣٨.
(٩) الكشاف ١/ ٦٣٦.

للمشكلات»[1].

بينما فسر الواحدي النور بأنه بيان صدق محمد صلى الله عليه وسلم، فقال: «﴿وَنُورٌ﴾ بيانٌ إنّ أمرك حقٌّ»[2].

وقال تعالى أيضًا: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعام:٩١].

قال ابن كثير: «إن الله قد أنزلها على موسى بن عمران نورًا وهدى للناس، أي: ليستضاء بها في كشف المشكلات، ويهتدى بها من ظلم الشبهات»[3].

وقد فرّق ابن عادل بين النور والهدى فقال: وصف الكتاب بقوله: ﴿نُورًا﴾، وهو منصوبٌ على الحال، وسمّاه نورًا تشبيهًا له بالنّور الذي يبين به الطريق، فإن قيل: فعلى هذا لا يبقى بين كونه نورًا، وبين كونه هدًى للناس فرقٌ، فعطف أحدهما على الآخر يوجب التّغاير؛ فالجواب: أن للنور صفتين: أحدهما: كونه في نفسه ظاهرًا جليًّا، والثانية: كونه بحيث يكون سببًا لظهور غيره، فالمراد من كونه ﴿نُورًا وَهُدًى﴾ هو هذان الأمران[4].

٣. فرقان.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝٥٣﴾ [البقرة:٥٣].

قال الطبري: «ولقد آتينا موسى بن عمران وأخاه هارون الفرقان، يعني به: الكتاب الذي يفرق بين الحق والباطل، وذلك هو التوراة في قول بعضهم»[5].

ولقد اعتبر الثعلبي التوراة والفرقان شيئًا واحدًا، فقال: «قال مجاهد والفراء: هما شيء واحد، والعرب تكرر الشيء إذا اختلفت ألفاظه على التوهم»[6].

ويؤيد هذا الرأي قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨﴾ [الأنبياء:٤٨].

ويقول الزمخشري: «الكتاب والفرقان يعنى الجامع بين كونه كتابًا منزلًا، وفرقانًا يفرق بين الحق والباطل: يعنى التوراة، كقولك: رأيت الغيث والليث، تريد الرجل الجامع بين الجود والجرأة»[7].

ولقد فصل ابن عطية القول في ذلك وذكر أقوالًا، فقال: «والكتاب: هو التوراة بإجماع من المتأولين، واختلف في الفرقان هنا؛ فقال الزجاج وغيره: هو التوراة أيضًا، كرر المعنى لاختلاف اللفظ، ولأنه زاد معنى التفرقة بين الحق والباطل، ولفظة الكتاب لا تعطي ذلك.

وقال آخرون: الكتاب: التوراة، والفرقان سائر الآيات التي أوتي موسى عليه السلام،

(١) زاد المسير ١/ ٥٥١.
(٢) الوجيز، الواحدي، ص ٣٢٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٣٠٠.
(٤) انظر: اللباب في علوم الكتاب ٨/ ٢٧٩.
(٥) جامع البيان ١٨/ ٤٥٢.
(٦) الكشف والبيان ١/ ١٩٦.
(٧) الكشاف ١/ ١٤٠.

لأنها فرقت بين الحق والباطل.

وقال آخرون: الفرقان: النصر الذي فرق بين حالهم وحال آل فرعون بالنجاة والغرق»[1].

٤. ضياء.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨﴾ [الأنبياء:٤٨].

قال الزمخشري: أنه في نفسه ضياء، أو وآتيناهما بما فيه من الشرائع والمواعظ ضياء[2].

وفي زاد المسير: «والمعنى: أنهم استضاءوا بالتوراة حتى اهتدوا بها في دينهم»[3].

قال النسفي: «قيل: هذه الثلاثة هي التوراة، فهي فرقان بين الحق والباطل، وضياء يستضاء به، ويتوصل به إلى السبيل النجاة، وذكر: أي شرف أو وعظ وتنبيه، أو ذكر ما يحتاج الناس إليه في مصالح دينهم»[4].

ويؤكد البيضاوي هذا المعنى فيقول: «وضياءً يستضاء به في ظلمات الحيرة والجهالة»[5].

ويقول البقاعي: «وضياء لا ظلام معه، فلا ظلم للمستبصر به، لأن من شأن من كان في الضياء أن لا يضع شيئًا إلا في موضعه»[6].

ويقول سيد قطب: «وجعل التوراة كذلك، ضياء يكشف ظلمات القلب والعقيدة، وظلمات الضلال والباطل، وهي ظلمات يتوه فيها العقل ويضل فيها الضمير، وإن القلب البشري ليظل مظلمًا حتى تشرق فيه شعلة الإيمان، فتنير جوانبه، ويتكشف له منهجه، ويستقيم له اتجاهه، ولا تختلط عليه القيم والمعاني والتقديرات»[7].

٥. ذكر.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨﴾ [الأنبياء:٤٨].

قال الثعالبي: «والذّكر: بمعنى التذكرة»[8].

أما البقاعي فقال: «وذكرًا: أي وعظًا وشرفًا»[9].

قال النسفي: «وذكر: أي شرف، أو وعظ، وتنبيه، أو ذكر ما يحتاج الناس إليه في مصالح دينهم»[10].

وقال أبو السعود: «وذكرًا: يتعظ به

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ١٤٤.
(٢) انظر: الكشاف ٣/ ١٢١.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ١٩٣.
(٤) مدارك التنزيل ٢/ ٤٠٧.
(٥) أنوار التنزيل ٤/ ٥٣.
(٦) نظم الدرر ١٢/ ٤٣١.
(٧) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٨٤.
(٨) الجواهر الحسان ٤/ ٨٩.
(٩) نظم الدرر، البقاعي ١٢/ ٤٣١.
(١٠) مدارك التنزيل ٢/ ٤٠٧.

الناس، وتخصيص المتقين بالذكر لأنهم المستضيئون بأنواره، المغتنمون لمغانم آثاره، أو ذكر ما يحتاجون إليه من الشرائع والأحكام»[1].

ويقول سيد قطب: «وجعل التوراة كالقرآن ﴿وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ﴾، تذكرهم بالله، وتبقي لهم ذكرًا في الناس، وماذا كان بنو إسرائيل قبل التوراة؟ كانوا أذلاء تحت سياط فرعون، يذبح أبناءهم، ويستحيي نساءهم، ويستذلهم بالسخرة والإيذاء»[2].

٦. رحمة.

وجاء ذلك في عدة آيات.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ١٥٤﴾ [الأنعام:١٥٤].

قال الطبري: «ورحمة لمن كان منهم ضالًّا لينجيه الله به من الضلالة»[3].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةً﴾ [هود:١٧].

وجاءت أيضًا في الأحقاف: ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗ﴾ [الأحقاف:١٢].

يقول ابن عاشور: «والرحمة: اسم مصدر لصفة الراحم، وهي من صفات الإنسان، فهي: رقة في النفس، تبعث على سوق الخير لمن تتعدى إليه، ووصف الكتاب بها استعارة لكونه سببًا في نفع المتبعين؛ لما تضمنه من أسباب الخير في الدنيا والآخرة، وصف الكتاب بالمصدر مبالغة في الاستعارة»[4].

قال تعالى في سورة القصص أيضًا: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٤٣﴾ [القصص:٤٣].

قال الزمخشري: «ورحمةً: لأنهم لو عملوا بها وصلوا إلى نيل الرحمة»[5].

قال البقاعي: «ورحمة: أي نعمة هنية شريفة، لأنها قائدة إليها»[6].

---

(١) إرشاد العقل السليم ٦/ ٧١.
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٨٤.
(٣) جامع البيان ١٢/ ٢٣٨.
(٤) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٤.
(٥) الكشاف ٣/ ٤١٧.
(٦) نظم الدرر ١٤/ ٣٠٢.

الأحكام التشريعية في التوراة

لقد جاءت التوراة بالدرجة الأولى لتكون منهج حياة لبني إسرائيل، وإلى جانب ذلك جاءت لتهيئ الناس لمجيء النبي الأمي، وتهيئ عقولهم لتقبل شريعته، ولأن هذا النبي سيكون نبيًّا لجميع الأمم، جعلها شريعة عامة؛ ليسهل على الأمم الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم.

وكان بنو إسرائيل شهداء بين أهل دينهم، يثقون بهم، يشهدون بمجيء محمد صلى الله عليه وسلم ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [آل عمران:٩٩][1].

قال الرازي: أنتم شهداء أن في التوراة موجود: أن دين الله الذي لا يقبل غيره هو الإسلام، وأنتم شهداء على ظهور المعجزات على نبوته صلى الله عليه وسلم[2].

لذا فقد جاء الأمر لبني إسرائيل بأن يأخذوا الكتاب بقوة؛ ذلك الكتاب الذي تضمن أحكامًا تشريعية، منها ما نسخ، ومنها ما استمر بعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن بني إسرائيل لم يعملوا بتلك الشرائع، ولو عملوا بها لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، وفيما يلي تفصيل ذلك:

أولًا: حكمة الأمر بأخذ التوراة بقوة:

لقد أمر الله بني إسرائيل بأخذ التوراة وما فيها بقوة، وذلك في آيات عدة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [البقرة:٦٣].

قال الطبري: «خذوا ما افترضناه عليكم في كتابنا من الفرائض، فاقبلوه، واعملوا باجتهاد منكم في أدائه، من غير تقصير ولا توان»[3].

وبعد أخذ الميثاق عليهم بقوة ورفع الجبل فوق رؤوسهم نكثوا العهود والمواثيق كعادتهم، بل وتبجحوا في ذلك الأمر، وأقروا بالعصيان، وعبدوا العجل كفرًا وجورًا؛ فكيف يتصور الإيمان من أخلافهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة:٩٣].

جاء في روح البيان: «قالوا سمعنا قولك،

(١) انظر: شرح الأحكام التشريعية في التوراة، نادي فرج درويش العطار، ١/ ٦.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب ٨/ ٣٠٨.
(٣) جامع البيان ٢/ ١٦١.

ولكن لا سماع طاعة، وعصينا أمرك ولولا مخافة الجبل ما قبلنا في الظاهر، فإذا كان حال أسلافهم هكذا، فكيف يتصور من أخلافهم الإيمان»[(١)].

ولا شك أن ديننا الحنيف يختلف في هذا الأمر حيث لا يعتمد على الإكراه والتخويف، رغم كونه مرغبًا ومرهبًا.

قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة:٢٥٦].

قال الرازي: «أن إظلال الجبل لا شك أنه من أعظم المخوفات، ومع ذلك فقد أصروا على كفرهم، وصرحوا بقولهم: سمعنا وعصينا وهذا يدل على أن التخويف وإن عظم لا يوجب الانقياد»[(٢)].

وقال تعالى أيضًا: ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٤٥﴾ [الأعراف:١٤٥].

يفصل المراغي الأخذ بقوة فيقول: «﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ﴾ أي: وكتبنا له في الألواح وقلنا له: هذه وصايانا وأصول شريعتنا وكلياتها، فخذها بقوة وجدّ وعزم، ذاك أنك ستكون بها شعبًا جديدًا، بعادات جديدة، وأخلاق جديدة، مخالفة في جوهرها وصفاتها لما كان عليه من الذل والعبودية لدى فرعون وقومه، وما كان عليه من الشرك والوثنية التي ألفها وراضت نفسه لقبولها، فأنّى للقائد والمرشد أن يصلح ذلك الفساد، ويرأب ذلك الصدع إذا لم يكن ذا عزيمة وقوة وبأس شديد وحزم في أوامره ونواهيه»[(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧١﴾ [الأعراف:١٧١].

وكثرة الآيات تدلل بصورة واضحة جلية، طبيعة بني إسرائيل الملتوية، ونفسيتهم المريضة؛ فقد عرضت عليهم التوراة فرفضوا أخذها؛ فرفع الله الجبل فوق رؤوسهم كأنه ظلة، وأمرهم بأخذ الكتاب بقوة، ويقول محمد رشيد رضا: «لعل حكمة ختم قصة بني إسرائيل بهذه الآية هنا للتذكير ببدء حالهم في إنزال الكتاب عليهم في أثر بيان عاقبة أمرهم في مخالفته والخروج عنه؛ فإن في تلك الفاتحة إشارة إلى هذه الخاتمة، وذلك عندما أخذ عليهم الميثاق ليأخذن بالشريعة بقوة وعزم، فإنه رفع فوقهم الطور، وأوقع في قلوبهم الرعب من خوف وقوعه بهم، فلا غرو إذا آل أمرهم إلى ترك العمل به بعد طول الأمد وقساوة القلوب والأنس

(١) روح البيان، إسماعيل حقي ١/ ١٨٢.
(٢) مفاتيح الغيب ٣/ ٦٠٤.
(٣) تفسير المراغي ٩/ ٦١.

بالذنوب»[1].

ثانيًا: الأحكام التشريعية في التوراة:

إن التوراة كتاب الله أنزله على نبيه موسى ليحكم بين الناس، فهو كتاب إلهي يحتوي على تشريعات ربانية، وقد ذكر لنا القرآن الكريم بعضًا منها في الميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيَ إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [البقرة: ٨٣-٨٤].

فهذا الميثاق تضمن عدة تشريعات:

التوحيد بأنواعه؛ ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾.

بر الوالدين والإحسان إليهما؛ ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.

صلة الأرحام والإحسان إليهم؛ ﴿وَذِي الْقُرْبَىٰ﴾.

كفالة اليتيم والإحسان إليه؛ ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾.

التكافل بين الناس والإحسان إلى الضعفاء؛ ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾.

إقامة الصلاة؛ ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.

إيتاء الزكاة؛ ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾.

حفظ النفس، وتحريم سفك الدماء، ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾.

عدم إخراج الناس من ديارهم والاعتداء على ممتلكاتهم؛ ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾.

وفي آية ثانية، تشريعات أخرى؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المائدة: ١٢].

- الإيمان بالرسل، ونصرتهم؛ ﴿وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾.
- ايتاء الصدقات؛ ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

قال سيد قطب: ندرك أن ميثاق الله مع بني إسرائيل، ذلك الميثاق الذي أخذه عليهم في ظل الجبل، والذي أمروا أن يأخذوه بقوة وأن يذكروا ما فيه، أن ذلك الميثاق قد تضمن القواعد الثابتة لدين الله، هذه القواعد التي جاء بها الإسلام أيضًا، فتنكروا لها وأنكروها.

(١) المنار ٩/ ٣٢٤.

لقد تضمن ميثاق الله معهم: ألا يعبدوا إلا الله، القاعدة الأولى للتوحيد المطلق، وتضمن الإحسان إلى الوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين، وتضمن خطاب الناس بالحسنى، وفي أولها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كذلك تضمن فريضة الصلاة، وفريضة الزكاة، وهذه في مجموعها هي قواعد الإسلام وتكاليفه[1].

وهذه التكاليف قد أقرتها بنو إسرائيل: قال الرازي: «ثم أقررتم بالميثاق واعترفتم على أنفسكم بلزومه، وأنتم تشهدون عليها»[2].

ثالثًا: أثر عمل اليهود بالتوراة في زمانهم:

اشتملت الكتب السماوية على كل ما يصلح أحوال الناس في دنياهم وأخراهم، وما التزم قوم بما أنزل الله عليهم وأقاموا شرع الله فيهم إلا كانوا أسعد الناس في دنياهم وأخراهم، وينطبق هذا الأمر على جميع الشرائع السماوية.

ونلمس هذا الأمر في القرآن الكريم فقد جاء في حق بني إسرائيل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة:٦٥-٦٦].

يقول سيد قطب: إن هاتين الآيتين تقرران أصلًا كبيرًا من أصول التصور الإسلامي، ومن ثم فهما تمثلان حقيقة ضخمة في الحياة الإنسانية....إن الله سبحانه يقول لأهل الكتاب- ويصدق القول وينطبق على كل أهل كتاب- إنهم لو كانوا آمنوا واتقوا لكفر عنهم سيئاتهم، ولأدخلهم جنات النعيم- وهذا جزاء الآخرة، وإنهم لو كانوا حققوا في حياتهم الدنيا منهج الله الممثل في التوراة والإنجيل، وما أنزله الله إليهم من التعاليم- كما أنزلها الله بدون تحريف ولا تبديل- لصلحت حياتهم الدنيا، ونمت وفاضت عليهم الأرزاق، ولأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم من فيض الرزق، ووفرة الإنتاج وحسن التوزيع، وصلاح أمر الحياة، ولكنهم لا يؤمنون ولا يتّقون، ولا يقيمون منهج الله- إلا قلة منهم في تاريخهم الطويل مقتصدة غير مسرفة على نفسها ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾.

وهكذا يبدو من خلال الآيتين: أن الإيمان والتقوى وتحقيق منهج الله في واقع الحياة البشرية في هذه الحياة الدنيا، لا يكفل لأصحابه جزاء الآخرة وحده- وإن كان هو المقدم وهو الأدوم - ولكنه كذلك

(١) انظر: في ظلال القرآن ١/ ٨٧.
(٢) مفاتيح الغيب ٣/ ٥٩١.

يكفل صلاح أمر الدنيا، ويحقق لأصحابه جزاء العاجلة.. وفرة ونماء وحسن توزيع وكفاية.. يرسمها في صورة حسية تجسم معنى الوفرة والفيض في قوله: ﴿لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾[1].

قال ابن عاشور: «وقد أومأت الآية إلى أن سبب ضيق معاش اليهود هو من غضب الله تعالى عليهم؛ لإضاعتهم التوراة، وكفرهم بالإنجيل وبالقرآن»[2].

وفي موضع آخر يبين سيد قطب أن هناك قاعدة مطردة، فيقول: «وهذه القاعدة التي يقررها القرآن في مواضع متفرقة، قاعدة صحيحة تقوم على أسبابها من وعد الله، ومن سنة الحياة، كما أن الواقع العملي يشهد بتحققها على مدار القرون، والحديث في هذه القاعدة عن الأمم لا عن الأفراد. وما من أمة قام فيها شرع الله، واتجهت اتجاهًا حقيقيًا لله بالعمل الصالح، والاستغفار المنبوع عن خشية الله.. ما من أمة اتقت الله وعبدته وأقامت شريعته، فحققت العدل والأمن للناس جميعًا، إلا فاضت فيها الخيرات، ومكّن الله لها في الأرض، واستخلفها فيها بالعمران وبالصلاح سواء»[3].

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٩٣١.
(٢) التحرير والتنوير ٦/ ٢٥٣.
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧١٣.

الربانيون والأحبار وحفظ التوراة

ميّز الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم عن سائر الكتب بأن تعهد بحفظه.

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر:٩]؛ فالقرآن وحده هو الذي تعهد الله بحفظه، أما التوراة والإنجيل وسائر الكتب المنزلة، فقد أوكل الله حفظها إلى أهلها من الأحبار والرهبان والربانيين، ولم يتكفل بحفظها، ولما ترك حفظها لهم صار حالها إلى ما صارت إليه، من التغيير والتبديل والتحريف، وفيما يلي تفصيل ذلك:

أولًا: تكليف الله للربانيين والأحبار بحفظ التوراة والعمل بها:

لقد كلّف الله الربانيين والأحبار حفظ التوراة، فقال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة:٤٤].

قال الرازي: «دلت الآية على أنه يحكم بالتوراة: النبيون والربانيون والأحبار، وهذا يقتضي كون الربانيين أعلى حالًا من الأحبار، فثبت أن يكون الربانيون كالمجتهدين، والأحبار كآحاد العلماء، ثم قال: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ﴾

أي: حفظ كتاب الله على وجهين: الأول: أن يحفظ فلا ينسى، الثاني: أن يحفظ فلا يضيع، وقد أخذ الله على العلماء حفظ كتابه من هذين الوجهين: أحدهما: أن يحفظوه في صدورهم ويدرسوه بألستهم، والثاني: أن لا يضيعوا أحكامه ولا يهملوا شرائعه»[(١)].

وقال ابن عاشور: «والاستحفاظ: الاستئمان، واستحفاظ الكتاب: أمانة فهمه حق الفهم بما دلت عليه آياته، استعير الاستحفاظ الذي هو طلب الحفظ لمعنى الأمر بإجادة الفهم، والتبليغ للأمة على ما هو عليه»[(٢)].

ولقد كلف الله اليهود أحبارًا وشعبًا بحفظ التوراة والعمل بها فضيعوها.

قال الثعالبي: «وقوله سبحانه: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا﴾، أي: بسبب استحفاظ اللّه تعالى إياهم أمر التّوراة، وأخذه العهد عليهم في العمل والقول بها، وعرّفهم ما فيها، فصاروا شهداء عليه، وهؤلاء ضيّعوا لمّا استحفظوا حتى تبدّلت التوراة»[(٣)].

ولقد استخلف الله الأحبار والرهبان لحفظ وتبليغ التوراة وإجراء أحكامها عليهم.

قال أبو السعود: «﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا﴾، أي: بالذي استحفظوه من جهة النبيين وهو التوراة، حيث سألوهم أن يحفظوها من التغيير والتبديل على الإطلاق. ولا ريب في أن ذلك منهم عليهم السلام استخلافٌ لهم في إجراء أحكامها من غير إخلالٍ بشيء منها»[(٤)].

ثانيًا: ذم القرآن للربانيين والأحبار لعدم حفظهم التوراة:

ولقد ذمّ الله الربانيين والأحبار الذين استحفظهم التوراة فضيّعوها ولم يطبقوا أحكامها، ووصفهم وصفًا شنيعًا.

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٥﴾ [الجمعة: ٥].

قال الطبري: «مثل الذين أوتوا التوراة من اليهود والنصارى، فحملوا العمل بها ثم لم يعملوا بما فيها، وكذّبوا بمحمد صلّى الله عليه وسلّم، وقد أمروا بالإيمان به فيها واتباعه والتصديق به؛ كمثل الحمار يحمل على ظهره كتبًا من كتب العلم، لا ينتفع بها، ولا يعقل ما فيها، فكذلك الذين أوتوا التوراة التي فيها بيان أمر محمد صلّى الله عليه وسلّم مثلهم إذا لم ينتفعوا بما فيها، كمثل الحمار الذي يحمل أسفارًا فيها علم، فهو لا يعقلها ولا ينتفع بها»[(٥)].

(١) مفاتيح الغيب ١٢/ ٣٦٦.
(٢) التحرير والتنوير ٦/ ٢٠٩.
(٣) الجواهر الحسان ٢/ ٣٨٥.
(٤) إرشاد العقل السليم ٣/ ٤١.
(٥) جامع البيان ٢٣/ ٣٧٧.

قال الزمخشري: «شبه اليهود- في أنهم حملة التوراة وقرّاؤها وحفاظ ما فيها، ثم إنهم غير عاملين بها ولا منتفعين بآياتها، وذلك أنّ فيها نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم والبشارة به ولم يؤمنوا به- بالحمار حمل أسفارًا، أي: كتبًا كبارًا من كتب العلم، فهو يمشي بها ولا يدرى منها إلا ما يمر بجنبيه وظهره من الكد والتعب، وكل من علم ولم يعمل بعلمه فهذا مثله، وبئس المثل الّذين كذّبوا بآيات اللّه، وهم: اليهود الذين كذبوا بآيات الله الدالة على صحة نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم، ومعنى حمّلوا التّوراة: كلفوا علمها والعمل بها، ثمّ لم يحملوها، ثم لم يعملوا بها، فكأنهم لم يحملوها»[1].

ويقول سيد قطب في تفسيرها: «فبنو إسرائيل حملوا التوراة، وكلفوا أمانة العقيدة والشريعة ثم لم يحملوها؛ فحملها يبدأ بالإدراك والفهم والفقه، وينتهي بالعمل لتحقيق مدلولها في عالم الضمير وعالم الواقع. ولكن سيرة بني إسرائيل كما عرضها القرآن الكريم- وكما هي في حقيقتها- لا تدل على أنهم قدروا هذه الأمانة، ولا أنهم فقهوا حقيقتها، ولا أنهم عملوا بها، ومن ثم كانوا كالحمار يحمل الكتب الضخام، وليس له منها إلا ثقلها، فهو ليس صاحبها، وليس شريكًا في الغاية منها، وهي صورة زرية بائسة، ولكنها صورة معبرة عن حقيقة صادقة»[2].

لم يكتف الأحبار والرهبان بتضييع التوراة، وعدم حفظها والعمل بها، وهذه في حد ذاتها جريمة، لكنهم اقترفوا جريمة أعظم؛ ذلك أن بدلوها وحرفوها واعتدوا على كلام الله، فبدلوه بما يناسب مآربهم، ويخدم مصالحهم، وكتبوها بأيدهم، ومزجوها بكلامهم، ثم قالوا هي من عند الله، وأصبح هناك توراتان: توراة أنزلها الله وأمرهم بحفظها وعدم تضييعها، وهي ما يسمى بالعهد القديم الذي نزل على موسى، وتوراة محرفة كتبها الأحبار والرهبان بأيدهم، وأسموها ظلمًا وزورًا (العهد القديم).

أولًا: تحريف اليهود للتوراة المنزلة على موسى:

أخبرنا الله في ست آيات صريحة عن تحريف التوراة بأيدي هؤلاء الأحبار والرهبان، وقد توعدهم الله بالويل والطرد من رحمة الله.

قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ

(١) الكشاف ٤/ ٥٣٠.

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٦٧.

﴿٧٥﴾ [البقرة:٧٥].

قال الطبري:«التوراة التي أنزلها عليهم، يحرفونها، يجعلون الحلال فيها حرامًا، والحرام فيها حلالًا والحق فيها باطلًا والباطل فيها حقًّا، إذا جاءهم المحق برشوة أخرجوا له كتاب الله، وإذا جاءهم المبطل برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب، فهو فيه محق. وإن جاء أحد يسألهم شيئًا ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيء، أمروه بالحق»[(١)].

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ [النساء:٤٦].

قال الزمخشري:«يحرّفون الكلم عن مواضعه: يميلونه عنها ويزيلونه؛ لأنهم إذا بدلوه ووضعوا مكانه كلمًا غيره، فقد أمالوه عن مواضعه التي وضعها اللّه فيها، وأزالوه عنها»[(٢)].

وقال ابن الجوزي:«وفي معنى تحريفهم الكلم قولان:أحدهما:أنهم كانوا يسألون النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن الشيء، فإذا خرجوا، حرفوا كلامه، قاله ابن عباس. والثاني: أنه تبديلهم التوراة، قاله مجاهد»[(٣)].

(١) جامع البيان ٢/ ٢٤٦.
(٢) الكشاف ١/ ٥١٦.
(٣) زاد المسير ١/ ٤١٦.

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ [المائدة:١٣].

قال السمعاني:«تحريفهم الكلم:هو تبديلهم نعت الرسول، وقيل المراد به:تحريفهم بسوء التأويل»[(٤)].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة:٤١].

قال أبو حيان: «أي: يزيلونه ويميلونه عن مواضعه التي وضعها الله فيها. قال ابن عباس والجمهور: هي حدود الله في التوراة، وذلك أنهم غيروا الرجم، أي:وضعوا الجلد مكان الرجم، وقال الحسن: يغيرون ما يسمعون من الرسول عليه السلام بالكذب عليه، وقيل: بإخفاء صفة الرسول، وقيل: بإسقاط القود بعد استحقاقه. وقيل: بسوء التأويل»[(٥)].

ثانيًا: واجب المسلمين تجاه التوراة

(٤) تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٢٢.
(٥) البحر المحيط ٤/ ٢٦١.

المنزلة والتوراة المحرّفة:

المسلم يؤمن بأن التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام، والإنجيل الذي أنزل على عيسى عليه السلام حق من عند الله تعالى، وقد اشتملا على الأحكام والمواعظ والأخبار، التي فيها هدى ونور للناس في معاشهم وحياتهم وآخرتهم، كما يعتقد المسلم أن التوراة والإنجيل أنزلا من عند الله، ولكن شابهما الكثير من التحريف والتبديل، ولا نصدق منها إلا ما وافق القرآن والسنة.

وقد أخبرنا الله تعالى في القرآن الكريم أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى قد حرّفوا كتبهم، وأضافوا إليها وأنقصوا منها، فلم تبق كما أنزلها الله تعالى.

فالتوراة الموجودة الآن ليست هي التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام، لأن اليهود حرفوا وبدّلوا، وتلاعبوا بكثير من أحكامها.

قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء:٤٦].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم:(إن بني إسرائيل كتبوا كتابًا فتبعوه وتركوا التوراة)[١].

وقد استقر هذا المعنى في نفوس الصحابة والمؤمنين بعدهم.

يقول ابن عباس: (يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب، وكتابكم الذي أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم أحدث الأخبار بالله، تقرءونه لم يشب، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله وغيروا بأيديهم الكتاب، فقالوا:هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلًا، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم، ولا والله ما رأينا منهم رجلًا قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم)[٢].

ولا يمنع هذا من صحة بعض مواضع في التوراة، لما فيها من آثار الأنبياء؛ ففي التوراة حق وباطل كما أخبر الله ورسوله، ومن النصوص التي اشارت إلى شيء من الحق في كتبهم ألبسوه الباطل والزور قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ [آل عمران:٧١].

وقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المائدة:٤٣].

وفي صحيح البخاري: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(لا تصدقوا أهل

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه، باب من لم ير كتابة الحديث، رقم ٤٨٠، ١/ ١٣٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها، رقم ٢٦٨٥، ٣/ ١٨١.

الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾) [البقرة:١٣٦][1].

وقد بينت الآيات موقف المسلمين من التوراة بجلاء ووضوح، إذ يخبرنا الله أنها وحيٌ منه.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞ﴾ [المائدة:٤٤].

ولكن الناس قد توارثت كتبًا بديلة عن التوراة نسبت إلى الله، لكنها خالية -إلا قليلًا- من الهدى والنور، فقد حملت هذه الأسفار في طياتها ضعف البشر وجهلهم، فجاءت متناقضة، مليئة بالكثير مما لا يرضي العقلاء نسبته إلى الله ووحيه القويم.

ومما يثبت أن هذه الأسفار ليست توراة موسى عليه السلام، أن القرآن الكريم نسب إلى أسفار موسى من المعاني التي نفتقدها في النصوص الحالية للتوراة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [التوبة:١١١].

ولا وجود لهذا المعنى في العهد القديم ولا الجديد، ومثله قوله تعالى: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩﴾ [الأعلى:١٦-١٩].

فهذا المعنى لا وجود له في صحف الأسفار المنسوبة لموسى، والتي تخلو من الحديث عن الآخرة والقيامة[2].

وللتوراة أسماء كثيرة قد وضعها حاخامات اليهود؛ فتعرف بالعهد القديم، وهو مصطلح يستخدمه المسيحيون للإشارة إلى كتاب اليهود المقدس، بينما يستخدم مصطلح (العهد الجديد) للإشارة إلى الأسفار التي تضمنتها الأناجيل الأربعة، وأما اليهود فيستخدمون عبارة (الكتب المقدسة)، وأحيانًا (الكتب)، وأحيانًا (التوراة) للتعبير عن العهد القديم[3].

فالعهد القديم هو الكتاب الذي يضم ثلاثة أشياء: التوراة، والأنبياء، والمكتوبات. والجزء الأول هو الذي نزل على موسى عليه السلام، وقد حرّفوه، أما الجزءان الآخران فهما صناعة بشرية خالصة[4].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (قولوا آمنا بالله)، رقم ٤٤٨٥، ٦/ ٢٠.

(٢) انظر: هل العهد القديم كلمة الله، منقذ السقار، ص١٥.

(٣) انظر: الخطأ والدخيل في توراة بني إسرائيل، إبراهيم ثروت حداد، ص١٧.

(٤) انظر: مدخل إلى تاريخ اللغة الآرامية، أحمد

فالتوراة والتي هي كتب موسى تطلق عندهم على الأسفار الخمسة: سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر التثنية، وسفر اللاويين، وسفر العدد[١].

وعليه: فنحن نؤمن بتوراة موسى كل الإيمان، ونؤمن بأنها حرفت ولم تحفظ، وأن القوم أخفوا منها شيئًا وكتبوا أشياء، وضاع منها الكثير، وما بين يديهم لا يخلو من بعض الحق، وعلى المسلم أن يحترمها ولا يهينها ولا يدنسها؛ لأنها قد تحتوي في طياتها على شيء من بقايا كلام الله الذي لم يحرف.

ثالثًا: واجب المسلمين تجاه الإسرائيليات:

تنقسم الأخبار الإسرائيلية إلى أقسام ثلاثة، وهي ما يأتي:

القسم الأول: ما يعلم صحته؛ بأن نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم نقلًا صحيحًا، وذلك كتعيين اسم صاحب موسى عليه السلام بأنه الخضر، فقد جاء هذا الاسم صريحًا على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما عند البخاري؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: **(إنما سمي الخضر أنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء)**[٢]، أو كان له شاهد من الشرع يؤيده. وهذا القسم صحيح مقبول.

القسم الثاني: ما يعلم كذبه بأن يناقض ما عرفناه من شرعنا، أو كان لا يتفق مع العقل، وهذا القسم لا يصح قبوله ولا روايته.

القسم الثالث: ما هو مسكوت عنه، لا هو من قبيل الأول، ولا هو من قبيل الثاني، وهذا القسم نتوقف فيه، فلا نؤمن به ولا نكذّبه، وتجوز حكايته، لما تقدّم من قوله صلى الله عليه وسلم: في صحيح البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا:** ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾**)** [البقرة:١٣٦][٣].

وهذا القسم غالبه مما ليس فيه فائدة تعود إلى أمر ديني، ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا اختلافًا كثيرًا، ويأتي عن المفسّرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب

الجمل، ص١٣.

(١) انظر: حجية التوراة، أحمد الحوفي، ١٠/ ٣٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام، رقم ٣٤٠٢، ٤/ ١٥٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (قولوا آمنا بالله)، رقم ٤٤٨٥، ٦/ ٢٠.

الكهف، ولون كلبهم، وعصا موسى من أي الشجر كانت، وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم، وتعيين بعض البقرة الذى ضرب به قتيل بنى إسرائيل، ونوع الشجرة التي كلّم الله منها موسى، إلى غير ذلك مما أبهمه الله في القرآن ولا فائدة في تعيينه تعود على المكلّفين في دنياهم أو دينهم.

ثم إذا جاء شيء من هذا القبيل -أي: ما سكت عنه الشرع ولم يكن فيه ما يؤيده أو يفنده- عن أحد من الصحابة بطريق صحيح، فإن كان قد جزم به فهو كالقسم الأول، يقبل ولا يرد، لأنه لا يعقل أن يكون قد أخذه عن أهل الكتاب بعد ما علم من نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تصديقهم. وإن كان لم يجزم به فالنفس أسكن إلى قبوله، لأن احتمال أن يكون الصحابي قد سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم، أو ممن سمعه منه، أقوى من احتمال السماع من أهل الكتاب، لا سيما بعد ما تقرر من أن أخذ الصحابة عن أهل الكتاب كان قليلًا بالنسبة لغيرهم من التابعين ومن يليهم.

أما إن جاء شيء من هذا عن بعض التابعين، فهو مما يتوقف فيه ولا يحكم عليه بصدق ولا يكذب، وذلك لقوة احتمال السماع من أهل الكتاب، لما عرفوا به من كثرة الأخذ عنهم، وبعد احتمال كونه مما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا إذا لم يتفق أهل الرواية من علماء التفسير على ذلك، أما إن اتفقوا عليه: فإنه يكون أبعد من أن يكون مسموعًا من أهل الكتاب، وحينئذ تسكن النفس إلى قبوله والأخذ به[1].

ويجمل الشنقيطي الأمر فيقول: «ومن المعلوم: أن ما يروى عن بني إسرائيل من الأخبار المعروفة بالإسرائيليات له ثلاث حالات، في واحدة منها يجب تصديقه وهي: ما إذا دل الكتاب أو السنة الثابتة على صدقه، وفي واحدة يجب تكذيبه، وهي: إذا ما دل القرآن والسنة على كذبه، وفي الثالثة: لا يجوز التكذيب ولا التصديق، وهي ما إذا لم يثبت في كتابٍ ولا سنّة صدقه ولا كذبه»[2].

(١) انظر: التفسير والمفسرون، الذهبي، ١/ ١٣٠.
(٢) أضواء البيان، ٤/ ٢٠٣- ٢٠٤.

عيسى عليه السلام والتوراة

عيسى ابن مريم عليه السلام، أحد أنبياء الله الكرام، ومن أولي العزم من رسله، أرسله الله إلى بني إسرائيل، وعلمه التوراة والإنجيل، وأخبر أنه جاء مصدقًا لما في التوراة، إلا أنه نسخ بعض أحكامها، وأباح لأتباعه بعض ما حرم فيها.

قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ [آل عمران:٤٨-٥٠].

قال السمرقندي: «فعلّمه الله بالوحي والإلهام والحكمة، يعني: الفقه، والتّوراة والإنجيل، يعني: يحفظ التوراة عن ظهر قلبه. وقال بعضهم: وهو عالم بالتوراة، وقال بعضهم: ألهمه الله بعد ما كبر حتى تعلم في مدة يسيرة»[(١)].

وقال ابن عطية: «والتّوراة هي المنزلة على موسى عليه السلام، ويروى أن عيسى كان يستظهر التوراة وكان أعمل الناس بما فيها، ويروى أنه لم يحفظها عن ظهر قلب إلا أربعة: موسى، ويوشع بن نون، وعزير، وعيسى عليهم السلام»[(٢)].

وقال ابن كثير: «﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾؛ فالتوراة: هي الكتاب الذي أنزله الله على موسى بن عمران، والإنجيل: هو الكتاب الذي أنزله الله على عيسى عليهما السلام، وقد كان عيسى عليه السلام، يحفظ هذا وهذا»[(٣)].

وفي قوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ [آل عمران:٥٠].

قال الطبري: «وإنما قيل: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾؛ لأن عيسى صلوات الله عليه، كان مؤمنًا بالتوراة مقرًّا بها، وأنها من عند الله. وكذلك الأنبياء كلهم، يصدّقون بكل ما كان قبلهم من كتب الله ورسله، وإن اختلف بعض شرائع أحكامهم، لمخالفة الله بينهم في ذلك. مع أنّ عيسى كان - فيما بلغنا - عاملًا بالتوراة لم يخالف شيئًا من أحكامها، إلا ما خفف

(١) تفسير السمرقندي ١/ ٢١٤.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤٣٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٤٤.

الله عن أهلها في الإنجيل، مما كان مشددًا عليهم فيها»[1].

ويقول الرازي: «اعلم أنه عليه السلام لما بين بهذه المعجزات الباهرة كونه رسولًا من عند الله تعالى، بين بعد ذلك أنه بماذا أرسل، وهو أمران، أحدهما: قوله: ومصدقًا لما بين يدي من التوراة...، وأنه يجب على كل نبي أن يكون مصدقًا لجميع الأنبياء عليهم السلام، لأن الطريق إلى ثبوت نبوتهم هو المعجزة، فكل من حصل له المعجز، وجب الاعتراف بنبوته، فلهذا قلنا: بأن عيسى عليه السلام يجب أن يكون مصدقًا لموسى بالتوراة، ولعل من جملة الأغراض في بعثة عيسى عليه السلام إليهم؛ تقرير التوراة وإزالة شبهات المنكرين وتحريفات الجاهلين، وأما المقصود الثاني من بعثة عيسى عليه السلام قوله: ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم»[2].

وقال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المائدة:٤٦].

قال القنوجي: «أي: مصدقًا وهاديًا وواعظًا ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾. وهذا ليس بتكرار للأول؛ لأن في الأول إخبارًا بأن عيسى مصدق لما بين يديه من التوراة، وفي الثاني إخبار بأن الإنجيل مصدق للتوراة، فظهر الفرق بينهما»[3].

قال ابن كثير: «﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾، أي: متبعًا لها، غير مخالف لما فيها، إلا في القليل مما بيّن لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه، كما قال تعالى إخبارًا عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾؛ ولهذا كان المشهور من قولي العلماء أن الإنجيل نسخ بعض أحكام التوراة»[4].

فعلم أن عيسى عليه السلام كان مؤمنًا بالتوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام، متبعًا لها، لم يخالفها إلا في أشياء قليلة.

وموسى وعيسى وجميع الأنبياء كان دينهم الإسلام العام، وهو: توحيد الله عز وجل، وعبادته وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران:٨٥].

وقال عن نوح عليه السلام: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ

(١) جامع البيان ٦/ ٤٣٨.
(٢) مفاتيح الغيب ٨/ ٢٣٠.
(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن ٣/ ٤٣٩.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٢٦.

﴿أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٧٢].

وقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران:٦٧].

وقال عن موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس:٨٤].

وقال عن يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١].

فلا يقال: دين موسى عليه السلام اليهودية، بل دينه الإسلام، وأتباعه سموا باليهود؛ إما لقولهم: هدنا إليك، أي: تبنا ورجعنا، أو نسبة ليهوذا أكبر أولاد يعقوب عليه السلام، وكذلك دين عيسى عليه السلام الإسلام، وليس النصرانية، والنصارى هم أتباعه الذين نصروه وآزروه.

لكنه عليه السلام كان متبعًا للتوراة حافظًا لها مقرًّا بها؛ لأنه من جملة بني إسرائيل الذين أرسل فيهم موسى عليه السلام، ثم أنزل الله عليه الإنجيل، وفيه تصديق لما في التوراة، كما سبق. فنبي الله عيسى عليه السلام من بني إسرائيل من غير خلاف، «لا ريب أن قوم موسى عليه السلام هم بنو إسرائيل، وبلسانهم نزلت التوراة، وكذلك بنو إسرائيل هم قوم المسيح عليه السلام، وبلسانهم كان المسيح يتكلم»[1].

(١) الجواب الصحيح، ابن تيمية ٢/ ٩٤.

صفات الرسول الكريم وأتباعه في التوراة

قال ابن القيم: «لو لم يظهر محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم لبطلت نبوة سائر الأنبياء، فظهور نبوته تصديق لشهادتهم وشهادة لهم بالصدق، فإرساله من آيات الأنبياء قبله، وقد أشار سبحانه إلى هذا المعنى بعينه في قوله: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الصافات:٣٧]»[2].

فلقد جاءت صفات الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وصفات الذين على دينه في التوراة، إلى أن وصل الحد ببني إسرائيل أن يعرفوه كما يعرفون أبناءهم.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة:١٤٦].

وفيما يلي بيان لبعض صفاته وصفات الذين معه كما وردت في التوراة.

أولًا: صفات الرسول الكريم في التوراة:

إنّ وصف النبي في التوراة واضحٌ وضوح الشمس في رابعة النهار، ويدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ

(٢) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ٢/ ٥٢٥.

﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف:١٥٧].

قال ابن كثير:«وهذه صفة محمد صلى الله عليه وسلم في كتب الأنبياء، بشروا أممهم ببعثه، وأمروهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم»[١].

قال أبو السعود في معرض صفاته المذكورة في الآية:«فإن ما بيّن فيه: من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإحلال الطيبات، وتحريم الخبائث، وإسقاط التكاليف الشاقة؛ كلّها من آثار رحمته الواسعة»[٢].

ولقد جاءت صفات النبي صلى الله عليه وسلم في التوراة كما جاءت في القرآن، ويظهر ذلك في الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه (عن عطاء بن يسار، قال:لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قلت:أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة، قال:أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا، وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا:لا إله إلا الله، ويفتح بها أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا)[٣].

فلقد جمع هذا الحديث الكثير من صفاته صلى الله عليه وسلم في التوراة، وفي القرآن والسنة نظير لها، وفيما يلي تفصيل ذلك:

الوصف الأول: (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا)، ويناظره في القرآن:قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الأحزاب:٤٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الفتح:٨].

الوصف الثاني: (حرزًا للأميين)، أي: حصنًا للأمّيّن، وهم: الذين لا كتاب لهم من العرب وغيرهم، ويقابله في القرآن قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة:٢].

الوصف الثالث: (أنت عبدي ورسولي)،

(١) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٤٨٣.
(٢) إرشاد العقل السليم ٣/ ٢٧٩.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (إنّا أرسلناك شاهدًا ومبشّرًا ونذيرًا)، رقم ٢١٢٥، ٣/ ٦٦.

ويقابله في القرآن قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ١٩﴾ [الجن:١٩].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣﴾ [البقرة:٢٣].

وقوله أيضًا: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾ [الإسراء:١].

الوصف الرابع: التوكل على الله؛ (سمّيتك المتوكّل)، وقد جاءت في هذا المعنى آيات كثيرة في القرآن، منها قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الفرقان:٥٨].

وقوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ٧٩﴾ [النمل:٧٩].

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ٣﴾ [الأحزاب:٣].

الوصف الخامس: اللين والرحمة، (ليس بفظٍّ ولا غليظٍ)، ومثله في القرآن قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾ [آل عمران:١٥٩].

الوصف السادس: عدم الصخب في الأسواق، (ولا سخّابٍ في الأسواق) وقد ترجم البخاري في صحيحه لهذا الأثر وعقد بابًا أسماه: باب كراهية الصّخب في السّوق[1].

الوصف السابع: العفو والمغفرة، (لا يدفع بالسيئة السيئة، لكن يعفو ويغفر)، وقد تخلق النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الخلق العظيم.

قال تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ٩٦﴾ [المؤمنون:٩٦].

وقال أيضًا: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾ [فصلت:٣٤].

وقال تعالى: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [المائدة:١٣].

وقال سبحانه: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ [آل عمران:١٥٩].

الوصف الثامن: إقامة التوحيد، (لن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله)، وقد كان ذلك أساس دعوة النبي صلى الله عليه وسلم وأساس دعوة الأنبياء جميعًا، ومثله في القرآن

(١) صحيح البخاري ٣/ ٦٦.

قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد:١٩].

الوصف التاسع:(ويفتح بها أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا)، ومثاله في القرآن قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ [البقرة:٧].

وقوله تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝١٨﴾ [البقرة:١٨].

قال ابن القيم: «وقوله:يفتح العيون العمي والآذان الصم والقلوب، إشارة إلى أن تكميل مراتب العلم والهدى الحاصل بدعوته في القلوب والأبصار والأسماع، فباينوا بذلك أحوال الصم البكم العمي الذين لهم قلوب لا يعقلون بها، فإن الهدى يصل إلى العبد من هذه الأبواب الثلاثة، وهي مغلقة عن كل أحد، لا تفتح إلا على أيدي الرسل، ففتح الله بمحمد صلى الله عليه وسلم الأعين العمي، فأبصرت بالله، والآذان الصم، فسمعت عن الله، والقلوب الغلف، فعقلت عن الله، فانقادت لطاعته عقلًا وقولًا وعملًا، وسلكت سبل مرضاته ذللًا»[1].

ثانيًا: صفات أتباع النبي عليه السلام في التوراة:

جاء وصف صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل، ذلك الجيل الذي نصر النبي صلى الله عليه وسلم وآزره، وحمل على أكتافه عبء إقامة دولة الإسلام، جاء وصفهم وصفًا دقيقًا كما أخبرنا القرآن في نهاية سورة الفتح.

قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ۝٢٩﴾ [الفتح:٢٩].

وصفتهم التوراة بأربع صفات عظيمة، على مثلها تقوم دولة الإسلام، قال سيد قطب:«إنها صورة عجيبة يرسمها القرآن الكريم بأسلوبه البديع، صورة مؤلفة من عدة لقطات لأبرز حالات هذه الجماعة المختارة، حالاتها الظاهرة والمضمرة؛ فلقطة تصور حالتهم مع الكفار ومع أنفسهم: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾، ولقطة تصور هيئتهم في عبادتهم: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾، ولقطة تصور قلوبهم وما يشغلها

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ٢/ ٣٦٤.

ويجيش بها: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾، ولقطة تصور أثر العبادة والتوجه إلى الله في سمتهم وسحنتهم وسماتهم: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾»[1]، وتفصيلها كالآتي:

الصفة الأولى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾.

يقول الطبري: «﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾، غليظة عليهم قلوبهم، قليلة بهم رحمتهم ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ يقول:رقيقة قلوب بعضهم لبعض، لينة أنفسهم لهم، هينة عليهم لهم»[2].

قال الزمخشري: «بلغ من تشدّدهم على الكفار:أنهم كانوا يتحرّزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم، ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم، وبلغ من ترحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمنًا إلا صافحه وعانقه»[3].

وقال البيضاوي: «والمعنى: أنهم يغلظون على من خالف دينهم، ويتراحمون فيما بينهم كقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤] تراهم ركّعًا سجّدًا»[4].

الصفة الثانية: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾.

قال ابن كثير: «وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة، وهي خير الأعمال»[5].

يقول سيد قطب: «وإرادة التكريم واضحة وهو يختار من هيئاتهم وحالاتهم، هيئة الركوع والسجود وحالة العبادة: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾.. والتعبير يوحي كأنما هذه هيئتهم الدائمة التي يراها الرائي حيثما رآهم. ذلك أن هيئة الركوع والسجود تمثل حالة العبادة، وهي الحالة الأصلية لهم في حقيقة نفوسهم فعبر عنها تعبيرًا يثبتها كذلك في زمانهم، حتى لكأنهم يقضون زمانهم كله ركعًا سجدًا»[6].

الصفة الثالثة: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾.

قال السعدي: «أي: هذا مقصودهم: بلوغ رضا ربهم، والوصول إلى ثوابه»[7].

قال الجزائري: «يطلبون بصلاتهم بعد إيمانهم وتعاونهم وتحابيهم وتعاطفهم مع بعضهم، يطلبون بذلك ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾، أي: الجنة، ورضا الله، وهذا أسمى ما يطلب المؤمن، أن يدخله الله الجنة بعد أن ينقذه من النار ويرضى عنه»[8].

ويقول سيد قطب: «فهذه هي صورة مشاعرهم الدائمة الثابتة، كل ما يشغل بالهم، وكل ما تتطلع إليه أشواقهم، هو فضل الله

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٣١.
(٢) جامع البيان ٢٢/ ٢٦١.
(٣) الكشاف ٤/ ٣٤٦.
(٤) أنوار التنزيل ٥/ ١٣٢.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ٧/ ٣٦١.
(٦) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٣٢.
(٧) تيسير الكريم الرحمن، ص ٧٩٥.
(٨) أيسر التفاسير ٥/ ١١٨.

ورضوانه. ولا شيء وراء الفضل والرضوان يتطلعون إليه ويشتغلون به»[1].

الصفة الرابعة: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾.

قال الطبري: «بياضًا في وجوههم يوم القيامة، وقال آخرون: بل ذلك سيما الإسلام وسمته وخشوعه، وعنى بذلك أنه يرى من ذلك عليهم في الدنيا»[2].

ويقول سيد قطب: «سيماهم في وجوههم من الوضاءة والإشراق والصفاء والشفافية، ومن ذبول العبادة الحي الوضيء اللطيف، وليست هذه السيما هي النكتة المعروفة في الوجه كما يتبادر إلى الذهن عند سماع قوله: ﴿مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾.

فالمقصود بأثر السجود هو أثر العبادة، واختار لفظ السجود لأنه يمثل حالة الخشوع والخضوع والعبودية لله في أكمل صورها؛ فهو أثر هذا الخشوع؛ أثره في ملامح الوجه؛ حيث تتوارى الخيلاء والكبرياء والفراهة، ويحل مكانها التواضع النبيل، والشفافية الصافية، والوضاءة الهادئة، والذبول الخفيف، الذي يزيد وجه المؤمن وضاءة وصباحة ونبلا»[3].

موضوعات ذات صلة:

الإنجيل، عيسى عليه السلام، القرآن، الكتب المنزلة، موسى عليه السلام

(1) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٣٢.
(2) جامع البيان ٢٢/ ٢٦٤.
(3) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٣٢.





عناصر الموضوع



مفهوم التوكل

أولًا: المعنى اللغوي:

من الجذر «و ك ل» وأصلها: اعتمادك على غيرك[1]، تقول:وكلته إليك أكله كلةً، أي:فوضته، ورجل وكلٌ ووكلةٌ وهو الـمواكل يعتمد على غيره فيضيع أمره، وتقول:وكلت بالله، وتوكّلت على الله، ووكلت فلانًا إلى الله، أكله إليه، والوكيل: فعله التّوكّل، والتوكّل إظهار العجز والاعتماد على غيرك، وكذلك يعني «التكلان» الذي انقلبت تاؤه عن واو، ومصدر التوكل الوكالة [2]، قال ابن منظور: «يقال:توكّل بالأمر إذا ضمن القيام به، ووكلت أمري إلى فلانٍ أي ألجأته إليه واعتمدت فيه عليه، ووكّل فلانٌ فلانًا إذا استكفاه أمره؛ ثقةً بكفايته، أو عجزًا عن القيام بأمر نفسه»[3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

غلب استخدام مصطلح التوكل في توكل العبد على ربه؛ لذا عرفه العلماء أنه: «الثقة بما عند الله، واليأس عما في أيدي الناس»[4]، وقال الرازي: «التوكل هو أن يراعي الإنسان الأسباب الظاهرة، ولكن لا يعول بقلبه عليها، بل يعول على عصمة الحق»[5]، وأضاف النسفي أن التوكل هو «قطع العلائق وترك التملق للخلائق»[6]، وقال ابن عاشور:«هو انفعال قلبي عقلي يتوجه به الفاعل إلى الله؛ راجيًا الإعانة، ومستعيذًا من الخيبة والعوائق»[7].

وقد نخلص من المعاني السابقة إلى أن التوكل على الله هو: ثقة العبد بالله تعالى، وتفويض الأمر إليه، والاعتماد عليه في جلب النفع أو دفع الضر.

والمتأمل في التعريفين اللغوي والاصطلاحي يجد توافقًا واضحًا بينهما، فالتوكل لغةً هو تفويض الأمر والاعتماد على الآخر مع الثقة، والمعنى الاصطلاحي يتضمن تفويض الأمر لله تعالى، والاعتماد عليه وحده في تسيير الأمور؛ ثقةً بقدرته الكاملة عز وجل.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ١٣٦.
(٢) انظر: العين، الفراهيدي ٥/ ٤٠٥، مختار الصحاح، الرازي ١/ ٣٤٤.
(٣) لسان العرب ١١/ ٧٣٤.
(٤) التعريفات، الجرجاني ١/ ٧٠.
(٥) مفاتيح الغيب ٩/ ٤١٠.
(٦) مدارك التنزيل ١/ ٤٣٩.
(٧) التحرير والتنوير ٤/ ١٥١.

التوكل في الاستعمال القرآني

وردت مادة (وكل) في القرآن (٧٠) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٣	﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾ [هود:٨٨]
الفعل المضارع	١٨	﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٤٢﴾ [النحل:٤٢]
فعل الأمر	١١	﴿۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦١﴾ [الأنفال:٦١]
اسم الفاعل	٤	﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ۝١٥٩﴾ [آل عمران:١٥٩]
الصفة المشبهة	٢٤	﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝٦٢﴾ [الزمر:٦٢]

والتوكل هو: الاعتماد على الغير وتفويض الأمور له، ولم يخرج في الاستعمال القرآني عن هذا المعنى[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٧٦٢-٧٦٣، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص ١٤٢٥-١٤٥٣.

(٢) انظر: عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٤/ ٣٣٦-٣٣٨، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٥/ ٢٦٦-٢٧٥، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٦٠٧-٦٠٨.

الألفاظ ذات الصلة

١ الثقة:

الثقة لغة:

الائتمان[١].

الثقة اصطلاحًا:

من يعتمد عليه في القول والفعل[٢].

الصلة بين الثقة والتوكل:

يوجد تكامل كبير في المفردتين، فلا يمكن أن يتوكل الإنسان إلا على من يثق به ويأتمنه على القيام بالأمر.

١ الثقة:

الاعتماد لغة:

اعتمد على الشيء اتكأ، واعتمد عليه في كذا اتكل، ويقال:اعتمد الشّيء: قصده وأمضاه، ويقال:اعتمد الرئيس الأمر: وافق عليه وأمر بإنفاذه[٣].

الاعتماد اصطلاحًا:

هو «القصد إلى الشيء والاستناد إليه مع حسن الركون»[٤].

الصلة بين الاعتماد والتوكل:

المفردتان متقاربتان؛ لأن في كلتيهما استنادًا إلى المعتمد عليه مع حسن الركون والاطمئنان.

٣ التواكل:

التواكل لغة:

«تواكل القوم: اتكل بعضهم على بعض»[٥].

(١) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٢٦/ ٤٥٠.
(٢) التوقيف، المناوي ١/ ١١٦.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ٣٠٢، مختار الصحاح، الرازي، ١/ ٢١٨، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ٢/ ٦٢٦.
(٤) الكليات، الكفوي ١/ ١٥١.
(٥) العين، الفراهيدي ٢/ ٢٦٦.



التواكل اصطلاحًا:

هو التخاذل وترك العمل بالأسباب، وانتظار الأماني[1].

الصلة بين التواكل والتوكل:

المفردتان متضادتان، فالتوكل هو عمل الجوارح مع توكل القلوب، أما الكسل عن الأخذ بالأسباب مع الادعاء بالتوكل هو حقيقة التواكل.

٤ التفويض:

التفويض لغة:

«فوض إليه الأمر تفويضًا: رده إليه، وجعله الحاكم فيه»[2].

التفويض اصطلاحًا:

هو «ردّ الأمر إلى الله والتبرؤ من الحول والقوة»[3].

الصلة بين التفويض والتوكل:

المفردتان متقاربتان، فالتفويض والتوكل يشتركان في رد الأمور إلى الآخر فيما لا تستطيعه قدرة الشخص.

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٤/ ١٤٢.
(٢) تاج العروس، الزبيدي ١٨/ ٤٩٦.
(٣) التوقيف، المناوي ١/ ١٠٤.

دلالة اقتران التوكل بالإيمان والعبادة

التوكل من أعظم العبادات المرتبطة بالإيمان؛ لذلك كثر اقترانه بمصطلحي «العبادة» و«الإيمان»، فالتوكل على الله هو أجمع أنواع العبادة، وأعلى مقامات التوحيد وأعظمها وأجلها؛ لما ينشأ عنه من الأعمال الصالحة؛ فإنه إذا اعتمد على الله في جميع أموره الدينية والدنيوية دون كل ما سواه؛ صح إخلاصه ومعاملته مع الله، وكذلك لا يصح إيمان الإنسان إذا فسد توكله، فالتوكل شرط في الإيمان[1]، بدلالة قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣]. أي على الله وحده اعتمدوا وثقوا، فهو وكيلكم الأعلم بما يصلح لكم إن كنتم مؤمنين، وإن لم تكونوا متوكلين فلن ينطبق عليكم سمت المؤمنين[2].

وفي موضع آخر قال جل وعلا: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس:٨٤].

وهنا يظهر اشتراط التوكل للإسلام، فيجب أن يسلّم الإنسان أموره لله عز وجل خالصة دون تخليط؛ حتى ينال الرضا من الله تعالى[3].

وقد قرن التوكل بالعبادة في أكثر من موضع، منها قول الله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٢٣].

وقد بيّن الرازي أن أول درجات السير إلى الله تعالى هو عبودية الله، وآخرها التوكل على الله، وأن هذا هو السبب الذي أدّى إلى ترتيب الآية هكذا: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾، بمعنى أن المخلص في العبادة المؤدي لها بيقين وتأمل وصفاء يصل به التدبر إلى عظم الخالق عز وجل وروعة إبداعه، وأنه لا يملك أمام تلك القدرة المطلقة سوى تفويض أموره كلها والاعتماد عليه تعالى في تسيير شؤون حياته كلها[4].

ولعل ترتيب الآية السابقة يؤكد على مبدأ العبادة والعمل، ومن ثمّ تفويض الأمور لله تعالى، وهذا هو التوكل الصحيح، خلافًا لما يفعله المتواكلون من القعود عن العمل، وترك الأمور بحجة التفويض، وإسناد الأمور للخالق عز وجل، فالله يحب العاملين ولا يحب المتخاذلين.

(١) انظر: الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، صالح الفوزان ١/ ٧٨.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٢٠٣.
(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣٦٤.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٤١٤.

التوكل في حق الله تعالى

من أسماء الله تعالى الوكيل، وقد حقّ لجلاله وعزته وحكمته هذا الاسم، فعليه يجب أن يتوكل المؤمنون، وعلى غيره لا يصح التوكل؛ لأن التوكل عبادة قلبية، لا تصرف إلا لله عز وجل[1]، وسيأتي بيان معنى اسم الله الوكيل واستحقاقه جل وعلا لهذا الاسم فيما يأتي:

أولًا: الوكيل من أسماء الله الحسنى:

أثبت الله تعالى لنفسه اسم الوكيل، يقول الحق عز وجل: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝٦٢﴾ [الزمر: ٦٢].

وقال في موضع آخر: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣﴾ [آل عمران: ١٧٣].

والوكيل هو المتكفل باحتياجات عباده، وقيل: الموكول إليه ذلك، فإن عباده وكّلوا إليه مصالحهم اعتمادًا على إحسانه عز وجل[2].

يقول الطوسي: الوكيل «هو الموكول إليه الأمور، ولكن الموكول إليه ينقسم إلى من يوكل إليه بعض الأمور، وذلك ناقص، وإلى من يوكل إليه الكل، وليس ذلك إلا الله سبحانه وتعالى، والموكول إليه ينقسم إلى: من يستحق أن يكون موكولًا إليه لا بذاته ولكن بالتفويض والتوكيل، وهذا ناقص؛ لأنه فقير إلى التفويض والتولية، وإلى من يستحق بذاته أن تكون الأمور موكولة إليه، والقلوب متوكلة عليه لا بتوليةٍ وتفويضٍ من جهة غيره، وذلك هو الوكيل المطلق، والوكيل أيضًا ينقسم إلى: من يفي بما وكّل إليه وفاءً تامًا من غير قصور، وإلى: من لا يفي بالجميع، والوكيل المطلق: هو الذي الأمور موكولة إليه وهو مليٌّ بالقيام بها، وفيٌّ بإتمامها، وذلك هو الله تعالى»[3].

والفرق بين وكالة الله ووكالة العباد، أن الوكيل صفة الله التي تعني المتولي القائم بتدبير خلقه؛ لأنه مالك لهم رحيم بهم، أما توكيل العباد إنما يعقد بالتوكيل، ولا يتضمن الرحمة[4]، لذا حريٌّ بنا أن نتوجه إلى الله جل جلاله بالدعاء باسمه الوكيل، وبجميع أسمائه الحسنى، فالله تعالى حقيق بذلك، وقد أمرنا بهذا في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٨٠﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وعلى الإنسان أن يستحضر لحظة الدعاء عزة الربوبية وذلة العبودية، فبذلك يعظم

(١) انظر: الجواب الكافي، ابن القيم ١/ ١٣٧.
(٢) انظر: المواقف، الإيجي ٣/ ٣٢٢.
(٣) المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى ص١٢٩.
(٤) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ١/ ٥٧٧.

الدعاء ويحسن الذكر[1].

ثانيًا: استحقاق الله تعالى للتوكل لاتصافه بصفات الكمال:

لله تعالى من الصفات المطلقة ما يجعلنا نسارع إلى عبادته، ونجتهد في التوكل عليه، توقًا إلى رحمته، وحرصًا على استحقاق جنته، فمن أهم ما يجعل المؤمن يتوكل على ربه عز وجل:

١ . سعة علمه.

الله عز وجل هو العليم، فقد أثبت العلم المطلق لنفسه تبارك وتعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ [الأنفال:٦١].

وأثبتها له صفوة عباده المؤمنين، فقد وردت على لسان أنبياء الله الكرام، كقول إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة:١٢٧].

وأيضًا أثبت العلم المطلق لله تعالى يعقوب عليه السلام في قوله: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ [يوسف:٨٣].

وقال تعالى عن مريم ابنة عمران: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ [آل عمران:٣٥].

والعليم يعني: أن الله تعالى يحيط بكل شيء علمًا، ظاهره وباطنه، دقيقه وجليله، أوله وآخره، عاقبته وفاتحته، فمعلوماته تعالى لا نهاية لها، وكذلك وضوحها وكشفها على أتم ما يمكن فيه، بحيث لا يتصور مشاهدة وكشف أظهر منه، ثم لا يكون تعالى مستفيدًا من المعلومات، بل تكون المعلومات مستفادة منه، فهو تعالى الذي يمدّ بالعلم من يشاء[2]، وهذا العلم الإلهي يجعلنا نسلّم أمورنا متوكلين على الله تعالى؛ فنحن الجاهلون وهو الأعلم بحالنا وبما يصلح لشؤون ديننا ودنيانا، وهو الراضي عنا بهذا التوكل، وهو كافينا ما أهمّنا.

٢ . سعة رحمته.

وصف الله عز وجل ذاته المقدسة بالرحمة الواسعة، فقد قال عز وجل: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦].

وقال أيضًا: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة:١٦٠].

(١) انظر: مراح لبيد، محمد الجاوي ١/ ٤٠٩.

(٢) انظر: المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، الطوسي ص٨٦.

وتقررت الصفة مرة أخرى في موضع ليس ببعيد عن الموضع السابق في قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة:١٦٣].

وقد أثبت صفة الرحمة لله تعالى أنبياء الله الكرام، فقد قال تعالى عن موسى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة:٥٤].

وعن سليمان ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ [النمل:٣٠].

وأثبتها لله تعالى محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾ [الأحقاف:٨].

ورحمة الله تعالى هي تفضله وكرمه على المؤمنين، فقد أوجب تعالى الرحمة على نفسه تفضلًا وإحسانًا، ولم يوجبها عليه أحد[(١)] في قوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:١٢].

فهو الممتنّ عليهم بعطائه الجزيل، وهو الذي يتوب على عباده، يقول الطبري: «يقول تعالى ذكره: إن هؤلاء العادلين بي الجاحدين نبوتك يا محمد، إن تابوا وأنابوا قبلت توبتهم، وإني قد قضيت في خلقي: أن رحمتي وسعت كل شيء»[(٢)]، ونحن نقول: إذا كانت هذه رحمته بالمعرضين عنه، فكيف تكون رحمته بالمقبلين عليه، الساجدين بين يديه، المتوكلين عليه في تسيير أمورهم، وكيف لهم ألا يتوكلوا إذا ما علموا عطفه على عباده ورفقه بهم، ورحمته فيما يقدّر لهم من مقادير!

٣. عزته وقوته.

عزاء المؤمن المظلوم والمقهور في هذه الدنيا يقينه أن الله تعالى هو القوي العزيز، الذي لا تضيع عنده الحقوق ولا يفلت من عقابه الظالمون.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾ [هود:٦٦].

وتتجلى قوة الله وعزته في الآية: كونه تعالى قد أوصل العذاب إلى الكفار بصالح عليه السلام، وصان أهل الإيمان عنه، وهذا لا يصحّ إلاّ من القادر الذي يقدر على قهر طبائع الأشياء، فيجعل الشّيء الواحد بالنّسبة إلى إنسان بلاء وعذابًا، وبالنسبة إلى

(١) انظر: شرح العقيدة الواسطية، الهراس ص١٠٧.

(٢) جامع البيان ١/ ١٠٧.

إنسان آخر راحة وريحانًا[1].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩﴾ [الشورى:١٩].

أي: أن رب العزة ذو لطف بعباده مؤمنهم وكافرهم، فهو الذي يطعمهم ويسقيهم، وحتى في خلوات المعصية يمرّر إليهم الهواء فيحييهم، وهو تعالى على كرمه معهم قادر على أخذهم بقوته التامة؛ فهو الذي لا يعجزه شيء، وهو العزيز في انتقامه إذا أراد الانتقام من أحد[2].

وقد ابتلى الله ابن آدم بالموت؛ ليرى نتيجة عمله، والله هو العزيز المنتقم من الظالمين، القابل توبة التائبين[3]: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ٢﴾ [الملك:٢].

والذي يفهم بحق معنى عزة الله وقوته، ويدرك أن الله مقتص من الظالمين، ناصر للطائعين عاجلًا كان أم آجلًا، سيفوّض أموره كلها لله واثقًا متوكلًا موقنًا أنه لن يضيع له حق.

٤ . حكمته.

من أسماء الله تعالى: الحكيم، فهو سبحانه صاحب الحكمة المطلقة.

يقول عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ١٨﴾ [الأنعام:١٨].

قال ابن القيم: «الحكمة: فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي»[4].

وقال الطوسي: «الحكمة: هي معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم.. ولا يعرف كنه معرفته غيره، فهو الحكيم الحق؛ لأنه يعلم أجلّ الأشياء بأجلّ العلوم، إذ أجلّ العلوم هو العلم الأزلي الدائم الذي لا يتصور زواله، المطابق للمعلوم مطابقةً لا يتطرق إليها خفاءٌ ولا شبهةٌ، ولا يتصف بذلك إلا علم الله سبحانه وتعالى، وقد يقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويحكمها ويتقن صنعتها حكيم، وكمال ذلك أيضًا ليس إلا لله تعالى، فهو الحكيم الحق»[5].

وقد أثبتت آيات القرآن الكريم هذه الصفة لله تعالى، قال جل وعلا على لسان ملائكته الكرام: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢﴾ [البقرة:٣٢].

وقال على لسان يوسف عليه السلام: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٠/ ٥١٧.
(٢) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٦٠٥.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٥٠٥.
(٤) مدارج السالكين ٢/ ٤٤٩.
(٥) المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى ص١٢٠.

﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف:١٠٠].

وفي الآية الأخيرة تقرير لحكمة الله العليم، فقد مرت بيوسف عليه السلام ظروف صعبة، ابتداءً من إلقائه في الجب وانتهاءً بسجنه واتهامه ظلمًا، إلا أن نبي الله المعصوم يعلم أن ربه حكيم، يجري كل حدث بمراد دقيق، وبما تقتضيه مصلحة الإنسان[1]، فإذا تيقن المرء من وجود الحكمة في تقدير الله تعالى وتدبيره، فسيترك التفكير، ويقطع السعي فيما ليس للبشر قدرة عليه، وسيفوّض أموره كلها لخالقه الحكيم العالم بمراد البشر، المتوكل بمصالحهم.

ثالثًا: نفي الإيمان عن غير المتوكل على الله تعالى:

التوكل على الله واجب وشرط لحصول الإيمان، وانتفاؤه انتفاء للإيمان بمقتضى قول الله تعالى[2]: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس:٨٤].

ولأن التوكل عبادة قلبية، فلا يصح صرفه لغير الله، فهذا من الشرك.

وقد قسّم العلماء التوكل على غير الله إلى قسمين:

الأول: التوكل على غير الله في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله؛ كالذين يتوكلون على الأموات، ويطوفون بالقبور استشفاءً أو طلبًا للنصر والرزق، فهذا شرك أكبر.

الثاني: التوكل على غير الله في الأمور التي يقدر عليها العباد؛ كأن يتوكل على وزير أو أمير في فيما جعله الله في يده من سلطة أو وظيفة، في جلب مصلحة أو دفع أذى، فهذا ينافي كمال الإيمان ويضعفه.

والوكالة الجائزة: هي توكيل الإنسان في فعلٍ مقدور عليه، ولكن ليس له أن يتوكل عليه، وإن وكّله، بل يتوكل على الله ويعتمد عليه في تيسير ما وكّل صاحبه فيه[3].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وما رجا أحدٌ مخلوقًا أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه فإنه مشرك»[4].

وقد قال رب العزة: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١].

والمشرك المتوكل على غير الله يوقع الله في قلبه التعلق بالمخلوقين، فيخافهم ويرجوهم فيحصل له رعب، كما قال تعالى: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [آل عمران:١٥١].

---

(١) انظر: تفسير الشعراوي ١٢/ ٧٠٨٦.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية ٧/ ١٦.

(٣) انظر: تيسير العزيز الحميد، سليمان بن عبدالوهاب ١/ ٤٢٨.

(٤) الفتاوى الكبرى ٥/ ٢٣٢.

والخالص من الشرك يحصل له الأمن واطمئنان النفس والتعفف عن سؤال الناس[(١)].

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوٓا إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام:٨٢].

ولعل من أهم قوادح التوكل التي نراها في هذه الأيام اعتماد الإنسان على الرقية بواسطة شخص معين، أو العلاج على يد طبيب بعينه اعتقادًا بقدرته على الشفاء، وهذا الأمر منافٍ للتوكل الصحيح الذي يعتمد على رجاء الله أولًا، ثم عمل ما يلزم بواسطة البشر مع عدم تعليق الأمل على أشخاصهم ثانيًا.

الأنبياء عليهم السلام والتوكل

أنبياء الله الكرام هم صفوة خلقه، وقد أبرز القرآن الكريم الأسوة الحسنة من خلال قصصهم مع أقوامهم عليهم السلام، فكانوا خير المؤدّبين لأممهم والمخلّصين لها من أرذال الجاهلية، والمتحلّين بأجمل الخلال، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤].

وقد تحلى أنبياء الله عليهم السلام بالتوكل، وحثوا أقوامهم على ذلك، وسنبين ذلك فيما يأتي:

أولًا: دعوة أقوامهم إلى التوكل على الله تعالى:

دعا أنبياء الله الكرام أقوامهم إلى التوكل؛ لأنه من أجلّ العبادات.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [إبراهيم:١٢].

وهذه العبارة نقلها القرآن الكريم ليصور لنا حال أنبياء الله الكرام الذين اجتهدوا في دعوة أنبيائهم إلى التوكل، فقد علّموهم التوكل بالقدوة، وحضّوهم عليها بالقول، وبيّنوا لهم أن هداية الله ونصره وتأييده لا تأتي إلا بالتوكل، ولا ننسى دعوة يعقوب عليه السلام لأبنائه وقومه أن يتوكلوا،

(١) انظر: المصدر السابق ٥/ ٢٣٢.

وأمرهم باتخاذ الأسباب التي تحميهم، ومن ثمّ تفويض الأمر لله عز وجل برعايتهم وحفظهم.

قال تعالى على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [يوسف:٦٧].

قال ابن عاشور:«أراد بهذا تعليمهم الاعتماد على توفيق الله ولطفه مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة؛ تأدبًا مع واضع الأسباب ومقدر الألطاف في رعاية الحالين، لأنا لا نستطيع أن نطلع على مراد الله في الأعمال، فعلينا أن نتعرفها بعلاماتها، ولا يكون ذلك إلا بالسعي لها»[١].

وقد وردت في قصة موسى عليه السلام دعوة إلى التوكل، تأمل قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس:٨٤].

فالتوكل من أهم الأمور التي دعا إليها موسى عليه السلام وعلمها لقومه، ويظهر ذلك التأديب في قصة نقباء موسى الذين تربوا على يديه.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة:٢٣].

والقصة تحكي عن اثنين من النقباء الذين أرسلوا إلى الجبارين لاستكشاف قوتهم، وهؤلاء المذكورون في الآية من المؤمنين الذين رباهم موسى عليه السلام على التوكل، فحثوا قومهم على ذلك، وبيّنوا لهم أن قوة الجبارين في أجسادهم فقط، وأنهم إذا غزوهم في عقر دارهم ذلّوهم وهزموهم، وهذه هي التربية المؤمنة التي تعلّم أبناءها بذل الجهد وعدم الانشغال بالنتائج؛ لأن الله ناصر عباده وكافيهم شر الأعداء إن صدقوا الإخلاص وأحسنوا التوكل[٢].

ثانيًا: الأنبياء أسوة في التوكل على الله تعالى:

التوكل سمة مشتركة لدى الأنبياء عليهم السلام، وقد ظهر التوكل في القصص القرآني بشكل واسع.

قال تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [إبراهيم:١١].

ويظهر في الآية التأكيد على صفة التوكل والحث عليها بقوة، فقد بيّنت أن الرسل

(١) التحرير والتنوير ١٣/ ٢٠.

(٢) انظر: المصدر السابق.

عليهم السلام أكدوا بشريتهم لأقوامهم وأن الله قد منّ عليهم بالتوحيد والدعوة، وأن الله ناصرٌ أنبياءه بقوته وجبروته تعالى، فقد تحدوا أقوامهم بأنهم متوكلون على الله، في دفع كيدهم ومكرهم، وأن الأنبياء كانوا جازمين بكفايته إياهم، وقد كفاهم الله شرّهم، على الرغم من حرص المكذبين من أقوامهم على إطفاء ما معهم من الحق، وقد كان توكل الرسل عليهم الصلاة والسلام في أعلى المطالب وأشرف المراتب؛ فهو التوكل على الله في إقامة دينه ونصره، وهداية عبيده وإزالة الضلال عنهم، وهذا أكمل ما يكون من التوكل.[1]

وإمام المتوكلين محمد صلى الله عليه وسلم، فهو الذي توكل على ربه في دعوته وربّى أصحابه الكرام على تلك الصفة، فقد تخفّى عليه الصلاة والسلام مع أبي بكر رضي الله عنه في الغار فرارًا بدينه من بطش المشركين.

قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: ٤٠].

عن أبي بكر رضي الله عنه قال: قلت للنبي صلى الله عليه وسلم وأنا في الغار: (لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال: ما ظنك يا أبا بكر في اثنين الله ثالثهما)[2]، فرد عليه حبيبه عليه السلام: (لا تحزن) حاثًا إياه على مجاهدة النفس وتوطينها على عدم الاستسلام، وقال له: (إنّ اللّه معنا) يعني بنصره وتأييده[3].

يقول الخازن: «وفيه بيان عظيم على توكل النبي صلى الله عليه وسلم.. وفيه فضيلة لأبي بكر وهي من أجلّ مناقبه، والفضيلة من أوجه، منها: اللفظ الدال على أن الله ثالثهما، ومنها: بذله نفسه ومفارقته أهله وماله ورياسته في طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، وملازمته النبي صلى الله عليه وسلم ومعاداة الناس فيها، ومنها: جعله نفسه وقاية عنه، وغير ذلك»[4].

ولا يخفى ما أظهره أبو بكر الصديق وأصحابه من التوكل على الله عزّ وجل، فها

(١) انظر: التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي ٤/ ١٠٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب المهاجرين وفضلهم، ٥/ ٤، رقم ٣٦٥٣.

(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٠/ ٢١٣.

(٤) لباب التأويل ٣/ ٩٤-٩٥.

هو أبو بكر رضي الله عنه يتصدق بكل ماله في سبيل الله، ويجيب حبيبه صلى الله عليه وسلم عندما سأله: **(ماذا أبقيت لأهلك؟)** فيقول: **أبقيت لهم الله ورسوله**[1].

لا يخاف على أهله الموت فقرًا وجوعًا، ومنّا الآن من يستعظم صدقته إذا تجاوزت دخل يوم أو أقل، فلله درك يا أبا بكر!

وقد ظهر التوكل جليًا في قصة نوح عليه السلام عندما قال لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾

[يونس:٧١].

أي: إن كان الدين الذي أدعو إليه ثقيلًا عليكم ولا تتحملون مكوثي معكم ودعوتي لكم، فاجتمعوا أنتم وجميع شركائكم وافعلوا أقصى ما تستطيعون جهرًا لا خفية، ولا تمهلوني أو ترحموني أو تألوا في ذلك سبيلًا، فأنا متعلق بالله الذي سيكفيني أمركم وسينصرني بقوته وعزته، وهذه قمة التحدي المبني على التوكل على الله والاعتزاز بالله عز وجل.

كما ظهر توكل سيد المتوكلين إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم:٣٧].

انظر كيف يترك إبراهيم عليه السلام زوجه وابنه في صحراء مقفرة لا زرع فيها ولا مياه، يترك ابنه الذي رزقه الله إياه بعد سنين في مكان لا يتصور أحد أن يترك فلذة كبده فيه، وتسأله زوجه: الله أمرك بهذا؟ فيشير برأسه أن نعم، فتقول متوكلة على الله: إذًا لا يضيعنا الله أبدًا، هذه هي أسرة المتوكلين على الله حين علموا أن الله يريد أن يتم أمره الذي قدره[2].

ويذكر الإدريسي أن في فعل إبراهيم عليه السلام إشارة إلى تربية أهله بحقائق التوكل والرضا والتسليم، ونعمت التربية تلك، فأعلمنا بسنته القائمة على الحنيفية السمحة السهلة: أن المؤمن الصادق ينبغي ألا يكون معوّلًا على الأسباب فحسب، بل يلزمه التوكل على الله في جميع أموره[3].

وعلينا ألا نستغرب هذا التوكل العظيم منه عليه السلام، فهو الذي تبرأ من قومه جهرًا وهو يتوقع أنهم سيلحقون به الضرر، ولم يكن يملك ما يدفع به مكرهم، لكنه لم يخش إلا الله، فقال عليه السلام داعيًا ربه عز وجل: ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الزكاة، باب الرخصة في ذلك خروج الرجل من ماله، ٢/ ١٢٩، رقم ١٦٧٨.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٣٦٨.

(٣) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٣/ ٣٧٥.

﴿الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة:٤].

ولما ألقوه في النار ظهرت نتيجة توكله فكانت تلك الآية الرائعة، والمعجزة العظيمة في تحول النار عن صفة الاحتراق إلى صفة البرودة مع السلام.

قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝٧٠﴾ [الأنبياء:٦٩-٧٠].

فلما رأى النمرود تلك الآية ترك إبراهيم وكف أذاه عنه، فمن ذا الذي يخاف كيد الكافرين ومكرهم وهو في كنف المولى عز وجل، الغالب على أمره ولو كره الكافرون[١].

وقد توكل هود عليه السلام على ربه، وتحدى قومه المكذبين أن يضروه، فهو المتوكل على الله ولا يخسر المتوكلون أبدًا، قال تعالى على لسان هود عليه السلام: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٦﴾ [هود:٥٥-٥٦].

وكذلك توكل شعيب عليه السلام على ربه، واعتز بهذا التوكل قائلًا: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الأعراف:٨٩].

وقال أيضًا: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨].

ولا يخفى أن التوكل إشارة إلى التوحيد المحض، فكل الأنبياء خصوا الله تعالى وحده بالتوكل، وأكدوا على ذلك في دعوتهم لأقوامهم، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على كونه عملًا عقديًا مهمًّا ينبغي ألا يشوبه شوائب[٢].

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٣٠.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٣٨٩.

دوافع التوكل على الله تعالى

للتوكل على الله تعالى دافعان رئيسان، وهما: الإيمان بالله تعالى، والإيمان بالقدر، وبيان ذلك فيما يأتي:

أولًا: الإيمان بالله تعالى:

التوكل مبني على الإيمان، لقول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣].

قال ابن القيم: «فذكر اسم الإيمان هاهنا دون سائر أسمائهم دليل على استدعاء الإيمان للتوكل، وإن قوة التوكل وضعفه بحسب قوة الإيمان وضعفه، وكلما قوي إيمان العبد كان توكله أقوى، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل، وإذا كان التوكل ضعيفًا، فهو دليل على ضعف الإيمان ولا بد، والله تعالى يجمع بين التوكل والعبادة، وبين التوكل والإيمان، وبين التوكل والإسلام، وبين التوكل والتقوى، وبين التوكل والهداية»[١].

وانتفاء التوكل يعني انتفاء الإيمان، يقول المولى عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [الأنفال:٢-٣].

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ١/ ٢٥٥.

هذا وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الآية تعني أن من اتصف بتلك الأوصاف هو المؤمن كامل الإيمان، بينما من لم يتصف بها هو المؤمن ناقص الإيمان، فلا ينتفي عنه الإيمان بالجملة[٢]، لكن المتأمل في الآية وفي معنى التوكل يعلم أن التوكل أمر عقدي، لذا يستبعد أن يكون المتوكل على غير الله مؤمنًا إيمانًا ناقصًا، بل يرجّح انتفاء الإيمان عنه، والله أعلى وأعلم.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣٦٥، أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٤٩.

ثانيًا: الإيمان بالقدر:

الإيمان بالقدر من أهم ما يدفع إلى التوكل على الله؛ فالذي يعلم يقينًا أن الله تعالى قد قدّر حياته ومعاده ورزقه وذريته وزوجه وأمور معاشه كلها، لا يتوانى في تسليم أموره كلها لله، ولا يقلق ولا يجزع من المستقبل، فالذي خلقه هو من قدّر سير حياته، فيعيش مطمئن البال راضيًا بما كتب الله له، لا يلهث وراء الدنيا ولا يتكالب على المناصب والأرزاق، فالله تعالى قد كتب له مقدارًا من الخير سيأتيه دون غيره.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ٧٠ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٧١ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ٧٢﴾ [النحل: ٧٠-٧٢].

وعن محمد بن عمران قال: قيل لحاتم الأصم: على ما بنيت أمرك هذا من التوكل؟ قال: «أربع خلال:

١. علمت أن رزقي ليس يأكله غيري، فلست أشغل به.

٢. وعلمت أن عملي لا يعمله غيري، فأنا مشغول به.

٣. وعلمت أن الموت يأتيني بغتة، فأنا أبادره.

٤. وعلمت أني بِعَيْنِ الله في كل حال، فأنا مستحي منه»[1].

والتوكل على الله تعالى لا يعني ترك الأسباب بحجة كون الأمور مقدرة عند الله، فترك الأسباب بدعوى التوكل لا يكون إلا عن جهل بالشرع أو فساد في العقل، فالتوكل محله القلب، والعمل بالأسباب محله الأعضاء والجوارح، ولا يكمل التوكل إلا بالعمل، فالمؤمن يعمل ويأخذ بالأسباب ثم يتوكل على الله تعالى في جلب المنفعة[2].

وقد أمر الله تعالى بأخذ الأسباب في كل الأحوال، تأمل قول الله تعالى: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥].

فبالرغم من كون الرزق مقدرًا إلا أننا مأمورون بالسعي من أجله، وبالاجتهاد في استصلاح الأرض والحصول على ثرواتها[3].

وانظر قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء: ٧١].

فالحذر عمل بأسباب النصر، وكذلك الاستعداد للمعركة من عوامل النصر،

---

(١) الكشف والبيان، الثعلبي ٢/ ١٩٤، سير أعلام النبلاء، الذهبي ١١/ ٤٨٤.

(٢) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٤/ ١٧٠.

(٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٢٣٨.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال:٦٠].

وفي الآية: تنبيه إلى ضرورة الاستعداد وعدم الاتكال على حسن النوايا وطيب الهدف، فيجب ألا نقصر في إعدادنا للقوة التي تعيننا على ملاقاة الأعداء ونبذل في سبيل ذلك جهودنا وأموالنا؛ حتى نستحق نصر الله وتأييده[1]، وتدبر قول يعقوب عليه السلام لابنه يوسف: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف:٥].

فقد أمر يعقوب ابنه يوسف عليهما السلام أن يجتنب ذكر أمر الرؤيا أمام إخوته، على الرغم من فهمه ويقينه أن الله سيجعل ليوسف مستقبلًا عظيمًا، إلا أن هذا لا يمنع من صيانة الإنسان لنفسه وحفظه لأموره من الحسد والكيد[2].

(١) انظر: تفسير الشعراوي ٨/ ٤٧٧٥.
(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٢٥٢.

مواطن التوكل على الله تعالى

يدخل التوكل في تفاصيل حياتنا كلها، فلا يخلو سلوك المؤمن من استحضار التوكل على الله عز وجل في جميع أموره، ومن تلك المواطن التي نتوكل فيها على الله تعالى:

أولًا: تحقيق المصالح ودفع المضار:

يمر الإنسان في حياته بلحظات يكون فيها بأمسّ الحاجة إلى توفيقٍ رباني وحفظٍ إلهي، فالدراسة للامتحان والاجتهاد وحده ليس كافيًا للحصول على درجة عالية، أو التنافس على وظيفة راقية، ووجود الزوجة ليس ضامنًا لإنجاب الذرية، ووجود الذرية ليس مؤشرًا على الراحة عند الكبر، واتباع وسائل الإنذار من الحرائق والسرقات لا يضمن عدم حصول كوارث في المنزل أو المؤسسة، وكل ما يفعله الإنسان من اجتهادات لا يغير شيئًا؛ لو لم يقترن بحفظ الله تعالى ونصره وتسديده.

يقول المولى عز وجل: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران:١٦٠].

وفي الآية: خطاب للمؤمنين أنه إن ينصركم الله ويثبتكم ويوفقكم فلن يستطيع أحد خذلانكم أو مضرتكم، وإن ترك الله

نصرتكم فلن يستطيع أحد نفعكم، فتوكلوا على ربكم وثقوا بنصره، وفوضوا جميع أموركم إليه؛ حتى تنالوا إسناده وتوفيقه ونصرته[1].

قال الراغب الأصفهاني: «إن حصل لكم النصرة فلا تعتدّوا ما يعرض من العوارض الدنيوية في بعض الأحوال غلبة، وإن خذلكم في ذلك فلا تعتدّوا ما يحصل لكم من القهر في الدنيا نصرة، فالنصرة والخذلان معتبران بالمآل»[2].

وفي السنة النبوية ما يدلل على دوام توكل النبي صلى الله عليه وسلم قولًا وفعلًا، من ذلك ما ورد عن ابن عباس: (كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يتهجد، قال: **اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك حق، وقولك حق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، والنبيون حق، ومحمد حق، اللهم لك أسلمت، وعليك توكلت، وبك آمنت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت، أو: لا إله غيرك**)[3].

فدعاؤه عليه السلام دليل على توكله القولي، واجتهاده في التنبه ليلًا والتوجه إلى الله بالصلاة والدعاء والرجاء على الرغم من كونه نبي هذه الأمة، وأول من يدخل الجنة على الإطلاق؛ دليل عل أهمية العمل لأجل طاعة الله ولاستحقاق رحمته وجنته، هذا إلى جانب مواقفه صلى الله عليه وسلم التي يصعب عدّها والتي جسّد لنا فيها القدوة الرائعة للتوكل على الله تعالى.

فعلى المؤمن أن يقتدي برسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم الذي علّمنا ألا ندع التوكل على الله في كل صغيرة وكبيرة؛ فهو راحة وطمأنينة واستقرار للرضا في قلب المؤمن، بالإضافة إلى أنه يعود على الإنسان بالعزة والاستغناء عن البشر.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ..﴾ [الطلاق:٣]، أي: كافيه ومغنيه عمن سواه[4].

فيجب أن نأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، وينبغي أن نتوكل على الله وكأن الأسباب ليست بشيء، فكأن الطريق الصحيح عن يمينه واد سحيق، وعن يساره واد سحيق، إن أخذنا بالأسباب واعتمدنا

---

(١) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٢/ ١١٦٢.

(٢) تفسير الراغب الأصفهاني ٣/ ٩٥٥.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا انتبه بالليل ٨/ ٧٠، رقم ٦٣١٧.

(٤) انظر: تفسير السمرقندي، ٣/ ٤٦١.

عليها فقد وقعنا في وادي الشرك، وإن لم نأخذ بها وقعنا في وادي المعصية والتواكل، لكن الموقف الأعقل والأكمل أن نأخذ بالأسباب؛ لأنها طريق الأهداف، ثم نتوكل على الله؛ لأن الله جل جلاله لا يمكن أن يعطي لهذه الأسباب فاعليةً إلا بمشيئته وقدرته.

ثانيًا: الجهاد في سبيل الله:

التوكل في ميدان الجهاد في سبيل الله من أهم الأمور التي تعود على المؤمنين بالنصر والتوفيق، وقدوتنا في ذلك نبينا محمد صلى الله عليه وسلم صاحب السيرة الزاخرة بالتوكل على الله تعالى، وجهاده منذ نزول الوحي عليه وبدئه الدعوة السرية، ثم انتقاله للدعوة الجهرية، فالهجرة والحروب كلها تجسيد لهذا الأدب العظيم الذي لا بد أن نحتذيه في جهادنا ضد أعداء الإسلام.

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران:١٥٩-١٦٠].

وانطلاقًا من الأمر الإلهي بالتوكل سلك النبي صلى الله عليه وسلم مسلك الثقة واتخاذ الأسباب في شؤون الجهاد والهجرة.

فقد رتب أمور الهجرة بشكل دقيق حتى يتجنب اللحاق به من قبل المشركين، وقد حرص على عدم إلحاق الأذى بالمسلمين فجعلهم يهاجرون قبله، وأبقى معه أبا بكر رضي الله عنه، وأمره بتجهيز الدواب للسفر، ثم خرج خروج الواثق بربه المستند إلى الحق، فمر من بين المشركين وهم ينتظرون رؤيته ليقتلوه، فأراد الله لعبده المتوكل النصر، فأعمى أبصارهم وحفّه برعايته تعالى.

ثم التقى عليه السلام بخليله الصديق رضي الله عنه، فانطلقا تحفهما رعاية الرحمن، واتخذ صلى الله عليه وسلم دليلًا خبيرًا ليدله على الطريق، كما استعان بمن يمسح آثار خيله أثناء الرحلة حتى لا يكتشف المشركون أمره.

وقد أطال الرحلة التي تحتاج ثلاثة أيام إلى أسبوع؛ تحقيقًا للأمن، وتمويهًا للعدو، فأدلج إلى غار ثور حتى يهدأ الطلب وتفتر الهمم في اقتفاء أثره، فيتمكن من السير وهو آمن، وطلب في هذه الفترة من ابن أبي بكر موافاته بأخبار المشركين أولًا بأول، واختار أسماء بنت أبي بكر لتزويدهم بالغذاء؛ فقد كانت تستعد للمخاض ولم تكن تحركاتها

لتثير شكوك قريش.

ورغم بذله عليه السلام للجهد في التخفي إلا أن قريشًا وصلت إلى الغار! لكن لا يخشى من وثق بالله وبذل في سبيل ذلك كل الأسباب، فلا يضيع الله عمل المتوكل العامل، فكان مطمئنًا ومثبتًا لقلب أبي بكر رضي الله عنه[1].

قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: ٤٠].

هذا هو نبينا القدوة الذي لم يركن إلى أنه رسول من رب العالمين بعثه ليبلغ دينه، ولم ينتظر النصرة وهو قاعد في بيته، فالإنسان -وإن سمت رسالته وتعلقت بالله تعالى- عليه أن يبذل من أجلها الأسباب؛ حتى تتحقق الغاية منها.

وفي حروبه صلى الله عليه وسلم مع المشركين نماذج كثيرة من التوكل، أهمها غزوة بدر، أولى الغزوات التي خرج فيها المسلمون للقاء من يفوقهم عدة وعتادًا، خرجوا واثقين بنصر الله مصطحبين ما استطاعوا جمعه من عتاد، وقد لا نتصور اطمئنان هذه الفئة وهم أمام جمع غفير من الجنود المدججين الذين أرادوا استئصال الإسلام، لكنه التوكل على الله والثقة بنصره التي لا يوازيها شيء.

قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال: ٩-١٢].

قال الزجاج: «أمر بدر كان من أعظم الآيات؛ لأن عدد المسلمين كان قليلًا جدًا، وكانوا رجّالةً، فأيدهم الله، وكان المشركون أضعافهم، وأمدّهم اللّه بالملائكة»[2].

وقد اجتهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في الاستعداد لغزوة الأحزاب،

(١) انظر: الهجرة النبوية، محمد السيد الوكيل ١/ ١٧٩.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٢/ ٤٠٤.

التي تكالب فيها المشركون واليهود على المسلمين، وكانت أعدادهم ثلاثة أضعاف عدد المسلمين، لكن هذا لم يفتّ في عضد المؤمنين الصادقين، فحفر رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الصحابة الكرام الخندق في جو من البرد والجوع، لا يؤازرهم سوى انتصارهم لدين الله تعالى.

وقد مَنَّ الله عليهم بأن أرعب الأحزاب وشردهم[1].

قال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب: ٢٥-٢٧].

فالله تعالى هو ناصر المؤمنين المتوكلين.

قال السعدي: «لا يغالبه أحد إلا غلب، ولا يستنصره أحد إلا غلب، ولا يعجزه أمر أراده، ولا ينفع أهل القوة والعزة، قوتهم وعزتهم، إن لم يعنهم بقوته وعزته»[2].

ثالثًا: طلب الرزق:

التوكل على الله تعالى في طلب الرزق سمة المؤمنين؛ لأن الرزق مكفول بربوبية الله تعالى للمؤمن والكافر إن عمل الاثنان بالأسباب.

يقول المولى عز وجل: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [العنكبوت: ٦٠-٦٢].

فالله تعالى يرزق بفضله جميع عباده، ولا أدلّ على كرمه تعالى من امتنانه بكنوز قارون التي بسطها له بسطًا، فلله خزائن السماوات والأرض، وهو الممتن علينا بالطعام والشراب والذرية وكل ما نملك، وهو المتكفل بأرزاق المستقبل.

قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات: ٢٢-٢٣].

والآية الكريمة تلفت انتباه الإنسان إلى السبب الأهم للرزق، فالسبب الظاهر للرزق هو رعاية الأرض التي تخرج النبات والثروات، لكن المؤمن العاقل عليه أن يرفع بصره نحو السماء؛ فالسبب الحقيقي للرزق هو الله تعالى، الذي يرزق عباده بفضله لا بجهدهم، فالأصل أن يتوكل الإنسان على الله تعالى جازمًا أنه وحده هو المانح

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢١/ ٢٦٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٦٦٠.

للأرزاق، وأن يعمل بأسباب تلك الأرزاق حتى ينال رحمة الله تعالى وفضله.

يقول سيد قطب في تعليقه على الآية: «والقلب المؤمن يدرك هذه اللفتة على حقيقتها، ويفهمها على وضعها ويعرف أن المقصود بها ليس هو إهمال الأرض وأسبابها، فهو مكلف بالخلافة فيها وتعميرها، إنما المقصود هو ألا يعلق نفسه بها، وألا يغفل عن الله في عمارتها، ليعمل في الأرض وهو يتطلع إلى السماء، وليأخذ بالأسباب وهو يستيقن أنها ليست هي التي ترزقه، فرزقه مقدر في السماء، وما وعده الله لا بد أن يكون»[1].

وقد وعد الله عز وجل المتوكل عليه بكفايته ورزقه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق:٢-٣].

وفي الآيات بيانٌ لضرورة تقوى الله في أمور الطلاق أو الإمساك، وحضٌّ على التوكل على الله؛ لأنه الرزاق، ولأن الله تعالى بالغ أمره، توكل الإنسان عليه أو لم يتوكل عليه، غير أن المتوكل يكفر عنه سيئاته، ويعظم له أجرًا[2]، وقد قسّم ابن عجيبة الأسباب من حيث الأخذ والترك إلى ثلاثة أسباب:

أولها سبب معلوم قطعًا قد أجراه الله، وهو سنة من سنن الدنيا، فهذا لا يجوز تركه، كالأكل لرفع الجوع واللباس لرفع البرد، والثاني: سبب مظنون، كالتجارة وطلب المعاش، وشبه ذلك، فهذا لا يقدح فعله في التوكل، فإن التوكل من أعمال القلوب لا من أعمال البدن، ويجوز تركه لمن قوي عليه، لكنه أخذ بأسباب الرزق وفعله محمود، والثالث: سبب موهوم بعيد، فهذا يقدح فعله في التوكل، ثم بيّن أن الثالث مثل طلب الكيمياء والكنوز وعلم النار والسحر، وشبه ذلك[3].

قال الزحيلي: «ومن شروط التوكل الصحيح: تنفيذ الأحكام الشرعية، ومراعاة السنن المطلوبة في الحياة، من اتخاذ الأسباب ثم تفويض الأمر إلى الله تعالى»[4].

وقد حثت السنة النبوية على التوكل في طلب الرزق، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(لو أنّكم كنتم توكّلون على اللّه حقّ توكّله لرزقتم كما يرزق الطّير، تغدو خماصًا، وتروح بطانًا)**[5].

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٨١.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٤٧.
(٣) انظر: البحر المديد ١/ ٤٢٨.
(٤) التفسير المنير ٩/ ٨.
(٥) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب

وفي الآن نفسه أمر المؤمن بالأخذ بأسباب الرزق اقتداءً بأنبياء الله الكرام، فعن المقدام رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (ما أكل أحد طعامًا قط، خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام، كان يأكل من عمل يده)[(١)].

أما ترك الكسب والاعتماد على الخوارق والجوائز الربانية فهذا سمت المتقاعسين الذي ذمّه الله عز وجل؛ لأن فيه إبطالًا لقانون الأسباب والمسببات الذي وضعه الله في الكون، ودعوةً إلى التكاسل والقعود ومخالفةً لأمر الله تعالى بإعمار الأرض بالعمل.

رابعًا: الدعوة إلى الله تعالى:

الدعوة مضمار مهم يخوضه المسلم بجدّ وحب وإخلاص مقرون بالعلم، ولا يتأتى لنا جني ثمرات الدعوة إلا بعد التوكل على الله عز وجل والثقة بأنه تعالى إن شاء أجرى الحجة على لسان الداعية وقلمه، فجعل القلوب تنجذب إليه وتنقاد إلى ما يدعو إليه، وإن لم يشأ فلن يُكتب للدعوة نجاح، مهما بلغت حجة الداعية، ومهما عظمت خبرته.

وقد خلّد التاريخ نماذج عديدة من الدعاة المتوكلين الذين لم يعتمدوا على سمو الهدف وربانية مصدر الرسالة، بل اجتهدوا وأخذوا بأسباب النجاح حتى تسمو دعوتهم وتنتصر فكرتهم، ومثالنا على أولئك الدعاة مؤمن ياسين الذي بذل في سبيل دعوته كل جهد.

قال تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧﴾ [يس: ٢٠-٢٧].

ولعل المتأمل في الأسباب التي اتخذها هذا الداعية المخلص المتوكل على الله تعالى في دعوته لقومه المكذبين يعلم أنه استحق دخول الجنة بحق، ومن هذه الأسباب ما يأتي[(٢)]:

- السرعة وعدم التباطؤ في الدعوة،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده ٣/ ٥٧، رقم ٢٠٧٢.
في التوكل على الله ٤/ ٥٧٣، رقم ٢٣٤٤.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١٦٣-١٦٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٣٦٥.

فحينما استشعر حقيقة الإيمان، تحركت هذه الحقيقة في ضميره، فلم يتوان في الإسراع من أجل الدعوة إليها.

- حضوره من أقصى المدينة، وهو مكان بعيد، وهذا يؤكد إخلاصه في الدعوة ما جعله يحتمل مشاق الطريق من أجل إنجاح دعوته.
- سعيه، والكلمة دالة على إسراعه مع بذله الجهد في المجيء للدعوة؛ إنقاذًا لهم من ظلمات الكفر.
- رفقه ولينه مع قومه، واستعطافه لهم بقوله ﴿يا قوم﴾.
- لفته أنظارهم إلى ميزات الأنبياء من حيث الاهتداء وعدم طلب المال.
- مخاطبته لنفسه من منطلق إشعارهم أنه يخشى عليهم ما يخشى على نفسه ويحب لهم ما يحب لنفسه، واجتهاده في تغيير الأساليب لفتًا لانتباههم.
- تنبيههم إلى أن الله فاطر النفوس وإليه المعاد، وهو الخالق الذي بيده النفع والضر، وعنده الجزاء بالثواب والعقاب دون سواه.
- تكرار الدعوة وطلبه أن يهتموا بسماعه وفهم ما يقوله.
- تحمل تعذيبهم له مقابل إيصال الحق ونشر دين الله، وحرصه على إعلامهم بثواب المؤمن على الرغم من إيذائهم له.

قال القرطبي: «وفي هذه الآية تنبيه عظيم، ودلالة على وجوب كظم الغيظ، والحلم عن أهل الجهل، والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي، والتشمر في تخليصه، والتلطف في افتدائه، والاشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه»[(١)].

ولعل التوكل على الله تعالى هو المسهل الرئيس للدعوة الإسلامية، فلو استحضر الإنسان عند دعوته ما قد يعود عليه من هموم وغموم، وانتقادات وإعراض، فإنه سيترك أمر الدعوة، لكنه مع التوكل على الله تعالى يشعر بقوة وعزة ومناصرة من الله تعالى، فيهون عليه أمر الدعوة، ومن الأمور التي تبعث الداعية على التوكل:

- رسوخ التوحيد في قلبه، وإدراكه لمعاني أسماء الله وصفاته العلا، والثقة به عز وجل.
- معرفة الداعية إمكانات نفسه، وإدراكه لضعفه وعجزه إن حرم التوفيق من الله.
- المعرفة بفضل التوكل وأحوال المتوكلين من السلف والخلف.

وفي سيرة أنبياء الله الكرام جميعًا، وهم أوائل الدعاة إلى الله تعالى، نماذج عظيمة

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٥/ ١٧.

من التوكل على الله في الدعوة، وعلى رأسهم إمام المتوكلين محمد صلى الله عليه وسلم.

تأمل قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة:١٢٨-١٢٩].

وقد بيّن الله تعالى فضل النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه جاء العرب من جنسهم ومن نسبهم، فهو عربي قرشي مثلهم، يخاف عليهم سوء العاقبة والوقوع في العذاب، حريص ألا تفلت منه أي نفس إلى النار، وهو رؤوف رحيم بحالهم، قيل: لم يجمع الله اسمين من أسمائه لأحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ثم يواسي الله تعالى نبيه الكريم قائلًا: فإن أعرضوا عن الإيمان بك وناصبوك فاستعن وفوّض أمرك إليه، فهو كافيك معرّتهم ولا يضرونك، وهو ناصرك عليهم، وهكذا كان فعله عليه السلام دومًا، فهو الصبور على أذاهم، الحريص على دعوتهم، المتوكل على الله في كل حال[1].

خامسًا: مواجهة الظالمين والمجرمين:

يلزم على المؤمن استحضار قوة الله تعالى ومساندته عند مواجهة الظالمين والمجرمين، والتوكل عليه تعالى في ذلك، فالطاقة البشرية قاصرة، سيما وإن كانت تتجه لمحاربة الظالمين، فالظالم لا يخشى الله، ولا يردعه شيء، وهو مستعد لبذل أرخص الوسائل وأرذلها للحصول على غرضه، وقد مرّت قصص عبر التاريخ تجسد أدب التوكل على الله في محاربة الظلمة، من ذلك قصة موسى عليه السلام مع الطاغية فرعون.

تأمل قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأعراف:١٠٣-١٠٧].

إلى قوله تعالى: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣٢٥.

﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف:١٢١-١٢٨].

وفي الآيات الكريمة تصوير دقيق لتفكير وسلوك الطغاة، فهم يخشون الدين؛ لعلمهم أن الأمة إن التزمت به ووحدت خالقها فستنصرف عن تقديس الظالمين ورجائهم في أمور حياتهم، وستخرج من ظلمات التبعية إلى نور التحرر من القيود البشرية والانقياد لله تعالى وحده دون شركاء، وهذا ما حصل عندما طلب موسى من فرعون أن يترك بني إسرائيل ليعبدوا الله وحده، فأدرك فرعون وملؤه أن هذا يعني سلب السلطة منهم، فأرادوا إحراجه بتقديم الحجة على صدقه أمام الناس.

وقد أظهر الله على يديه معجزاته التي أبهرت سحرة فرعون كلهم، فآمنوا، وواجهوا ذلك الطاغية المستبد الذي أراد استئصال هذا الدين وأتباعه، وعلى الرغم من تهديده ووعيده إلا أن المؤمنين أيقنوا أن مردهم إلى الله تعالى طال عمرهم أم قصر، وأنهم اختاروا الموت في سبيل لله على الموت كفارًا، وواساهم نبيهم الكريم وذكّرهم بصفة المؤمن، وهي الاستعانة بالله الكريم، السند المتين لعباده، الذي يكفيهم ما أهمّهم، فليس لهم غير الله تعالى، فهو الملاذ الحصين، وعليهم أن يصبروا حتى يأذن الولي بالنصرة في الوقت الذي يقدره بحكمته وعلمه، وإن الأرض لله، وما فرعون وقومه إلا نزلاء فيها، فيجب ألا ينظر إلى الطاغوت أنه مكين في الأرض غير مزحزح عنها، فصاحب الأرض ومالكها هو الذي يقرر متى يطردهم منها، وإن العاقبة للمتقين حتمًا، فلا يخالج قلوب الداعين إلى رب العالمين قلق على المصير[1].

هذا هو نبي الله الذي قال عنه جل وعلا: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس:٨٤].

فهو الذي يذكر قومه دومًا بحقيقة الإيمان واستلزامه للتوكل على الله وحده دون سواه.

وقد واجه إبراهيم عليه السلام أعتى الظالمين، فقد جسد النمرود مثالًا للطغيان.

يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣٥٥.

[البقرة:٢٥٨].

فالنمرود بن كنعان هو أول من تجبر في الأرض وادّعى الربوبية، وكان إبراهيم عليه السلام قد دخل بلدته، فأرسل إليه النمرود، وقال:من ربك؟ ويظهر أنه لم يسأل إبراهيم ليعرف الجواب، بل سأله استهزاءً، فهو يعلم أنه نبي الله تعالى، وأنه يدعو إلى توحيد الله وعدم الإشراك به، فرد عليه إبراهيم واثقًا متوكلًا متسلحًا بالإيمان والحجة التي أجراها الله على لسانه عليه السلام: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.

فما كان من تفكيره القاصر، وغروره المتغلغل في أعماق نفسه إلا أن يعمد إلى سجنائه، فيقتل من صدر بحقه التخلية، ويخلي من صدر بحقه القتل، واعتقد أنه بذلك قد أبطل حجة نبي الله إبراهيم، فسأله إبراهيم حينها ما إن كان يستطيع الإتيان بالشمس من المغرب؛ فالله يأتي بها من المشرق.

وقد ذكر الماوردي أن لتحول إبراهيم للحجة الثانية دون البقاء لنصرة الحجة الأولى احتمالين:

أحدهما: أنه قد ظهر من فساد قول النمرود ما لم يحتج معه إبراهيم عليه السلام إلى النصرة، ثم أتبع ذلك بغيرها تأكيدًا عليه في الحجة.

والاحتمال الثاني: أنه لمّا كان في تلك الحجة من تحايل النمرود بما عارضها به من الشبهة، أحب أنه يحتج عليه بما لا تحايل فيه؛ قطعًا له واستظهارًا[(١)].

هذا هو نبينا إبراهيم عليه السلام الذي ما ترك التوكل على الله تعالى في دعوته.

يقول الحق تعالى داعيًا إلى التأسي به عليه السلام: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ [الممتحنة:٤].

وقد واجه ذو القرنين ظلم يأجوج ومأجوج بالتوكل على الله مع الأخذ بأسباب التوكل واتخاذ عوامل الحيطة منهم.

قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا

---

(١) انظر: النكت والعيون ١/ ٣٢٩-٣٣٠.

﴿٩٨﴾ [الكهف: ٩٣-٩٨].

وقد ورد في تفسير الآيات أن ذي القرنين ملكٌ حكم الدنيا بأسرها، فاستغاث به قومٌ ليحميهم من يأجوج ومأجوج، وهم جماعة عظيمة من نسل ولديّ يافث بن نوح، اشتهروا بالكثرة وقد هابهم أولئك القوم وخشوا ظلمهم، فسألوا ذا القرنين أن يبني لهم سدًّا منيعًا يحميهم من أذى قوم يأجوج ومأجوج مقابل خرج من المال، فما كان منه إلا أن تواضع لله ولم يغترّ بقوته، بل اعترف بفضل الله عليه أن آتاه الصحة والعافية التي هي خير من أموالهم التي سيجمعونها له(١).

ووافق أن يبني السد متوكلًا على الله وحده، وقد أخذ بأسباب إنجاح مشروعه فطلب منهم إعانته بالرجال وعمل الأبدان والآلة التي يبني بها السد، وهذا بداية النجاح في العمل، فإن القوم لو جمعوا له خرجًا، لم يعنه أحد، ولتركوه يبني، فكان عونهم أسرع في إنجاز العمل وإنجاح المشروع، واستخدم المواد المناسبة لتقوية السد، من حديد وحرارة ونحاس، وهنا يتجلّى ظهور العمل المخلص، وهو أهم مقومات التوكل، ثم أقرّ ذو القرنين مرة أخرى بفضل الله عليه، وأن بقاء السد مرهون بإرادة الله، وأن المولى سيشاء أن يجعله دكاء في وقت يعلمه ويقدره سبحانه(٢).

سادسًا: مواجهة الشيطان وأعوانه:

يتوجب على المؤمن إخلاص التوكل على الله تعالى في مواجهة الشيطان وأعوانه، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٠].

فلولا التوكل على الله لن يكون للإنسان قدرة في مجابهة قوى الشر العظيمة التي يستخدمها الشيطان في إغواء العباد، ففي الآية الكريمة على لسان إبليس لعنه الله: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢-٨٣].

أي لأحسننّ لهم معاصيك، ولأحبّبنها إلى قلوبهم حتى يرتكبوها، ولأضلّنهم عن سبيل الرشاد إلا من أخلصته بتوفيقك فهديته، فإن ذلك ممن لا سلطان لي عليه ولا طاقة لي به(٣).

وكان الرد الإلهي المتحدي: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: ٦٣-٦٥].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٩٦، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤٣٠.
(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٦/ ٣٢.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ١٠٣.

فقد أمره الله تعالى أمر إهانة أن يبذل كل جهده وأن يقطع من يشاء عن الحق، وأن يستخدم كل صوت له ولأعوانه في الوسوسة والإبعاد عن الدين، وأمره أن اجمع في سبيل إغوائهم خيولك ورجالك التي تمشي في الإفساد، وشاركهم في أموالهم بأن تجعلهم ينفقونها على المعاصي واجعل من أولادهم بالزنا لك نصيب، أو سيطر على عقولهم فاجعلهم يهوّدون أبناءهم وينصّرونهم، ومنّهم بالأماني الكاذبة أن لا جنة ولا نار، وأنهم غير محاسبين على ما يفعلون، فعباد الله المؤمنون لن يغتروا بكذبك، فهم المخلصون في عبادتهم، والله كافيهم وعاصمهم من سيطرة إبليس عليهم وهو الحافظ لهم من كل سوء[1].

وعلى قدر هذا التحدي الكبير يجب أن يعمل المؤمن لحماية نفسه من سيطرة الشيطان وأعوانه، فهم لا يألون جهدًا في إسقاطنا في المعصية مهما صغرت أو كبرت.

ولنا في قصة نبي الله يوسف عليه السلام نموذج رائع في تحدي الشيطان وأعوانه، فبالرغم من تعرضه عليه السلام لضغوط شديدة من أجل الوقوع في الرذيلة، إلا أنه واجهها بقوة نابعة من إيمانه بالله تعالى، وأعانه على ذلك استعانته بالله تعالى وتوكله عليه حق التوكل.

قال تعالى مصورًا لنا تفاصيل القصة: ﴿وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [يوسف:٢٣-٢٥].

حتى قوله عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ [يوسف:٣٣-٣٤].

فقد عاش يوسف عليه السلام في كنف عزيز مصر، ويوسف معترف بفضله وفضل زوجه عليه، وقد تعرض لفتنة امرأة العزيز وهو في مرحلة النضج والشباب، ومن طلبت منه الفاحشة هي صاحبة الفضل عليه وهي متزينة متأهبة له، وقد أوصدت الأبواب وأخلت الأجواء لوقوع الجريمة، ورغم كل هذه العوامل التي اجتمعت على نبي الله المعصوم إلا أنه واجه تلك المحنة

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢٨٨.

بالتعفف الشديد عن الرذيلة[1].

ومن الأسباب التي أخذ بها يوسف عليه السلام في توكله على الله واستعانته به وحده على مواجهة الشيطان:

- استعاذته بالله تعالى عندما غلقت عليه الأبواب.
- استحضاره وتذكيره إياها بأن الإحسان لا يرد إلا بمثله.
- بذل الجهد واستباق الباب، وعدم القعود وانتظار إجباره على ارتكاب المعصية.
- الرضا بالمكوث في السجن ظلمًا على السقوط في الرذيلة، وهذا قمة الاجتهاد في البعد عن المعصية.
- اللجوء إلى الله تعالى والتوكل عليه والافتقار إليه وطلب العون والسند في مجابهة المحنة.

ولنا في هذه القصة القدوة الحسنة، فشبابنا وبناتنا الآن يتعرضون لمحن كثيرة تتعلق بالعفة، فنجدهم يستسلمون للشيطان ويسمحون له بأن يتحكم في عقولهم ويزين لهم المنكر، على أنه علاقة اعتيادية أو علاقة مبدئية لحصول الزواج، وكذلك يتدخل الشيطان في كل أمور حياتنا، فهو الذي يوسوس للسارق أن يستكثر من ماله، وللموظف ألا يؤدي ما عليه بأمانة، وللأبناء أن يتركوا بر آبائهم، وللآباء أن يقصروا في حق أبنائهم.

وليس للمؤمن للخروج من هذه الابتلاءات إلا أن يتوكل على الله تعالى، ويثق به في تصريف أموره، مع الأخذ بالأسباب المعينة على مواجهة الشيطان، ومن ذلك:

- إخلاص العمل لله تعالى، واستحضار عظمته ومراقبته عز وجل في كل الأوقات.
- الاستكثار من أعمال الخير واستغلال الوقت في ذلك؛ فهي معينة على سد مداخل الشيطان.
- الاستعاذة والدعاء والتزام الذكر وقراءة القرآن لتحصين النفس من الشيطان وأعوانه.
- الابتعاد عن أعوان الشيطان من السحرة والكهان والعرافين والقائلين بالأبراج الفلكية وما إلى ذلك.
- الاستعانة بالصحبة الصالحة المعينة على تقوى الله تعالى.

سابعًا: الإصلاح:

بذل أنبياء الله الكرام طاقاتهم القصوى من أجل إصلاح شؤون أقوامهم، وقد اعتمدوا في جهودهم الإصلاحية على توفيق الله تعالى ووكلوه أمورهم.

---

(١) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ١٠٨.

قال تعالى مصوّرًا قصة سيدنا شعيب عليه السلام مع قومه: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ۝٨٧ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ۝٨٨ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ۝٨٩ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ۝٩٠ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ۝٩١ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ۝٩٢ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ۝٩٣﴾ [هود: ٨٧-٩٣].

وقد كان من أهم الأمور التي دعا شعيب عليه السلام قومه إليها بجانب توحيد الله هو ترك التطفيف في الكيل والميزان، فقد اشتهر عنهم هذا السلوك المخالف لمبدإ العدل الذي دعا إليه الله تعالى على لسان جميع أنبيائه، ولا يخفى ما يتبع سلوك الظلم من فساد اجتماعي واقتصادي في المجتمع، واستنكر القوم على شعيب أن يدعوهم إلى ترك ما كان يعبده آباؤهم من أوثان، وكذلك ترك التطفيف في البيع والشراء، ولم يعجبهم ذلك، بل استهزؤوا به عليه السلام وبصلاته التي جعلته يقتنع بأفكار مخالفة لأفكارهم.

لكنه خاطبهم باللين والرفق، وبيّن لهم أن الله تعالى قد امتنّ عليه بالرسالة والهداية فأراد أن يهديهم إلى الحق كما هداه الله، وأنه لا يصح أن يخون الوحي، ويترك النهي عن الشرك والظلم، وأنه يريد أن ينصحهم بما نصح نفسه، وأنه لن ينهاهم عن الشيء ويأتيه، بل سيكون القدوة لهم، ووضّح أن غرضه في كل ما يفعل هو إصلاح عقيدتهم وشريعتهم وأمور مجتمعهم، ثم أعلن أن التوفيق الذي ينتظره هو من عند الله وحده وأنه عليه السلام متوكل على الله معتمد على قوته وحكمته وقدرته عز وجل في تيسير أمور دعوته، فالله تعالى هو خالقنا وإليه نعود[(١)].

وقد بيّن الله تعالى أثناء سرد القصة الأسباب التي اتخذها شعيب عليه السلام في توكله على الله، فلم يكتف عليه السلام على التوكل القلبي والإعلان القوليّ عن توكله، بل عمل من أجل الإصلاح الذي

---

(١) انظر: تفسير السمرقندي، ٢/ ١٦٥-١٦٦، محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ١٢٥.

أخبر قومه به، ومن اجتهاداته الإصلاحية ما يلي:

- تكرار الدعوة لقومه، والصبر على استهزائهم به وتهديدهم له بالرجم والقتل.
- كان قدوة حسنة لهم، ووعدهم ألا ينهاهم عن شيء ويأتيه.
- بيّن لهم حسن نيته وإرادته إصلاح شؤونهم الدنيوية والأخروية.
- حذّرهم أن يحملهم بغضه إلى الكفر بالله، وإيثاره إحقاق حق الله بغض النظر عن حقه.
- ذكّرهم بما حل بالأقوام السابقة وبالعذاب الذي أصابهم.
- جذبهم إلى التوبة باللين والرفق، وأمّلهم برحمة الله تعالى وودّه.
- أعلمهم بعظمة الله تعالى، وأنه الأحق بالخشية؛ فهو العالم بالظواهر والخفايا.
- توعّدهم بالعذاب المرتقب إن لم يؤمنوا بالله ويتركوا ما هم عليه.

هذا نبي الله الكريم الذي لم يقصّر في بذل الجهد لإصلاح عقيدة قومه وسلوكهم، وهكذا لا بد أن نكون، فنبذل ما نستطيع من أجل إعلاء كلمة الله تعالى، لا يمنعنا من ذلك خوفٌ من أي شيء؛ فالله تعالى وكيلنا، عليه نعتمد في كل أمر، وهو الذي وعد عباده المتوكلين المصلحين بالثواب.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الأعراف:١٧٠].

ثامنًا: إبرام العقود والمعاهدات:

أمر الله سبحانه وتعالى نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يتوكل عليه عز وجل في عهوده، لا سيما مع غير المؤمنين، فالله تعالى الخبير بصدقهم وكذبهم، وهو كافيه شرّهم وهو الذي لا يضر عباده المتوكلين مهما مكر بهم الماكرون.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ [الأنفال:٦٠-٦١].

وفي الآية أمر للمسلمين بالاستعداد لقتال الأعداء، واتخاذ ما من شأنه تقويتهم على الأعداء، من أدوات الرمي والسيوف والنبال والخيول وغيرها، حتى يخاف الكفار، والمنافقون وأهل الكتاب الذين لا يعرف المسلمين أشخاصهم، لكن الله هو العليم الخبير الذي يعرفهم، ثم أمر الله تعالى نبيه الكريم أن يجنح للسّلم إن هم جنحوا له ولجأوا إليه، وأن يعاهدهم

ويبرم معهم العقود على عدم التعدي على المسلمين أو المساس بهم.

وقد أمر رب العزة الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتوكل عليه في إبرام هذه المعاهدات وألا يخاف من إبطانهم الخداع والمكر، فإن الله هو العاصم لرسوله والمؤمنين من مكرهم، وهو الذي يحيقه بهم إن قصدوه، فجاء الأمر له عليه السلام بتفويض أمره إلى الله فيما عقده مع العدو ليكون عونًا له في جميع أحواله، فهو السميع لأقوالهم العليم بما في صدورهم من نيّات[1].

وفي موضع آخر، يقول الحق عز وجل: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۝٨٠ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٨١﴾ [النساء: ٨٠-٨١].

فقد بيّن الله تعالى أن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم هي طاعة الله عز وجل وذلك لأنه عليه السلام ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣-٤].

وأن من تولى عنك يا محمد فاتركه، فلا عليك منه، إن عليك إلا البلاغ، ثم يذكر رب العزة أن هناك من المنافقين وضعاف القلوب من يعاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة والقتال معه، ثم ما إن يخرجوا من عنده حتى يتسارّوا فيما بينهم على خلاف ذلك، والله تعالى يعلم ما يضمرونه من مكر لرسوله الكريم، ويقول لمحمد صلى الله عليه وسلم: اصفح عنهم واحلم عليهم ولا تؤاخذهم، ولا تكشف أمورهم للناس، ولا تخف منهم ومن مكرهم، وكفى بالله وليًّا وناصرًا ومعينًا لمن توكل عليه وأناب إليه، فالتوكل هو أساس الاطمئنان، وهو سمة الأنبياء الذين لطالما عاهدوا أقوامهم، ولم يقلقوا من كيد الأعداء فالله تعالى وكيلهم وسندهم وحاميهم وكافيهم شرور الكائدين[2].

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٦٥، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣٢٤.

(٢) انظر: مختصر تفسير ابن كثير، الصابوني ١/ ٤١٥.

ثمرات التوكل

للآداب الربانية آثار يشاء الله تعالى أن تظهر عاجلًا، فيرى المؤمن المتحلي بها أثرها في حياته وفي نظرة الناس إليه، ثم يكرمه الله بها في الآخرة فيعطيه جزاءه الأمثل، وللتوكل على الله تعالى ثمرات عاجلة وآجلة، نبيّنها كما يلي:

أولًا: ثمرات التوكل في الدنيا:

١ . محبة الله للمتوكلين.

تأكد في القرآن الكريم حب الله عز وجل للمتوكلين، تأمل قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

فقد دعا رب العزة نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم إلى مشاورة المؤمنين في أموره، ثم قال له: إذا اطمأنّ قلبك لما اخترت ففوّض أمرك إلى الله واعتمد عليه، وامض بجوارحك، فالله يحب المتوكلين، ومحبته تعالى هي أعظم محبة وهي التي تجلب النصرة والهداية والتوفيق[١].

يمتنّ الله تعالى على من يحب من عباده بأن يجعل له حبًّا في قلوب الناس.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ٩٦﴾ [مريم:٩٦].

والمعنى: إن الذين صدقوا الله ورسوله، وعملوا بما أمرهم من آداب وشيم- ومن أجلّ تلك الآداب التوكل- سيوقع الله محبتهم وألفتهم في صدور عباده[٢].

وذكر أن الله تعالى سيحدث لهم في القلوب مودة من غير تودد منهم، يحبهم الناس، ويتحابون فيما بينهم، ويحبهم اللّه تعالى ويرضى عنهم[٣].

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**إن الله تبارك وتعالى إذا أحب عبدًا نادى جبريل: إن الله قد أحبّ فلانًا فأحبّه، فيحبه جبريل ثم ينادي جبريل في السماء: إن الله قد أحبّ فلانًا فأحبّوه، فيحبه أهل السماء ويوضع له القبول في أهل الأرض**)[٤].

٢ . كفاية الله للمتوكلين.

وعد الله عز وجل عباده المتوكلين عليه بالكفاية.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].

فقد قضى الله عز وجل على نفسه كفاية

---

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ١٢٣، السراج المنير، الخطيب الشربيني ١/ ٢٦٠.

(٢) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٧/ ٤٦٠٠.

(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٦/ ١٦٩.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع جبريل ونداء الله الملائكة ٩/ ١٤٢، رقم ٧٤٨٥.

المتوكلين، فهو سبحانه الذي يكفيهم ما أهمّهم في دينهم ودنياهم، وهو الضامن لهم الرزق، الحافظ له من كل ما يخشون[1].

قال الربيع بن خثيم يبيّن معنى ﴿فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾: «من كل ما ضاق على الناس»[2].

وقد دعا المؤمنون الله تعالى باسمه الوكيل كي يحميهم ويمنع عنهم كيد الكائدين.

عن ابن عباس رضي الله عنه: (حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣])[3].

أي: الله ربنا، وهو كافينا كل ما أهمنا وهو المفوض إليه تدبير عباده، والقائم بمصالحهم[4].

٣. النجاة من الخذلان.

النصر والنجاة من الخذلان هي مكافأة الله تعالى للمتوكلين عليه.

قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران: ١٦٠].

فنصر الله تعالى هو النصر الحقيقي، وخذلانه للعبد بتركه نصرته ومساندته هو الخذلان الحقيقي، فمهما بلغت مناصرة البشر فهي ليست بشيء أمام مناصرة رب البشر، ومن ناصره الله فلن يضره خذلان الخاذلين، ولن يضيره تقاعس المتقاعسين، قال ابن القيم: «هو حسب من توكل عليه، وكافي من لجأ إليه، وهو الذي يؤمّن الخائف ويجير المستجير، فمن تولاه واستنصر به وتوكل عليه وانقطع بكليّته إليه؛ تولاه وحفظه وحرسه وصانه، ومن خافه واتقاه أمّنه مما يخاف ويحذر، وجلب إليه ما يحتاج إليه من المنافع»[5].

٤. النجاة من كيد الشيطان.

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: ٦٤-٦٥].

فقد تحدى الله تعالى الشيطان أن يبذل كل جهده وأن يقطع من يشاء عن الحق، وأن يستخدم كل صوت له ولأعوانه في

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٩/ ٣٣٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه معلقًا، كتاب الرقاق، باب (ومن يتوكل على الله فهو حسبه)، ٨/ ٩٩.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم)، ٦/ ٣٩، رقم ٤٥٦٣.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٥٧.
(٥) بدائع الفوائد ٢/ ٢٣٧.

الوسوسة والإبعاد عن الدين، وأن يبذل في سبيل ذلك كل الوسائل المادية المتاحة له، ووعد عز وجل عباده ألا يجعل للشيطان سلطانًا عليهم، وأنه تعالى سيكفيهم ويعصمهم من إغوائه وكيده[1]، وهو تعالى القائل في محكم كتابه: ﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة: ١٠].

فالمؤمن لا يضره التآمر من أي كائن كان؛ لأن الله تعالى حافظه، يقول سيد قطب: «فهو الحارس الحامي، وهو القوي العزيز، وهو العليم الخبير، وهو الشاهد الحاضر الذي لا يغيب، ولا يكون في الكون إلا ما يريد، وقد وعد بحراسة المؤمنين، فأي طمأنينة بعد هذا وأي يقين؟»[2].

٥. النجاة من الكربات.

ومن النماذج التي تبيّن نجاة المؤمنين المتوكلين بفضل الله تعالى قصة أصحاب الكهف، فقد فرّوا من ملكهم وقومهم الكافرين ولجأوا إلى حماية الله تعالى.

قال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾ [الكهف: ١٠-١١].

فقد أوى أولئك الفتية إلى الكهف خائفين لعلّهم يستترون عن الأنظار فلا يراهم أحد من قومهم، وهذا أخذٌ بالأسباب، فلم يكتفوا بالدعاء والمكوث بين الظلمة، بل تركوا المكان، وذادوا بدينهم إلى مكان أمين، ثم فوّضوا أمرهم إلى ربهم، فضرب الله على آذانهم حجابًا يمنعهم من سماع الأصوات والحركات، فناموا في كهفهم ثلاثمائة وتسع سنين، وكانوا يتقلبون بلطف الله وتدبيره من جنب إلى جنب، حتى بعثهم من نومهم وكانت قريتهم وقتئذٍ قد آمنت ولم يعد فيها ملكٌ ظالم، وهذا تفريج الله تعالى لكربتهم واستجابته لتضرعهم[3].

وقد بيّن سيد قطب أن قلوب هؤلاء الفتية مؤمنة ثابتة راسخة، متوكلة مطمئنة إلى الحق الذي عرفت، معتزة بالإيمان الذي اختارت، وقد استحقت بذلك رحمة الله تعالى[4].

ومن أروع الأمثلة على تفريج الكربات، ما حدث أثناء هجرة محمد صلى الله عليه وسلم وأبي بكر الصديق رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢٨٨.
(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥١٠.
(٣) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٣/ ٢٣٨.
(٤) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٦١.

﴿بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)﴾ [التوبة:٤٠].

فقد خرج رسولنا صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بعد إيذاء المشركين وتآمرهم على قتله، وليس لديه قوة تكفي لمقاومتهم ومدافعتهم، والعرب كلهم ضده، وكان معه صاحبه أبو بكرٍ رضي الله عنه، فكان المقام مقام أدب التوكل الكامل[١].

وقد لجأ إلى الغار، فأقاما فيه ثلاثة أيام ليسكن الطلب عنهما، وذلك لأن المشركين حين فقدوهما ذهبوا في طلبهما كل مذهب من سائر الجهات، وجعلوا لمن ردهما أو أحدهما مائة من الإبل، واقتصوا آثارهما حتى اختلط عليهم، واحتاروا في مكانهما، فصعدوا الجبل الذي هما فيه، وجعلوا يمرون على باب الغار، فتحاذي أرجلهم باب الغار ولا يرونهما، حفظًا من الله لهما[٢].

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متأدبًا بالثقة في نصر الله، فنصره الله وأعلى قدره، ومكّن دينه في سائر أنحاء الأرض، والله عزيزٌ في انتقامه وانتصاره، منيع الجناب، لا يضام من لاذ ببابه واحتمى بالتمسك بخطابه، حكيمٌ في أقواله وأفعاله[٣].

ثانيًا: ثمرات التوكل في الآخرة:

١ . النجاة من العذاب.

النجاة من العذاب هي مطلب كل مؤمن، وهي الحق الذي وعد الله به عباده المخلصين.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)﴾ [يونس:١٠٣].

فالمؤمن المتّبع لرسل الله عليهم السلام، المخلص المتقي الشاكر المتوكل يستحق الرحمة من العذاب[٤].

ويذكر السعدي أن تلك النجاة تثبت للمؤمنين في الدنيا والآخرة على السواء، وهذا من قبيل دفاع الله تعالى عن المؤمنين الذي ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج:٣٨].

وأوضح أنه على قدر ما يتحلى المرء بالآداب، تحصل له النجاة من المكاره[٥].

ومن نماذج نجاة المؤمنين من العذاب، نجاة سيدنا هود ومن آمن معه.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨)﴾ [هود:٥٨].

---

(١) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٤/ ١٧٥.
(٢) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ٣/ ٢٢٣.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٥٥.
(٤) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢١٤.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن ١/ ٤٨٨.

وذكر ابن عجيبة أن ذكر النجاة تكرر في هذه الآية مرتين؛ لأن الله تعالى عنى بالأولى تنجيتهم من عذاب ريح السموم الذي أصاب قومهم، والتنجية الأخرى من العذاب الغليظ، قصد بها نجاتهم من النار يوم القيامة[(١)].

وذكر الله تعالى نجاة قوم صالح عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾ [هود:٦٦].

وذكر القشيري أن رب العزة قد أجرى على المكذبين ما توعدهم به من عذاب غير مكذوب، ونجّى نبيّهم المتوكل عليه السلام، ونجّى من اتّبعه من كل عقوبة في الدنيا والآخرة، سنّةً منه سبحانه في تنجية أوليائه أمضاها، وعادةً في تلطفه ورحمته بالمستحقين أجراها[(٢)].

٢. دخول الجنة.

الجنة هي أسمى غايات المؤمن، وأرجى آماله، وغاية عمله وعبادته.

قال تعالى واعدًا عباده المتوكلين الصابرين بالخلود في النعيم المقيم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [العنكبوت:٥٨-٥٩].

فهذا وعد الله تعالى للمؤمنين المتوكلين بإسكانهم منازل عالية في الجنة، تجري من تحت أشجارها الأنهار، على اختلاف أصنافها، من ماء وخمر وعسل ولبن، ماكثين فيها أبدًا، لا يبغون عنها حولًا، جزاءً لهم على أعمالهم، وأنعم به من جزاء![(٣)].

قال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى:٣٦].

حيث يكون ثواب الله نعيمًا لا يفنى، ورزقًا لا ينفد، وهذا الجزاء للذين آمنوا، وتوكلوا على ربهم، وأسلموا أمرهم له، فثواب الله خيرٌ في طبيعته، أبقى في مدته من أي ثواب[(٤)].

وفي الحديث عن ابن عباس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا بغير حساب؛ هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون)**[(٥)].

موضوعات ذات صلة:

الألوهية، الإيمان، التوحيد، العبادة

(١) انظر: البحر المديد ٣/ ٣٠٤.
(٢) انظر: لطائف الإشارات ٢/ ١٤٥.
(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢١/ ٢٥.
(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٧٠٥.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب (ومن يتوكل على الله فهو حسبه)، ٨/ ١٠٠، رقم٦٤٧٢.





عناصر الموضوع



مفهوم الثبات

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (ثبت) تدل على دوام الشيء، ويقال: ثبت ثباتًا وثبوتًا[1]، والثبات ضد الزوال[2]، وجاءت بمعنى دام واستقر[3]. ويقصد بالثبات الإقامة في المكان، فيقال: ثبت فلان في المكان: إذا أقام به[4].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف معناه الاصطلاحي عن المعنى اللغوي الدالة على لزوم المكان دون تحرّك ولا تزلزل، ويستعار للدوام على الشيء، وعدم التردد فيه[5].

والمراد به في هذا البحث: الثبات على الدين والحق، وعدم التحول والانحراف عنه.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٣٩٩.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٧٨.
(٣) انظر: المصباح المنير، الفيومي ١/ ٨٠.
(٤) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٤/ ٤٧٢، لسان العرب، ابن منظور ٢/ ١٩.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٣٠.



الثبات في الاستعمال القرآني:

وردت مادة (ثبت) في القرآن الكريم (٨٧) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء:٧٤]
الفعل المضارع	٧	﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧]
فعل الأمر	٤	﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال:١٢]
المصدر	٣	﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ [النساء:٦٦]
اسم الفاعل	٢	﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ [إبراهيم:٢٤]

وقد استعمل الثبات في القرآن الكريم في الثبات الحسي والمعنوي.

فأما المعنوي: فنحو قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال:١٢].

وأما الثبات الحسي، فنحو قوله تعالى: : ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال:١١]، أي: يشتد الرمل حتى تثبت أقدامهم.

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ١٥٨-١٥٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الصبر:

الصبر لغة:

الحبس، صبر عنه يصبره: حبسه، والصبر في المصيبة، وأما في المحاربة فهو شجاعة، وفي إمساك النفس عن الفضول قناعة وعفة، والصّبر نقيض الجزع[(١)].

الصبر اصطلاحًا:

حبس النفس عند الجزع[(٢)].

الصلة بين الثبات والصبر:

الثبات هو التمسك والالتزام عن طواعية ورضًى، وقد يكون بمبادرة ذاتية من الشخص، أما الصبر فهو إلزام النفس الهجوم على المكاره، وتمسّك ورضًى بأمر الله، وتلقي بلائه بالرحب والسعة، فقد يأتي الأمر رغمًا عن الشخص، فيصبر ويثبت على أمر الله تعالى[(٣)].

٢ الفرار:

الفرار لغة:

(فر) الفاء والراء، أصول ثلاثة: فالأول: الانكشاف وما يقاربه من الكشف عن الشّيء. والثاني: جنسٌ من الحيوان. والثالث: دالٌّ على خفّة وطيش[(٤)]. الفرّ والفرار بالكسر: الهرب[(٥)].

الفرار اصطلاحًا:

الهرب، والجد في الذهاب مذعورًا[(٦)].

الصلة بين الثبات والفرار:

الثبات اللزوم في المكان والإقامة فيه، أما الفرار فهو المغادرة وعدم الاستقرار، وكذلك الثبات فيه طمأنينة واستقرار وأمن، أما الفرار ففيه الخوف والذعر.

---

(١) انظر: الكليات، الكفوي ١/ ٨٨٤، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٤٣٧.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ١/ ٢٧٣، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٤٣٧.
(٣) انظر: تاج لعروس، الزبيدي ١٢/ ٢٧٣.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٤٣٩.
(٥) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ١/ ٥٨٦.
(٦) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٧٨٣.



٣ المكث:

المكث لغة:

المكث: الأناة واللّبث والانتظار، مكث يمكث، ومكث مكثًا ومكثًا ومكوثًا ومكاثًا ومكاثةً[١].

المكث اصطلاحًا:

ثباتٌ مع انتظار طويل[٢].

الصلة بين الثبات والمكث:

المكث فيه البقاء في المكان وملازمته زمنًا، أما الثبات فهو لزوم دائم على الشيء، ولزوم دائم في المكان حتى انقضاء الغاية منه.

٤ الرسوخ:

الرسوخ لغة:

رسخ الشيء يرسخ رسوخًا: ثبت في موضعه، وأرسخه هو، والراسخ في العلم الذي دخل فيه دخولًا ثابتًا، وكل ثابت راسخ[٣].

الرسوخ اصطلاحًا:

الثبات والتمكّن. والراسخ في العلم: المتحقّق الذي لا يعترضه شبهة[٤].

الصلة بين الرسوخ والثبات:

أن الرسوخ كمال الثبات، فيقال للشيء المستقر على الأرض: ثابت، وإن لم يتعلق بها تعلقًا شديدًا، ولا يقال: راسخ. ولا يقال: حائط راسخ؛ لأن الجبل أكمل ثباتًا من الحائط، قال الله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧]، أي: الثابتون فيه، ويقولون: هو أرسخهم في المكرمات، أي: أكملهم ثباتًا فيها[٥].

(١) انظر: المصدر السابق ٢/ ١٩١.
(٢) انظر: التوقيف، المناوي ١/ ٦٧٣.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٨.
(٤) انظر: التوقيف، المناوي ١/ ٣٦٤.
(٥) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ١/ ٢٥٥.

٥ الرسوّ:

الرسوّ لغة:

أصل مادة (رسا) تدلّ على الثبات. تقول: رسا الشّيء يرسو، إذا ثبت. والله جلّ ثناؤه أرسى الجبال، أي: أثبتها. وجبلٌ راسٍ: ثابتٌ. ورست أقدامهم في الحرب. ويقال: ألقت السّحابة مراسيها، إذا دامت[(١)].

الرسوّ اصطلاحًا:

الثبات والتمكن في المكان[(٢)].

الصلة بين الرسوّ والثبات:

أما الرسوّ فلا يستعمل إلا في الشيء الثقيل، نحو الجبل وما شاكله من الأجسام الكبيرة؛ يقال: جبل راسٍ، ولا يقال: حائط راسٍ، ولا عود راسٍ وفي القرآن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾[هود: ٤١].

شبهها بالجبل لعظمها، فالرسوّ هو الثبات مع العظم والثقل والعلو، فإن استعمل في غير ذلك فعلى التشبيه والمقاربة، نحو قولهم: أرست العود في الأرض[(٣)]؛ أما الثبات: فهو يستعمل للأشياء الثقيلة والخفيفة، وكذلك لا يكون إلا لمكلف.

العلاقة بين الثبات والصبر: العلاقة بينهما علاقة تلازم، فلا ثبات دون صبر، فهو من مقومات الثبات.

العلاقة بين الثبات والمكث: يشتركان في المعنى، فكلاهما ثبات وانتظار فيه صبر.

العلاقة بين الثبات والرسوخ: الثبات تواجد في المكان، وإقامة فيه مع حرية الحركة، أما الرسوخ فهو ثبات واستقرار دون تحرك.

العلاقة بين الثبات والمور: الثبات فيه استقرار وطمأنينة، أما المور فيه الاضطراب وعدم الاستقرار.

العلاقة بين الثبات والفرار: هما نقيضان.

العلاقة بين الثبات والرسوّ: كلاهما بمعنى واحد، وهو التمكّن في المكان.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٣٢٤.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ١٢١.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ١/ ٢٥٥- ٢٥٦.



علاقة الثبات بالصبر والنصر

المتأمل والمتدبر لكتاب الله تعالى يجد التلازم بين هذه المفردات القرآنية؛ لما لهذه المفردات من أثر في اعتماد بعضها على بعض، فالثبات بحاجة إلى صبر، وكذلك النصر بحاجة إلى صبر، فالصبر عامل مشترك بين النصر والثبات، والثبات والصبر نتيجتهما النصر.

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

وردت لفظة الثبات في هاتين الآيتين الكريمتين في سياق الصبر والنصر والدعاء، فالنصر نتيجة طبيعية للثبات والصبر بعد التوكّل على الله واللجوء إليه بالدعاء.

يقول صاحب الظلال رحمه الله تعالى: «﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ وهو تعبير يصوّر مشهد الصبر فيضًا من الله يفرغه عليهم فيغمرهم، وينسكب عليهم سكينة وطمأنينة، واحتمالًا للهول والمشقة.

﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾، فهي في يده سبحانه يثبتها، فلا تتزحزح ولا تتزلزل ولا تميد.

﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، فقد وضح الموقف، إيمان تجاه كفر، وحق إزاء باطل، ودعوة إلى الله؛ لينصر أولياءه المؤمنين على أعدائه الكافرين، فلا تلجلج في الضمير، ولا غبش في التصوّر، ولا شك في سلامة القصد ووضوح الطريق. وكانت النتيجة هي التي ترقبوها واستيقنوها: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾»[(١)].

وعندما نتأمل كلمة: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾، تفيدنا أنهم طلبوا أن يملأ الله قلوبهم بالصبر، ويكون أثر الصبر تثبيت الأقدام ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾؛ حتى يواجهوا العدو بالإيمان، وعند نهاية الصبر، وتثبيت الأقدام، يأتي نصر الله للمؤمنين على الكافرين، وتأتي النتيجة للعزم الإيماني في قوله الحق: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[(٢)].

العلاقة هنا دعاء وطلب من الله أن يملأ القلوب بالصبر، فينتج عن الصبر تثبيت الأقدام، وتكون النتيجة النصر وهزيمة الكافرين.

---

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٢٦٩.
(٢) انظر: تفسير الشعراوي، ٢/ ١٠٧٠.

مواطن الثبات

إن الناظر في القرآن الكريم يجد أن هناك مواطن يكون فيها الثبات، وهي متعددة في كتاب الله تعالى؛ لنوطن أنفسنا، ونثبت الأقدام، وهي على عدة مطالب على النحو الآتي:

أولًا: القتال:

لقد تعددت الآيات التي تتحدث عن القتال في كتاب الله تعالى، ولكننا نقف عند آيات القتال التي لها علاقة بالثبات، ولقد ذكر الثبات في مواطن القتال في مواضع متعددة.

منها: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

﴿فَٱثۡبُتُواْ﴾، أمر بالثبات عند قتال الكفار، و﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾؛ فإنّ ذكره يعين على الثبات في الشدائد[1]، والثبات في هذه الآية جاء في سياق الشرط ﴿إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ﴾، وكأنّ في ذلك إشارة من الله تعالى أنه يجب الاستعداد والأخذ بالأسباب التي تؤدّي إلى وجود التكافؤ بين المسلمين وأعدائهم.

ولا بد أن يكون الإعداد على قدر الاستطاعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠]؛ لأن الاستعداد والأخذ بالأسباب من عوامل الثبات.

ومنها: قوله تعالى: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾ [الأنفال: ١٢].

يقول الطبري: قوّوا عزمهم، وصحّحوا في قتال عدوهم من المشركين، وقد قيل: إن تثبيت الملائكة المؤمنين كان حضورهم حربهم معهم[2].

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

أي: أنزل علينا صبرًا من عندك، ﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾، أي: في لقاء الأعداء، وجنبنا الفرار والعجز[3].

وتبين هذه الآية أن من عوامل الثبات في القتال، أن يتوجه المسلم بالدعاء والطلب

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٢٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٤٢٨.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٦٦٩.

من الله تعالى بأن يفرغ عليه صبرًا، وأن يثبت أقدامه في القتال، وهذا ما طلبته الفئة القليلة، ودعت به عند قتالها ولقائها جالوت وجنوده.

ومنها: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧].

ذكر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن المؤمنين إن نصروا ربهم نصرهم على أعدائهم، وثبّت أقدامهم، أي: عصمهم من الفرار والهزيمة[(١)].

ولو تأملنا هذه الآية لوجدناها جاءت في سياق الشرط، وذلك أن نصر الله محقق للمؤمنين، ولكن بشرط، وهو: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾، ويتحقق مع النصر تثبيت أقدام المؤمنين.

ثانيًا: الفتنة والابتلاء:

وقد ذكر الثبات عند الفتن في مواضع متعددة.

منها: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

هذا دعاء في موطن صعب، وهو موطن بوارق السيوف والقتال، وفيه فتنة وابتلاء؛ يسأل فيه العبد ربّه الثبات؛ حتى لا يكون التولّي من الزحف، «ويفيدنا أنهم طلبوا أن يملأ الله قلوبهم بالصبر، ويكون أثر الصبر تثبيت الأقدام؛ حتى يواجهوا العدو بإيمان»[(٢)].

ومنها: قوله تعالى: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢].

جاءت هذه الآية ردًّا وجوابًا على زعم الكافرين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ١٠١].

أي: قل -يا محمد- للقائلين لك أنت مفترٍ فيما تتلو عليهم من كتابنا...، وقوله: ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، قل: نزل هذا القرآن ناسخه ومنسوخه روح القدس من ربي؛ تثبيتًا للمؤمنين، وتقويةً لإيمانهم[(٣)].

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٦].

تفيد الآيات أن صبرهم أكمل الصبر؛ إذ هو صبر مقترن ببصيرة في أمر الله تعالى، إذ

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ١٤/ ٥٠.

(٢) انظر: تفسير الشعراوي، ١/ ٦٦٨.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٩٧.

يعلمون عند المصيبة أنهم ملك لله تعالى يتصرف فيهم كيف يشاء، فلا يجزعون مما يأتيهم، ويعلمون أنهم صائرون إليه، فيثيبهم على ذلك[1].

والصبر هنا يوحي بمعنى الثبات على أنواع متعددة من الابتلاءات التي قدرها الله تعالى على الناس.

ثالثًا: عند الموت والقبر:

أضعف ما يكون المسلم أمام ربه وخالقه عندما يخرج من الدنيا بالموت ليجد القبر وأهواله، والقبر أول منازل الآخرة؛ لذا يحتاج إلى التثبيت والتأييد من ربه وخالقه الرحيم بعباده.

يقول تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

روى الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن البراء بن عازب: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (المسلم إذا سئل في القبر، يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾)[2].

وروى الإمام مسلم رحمه الله تعالى: عن البراء بن عازب: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قال: نزلت في عذاب القبر، فيقال: من ربك؟ فيقول: ربي الله، ونبيّي محمد صلى الله عليه وسلم، فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾)[3].

ومعنى تثبيت الله الذين آمنوا بها: أن الله يسّر لهم فيهم الأقوال الإلهية على وجهها وإدراك دلائلها، حتى اطمأنت إليها قلوبهم ولم يخامرهم فيها شك، فأصبحوا ثابتين في إيمانهم غير مزعزعين، وعاملين بها غير مترددين.

وذلك في الحياة الدنيا ظاهر، وأما في الآخرة فبإلفائهم الأحوال على نحوٍ مما علموه في الدنيا، فلم تعترهم ندامةٌ ولا لهفٌ، ويكون ذلك بمظاهر كثيرة يظهر فيها ثباتهم بالحق قولًا وانسياقًا، وتظهر فيها فتنة غير المؤمنين في الأحوال كلها[4].

والتثبيت هنا من الله عز وجل، وهو ليس وليد اللحظة، إنما كان هذا الثبات بتوفيق الله، ثم باتباع أوامره، والتمسّك بنهجه وشرعه، والكلمة الطيبة التي ذكرت قبل هذه

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٥٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب تثبيت الله الذين آمنوا، ٦/ ٨٠، رقم ٤٦٩٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة الجنة ونعيمها، باب عرض مقعد الميت من الجنة والنار، وباب عذاب القبر والتعوّذ منه ٣/ ١١٠٠، رقم ٢٨٧١.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٢٢٦.

الآية، وهو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

أسباب الثبات المحمود

الثبات المحمود: هو فضل وكرمٌ من الله تعالى على عباده، وحتى يتحصّل هذا الأمر لا بدّ من الأخذ بالأسباب لحدوثه، وهناك أسباب عديدة تحقق الثبات المحمود، ومنها:

أولًا: الإيمان بالله تعالى:

مثاله قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

تبين هذه الآية أن الإيمان من عوامل الثبات في الحياة الدنيا والآخرة؛ لأن الإيمان إذا رسخ وثبت في قلب العبد، وكان تعامله مع ربه، ونفسه، والناس نابع من إيمانه بالله تعالى كان ذلك ثباتًا له على الحق، وكانت ثمرته الثبات في الآخرة عند دخوله القبر، وسؤال الملكين العظيمين له، وقد بيّنّا -فيما سبق- أن ثبات المؤمن في الحياة الدنيا والآخرة هو ثباته وإيمانه بكلمة التوحيد، لا إله إلا الله محمد رسول الله، وثباته في القبر الإجابة على سؤال الملكين: من ربك؟ ما دينك؟ ومن نبيك؟[١].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب تثبيت الله الذين آمنوا ٦/ ٨٠، رقم ٤٦٩٩، ومسلم في صحيحه، كتاب صفة الجنة، باب عرض مقعد الميت من

وما دام المؤمن قد ثبت قلبه بالإيمان وبالقول الثابت، فهو لا يتعرّض لزيغ القلب، ولا يتزعزع عن الحق[1].

والثبات يكون بتثبيت الله للذين آمنوا في الحياة الدنيا، وفي الآخرة بكلمة الإيمان المستقرة في الضمائر، الثابتة في الفطر، المثمرة بالعمل الصالح المتجدد الباقي في الحياة، ويثبتهم بكلمات القرآن وكلمات الرسول، وبوعده للحق بالنصر في الدنيا، والفوز في الآخرة، وكلها كلمات ثابتة، صادقة، حقّةٌ، لا تتخلّف ولا تتفرق بها السبل، ولا يمس أصحابها قلق ولا حيرة ولا اضطراب[2].

يقول السعدي في تفسيره: «يخبر تعالى أنه يثبت عباده المؤمنين، أي: الذين قاموا بما عليهم من إيمان القلب التام، الذي يستلزم أعمال الجوارح ويثمرها، فيثبتهم الله في الحياة الدنيا عند ورود الشبهات بالهداية إلى اليقين، وعند عروض الشهوات بالإرادة الجازمة على تقديم ما يحبه الله على هوى النفس ومراداتها، وفي الآخرة عند الموت بالثبات على الدين الإسلامي والخاتمة الحسنة، وفي القبر عند سؤال الملكين للجواب الصحيح، إذا قيل للميت: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ هداهم للجواب الصحيح بأن يقول المؤمن: الله ربي، والإسلام ديني، ومحمد نبيّي»[3].

مما سبق يتبين أن الإيمان بالله تعالى له ثمرة ونتيجة يعيش المسلم ويتوجه بالدعاء إلى الله تعالى من أجلها، وهو الثبات في الدنيا والآخرة.

ثانيًا: الدعاء:

كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر من الدعاء بالثبات، فعن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول: **(يا مقلب القلوب، ثبّت قلبي على دينك) فقلت: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: (نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبهما كما يشاء)**[4].

فهذا دعاء من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالثبات، حريّ بنا أن نكثر منه وخاصة في أوقات الشدة كالقتال، وفي أي وقت، وهذا التوجه -وهو الدعاء- من أسباب الثبات المحمود، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[آل عمران: ١٤٧].

الجنة والنار، وباب عذاب القبر والتعوذ منه ٣/ ١١٠٠، رقم ٢٨٧١.

(١) انظر: تفسير الشعراوي، ٨/ ٤٦٧٧.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٠٩٩.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ٤٢٥.

(٤) سبق تخريجه.

إن فطرة الإنسان أن يتوجه إلى خالقه بالدعاء في حالة الكرب والشدة، ويجأر بالدعاء أكثر حين يكون الأمر فوق طاقته، وهذا ما فعلته الفئة المؤمنة حينما توجهت إلى ربها قائلة: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[البقرة: ٢٥٠].

وقوله تعالى: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ هذه هي الشحنة الإيمانية لمن يريد أن يواجه عدوه، فهو ينادي قائلًا: ﴿رَبَّنَا﴾، إنه لم يقل: يا الله، بل يقول: ﴿رَبَّنَا﴾؛ لأن الرب هو الذي يتولى التربية والعطاء، بينما مطلوب (الله) هو العبودية والتكاليف؛ لذلك ينادي المؤمن ربه في الموقف الصعب: «يا ربنا»، أي: يا من خلقتنا وتتولانا وتمدّنا بالأسباب، قال المؤمنون مع جالوت: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾.

وعندما نتأمل كلمة: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ تفيدنا أنهم طلبوا أن يملأ الله قلوبهم بالصبر ويكون أثر الصبر تثبيت الأقدام ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾؛ حتى يواجهوا العدو بإيمان، وعند نهاية الصبر وتثبيت الأقدام يأتي نصر الله للمؤمنين على القوم الكافرين.

وتأتي النتيجة للعزم الإيماني والقتال في قوله الحق: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥١][1].

فالدعاء في وقت الشدة وفي أثناء المعركة مفيد ومحقق للغاية؛ لأن الدعاء آية الإيمان والعون على الثبات[2].

والمتأمل في هذه الدعوات الثلاث في الآية السابقة يراها قد جمعت أسمى ألوان الأدب وحسن الترتيب، فهم قد صدّروا دعاءهم بالتوسل بوصف الربوبية فقالوا: ﴿رَبَّنَا﴾، أي: يا خالقنا، يا منشئنا، يا مربّينا، يا مميتنا، وفي ذلك إشعار أنهم يلجئون إلى من بيده وحده النفع والضر، والنصر والهزيمة، ثم افتتحوا دعاءهم بطلب الصبر عند المخاوف؛ لأنه هو عدة القتال الأولى، وركنه الأعلى؛ إذ به يكون ضبط النفس فلا تفزع، وبه يسكن القلب فلا يجزع، ثم التمسوا منه سبحانه أن يثبت أقدامهم عند اللقاء؛ لأن هذا الثبات هو مظهر الصبر، ووسيلة النصر، وعنوان القوة، ثم ختموا دعاءهم بما هو ثمرة ونتيجة للصبر والثبات، وهو النصر على الأعداء.

فماذا كانت نتيجة هذا الدعاء الخاشع الخالص؟ كانت نتيجته النصر المؤزّر الذي حكاه القرآن في قوله: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[3].

(١) انظر: تفسير الشعراوي ٢/ ٦٨٨.
(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢/ ٤٣٥.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ٤٥٩.

ثالثًا: عون الملائكة:

تبين لنا كثيرٌ من الآيات أن الله قد تكفّل المؤمنين في رعايته ومعيّته، وأيّدهم بالملائكة في غزواتهم؛ وما كانوا ليظفروا بهذا الكرم الإلهي إلا لاتصافهم بالإيمان، فاستحقوا معيّة الله، ومشاركة الملائكة لهم في القتال؛ لذا كان التثبيت لهم في المعركة وأرض القتال، وذلك أن الله تعالى أوحى إلى الملائكة أني معكم بالعون والنصر والتأييد، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

والمعنى: بأني معكم، أي: بالنصر والمعونة، ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، أي: بشّروهم بالنصر أو القتال معهم، أو الحضور معهم من غير قتال، فكان الملك يسير أمام الصف في صورة الرجل، ويقول: سيروا فإن الله ناصركم[1].

ومن ذلك أن اللّه أوحى إلى الملائكة ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ بالعون والنصر والتأييد، ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾أي: ألقوا في قلوبهم، وألهموهم الجراءة على عدوهم، ورغّبوهم في الجهاد وفضله[2].

وتثبيت الّذين آمنوا بالإعانة والتبشير، وقيل: إن الملائكة كانوا يتشبهون بصور رجال من معارف المؤمنين، وكانوا يمدّونهم بالنصر والفتح والظفر[3].

مما سبق يتبين أن الملائكة كانت تأتي المسلمين بصورة رجال؛ وهي صورة مألوفة حتى يظن المسلمون أنهم منهم، فتقوي عزمهم، وتمدّهم وتبشرهم بالنصر، فتزيد من قوة المؤمنين، وكل ذلك من عوامل الثبات في المعركة.

رابعًا: الاعتبار بقصص السابقين:

إن ذكر القصص في القرآن الكريم، وأخبار الأمم السابقة يجعل الفؤاد ثابتًا على الحق؛ لأنه جاء تسلية وتصبيرًا لهم.

يقول تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[هود: ١٢٠].

أي: ما نجعل به فؤادك مثبّتًا بزيادة يقينه بما قصصناه عليك، ووفور طمأنينته؛ لأن تكاثر الأدلة أثبت للقلب، وأرسخ في النفس، وأقوى للعلم[4].

وبذكر قصص السابقين يسكن الفؤاد في

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣٧٨.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣١٦.

(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٩/ ٢٦٢-٢٦٩.

(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٦٦٢.

موضعه، ويطمئن ويزداد يقينه، فلا يضيق الصدر من قولهم.

ولقد قصّ علينا القرآن الكريم بعض نماذج الثبات، ومن تلك النماذج:

١ . ثبات نبي الله نوح عليه السلام.

لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، دعا إلى الله تعالى، وثبت، وما آمن معه إلا قليل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

رسول الله إبراهيم عليه السلام: دعا إلى عبادة الله وهجر عبادة الأصنام، فكذبه قومه وعادوه، حتى إنهم جمعوا الحطب، وأشعلوا نارًا عظيمة؛ وألقوه فيها ليحرقوه، ولكنه ثبت، وتوكّل على الله، فحفظه من النار.

قال تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ۝ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٨ - ٦٩].

٢ . ثبات نبي الله موسى عليه السلام.

ثبت في دعوته لفرعون، وصبر على قومه في كثير من المواقف.

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٥٣].

وهناك العديد من الآيات التي تبين ثبات الرسل على الحق، وصبرها على أقوامها[١].

٣ . ثبات أهل الكهف.

وذلك حين ثبتوا على عقيدتهم وفرّوا بدينهم إلى الكهف، قال تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٦].

٤ . ثبات أهل الأخدود.

وما أعظمه من ثبات! حين يثبت الإنسان على الحق وهو يعلم أنه إذا لم يتراجع عن دينه سيلقى في النار، ذلك حين حفر لهم أخدود، واشتعل نارًا عظيمة يلقى فيه كل من آمن برب الغلام.

قال تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٣/ ٥٩١.

﴿يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٤ - ٨].

خامسًا: تدبر القرآن الكريم:

أنزل الله القرآن الكريم بما فيه من الخير والرحمة، ومن العبر والعظات؛ ليخرج العباد من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى. وتلاوة كتاب الله تعالى، وتدبر آياته من عوامل الثبات المحمود للإنسان على الإيمان.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

وجاء في بيان حكمة إنزال القرآن منجّمًا بكلمةٍ جامعة، وهي: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾؛ لأن تثبيت الفؤاد يقتضي كل ما به خير للنفس[(١)]؛ والحكمة في تفريقه أن نقوّي بتفريقه فؤادك حتى تعيه وتحفظه؛ لأنّ المتلقّن إنما يقوى قلبه على حفظ العلم يلقى إليه، إذا ألقي إليه شيئًا بعد شيء، وجزءًا عقيب جزء[(٢)]، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

في هذه الآية عاب الله المنافقين بالإعراض عن التدبر في القرآن والتفكّر فيه وفي معانيه[(٣)].

فالاستفهام إنكاري للتوبيخ والتعجيب منهم في استمرار جهلهم، مع توفّر أسباب التدبير لديهم، وقد تحدّى الله تعالى هؤلاء بمعاني القرآن؛ كما تحدّاهم بألفاظه لبلاغته، إذ كان المنافقون قد شكّوا في أنّ القرآن من عند الله، فلذلك يظهرون الطاعة بما يأمرهم به، فإذا خرجوا من مجلس النبي صلى الله عليه وسلم خالفوا ما أمرهم به لعدم ثقتهم، ويشكّكون ويشكّون إذا بدا لهم شيء من التعارض، فأمرهم الله تعالى بتدبير القرآن.

وقوله: ﴿يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾، أي: يتأمّلون دلالة تفاصيل آياته على مقاصده التي أرشد إليها المسلمين، أي: تدبّر تفاصيله[(٤)].

تبين الآيات أن المنافقين لعدم تدبرهم للقرآن الكريم، وإعراضهم عنه اضطربوا وتزلزلت قلوبهم، فهم ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [النساء: ١٤٣].

فلا ثبات لديهم على الإيمان واتباع الحق، وبمفهوم المخالفة أن المؤمن الذي يتدبر القرآن الكريم يطمئن قلبه ويرسخ الإيمان فيه، فهو ثابت على الحق والإيمان بالله تعالى، وعليه فإن تدبر القرآن يؤدّي إلى ثبات القلب على الحق، وهو ثبات محمود.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ١٩.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٢٨٢.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٩٠.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ١٣٧.

سادسًا: نصرة الحق:

إن من أهم مقومات الثبات وأسبابه نصرة الحق والانتصار له.

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

كقوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠].

فإن الجزاء من جنس العمل[١]، وهذا أمر منه تعالى للمؤمنين أن ينصروا الله بالقيام بدينه، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه، والقصد بذلك وجه الله؛ فإنهم إذا فعلوا ذلك، نصرهم الله وثبت أقدامهم، أي: يربط على قلوبهم بالصبر والطمأنينة والثبات، ويصبر أجسامهم على ذلك، ويعينهم على أعدائهم، فهذا وعد من كريم صادق الوعد، أن الذي ينصره بالأقوال والأفعال سينصره مولاه، وييسر له أسباب النصر، من الثبات وغيره[٢].

وعليه فإن من نصر الله في كل موقف جزاه الله بالنصر وتثبيت الأقدام.

وإن مواقف نصرة الحق، موقف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق، وبلال بن رباح، وآل ياسر، وخبيب بن عدي، وأذكر هنا موقف خبيب ابن عدي رضي الله عنه، وهو يضرب أروع الأمثلة في ثباته لنصرة الحق، كلّفه ذلك حياته، نعم الثبات المحمود ثباته، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث رسول اللّه صلى الله عليه وسلم عشرةً، منهم خبيبٌ الأنصاريّ، فأخبرني عبيد اللّه بن عياضٍ أنّ ابنة الحارث أخبرته أنّهم حين اجتمعوا استعار منها موسى يستحدّ بها، فلمّا خرجوا من الحرم ليقتلوه قال خبيبٌ الأنصاريّ:

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا
على أيّ شقٍّ كان للّه مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ
يبارك على أوصال شلوٍ ممزّعِ

فقتله ابن الحارث، فأخبر النّبيّ صلى الله عليه وسلم أصحابه خبرهم يوم أصيبوا[٣].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣١٠.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٨٥.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ما يذكر في الذّات، والنّعوت، وأسامي اللّه، ٩/ ١٢٠، رقم٧٤٠٢.

عاقبة الثبات

يمكن تلخيص عاقبة الثبات في الدينا والآخرة في النقاط الآتية:

١ . صلوات الله ورحمته.

كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

تبين الآيات أن أهل الابتلاء والثبات عليه تتنزل عليهم الصلوات، والرحمة والأجر العظيم، وما نالوا هذا الأجر إلا بثباتهم ورضاهم بقدر الله تعالى وحمدهم له.

٢ . التثبيت في القبر.

ثبات المؤمن على الشهادتين في حياته وقبل مماته يؤدي إلى ثباته عند موته ودخول قبره، وذلك استقرار النهاية والحياة الأبدية.

يقول تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

٣ . الطمأنينة واليقين.

إن ثبات الإنسان على الحق يعطي طمأنينة في القلب، خاصة إن كان هذا الثبات من الله تعالى.

يقول تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ١٢٠].

٤ . قوة العزيمة

إن خوض المعارك ليس بالأمر الهين؛ لذا فالإنسان بحاجة إلى عزيمة قوية ليقوم بالدفاع والقتال، وذلك ناتج عن ثباته ورباطة جأشه؛ لذا كان إمداد الله بالملائكة في غزوة بدر لتثبيتهم وتقوية عزمهم.

يقول تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال: ١٢].

٥ . النصر.

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

وعندما نتأمل كلمة: ﴿ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ تفيدنا أنهم طلبوا أن يملأ الله قلوبهم بالصبر، ويكون أثر الصبر تثبيت الأقدام ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾؛ حتى يواجهوا العدو بالإيمان، وعند نهاية الصبر وتثبيت الأقدام يأتي نصر الله للمؤمنين على

الكافرين، وتأتي النتيجة للعزم الإيماني في قوله الحق: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[1].

٦. بلوغ الغايات والأهداف.

ويراد بذلك تحقيق الأهداف في الدنيا أو في الآخرة، وذلك ظاهر من ثبات الرسل والأنبياء ومن آمن بهم واتبع نهجهم على مدار الوقت؛ لقوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

ولا تكون غلبة دون ثبات، فالرسل ثباتهم واقع بتثبيت الله لهم، والمؤمنون كذلك ثباتهم واقع من إيمانهم بالله ورسله، واتباع نهجه، ولا يكون تحقيق الأهداف إلا بالثبات.

٧. زيادة الإيمان ورسوخه.

ثبات الإنسان على دينه يؤدّي إلى زيادة الإيمان ورسوخه في القلب.

يقول تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢].

وثبات الإنسان في المعارك يؤدي إلى حماية الدين والأوطان واستقرارها.

يقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

موضوعات ذات صلة:

الاستقامة، الإيمان، التمكين، الجهاد، القتال، النصر، الهزيمة

(١) انظر: تفسير الشعراوي، ٢/ ١٠٧٠.



عناصر الموضوع

التعريف بثمود

أولًا: التسمية:

اسم ثمود عَلَمٌ على قبيلة ثمود قوم سيدنا صالح عليه السلام.

وقد ذكر ابن فارس أن الثاء والميم والدال تدل على القليل من الشيء[1].

والثَّمَد: موضع يلزم ماء السماء، وله مسايل، وتحفر في نواحيه ركايا تُمْلأ من مائه، فيشرب الناس الماء الظاهر حتى يجف، فتبقى تلك الركايا بعده فهي الثماد[2]، ولهذا سموا ثمود على تلك الأثماد التي جعلوها لريهم وشربهم، وذلك أشبه أن تكون التسمية في أصلها منسوبة لهذه الأثماد، التي ربما يكون أثمدها جدهم ثمود، فنسبوا إليه، وأصبح الاسم عَلَمًا على أبناء ثمود.

وقيل: سميت ثمود لقلة مائها، ولأن الثمد هو: الماء القليل[3].

ثانيًا: موقع ثمود:

يعد المؤرخون ثمود من قبائل العرب العارية البائدة[4]، وكان مسكنهم الحجر في وادي القرى بين بلاد الشام والحجاز، ولهذا عرفوا بأصحاب الحجر[5].

قال سبحانه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الحجر: ٨٠]. وقد مر النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه بالحجر في طريقهم إلى تبوك[6]، والحجر، مدينة من مدن النبط للقديمة المهمة تقع على شريان التجارة في العالم القديم[7].

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أنهم سكنوا منطقة الحجر التي تسمى (مدائن صالح)[8].

وقد جاء ذكر الموضع في القرآن: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٣٨٧.
(٢) أساس البلاغة، الزمخشري ١/ ٧٦.
(٣) لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٢٢٠.
(٤) انظر: تاريخ الرسل والملوك، الطبري، ١/ ١٣٣، تاريخ ابن خلدون، ٢/ ٢٨.
(٥) انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي ٢/ ٢٥٥، ومروج الذهب، المسعودي ١/ ٤٢.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب (وإلى ثمود أخاهم صالحًا) ٤/ ١٨١، رقم ٣٣٨٠.
(٧) دراسات في تاريخ العرب القديم، أحمد صلبون، ص٣٤.
(٨) انظر: أطلس تاريخ الأنبياء والرسل، سام المغلوث ص ٩٦.



[الحجر:٨٠][1].

ثالثًا: زمن ثمود:

ظهرت ثمود بعد عاد، وقبل قوم لوط وقوم شعيب.

وعلى هذا فإن أقل تقدير لفترة ظهورهم هو ما يزيد عن أربعة آلاف سنة من الآن، حيث أن لوطًا عليه السلام هو ابن أخ إبراهيم عليه السلام، وقد عاشا قبل أربعة آلاف سنة.

وهذا الترتيب لهؤلاء الأقوام قد ورد في قوله تعالى ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩﴾ [هود:٨٩].

وجاء في الموسوعة البريطانية: أن منشأ ثمود هو جنوب الجزيرة العربية، إلا أن مجموعة كبيرة منها انتقلت إلى الشمال في تاريخ مبكر واستقرت على منحدرات جبل أثلب، وقد كشفت الحفريات الأثرية عن كتابات حجرية وصور ثمودية ضخمة عبر وسط الجزيرة العربية أيضًا. واليوم وبالرغم من كل ما كانوا عليه لم يبق لهم من أثر سوى هذه البقايا التي تخبرنا عن الفن الذي كان يطبع عصرهم ﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ١٤٩﴾ [الشعراء:١٤٩].

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص١٠٧.

ثمود في القرآن

ورد ذكر (ثمود) في القرآن الكريم (٢٦) مرة في (٢٢) سورة.

وقد وردت قصة ثمود في القرآن في السور الآتية:

السورة	الآيات
الأعراف	٧٣-٧٩
هود	٦١-٦٨
الشعراء	١٤١-١٥٩
النمل	٤٥-٥٣
فصلت	١٧/١٨
الذاريات	٤٣-٤٥
القمر	٢٣-٣١
الحاقة	٤-٥
الشمس	١١-١٥

رسول الله إلى ثمود ورسالته

أرسل الله تعالى إلى ثمود أخاهم صالحًا رسولًا يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف:٧٣].

وأمرهم بإخلاص العبادة لله سبحانه وتعالى، وقد جاءهم بالبرهان على صدق دعوته، فأخرج لهم من الصخرة ناقة عظيمة، وأمرهم ألا يتعرضوا لها بأي أذى، فيصيبهم عذاب موجع.

[انظر: صالح عليه السلام: التعريف بصالح عليه السلام]

رسالة سيدنا صالح عليه السلام إلى ثمود:

أولًا: رسالته دعوة للتوحيد:

فقد ورد في القرآن الكريم الخطاب ببعث الرسل وإرسالهم إلى أقوامهم بدعوة التوحيد.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥].

وهذا على وجه الإجمال وفصل لبعضهم فقال عن نوح: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [المؤمنون:٢٣].

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف:٧٣].

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [هود:٥٠].

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [هود:٨٤].

وهذا خطاب واحد لهم جميعًا، وأرسل الله سبحانه وتعالى سيدنا صالحًا عليه السلام إلى قومه، وكان أوسطهم وأفضلهم أسرة وعشيرة، وموضع مشورتهم ويصدرون عن رأيه ويرجون له ومنه الخير، فلما دعاهم لتوحيد الله وحده وترك الأوثان، والتوجه بالعبادة لله وحده، وألح عليهم وأنذرهم بالوعيد والعذاب الشديد طلبوا منه أن يخرج لهم آية في عيدهم، دالة على صدقه عنادًا ونفاقًا، فآتاهم الله الناقة آية بينة، فأصروا على عنادهم، بل استمروا في

غيهم حتى يئمنوا به ويصدقون رسالته، فدعا الله فأخرج لهم الناقة مع فصيلها بالأوصاف التي طلبوها من صخرة، وكانت مميزة بكثرة لبنها وشكلها رغم أنها آية من الله وحجة ظاهرة، أصروا على عنادهم، وعتوا من أمر ربهم وتجرأوا على انتهاك حرمة الله فعقروا الناقة، فحق عليهم الهلاك، وكلمة العذاب. ولما عقروا الناقة وعدهم سيدنا صالح بالهلاك بعد ثلاث أيام.

قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ [هود:٦٥].

و قد ذاقوا مرارة الترقب والانتظار خلال تلك الأيام، فلما اكتملت الأيام الموعودة آتاهم العذاب صبيحة يوم نحس، فأخذتهم رجفة شديدة زلزلت بهم الأرض، وصاعقة محرقة من فوقهم، وصيحة واحدة مفزعة قطعت نياط قلوبهم وتركتهم أجسادًا بلا أرواح، وبقيت ديارهم عبرة على من الأيام والعصور[1].

ثانيًا: سيدنا صالح عليه السلام يدعو قومه بالحكمة والموعظة الحسنة:

كان صالح عليه السلام يخاطب قومه بأخلاق الداعي الكريمة، وآدابه الرفيعة ويدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة تارة، ويجادلهم تارة بالتي هي أحسن في موضع الجدال، مؤكدًا على أن عبادة الله هي الحق، والطريق المستقيم. ولكن قومه تمادوا في كفرهم، وأخذوا يدبرون له المكائد والحيل حتى لا يؤمن به أكثر الناس، وذات يوم كان صالح عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله، ويبين لهم نعم الله الكثيرة، وأنه يجب شكره وحمده عليها، فقالوا له: يا صالح ما أنت إلا بشر مثلنا، بل وذلك خطاب كل الأمم المكذبة لرسلهم الذين بعثوا إليهم: ﴿مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس:١٥].

أي: كان هذا احتجاجهم في رد الرسالات يحتجون على الرسل فيقولون -والله أعلم-: إن الرسل إنما يجيئون من عند المرسل، وأنتم نشأتم بين أظهرنا لم تأتونا من عند أحد في الظاهر، ولا نرى لك خصوصية لا في الخلقة ولا في القدرة والمال وغيره وإذا كنت تدعي أنك رسول الله، فلابد أن تأتينا بمعجزة وآية.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ﴾ [الأعراف:٧٣].

وكان رد الرسل عليهم صلوات الله وسلامه: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم:١١].

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥٠٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٩.

رابعًا: منهج سيدنا صالح عليه السلام في الدعوة:

أمّا منهج النبي صالح عليه السلام فإنّه لا يختلف عن منهج أخويه نوح وهود عليهما السلام؛ في الدعوة إلى الله تعالى في عدم الشرك به وإفراده بالعبادة، لكن الكثير منهم رفض هذه الدعوة فآذوا نبي الله صالحًا وهمّوا بقتله وعقروا الناقة الّتي جعلها الله آية على صدقه، وقد كان حذّرهم من قتلها فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود:٦١] - ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾- أي: فاسألوه أن يغفر لكم ما أشركتم وما أجرمتم، ثم توبوا وارجعوا إليه كلما وقع منكم ذنبا أو خطأ[(١)].

﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ [هود:٦١-٦٢].

أي: قد كنا نرجو أن يكون عقلك كاملًا قبل هذه المقالة، وهي دعاؤك إيانا إلى إفراد العبادة لله، وترك ما كنا نعبده من الأنداد، والعدول عن دين الآباء والأجداد.

ولهذا قالوا: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾ [هود:٦٢-٦٣].

وهذا تلطف منه لهم في العبارة، وحسن تأت في الدعوة لهم إلى الخير، أي: فما ظنكم إن كان الأمر كما أقول لكم، وأدعوكم إليه، ما عذركم عند الله، وماذا يخلصكم من بين يديه، وأنتم تطلبون مني أن أترك دعائكم إلى طاعته. وأنا لا يمكنني هذا لأنه واجب علي، ولو تركته لما قدر أحد منكم، ولا من غيركم، أن يجيرني منه ولا ينصرني، فأنا لا أزال أدعوكم إلى الله وحده لا شريك له، حتى يحكم الله بيني وبينكم. أو أي: غير أن تجعلوني خاسرًا بإبطال أعمالي وتعريضي لسخط الله تعالى أو فما تزيدونني بما تقولون غير أن أنسبكم إلى الخسران وأقول لكم: إنكم الخاسرون، فالزيادة على معناه، والفاء لترتيب عدم الزيادة على انتفاء الناصر المفهوم من إنكاره على تقدير العصيان مع تحقق ما ينفيه من كونه عليه الصلاة السلام على بينة من ربه وإيتائه النبوة[(٢)].

وقالوا له أيضًا: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الشعراء:١٥٣].

أي: من المسحورين، يعنون مسحورًا لا تدري ما تقول في دعائك إيانا إلى

(١) المنار، ١٢/ ١٠١.

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٣/ ٣٦٥.

إفراد العبادة لله وحده، وخلع ما سواه من الأنداد. والمراد بالمسحرين: المسحورين المخدوعين[1].

موقع قوم ثمود من رسولهم ومعجزته

ما من دعوة جاء بها رسول إلى قومه وإلا انقسم القوم إلى مستجيبين وغير مستجيبين، وسوف نتناول ذلك بالبيان فيما يأتي:

أولًا: موقف ثمود من رسولهم عليه السلام:

أولًا: قوم ثمود لا يستجيبون لنبيهم عليه السلام:

كانت ثمود أمة مشركة تعبد الأصنام وتجحد تفرد الله سبحانه وتعالى بالعبادة، شأنها في ذلك شأن من كان قبلها من الأمم كقوم نوح وقوم هود، فكان مستهل دعوة صالح عليه السلام دعوتهم إلى عبادة الله وحده، وقد ورد ذلك في عدة مواضع في القرآن الكريم، ولكن الحديث عن شركهم وعبادتهم الأصنام لم يرد إلا في آية واحدة هي قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ [هود:٦٢].

وكان هذا جوابًا لدعوة صالح إياهم إلى التوحيد في قوله تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾

(١) معالم التنزيل، البغوي، ٦/ ١٢٥.

[هود:٦١].

فالقوم جعلوا الدعوة إلى عبادة الله وحده سببًا لحط الدرجات والقدح في المروآت، فقالوا لصالح مظهرين التحسر وخيبة الرجاء: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا﴾ أي: كنا نرجو أن تكون فينا سيدًا[١]؛ لما كنا نرى منك من دلائل السداد ومخايل الرشاد[٢] قبل هذا القول العجيب الذي جئت به؛ أفأنت تدعونا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التي توارثنا عبادتها أبًا عن جدّ ؟

ثم بينوا موقفهم من الدعوة إلى التوحيد بأسلوب المتهكم في صورة المنصف للحق، المشفق على صالح، فقالوا: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ قال الفخر الرازي: والشك هو أن يبقى الإنسان متوقفًا بين النفي والإثبات، والمريب: هو الذي يظن به السوء، فقوله: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ﴾ يعني: أنه لم يترجح في اعتقادهم صحة قوله ﴿مُرِيبٍ﴾ يعني: أنه ترجح في اعتقاداتهم فساد قوله، وهذا مبالغة في تزييف كلامه[٣].

ثانيًا: تطير قوم ثمود:

التطير لون من ألوان الشرك ورد ذكره عن قوم ثمود، وأصله مأخوذ من التطير بالسوانح والبوارح[٤] من الطير والظباء وغيرهما[٥]، ثم يستعمل في كل ما يتفاءل به ويتشاءم[٦].

وقد دل على كونه شركًا حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا: (الطيرة شرك، الطيرة شرك، ثلاثًا)[٧].

قال ابن الأثير: «وإنما جعل الطيرة من الشرك لأنهم كانوا يعتقدون أن التطير يجلب لهم نفعًا أو يدفع ضرًّا إذا علموا بموجبه، فكأنهم أشركوه مع الله في ذلك»[٨].

وحديث القرآن عن تطير قوم صالح ورد في قوله تعالى: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [النمل:٤٧].

قال الطبري في تفسير الآية: «أي: تشاءمنا

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ١٢.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٢٦٣.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ١٨.
(٤) السوانح: جمع سانح، وهو ما ولاَّك ميامنه من الطير والظباء وغيرهما، بأن يمر من يسارك إلى يمينك، وكانوا يتيمنون به.
والبوارح: جمع بارح وهو عكس السانح، أي: الذي يمر من يمينك على يسارك، وكانوا يتشاءمون به.
انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٢٤٦.
(٥) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/ ١٥٢.
(٦) انظر: المفردات ص ٣١٠.
(٧) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطب، باب في الطيرة، ٤/ ٢٣٠، رقم ٣٩١٠، والترمذي في سننه، كتاب السير، باب ما جاء في الطيرة، ٤/ ١٦٠ - ١٦١، رقم ١٦١٤ .
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديث سلمة بن كهيل.
وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، ١/ ٧٣٣، رقم ٣٩٦٠.
(٨) النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/ ١٥٢.

بك وبمن معك من أتباعنا، وزجرنا الطير بأنا سيصيبنا بك وبهم المكاره»[١].

والقوم لشقاوتهم وخبثهم نسبوا ما يصيبهم من المكاره والمساوئ إلى صالح وأصحابه وهو أبعد الناس عنها، فهم أهل الصلاح، ودينهم سبب لجلب الخيرات لا المصائب، وقد نسوا أنهم إنما يؤخذون بجرائرهم وسوء أعمالهم.

وقد أجابهم صالح عليه السلام كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [النمل:٤٧].

قال عبدالله بن عباس: «﴿طَائِرُكُمْ﴾: مصائبكم»[٢].

والمعنى: عند الله علم بما يصيبكم من المكاره والمصائب، فكل ذلك بقضائه وقدره لا حسب تطيركم وتشاؤمكم[٣].

وقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ أي: تبتلون وتختبرون، أتطيعون فتجدون الجزيل من الثواب، أم تعصون فيحل عليكم العقاب[٤].

ثالثًا: ثمود لا تعتبر بما حاق بسلفها قوم عاد:

و ما كان من أمر قوم صالح عليه السلام، إلا الصد والتكذيب، وكيف نجاه الله تعالى مع من آمن به، وكيف قطع دابر القوم الذين ظلموا بكفرهم، وعتوهم ومخالفتهم رسولهم عليه السلام. ومع إنهم شهدوا آثار هلاك قوم عاد وتسامعوا به إلا أنهم لم يعتبروا بما كان من أمر سلفهم.

ولهذا قال لهم نبيهم عليه السلام: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف:٧٣-٧٤].

وفي هذه الآيات يذكرهم نبيهم بما كان من أمر سلفهم، إذ كنتم خلفاء من قوم عاد، لتعتبروا بما كان من أمرهم، وتعملوا بخلاف عملهم، وأباح لكم هذه الأرض تبنون في سهولها القصور، وتنحتون من الجبال بيوتًا فارهين، أي: حاذقين في صنعتها وإتقانها وإحكامها، فقابلوا نعمة الله بالشكر والعمل الصالح، والعبادة له وحده لا شريك له، وإياكم ومخالفته، والعدول عن طاعته، فإن

---

(١) جامع البيان، ١١/ ١٩.
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١١/ ١٩.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ١٩، مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٢٤.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ١٩.

عاقبة ذلك وخيمة[1].

وذكر الله سبحانه وتعالى بأن صالحًا أخاهم يقول تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف:٧٣]؛ لأن ثمود قبيلة. و﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ يعني: في النسب لا في الدين ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ وهذا قول نبيهم صالح عليه السلام حين أرسله الله تعالى إليهم: يا قوم وحدوا الله تعالى ولا تشركوا به شيئًا فما لكم من إله يستحق أن يعبد سواه ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني: جاءتكم حجة من ربكم وبرهان على صدق ما أقول وأدعو إليه من عبادة الله تعالى ولا تشركوا به شيئًا وعلى التصديق بأني رسول الله إليكم، ثم فسر تلك البينة فقال: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ يعني: علامة على صدقي.

ووجه نسبة هذه الناقة لله سبحانه وتعالى، وكون الناقة آية على صدق سيدنا صالح عليه السلام ومعجزة له، خارقة للعادة؛ لأنها خرجت من صخرة في الجبل، لا من ذكر ولا من أنثى، مع كمال خلقها.

وقيل: لأنها كان لها شرب يوم، ولجميع قبيلة ثمود شرب يوم.

وهذا من المعجزات أيضًا؛ لأن ناقة تشرب ما تشربه قبيلة معجزة، وكانوا يحلبونها في يوم شربها قدر ما يكفيهم جميعهم ويقوم لهم مقام الماء، وهذا أيضًا معجزة.

وقيل: إن سائر الوحوش والحيوانات كانت تمتنع من شرب الماء في يوم شرب الناقة، وتشرب الحيوانات الماء في غير يوم الناقة.

وهذا أيضًا معجزة، وإنما أضافها إلى الله تعالى في قوله ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ على سبيل التفضيل والتشريف، كما يقال: بيت الله.

وقيل: لأن الله تعالى خلقها بغير واسطة ذكر وأنثى.

وقيل: لأنه لم يملكها أحد إلا الله تعالى.

وقيل: لأنها كانت حجة الله على قوم صالح.

﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ يعني: فذروا الناقة تأكل العشب من أرض الله، فإن الأرض لله والناقة أيضًا لله وليس لكم في أرض الله شيء، لأنه هو الذي أنبت العشب فيها ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ يعني: ولا تطردوها ولا تقربوها بشيء من أنواع الأذى ولا تعقروها ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني: بسبب عقرها وأذاها[2].

(١) النكت والعيون، ٢/ ٢٣٥.

(٢) لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٢٢٠.

ثانيًا: من صفات قوم ثمود:

١ . الشك المريب.

من مظاهر معاداة الرسل من قبل أقوامهم؛ الترفع عن إفراد الله تعالى بالعباد وعدم توحيده، فقد كانت ثمود شبيهة بنظيراتها من الأمم التي سبقتها التي استنكفت إقرار تفرد الله تعالى بالعبادة تكبرًا وتجبرًا، وأنهم لن يتركوا ما كانوا عليه من عبادة الأصنام التي ورثوها من آبائهم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ [هود:٦٢].

أي: كنا نرجو أن تكون فينا سيّدًا، وقيل: كنا نرجو أن تعود إلى ديننا[1].

ويقول أبو السعود: كنا نرجو منك لما كنا نرى منك من دلائل السداد ومخايل الرشاد أن تكون لنا سيدًا ومستشارًا في الأمور.

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «فاضلًا خيرًا نقدمك على جميعنا».

وقيل: كنا نرجو أن تدخل في ديننا وتوافقنا على ما نحن عليه[2].

٢ . الظلم.

دمرهم الله تعالى عاقبة لظلمهم.

قال تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النمل:٥١-٥٣].

ذكر جلّ وعلا في هذه الآيات الكريمة، ثلاث أمور:

الأول: أنه دمّر جميع قوم صالح، ومن جملتهم تسعة رهط الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وذلك في قوله: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، أي: وهم قوم صالح ثمود، ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾ أي: خالية من السكان لهلاك جميع أهلها، ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ أي: بسبب ظلمهم الذي هو كفرهم وتمرّدهم وقتلهم ناقة اللّه التي جعلها آية لهم، وقال بعضهم: ﴿خَاوِيَةً﴾، أي: ساقطًا أعلاها على أسفلها.

الثاني: أنه جلّ وعلا جعل إهلاكه قوم صالح آية، أي: عبرة يتّعظ بها من بعدهم، فيحذر من الكفر، وتكذيب الرسل، لئلا ينزل به ما نزل بهم من التدمير، وذلك في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

الثالث: أنه تعالى أنجى الذين آمنوا وكانوا يتّقون من الهلاك والعذاب، وهو نبيّ اللّه صالح ومن آمن به من قومه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا

(١) الكشف والبيان، الثعلبي ٥/ ١٧٦.
(٢) إرشاد العقل السليم، ٤/ ٢٢١.

﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

وهذه الأمور الثلاثة التي ذكرها جلّ وعلا هنا، جاءت موضحة في آيات أخر.

٣. الاختصام.

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾[النمل:٤٥].

ولم يبيّن هنا خصومة الفريقين، ولكنّه بيّن ذلك في سورة «الأعراف»، في قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾[الأعراف:٧٥-٧٦].

فهذه خصومتهم، وأعظم أنواع الخصومة: الخصومة في الكفر والإيمان[١].

٤. التكذيب.

ورد ذكر تكذيب ثمود بالبعث في موضعين:

الأول: قرن فيه مع عاد، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾﴾ [الحاقة:٤].

الثاني: هو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [المؤمنون:٣١-٣٣].

ذكر ابن جرير الطبري وآخرون أن المعنيون بهذا الخطاب هم ثمود قوم صالح؛ لأن القصة شبيهة بقصتهم، فهم الذين أهلكهم الله بالصيحة، وقد ختمت هذه القصة بذكر هلاك المذكورين فيها بالصيحة[٢].

فقد وصف الله تعالى الملأ الذين تصدروا لمعارضة صالح عليه السلام بثلاث أوصاف قبيحة: الكفر بالله، والتكذيب بالبعث، والترف[٣].

٥. الترف.

المترف مع ما يترتب عليه سلوكه من الإنكباب على الدنيا والانغماس في الشهوات، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

وقوله: ﴿وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ أي: كذبوا بلقاء ما فيها من الحساب والجزاء.

والمراد: بيان تكذيبهم بالبعث بالكلية

(١) أضواء البيان، الشنقيطي، ٢/ ١٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ١٨، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ١١، والتسهيل، ابن جزي ٣/ ٥١.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٢٣.

كما تدل عليه الآيات[1].

وقد جاء تفصيل تكذيبهم بالبعث في الآيات التي بعد هذه، وذلك ضمن المسائل التي أنكروها على صالح عليه السلام، فبعد أن أنكروا عليه ادعاء الرسالة مع كونه بشرًا أنكروا ما يعدهم به من البعث والنشور بعد الموت، فقالوا مخاطبًا بعضهم بعضًا: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المؤمنون: ٣٥].

وهذا الاستفهام على جهة الاستهزاء والاستبعاد[2].

والمعنى: أيعدكم صالح أنكم بعد موتكم، ومصيركم ترابًا، أي: قبوركم، وعظامًا قد ذهب لحوم أجسادكم وأعصابها، أنكم مخرجون أحياء كما كنتم[3].

ثم لم يقتنعوا بالاستبعاد عن طريق الاستفهام حتى قرنوه بالاستبعاد عن طريق الأخبار قالوا ﴿۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المؤمنون:٣٦].

أي: بعيد بعيد ما توعدون من أنكم محيون بعد مماتكم[4].

ثم أكدوا إنكارهم للبعث بذكر تصورهم للحياة، فقالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المؤمنون: ٣٧].

أي: ما الحياة إلا هذه الحياة التي نحن نحياها في الدنيا، لا الحياة الآخرة التي وعدنا بها صالح بعد البعث[5].

وجملة ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ مفسرة لما ادعاه من أن الحياة هي الحياة الدنيا[6].

وقد ذكر في معناها أقوال:

فقيل معناها: يموت بعضنا ويولد بعضنا، وهكذا[7].

وقيل: يموت الآباء ويحيا الأبناء[8].

وقيل: يموت قوم ويحيا قوم[9].

وقيل: بمعنى نحيا ونموت ولا نبعث[10].

وهذه الأقوال متقاربة في المعنى، غير متعارضة، فهم لا يقصدون بقولهم ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ إنهم يموتون ثم يبعثون يوم القيامة، فهم منكرون للبعث إنكارًا شديدًا،

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ١٢١، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤٨٢.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٤٣، التسهيل، ابن جزي ٣/ ٥١.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٠/ ١٨.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٨ ، تفسير السمرقندي ٢/ ٤١٤.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ١٢٤، أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٤٢٤.
(٦) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤٨٣، روح المعاني، الألوسي ١٨/ ٣٢.
(٧) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٥٣، روح المعاني، الألوسي ١٨/ ٣٢.
(٨) انظر: النكت والعيون ٤/ ٥٣، معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٤١٧.
(٩) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ١٨، معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٤١٧.
(١٠) تفسير السمرقندي ٢/ ٤١٤، النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٥٤.



وقد استمروا في تأكيد إنكارهم للبعث واستحالته بما يدل عليه قولهم الجازم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾، ثم ختموا جدالهم بقولهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [المؤمنون: ٣٨].

بذلك أحبوا ما هم عليه من الضلال على دعوة سيدنا صالح عليه السلام للهدى والإيمان، فحقت عليهم كلمة العذاب فأتاهم هلاك الصيحة، كما قال الحق عز وجل: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [المؤمنون: ٤١].

٦. الاستهزاء.

ومما اتصف به قوم ثمود الاستهزاء بالرسل وإيذائهم، وما صاحب ذلك من الهزء والوقاحة.

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ [هود: ٦٢].

أي: أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم تعجبًا مما قالته الرسل على سبيل الاستهزاء كحال من غلبه الضحك[1]. ﴿افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٨].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ١٣، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣٢٦.

فجعلوا صالحًا عليه السلام مفتريًا على الله تعالى بسبب دعوته لهم إلى التوحيد، والإيمان بالبعث[2]، وصرحوا بأنهم لن يؤمنوا به، أو أنهم فعلوا ذلك إشارة على الأنبياء بالسكوت وإطباق الأفواه استبشاعًا لما قالوه من دعوى النبوة[3]، أو أنهم أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما نطقت به من قولهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ [إبراهيم: ٩].

تنبيهًا على أن هذا هو جوابهم، ولا جواب عندهم سواه، تيئيسًا لهم من التصديق[4].

وذلك ما قاله المستكبرون من قوم ثمود للمستضعفين الذين آمنوا بصالح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأعراف: ٧٥].

«وقولهم: ﴿أَتَعْلَمُونَ﴾ استفهامٌ على معنى الاستهزاء والاستخفاف»[5].

فالرسل في نطاق دعوتهم إلى التوحيد

(٢) انظر: فتح قدير، الشوكاني ٣/ ٤٨٣.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣٢٦، التسهيل، ابن جزي ٢/ ١٣٨.
(٤) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢٩٥، مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ١٩.
(٥) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٢٣.

ونهيهم عن الشرك يبيّنون بطلان اتخاذ الأصنام آلهة، ويظهرون ضعفها وعجزها عن جلب نفع أو دفع ضرٍّ؛ وهذا في نظر المشركين مسبّةٌ شنيعة، وطعن قادح في آلهتهم التي يعتقدون أنها جالبة الخيرات، ودافعة الشرور والأضرار، فيردون على هذا بالاستهزاء بالرسل، ويسلطون عليهم ألوانًا من الأذى، وينال أتباعهم قسطًا من ذلك.

ثالثًا: استكبار قوم ثمود:

الكبر والتكبر والاستكبار من مشتقات مادة (كبر) وهي متقاربة في المعنى[1]، فالكبر ألصق بالخلق الباطني، وهو: «خلق في النفس دالٌ على الاسترواح والركون إلى رتبة فوق المتكبّر عليه»[2]، فمتى اتصف المرء بهذا الخلق يقال: في نفسه كبر، فإذا ظهر كعمل صادر عن الجوارح كان تكبرًا واستكبارًا[3].

وبهذا فالكبر شعور باطني يستشعره المتكبر، وعندما يصبح هذا الشعور سلوكًا ظاهرًا يقال لصاحبه: متكبر مستكبر، وجاء في حديثه صلى الله عليه وسلم بيان لحقيقة الكبر المتوعد عليه بالعقاب في قوله صلى الله عليه وسلم: (الكبر بطر الحق، وغمط الناس[4])[5].

ووردت آيات مختلفة تتحدث عن استكبار قوم ثمود، فقد وصف الله سبحانه تعالى ملأ منهم بصفة الاستكبار فقال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف:٧٥-٧٦].

والمستكبرون تتعدد أنواعهم بحسب تكبرهم:

- التكبر على الله تعالى.

وذلك بعدم الطاعة والترفع عن عبادته، ورفض أوامره ونواهيه، التي يأتيهم بها الأنبياء والرسل في دعوتهم، وهذا أكثر ما واجه الأنبياء وهو مقرون بالتكذيب والكفر متمثلًا في رفض رسالاتهم.

- التكبر على الرسل.

وذلك يتمثل فيعدم الخضوع لهم بأسباب متعدده؛ لأنهم بشر، لأنهم ضعفاء.

- التكبر على الناس.

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٢١.

(٢) تصفية القلوب، يحيى الذماري ص١٨٧.

(٣) إحياء علوم الدين، ٢/ ٣٦٣.

(٤) بطر الحق: رده ودفعه وإنكاره ترفعًا وتجبرًا. وغمط الناس: احتقارهم. انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي ٢/ ٩٠.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر، ١/ ٩٣، رقم ١٤٧، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

كل الرسل ووجهوا بهذا النوع من التكبر، فكان أهل الشرك والكفر يستعظمون أنفسهم ويرون أنهم فوق أتباع الرسل الذين عادة ما يكونوا من المستضعفين.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [الشعراء:١١١].

وقالوا: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود:٢٧].

وقد وصف الله سبحانه وتعالى قوم ثمود بالطغيان فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾ [الحاقة:٥].

فقد روي عن قتادة: بأن الطاغية تعني الطغيان وتجاوز الحد في اغتراف المعاصي[1].

ويقول ابن كثير في تفسير قوله سبحانه وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾﴾ [الشمس:١١]: «كذبوا رسولهم بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغي»[2].

وذكر البيضاوي أن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾﴾ [الفجر:١١-١٢] صفةٌ للمذكورين جميعًا: عاد وثمود وفرعون[3].

رابعًا: موقف ثمود من معجزة رسولهم عليه السلام:

كان موقف ثمود من معجزة رسولهم وآياته هو الإعراض والتكذيب.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الحجر:٨٠-٨١].

وقد دلت الآيات على تكذيبهم وإعراضهم عن الآيات التي أظهرها الله تعالى لهم تصديقًا لنبيه عليه السلام، دلالة على عظمته ووحدانيته. وقد أوتي سيدنا صالح عليه السلام الناقة آية، وقد جمعت آيات متعددة في إظهارها.

قال ابن الجوزي: «والمراد بالآيات الناقة، قال ابن عباس: كان فيها آيات، خروجها من الصخرة ودنو نتاجها عند خروجها، وعظم خلقها فلم تشبهها ناقة، وكثرة لبنها حتى كان يكفيهم جميعًا»[4].

والأولى عدم تخصيص الآيات بالناقة فقط، بل تحمل على الناقة وغيرها، وهو ما جنح إليه بعض المفسرين.

قال الطبري في تفسير الآية: «يقول: وأريناهم أدلتنا وحججنا على حقيقة ما بعثنا به إليهم رسولنا صالحًا»[5].

وهذه الآيات يدخل فيها الناقة دخولًا

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٤/ ٢٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٥٥٢.
(٣) أنوار التنزيل، ٢/ ٥٩٤.
(٤) زاد المسير ٤/ ٣٠١.
(٥) جامع البيان، الطبري ٧/ ١٤.

أوليًّا؛ لأنها ذكرت في القرآن الكريم، ولكن عدم ذكر غيرها لا يدل على أنها هي الآية الوحيدة التي أعطيت لسيدنا صالح عليه السلام حتى يضطر لحمل الآيات على الناقة فقط.

فهذه الآيات تشتمل على الحجج والبراهين الكونية الدالة على عظمة الله تعالى ووحدانيته، ولا شك أن صالحًا عليه السلام قد ذكّر قومه بهذه البراهين والآيات وقد تكون الآيات التي كذبوا بها غير هذه الآيات.

قال البيضاوي: «﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٨١﴾ [الحجر:٨١] يعني: آيات الكتاب المنزل على نبيهم أو معجزاته المتضمنة في الناقة من سقيها وشربها وغيره، أو ما نصب لهم من الأدلة»[(١)].

وقد سأل قوم ثمود سيدنا صالح عليه السلام معجزة يخرجها لهم يريدونها، فأشاروا على صخرة بجوارهم، وقالوا له: أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة طويلة عشراء، وأخذوا يصفون الناقة المطلوبة ويعددون صفاتها، حتى يعجز صالح عن تحقيق طلبهم، فقال لهم صالح: أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم أتؤمنون بي وتصدقونني وتعبدون الله الذي خلقكم؟ فقالوا له: نعم، وعاهدوه على ذلك، فقام صالح عليه السلام

(١) أنوار التنزيل، ١/ ٥٣٤.

وصلى لله سبحانه، ثم دعا ربه أن يجيبهم إلى ما طلبوا. وكانت الآية التي أوتيها سيدنا صالح عليه السلام هي الناقة، قال سبحانه وتعالى ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف:٧٣].

وكانت الناقة بطلب من قومه ولم يأت بها من تلقاء نفسه؛ وذكر ابن عطية عن بعضهم أنه جاء بها من تلقاء نفسه من غير طلب[(٢)]، والرأي الأول هو الأرجح والأصوب كما جاء في القرآن قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۝١٥٣ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٥٤﴾ [الشعراء:١٥٣-١٥٤].

وكذلك جاء في الحديث ما يصدق رأي طلبهم الناقة، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لما مر النبي صلى الله عليه وسلم بالحجر قال: **(لا تسألوا الآيات، وقد سألها قوم صالح، فكانت -أي: الناقة- ترد من هذا الفج[(٣)]، وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها)**[(٤)].

(٢) انظر: المحرر الوجيز ٢/ ٤٢١.

(٣) الفج: هو الطريق الواسع بين جبلين. مختار الصحاح ص ٤٠١.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٢/ ٦٦، رقم ١٤١٦٠، والحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، سورة الأعراف، ٢/ ٣٥١، رقم ٣٢٤٨.

وذكر العلماء أن قوم صالح هم الذين حددوا نوع الآية أن تكون ناقة، وكيفية خروجها وشكلها وأن تخرج أمام أعينهم من الصخرة في قبيلتهم

وأما صفة الناقة التي جعلها الله عز وجل آية مبصرة لثمود، فقال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء:٥٩].

وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف:٧٣].

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الحجر:٨١].

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه آتى أصحاب الحجر آياته فكانوا عنها معرضين.

والإعراض: الصدود عن الشيء والإضراب عنه[1] وعدم الالتفات إليه؛ كأنه مشتق من العرض بالضم وهو الجانب؛ لأن المعرض لا يولي وجهه بل يثني عطفه ملتفتًا صادًّا[2].

ولم يبين جل وعلا هنا شيئًا من تلك الآيات التي آتاهم، ولا كيفية إعراضهم عنها، ولكنه بين ذلك في مواضع أخر، فبين أن من أعظم الآيات التي آتاهم: تلك الناقة التي أخرجها الله لهم، بل قال بعض العلماء: إن في الناقة المذكورة آيات جمة: كخروجها عشراء وبراء جوفاء من صخرة صماء، وسرعة ولادتها عند خروجها، وعظمها حتى لم تشبهها ناقة، وكثرة لبنها حتى يكفيهم جميعًا، وكثرة شربها؛ كما قال تعالى: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء:١٥٥].

وقال: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القمر:٢٨][3].

روى الإمام أحمد عن جابر رضي الله عنه قال: لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجر قال: (لا تسألوا الآيات وقد سألها قوم صالح، فكانت ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، فكانت تشرب ماءهم يومًا ويشربون لبنها يومًا، فعقروها، فأخذتهم صيحة أهمد الله عز وجل من تحت أديم السماء منهم إلا رجلًا واحدًا كان في حرم الله عز وجل)، قيل: من هو يا رسول الله قال: (هو أبو رغال؛ فلما خرج من الحرم أصابه ما أصابهم)[4].

ويعلق سيد قطب رحمه الله تعالى على آية الأعراف عند قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ فيقول: «والسياق

وحسن إسناده ابن حجر في الفتح ٦/ ٣٨٠.

(١) التوقيف، ١/ ٧٦.

(٢) انظر: لسان العرب، ٧/ ١٦٥.

(٣) التحرير والتنوير، ١٦/ ١١٧.

(٤) سبق تخريجه قريبًا.

هنا -لأنه يستهدف الاستعراض السريع للدعوة الواحدة ولعاقبة الإيمان بها وعاقبة التكذيب- لا يذكر تفصيل طلبهم للخارقة، بل يعلن وجودها عقب الدعوة، وكذلك لا يذكر تفصيلًا عن الناقة أكثر من أنها بيّنة من ربهم، وأنها ناقة الله، ومن هذا الإسناد نستلهم أنها كانت ناقة غير عادية، أو أنها أخرجت لهم إخراجًا غير عادي؛ مما يجعلها بيّنة من ربهم، ومما يجعل نسبتها إلى الله ذات معنى، ويجعلها آية على صدق نبوته. ولا نزيد على هذا شيئًا مما لا يرد ذكره من أمرها في هذا المصدر المستيقن، وفيما جاء في هذه الإشارة كفاية عن كل تفصيل آخر»[1].

وقد أخذ سيدنا صالح عليه السلام على قومه العهد بعد خروج الناقة.

وبعد أن أخرج الله لهم الناقة بالكيفية التي طلبوها طلب منهم صالح عليه السلام الوفاء بعهدهم ومواثيقهم التي قطعوها على أنفسهم في أمور: منها:

أولًا: الإيمان بالله جل جلاله ونبذ عبادة الأوثان والتصديق برسالة صالح.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف:٧٣] فاقتران الدعوة إلى التوحيد بالإشارة إلى الناقة يدل على أنه طلب منهم الإيمان عقب مجيئها.

ثانيًا: تقسيم الماء بينهم وبين الناقة.

فلقوم صالح عليه السلام يوم، وللناقة يوم، في يومهم لا ترد الناقة الماء فيأخذون ما يكفيهم ويكفي بهائمهم، وفي يوم الناقة لا يريدون الماء.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ [الشعراء:١٥٥] وقوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القمر:٢٨].

كما حذرهم صالح عليه السلام من نقص حصة الناقة من الماء.

قال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾﴾ [الشمس:١٣].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «أي: احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء ولا تعتدوا عليها يوم سقياها، فإن لها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم»[2].

ثالثًا: أن لا تمس الناقة بأي سوء.

وقد حذرهم من مساس الناقة بسوء تحذيرًا صارمًا واضحًا، ونبههم بأنه يستدعي العذاب العاجل.

قال تعالى حكاية عن سيدنا صالح عليه

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣١٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥٢.

السلام: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف:٧٣].

فقد اقتصر النهي في هذه الآيات عن مس الناقة بسوء فلم ينههم عن عقرها أو قتلها.

وفي ذلك لطيفة عبر عنها ابن عاشور بقوله: «وأنيط النهي بالمس بالسوء، لأن المس يصدق على أقل اتصال شيء بالجسم فكل ما ينالها مما يراد منه السوء فهو منهي عنه»[1].

وقد كان خروج الناقة ابتلاء لثمود كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾﴾ [القمر:٢٧].

فهي ابتلاء لثمود أيؤمنون بصالح عليه السلام كما وعدوه بذلك؟ أم ينكصون ويكفرون، وكان الابتلاء عدم مساسهم بالناقة بسوء وتقسيم الشرب بينهم.

أما صالح فقد أمر أن ينتظر يرتقب ما يؤول إليه أمرهم بعد هذا الامتحان وأن يصبر عليهم حتى يأتي الفرج من الله. إلا أن قوم ثمود خسروا الامتحان ونكثوا العهد وأصروا على الكفر والتكذيب، وبذلك حكموا على أنفسهم باستحقاق العذاب، وكذلك عتوا في الضلال والعناد وضاقوا ذرعًا بالناقة ويوم شربها، وكبر عليهم رؤيتها تجوب وديانهم وحقولهم شاهدة على قدرة الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ [هود:٦٥].

وقال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الشعراء:١٥٧-١٥٨].

والربط بين عقر الناقة وهلاك القوم (بالفاء) في هذه الآيات كلها يدل دلالة واضحة على أن عقرها كان السبب المباشر لهلاكهم[2].

والعقر: ضرب قوائم البعير أو الشاة بالسيف[3].

وأطلق العقر مكان النحر من باب إطلاق اسم المسبب على السبب.

وعلى الرغم من استجابة سيدنا صالح عليه السلام لقومه في إخراج الناقة لهم، وتحذيره إياهم، فإنهم كانوا قومًا مفسدين، فلم يستجيبوا لنداء الله تعالى ولا لتحذير رسوله فعقروا هذه الناقة. ويأتي البيان الإلهي ليصف هذا التعدي على حدود الله

(١) انظر: التحرير والتنوير ٩/ ٢٩١.

(٢) انظر: أسباب هلاك الأمم، سعيد سيلا، ص٤٠٣.

(٣) انظر: لسان العرب ٥/ ٣٠٣٥.

وعاقبة ذلك. لنتأمل الآيات الثلاث الآتية:

١. ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ [هود:٦٥].

٢. ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الشعراء:١٥٧].

٣. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾﴾ [الشمس:١٤].

فالآية الأولى تحدثت عن وعد صالح عليه السلام لهم بالعذاب جزاء فعلتهم، ثم تأتي الآية الثانية لتعبر عن ندمهم لأنهم أدركوا أن العذاب واقع لا محالة. أما الآية الثالثة فجاءت بالعذاب مباشرة.

﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾. إذن جاء التدرج الزمني للأحداث عبر الآيات الثلاث من الوعد بالعذاب.. إلى اقتراب هذا العذاب حيث لا ينفع الندم.

وأخيرًا وقوع هذا العذاب، ومع أن هذه الآيات متباعدة من حيث النزول ومن حيث الترتيب في القرآن فقد جاءت متناسقة ومتدرجة وتعبر تعبيرًا دقيقًا عن حقيقة هذه القصة.

وقد أسند العقر إلى قوم ثمود جميعًا مع أن الذي باشره شخص واحد منهم كما في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾﴾ [الشمس:١١-١٢].

وذلك لأنهم كلهم متواطئون راضون على عقرها.

قال الطبري رحمه الله: «عن رضى جميعهم قتلها قاتلها وعقرها من عقرها، ولذلك نسب التكذيب والعقر إلى جميعهم»[1].

وقد سعى في قتل الناقة تسعة رجال من ثمود كانوا يحرضون من قتلها يدفعونه دفعًا.

قال تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾ [القمر:٢٩].

وبهذا فالقبيلة مشتركة في قتلها جميعًا لا ذلك الرجل العارم[2]، ولا التسعة المفسدون.

قال الطبري رحمه الله تعالى: إن الذي عقر الناقة أشقى ثمود يسمى قدار بن سالف، وكان أحد التسعة المفسدين الذين قال تعالى فيهم: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النمل:٤٨].

وقد جاءت صفته في الحديث الصحيح الذي ذكره الإمام البخاري في صحيحه، عن عبد الله بن زمعة رضي الله عنه قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الناقة

(١) جامع البيان ١٥/ ١٤.
(٢) العارم: هو الشرير المفسد الخبيث. وقيل: القوى الشرس.
انظر: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير ٣/ ٢٢٣.

وذكر الذي عقرها فقال: (إذا انبعث أشقاها انبعث لها رجل عارم منيع في رهطه مثل أبي زمعة)[1] الذي ظن أن منعته في قومه تحميه من العذاب الموعود به على عقر الناقة، فكانت جريمته هذه والتي مالأه عليها قومه سببًا في إنزال الهلاك بهم، فآتاهم الله سبحانه وتعالى بعذاب الصيحة، فهي صيحة واحدة قطعت نياط قلوبهم وتركتهم أجسادًا هامدة. أما ولد الناقة فيقال: إنهم ذبحوه مع أمه، وقال آخرون: إنه دخل في صخرة فغاب فيها، والله أعلم.

قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف:٧٧].

فلما فعلوا ذلك وبلغ الخبر صالحًا فجاءهم وهم مجتمعون، فلما رأى الناقة بكى، وقال: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾[هود:٦٥].

خامسًا: قوم ثمود يسعون في قتل رسولهم:

فعزم بعدها التسعة رجال هؤلاء على قتل صالح، فلما عزموا على ذلك وجاءوا من الليل ليفتكوا به، فأرسل الله سبحانه وتعالى عليهم حجارة فقتلتهم قبل قومهم. فأحبط الله بذلك مخططات القوم الكافرين وخدعتهم، وأنقذ صالحًا من بين يدي من أرادوا به سوءًا[2].

وبقي قومه على إعراضهم وعدم رغبتهم في الاستجابة له، أخبرهم بما سيصيبهم من هلاك خلال ثلاثة أيام.

قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ [هود:٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ [هود:٦٧-٦٨].

فصاروا صرعى لا أرواح فيهم. ولم يفلت منهم أحدًا،لا صغير ولا كبير ولا ذكر ولا أنثى[3].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾، ٤/ ١٤٨، رقم ٣٣٧٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، ٤/ ٢١٩٠، رقم ٢٨٥٥.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١/ ٧٧.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٤٤٢.

نعم الله على قوم ثمود وموقفهم منها

أنعم الله تعالى على ثمود بنعم جليلة توجب شكرها، لكن كان لثمود موقفٌ منها نوضحه فيما يأتي:

أولًا: نعم الله تعالى على ثمود:

بعد أن وجه سيدنا صالح عليه السلام قومه إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعباده، شرع يذكرهم بنعم الله جلّ وعلا عليهم بأنه أنشأ آباهم آدم من التراب.

وقال لهم أيضًا: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾ [هود:٦١].

أي: هو الذي خلقكم، فأنشأكم من الأرض، وجعلكم عمارها، أي: أعطاكموها بما فيها من الزروع والثمار، فهو الخالق الرزاق، فهو الذي يستحق العبادة وحده لا سواه.

﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ﴾ أي: أقلعوا عما أنتم فيه، وأقبلوا على عبادته فإنه يقبل منكم، ويتجاوز عنكم.

﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ أي: وجعلكم عُمَّارًا فيها من العمران، فقد كانوا زُرَّاعًا وصُنَّاعًا وبنائين، ﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ٨٢﴾ [الحجر:٨٢].

وقيل: ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ﴾ من العمر، أي: أطال أعماركم فيها، والصحيح الأول.

واستعمرهم في الأرض، أي: جعلهم عمارها بعد من كانوا فيها من سلفكم وأبيدوا، وأطال أعمارهم فيها حيث كانت أعمارهم تتراوح ما بين ثلاثمائة سنة إلى ألف سنة، فكانوا ينجرون الحجارة ويتخذون لأنفسهم من الجبال بيوتًا، أي: يخرقونها في الجبال، ولذلك عدلوا عن بناء الطين[(١)].

وقيل: ومعنى الإعمار: أنهم جعلوا الأرض عامرة بالبناء والغرس والزرع؛ لأن ذلك يعد تعميرًا للأرض، حتى سمي الحرث عمارة؛ لأن المقصود منه عمر الأرض[(٢)].

كانت لثمود حضارة عمرانية واضحة المعالم، فقد كانوا مهرة في نحتهم الجبال واتخاذها بيوتًا، يسكنون فيها في الشتاء؛ لتحميهم من الأمطار والعواصف التي تأتي إليهم من حين لآخر واتخذوا من السهول قصورًا يقيمون فيها في الصيف. كما مهارة ظاهرة في البناء وقدرة على العمارة لا زالت ماثلة إلى يومنا هذا من نقوش على الحجر، وقطع في واجهات الصخور تنم عن قدرة عظيمة على النحت[(٣)].

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي

(١) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ١٤٠.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٢٨٨.
(٣) انظر: المصدر السابق.

﴿ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف:٧٤].

وقال تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الشعراء:١٤٩].

يقول ابن كثير: بينما كانوا حاذقين ومهرة في البناء والنقش، ألا أنهم جعلوها للمباهاة والفخر؛ أشرًا وبطرًا وعبثًا[1].

وقال تعالى في حقهم أيضًا: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الحجر:٨٢].

قال ابن كثير: أي: من غير احتياج إليها، بل أشرًا وبطرًا وعبثًا[2].

وقال تعالى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾﴾ [الفجر:٩] أي: نحتوا الصخر[3].

وأنعم الله عز وجل على ثمود بنعم كثيرة لا تعد ولا تحصى، فأعطاهم الأرض الخصبة، والماء العذب الغزير، والحدائق والنخيل، والزروع والثمار. قال سبحانه وتعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾ [الشعراء:١٤٦-١٤٨].

أي: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾ في الدنيا من العذاب ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا﴾ أي: ثمرها الذي يطلع منها ﴿هَضِيمٌ﴾ قال ابن عباس: لطيف يانع نضيج، وقيل: هو اللين الرخو. وقيل: متهشم يتفتت إذا مس. وقيل: الهضيم هو الذي دخل بعضه في بعض من النضج أو النعومة[4].

قال الله تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود:٦١].

أمرهم بالاستغفار، أي: طلب غفران الذنوب من الله جلّ وعلا والتوبة إليه؛ لأنّه تواب رحيم قريب مجيب.

فإن ما فصل من فنون الإحسان داع إلى الاستغفار عما وقع منهم من التفريط والتوبة عما كانوا يباشرونه من القبائح[5].

ومن تفنن الأسلوب أن جعلت هذه النعم علة لأمرهم بعبادة الله وحده بطريق جملة التعليل، وجعلت علة أيضًا للأمر بالاستغفار والتوبة بطريق التفريع[6].

وتدل الآثار الموجودة الآن في مدائن صالح على ما كانوا فيه من رغد العيش، تدل عليه واجهات الغرف الجميلة التي نحتها الثموديون في الحجر داخل الصخور، والتي

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير،٣/ ٣٥٦.
(٢) المصدر السابق ٤/ ٥٤٣.
(٣) المصدر السابق.
(٤) لباب التأويل، الخازن، ٣/ ٣٣٠.
(٥) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٣/ ٣٦٣.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٢٨٨.

تحتوي على أشكال بديعة وعلى سلالم وزخارف وأشكال حيوانات كالأسود والطيور.

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف:٧٤].

ومع هذا العمران والحياة الطيبة كانوا مفسدين مشركين.

ثانيًا: موقف ثمود من نعم الله تعالى عليهم:

١. الجحود.

لم تقابل ثمود نعم الله تعالى عليها بالشكر والعرفان، بل قابلوا هذه النعم بالجحود والكفران والنكران، فأرسل الله تعالى إليهم أخاهم صالحًا عليه السلام، فدعاهم إلى عبادة الله وحده ونبذ عبادة الأصنام، فكذبوه وطالبوه بآية دالة على صدقه صلفًا وتكبرًا وعنادًا، فآتاهم الله تعالى الناقة آية بينة وحجة بالغة.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾ [القمر:٢٣-٢٦].

ويروي لنا القرآن أن ثمودًا كذبوا واستهتروا بالنذر التي أرسلها الله إليهم مثل عاد، فلاقوا نفس المصير.

وقال تعالى: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود:٦٢] يعني: إنا مرتابون في قولك، من أرابه، إذا أوقعه في الريبة، وهي: قلق النفس ووقوعها في التهمة[1].

٢. المعاداة.

بدأ قادة ثمود وكبراؤها المعاداةلسيدنا صالح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وقد كان صالح فردًا من أفراد القوم، إلا أن قومه لم يكونوا يتوقعون أن يأتيهم بدين الحق، لذلك فقد فوجئوا عندما سمعوا دعوته وأنه هجر ما كانوا عليه من الانحراف والضلال، كان أول ما جابهوه به أن قذفوه وشتموه.

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف:٧٥-٧٦].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ [هود:٦٢].

(١) لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٤٩١.

واستجاب له القليل من القوم، إلا أن غالبية القوم لم يقبلوا دعوته، وكان أشدهم عداوة علية القوم وزعماؤهم، غضبوا من صالح لأنه دعاهم لعبادة الله، فكذّبوه وحاولوا أن يضطهدوا الذين آمنوا معه ويعذبوهم، ولم تكن ثمود أول من يفعل ذلك، فهم يكررون الخطأ الذي وقع فيه كلٌّ من قوم نوح وعاد الذين عاشوا قبلهم، لهذا نجد أن القرآن يقرن بين هؤلاء الأقوام الثلاثة.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩﴾ [إبراهيم:٩].

عاقبة قوم ثمود

تحدث القرآن الكريم عن عاقبة قوم ثمود، وذكر أن الله أهلكهم، وأن هذا الإهلاك مر بمراحل، وهي:

أولًا: التحذير والإنذار من الإهلاك:

ورد تحذير سيدنا صالح عليه السلام لقومه بعبارة ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ﴾ في ثلاثة مواضع من كتاب الله عز وجل، محذرًا قومه ثمود، وأنه سيأخذهم عذاب أليم قريب عظيم.

قال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف:٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ۝٦٤﴾ [هود:٦٤].

وقال عز وجل: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥٦﴾ [الشعراء:١٥٦].

فهو حذرهم أولًا من ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ولكنهم لم يستجيبوا لهذا التحذير، فأكد لهم بعدها بقوله: ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ أي: أن عذاب الله قد اقترب، ولن تمهلوا[1]، ولكنهم لم يبالوا بهذا النداء، فجاءهم التحذير الأخير ليصف أن اليوم الذي ينتظرهم قد اقترب

(١) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٦٠.

كثيرًا فقال لهم: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، فأكد صدق هذا الوعد بكلمة ﴿يَوْمٍ﴾، وأنه سيحل بكم من الله يوم عظيم عذابه[1].

ثانيًا: إهلاك قوم ثمود:

ذكر الله سبحانه وتعالى كيفية إهلاك قوم صالح في سور كثيرة؛ كهود والأعراف والحاقة والذاريات والشمس، وغير ذلك.

قصّ الله سبحانه وتعالى علينا ما بلغه قوم ثمود من الارتقاء والقوة، فأخبر أن صالحًا عليه السلام قال لقومه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف:٧٤].

ولكن القوم كفروا وأعرضوا عما قاله لهم أخوهم صالح عليه السلام؛ فكانت النتيجة أن أخذهم العذاب: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأعراف:٧٨].

وقد وصف الله عز وجل عذاب ثمود بعدة صفات، منها:

١. الصاعقة.

قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [فصلت:١٣-١٤].

في هذه الآيات السابقة يذكر الله سبحانه وتعالى أنه عذب عاد وثمود بالصاعقة.

والصاعقة: هي الصوت الشديد من الجو وما ذكر من أنها العذاب، أو النار، أو الموت، هي تأثيرات من الصاعقة[2].

فالصاعقة تطلق على الحادثة المبيرة الشديدة الإهلاك[3].

وقد يريد بها مطلق العذاب[4].

وأضيفت الصاعقة هنا إلى عاد وثمود، وعاد لم تهلكهم الصاعقة، وإنما أهلكهم الريح، وإنما ثمود من أهلكوا بالصاعقة، فاستعمالت الصاعقة هنا في حقيقتها ومجازها[5].

٢. الصيحة.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي

(١) انظر جامع البيان، الطبري، ١٧/ ٦٢٨.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٢٨١.

(٣) انظر: تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة ص ٥٠١، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٢٤٥٠.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢/ ٢٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٨.

(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٢٥٢.

﴿دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٧﴾ [هود:٦٧].

والصيحة: هي الصوت الشديد المرتفع، وأصله من تشقيق الصوت، ومن قولهم: إنصاح الخشب أو الثوب إذا انشق وسمع منه صوت[1].

وقال الألوسي: والصياح من صاح يصيح إذا صوت بقوة[2].

فأخبرت الآيات أن عذاب ثمود كان بالصيحة، كما قال سبحانه في موضع آخر: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ٨٣﴾ [الحجر:٨٣].

٣. الطاغية.

وكذلك سميت الصيحة هذه التي أصابت ثمود في موضع آخر من القرآن الكريم بالطاغية.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ٥﴾ [الحاقة:٥].

والطاغية: من الطغيان، وهو مجاوزة الحدّ[3].

وفي تفسير الطاغية أقوال:

قيل: سميت الطاغية؛ لأنها تجاوزت الحد في قوة الصوت[4].

وقيل: سميت بذلك بسبب طغيانهم[5].

قال صاحب أضواء البيان: «وقد اختلف في معنى الطاغية فقالوا: الطاغية عقر الناقة، كما في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ١٢﴾ [الشمس:١١-١٢].

فتكون الباء سببية، أي: بسبب طاغيتها.

وقيل: الطاغية: الصيحة الشديدة التي أهلكتهم، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ٣١﴾ [القمر:٣١].

فتكون الباء آلية، كقولك: كتبت بالقلم وقطعت بالمسكين.

والذي يشهد له القرآن هو المعنى الثاني لقوله تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ ٤٣ فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ٤٤﴾ [الذاريات:٤٣-٤٤]»[6].

٤. الرجفة.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٧٨﴾ [الأعراف:٧٨].

الرجفة: هي الزلزلة الشديدة[7]، من الرجف، وهو الاضطراب الشديد.

وقيل: هي هنا بمعنى: الصيحة

---

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٨٩.
وانظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٢٥٣٢.
(٢) روح المعاني، الألوسي ١٢/ ٩٦.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٨/ ٢٥٧.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٩.
(٥) انظر: المصدرين السابقين.
(٦) فتح القدير، ٨/ ٢٥٧.
(٧) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢٤٢.

الشديدة[1].

أو: هي الصيحة التي تزلزلت لها الأرض[2].

وأما قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ فهو من الجثوم: عدم الحراك، أي: خامدين لا حراك لهم[3]، وخمدوا من شدة العذاب.

وقال بعضهم أصبحوا كالرماد الجاثم[4].

[انظر: صالح: عاقبة قوم صالح عليه السلام]

موضوعات ذات صلة:

بنو إسرائيل، صالح، عاد

(١) انظر: المصدر السابق، مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ١٦٥.

(٢) انظر: مدارك التأويل، النسفي، ٢/ ٥٧٠.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢٤٢.

(٤) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، ٢/ ٣٥١.





عناصر الموضوع

مفهوم الثواب

أولًا: المعنى اللغوي:

الثواب اسم للمصدر؛ لأنّ مصدر الثلاثي ثوبٌ وثوبانٌ، ومصدر الرباعي إثابة، وفعل الثواب ثلاثي أجوف معتل العين، ولفظ الثواب في اللغة جاء على عدة معانٍ أبرزها: العود والرجوع، والاجتماع، والجزاء[(١)].

المعنى الأول: العود والرجوع، قال ابن فارس: «الثاء والواو والباء قياسٌ صحيحٌ من أصلٍ واحد، وهو العود والرّجوع. يقال: ثاب الرّجل يثوب ثوبًا وثوبانًا، أي: رجع بعد ذهابه، ويقال: ثاب فلانٌ إلى الله، وتاب، بالثّاء والتّاء، أي: عاد ورجع إلى طاعته».

المعنى الثاني: الاجتماع واللجوء، يقال: ثاب الناس، أي: اجتمعوا وجاءوا. وثاب ماله، أي: كثر واجتمع. وثاب القوم: أتوا متواترين -أي: مجتمعين-. وكذلك الماء إذا اجتمع في الحوض، يقال: ثاب الماء في الحوض، أي: اجتمع فيه.

المعنى الثالث: الثّواب والمثوبة يراد به أيضًا مطلق الجزاء في الخير والشّرّ لا جزاء الطّاعة فقط، قال ابن الأثير: «الثّواب، يكون في الخير والشّرّ، إلّا أنّه بالخير أخصّ وأكثر استعمالًا».

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قيل: الثواب: هو إعطاء ما يلائم الطبع[(٢)].

أو الثّواب: الجزاء كيف ما كان من الخير والشّر، إلّا أن استعماله في الخير أكثر[(٣)].

من خلال تلك التعريفات يتبين لنا أنّ الثواب هو النتيجة النهائية لعمل الإنسان وما تجنيه عليه نفسه، فإن أساء في عمله سيكون ثوابه وجزاؤه شرًّا، وإن أحسن في عمله سيكون ثوابه وجزاؤه خيرًا.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٣٩٣، مختار الصحاح، الرازي ص٩٠، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٢٤٣، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٦٤، تاج العروس، الزبيدي ٢/ ١٠٣.

(٢) التعريفات، الجرجاني ص ٧٢، القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ص٧٢

(٣) الكليات، الكفوي ص٣٢٨.



الثواب في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ثوب) في القرآن الكريم (٢٨) مرة، يخصّ موضوع البحث منها (١٩) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٤	﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [المائدة:٨٥]
المصدر	١٥	﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥﴾[آل عمران:١٩٥]

وجاء الثّواب في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي، وهو: ما يرجع إلى الإنسان من جزاء أعماله[٢] سواء كان فتحًا، أو وعدًا، أو زيادة، أو منفعة[٣].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص١٦٢.
(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٣٣٧.
(٣) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص١٤٧-١٤٨.

الألفاظ ذات الصلة

١ الأجر:

الأجر لغة:

يطلق الأجر في اللغة على عدة معانٍ، منها: الجزاء على العمل، والثواب.

والأجر: الجزاء على العمل. والأجر الثواب، تقول: أجره الله يأجره ويأجره أجرًا من باب ضرب ونصر إذا (جزاه) وأثابه وأعطاه الأجر. فالفعل أجر يأجر أجرًا، والمفعول مأجورٌ. والأجير: المستأجر. والإجارة ما أعطيت من أجرٍ في عملٍ[١].

الأجر اصطلاحًا:

الأجر والأجرة: ما يعود من ثواب العمل دنيويًّا كان أو أخرويًّا، نحو قوله تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [يونس: ٧٢].

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [يوسف: ٥٧].

وكلاهما -أي: الأجرة والأجر- يقال فيما كان من عقد وما يجرى مجرى العقد، ولا يقال إلاّ في النفع دون الضرّ، نحو ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ﴿فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[٢].

الصلة بين الأجر والثواب:

الثواب والأجر يوجد بينهما ترادف، فكلاهما جزاء للعمل الذي يعمله الإنسان، غير أن الأجر أخص من الثواب؛ لأن الأجر لا يكون إلا في مقابل العمل الذي فيه النفع والخير، والثواب يكون في مقابل العمل الذي فيه النفع والخير، وكذلك العمل الذي فيه ضرر وشر. إلا أنّ إطلاق الثواب -في مقابل العمل الذي فيه النفع والخير- أكثر، والأجر يقال غالبًا فيما كان من عقد وما يجرى مجرى العقد[٣].

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٢/ ٥٧٦، مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٦٣، المصباح المنير، الفيومي ١/ ١٣، تاج العروس، الزبيدي ١٠/ ٢٤.

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ١/ ٦٤، بصائر ذوي التمييز، الفيوزآبادي ١/ ١٣١، الكليات، الكفوي ص٤٨.

(٣) وبمعنى آخر أنّ الثواب يكون جزاءً لمطلق العمل إن خيرًا فيكون الثواب خيرًا، وإن شرًّا فيكون الثواب شرًّا، إلا أنّ الثواب قد شهر في الجزاء على العمل الذي فيه الخير والنفع،، أما الأجر فلا يقال إلا جزاءً للعمل النافع الذي فيه خير.

٢ العقاب:

العقاب لغة:

العقاب مأخوذ من (عقب): العين والقاف والباء أصلان صحيحان: أحدهما يدل على تأخير شيء وإتيانه بعد غيره. والأصل الآخر يدل على ارتفاع وشدة وصعوبة[١].

العقاب اصطلاحًا:

العقاب: هو جزاء الشّرّ، والنكال أخص منه[٢]، أو هو ما يلحق الإنسان بعد الذّنب من المحنة في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معًا[٣].

الصلة بين العقاب والثواب:

إنّ العقاب يكون على فعل الشر، أما الثواب فيكون على فعل الشر والخير إلا أنه في الخير أكثر، وعلى هذا فالثواب أعم والعقاب أخص منه.

٣ الجزاء:

الجزاء لغة:

المكافأة على الشيء[٤].

الجزاء اصطلاحًا:

هو الغناء والكفاية والمكافأة بالشيء وما فيه الكفاية من المقابلة إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر، ومنه قوله تعالى: ﴿لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔا﴾ [لقمان:٣٣][٥].

الصلة بين الثواب والجزاء:

كلا اللفظين يكونان في الخير والشر، فالثواب يكون على عمل الخير والشر، وكذلك الجزاء، إلا أن الغالب استعمال الثواب في مقابلة الخير، واستعمال الجزاء في مقابلة الشر.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٧٧.
(٢) الكليات، الكفوي ص٦٥٤.
(٣) انظر: كشاف اصطلاحات الفنون، التهاوني ٢/ ١١٩٢.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ١٤٣، الكليات، الكفوي ص ٣٥٦، تاج العروس، الزبيدي ٣٧/ ٣٥١.
(٥) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٩٥، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٣٨٠.

الثواب من الله

إنّ الحق سبحانه وتعالى خلق الإنسان في هذه الحياة الدنيا، وهيأ له من الأسباب والوسائل ما يعينه على أداء مهمته في الحياة الدنيا من عبادة لله، وتعمير للأرض، وإصلاح للنفس وتهذيبها، كل ذلك طمعًا في تفضّل الحق سبحانه وتعالى وإكرامه بالمثوبة والمكافأة من عنده سبحانه، فهو الخالق الرازق، الذي يعطي كل ذي حق حقه، وهو بيده مقاليد السماوات والأرض، وهو على كل شئ قدير.

فالإنسان المؤمن الحقيقي يسعي في عبادته ومعاملاته وأخلاقه وكل شئونه في نيل الثواب من الله، ولكن شغف بعض الناس بالحياة الدنيا يجعله يلهث وراءها وما تجلبه من سعادة خادعة وفرح مكذوب، ويرجو أن يحصل على منافع الدنيا فقط، فيعمل العمل يرجو فقط المثوبة الدنيوية من أولاد أو مال أوجاه أو سلطان أو نحو ذلك.

فالحق سبحانه يهيىء له ما يجعله يحصل على مثوبة الدنيا كما أراد -وإن كان سيحرم من الآخرة كما في حالة الكافر-؛ لأن الثواب والمكافأة من الله في كل الأحوال سواء طلب الإنسان ثواب الدنيا فقط أم طلب ثواب الدنيا والآخرة.

وهذا المعنى أشارت إليه غير آية من القرآن، فيقول جل جلاله: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾[آل عمران: ١٤٥]

فالحق يقول لنا: من يرد منكم أيها المؤمنون بعمله جزاء من الحق جل جلاله يتمثل هذا الجزاء فقط في بعض أعراض الدنيا دون ما عند الله من الكرامة والنعيم في الآخرة.

﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أي: يعطه الحق من الدنيا ما قسم له فيها من رزق أيام حياته، ثم لا نصيب له في كرامة الله التي أعدها لمن أطاعه، وطلب ما عنده في الآخرة.

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ﴾ أي: ومن يرد منكم بعمله جزاء من الحق جل جلاله يتمثل في ثواب الآخرة، مما عند الله من نعيمه وكرامته التي أعدها للعاملين له في الآخرة.

﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أي: يعطه من الآخرة؛ من كرامة الله التي خص بها أهل طاعته في الآخرة[1].

فعند الله ثواب الدارين: الدنيا والآخرة، فمن قصد الدنيا فقط، أعطاه الله من الدنيا ما قدّر له، وكان له في الآخرة العذاب، كالمجاهد الذي يريد بجهاده الغنيمة فقط أو نصرة راية غير إسلامية، فيأخذ الغنيمة ويحقق المطمع الدنيوي الرخيص، وليس

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ١٠٨.

له في عالم القيامة إلا النار، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا﴾ لكل قول، ﴿بَصِيرًا﴾ بكل قصد وعمل، فعلى الإنسان أن يخلص في عمله لله تعالى، ويكون قصده إرضاء الله عز وجل، ولا مانع أن يقصد بعمله وجهاده معًا ثواب الدنيا ومكافآتها، وثواب الآخرة ونعيمها الخالد في الجنة[(١)].

وفي ذلك تعليم للمؤمنين أن لا يصدهم الإيمان عن طلب ثواب الدنيا، إذ الكل من فضل الله، ويجوز أن تكون تذكيرًا للمؤمنين بأن لا يلهيهم طلب خير الدنيا عن طلب الآخرة؛ إذ الجمع بينهما أفضل، وكلاهما من عند الله أو هي تعليم للمؤمنين أن لا يطلبوا خير الدنيا من طرق الحرام، فإن في الحلال سعة لهم ومندوحة، وليتطلبوه من الحلال يسهّل لهم الله حصوله؛ إذ الخير كله بيد الله، فيوشك أن يحرم من يتطلبه من وجه لا يرضيه أو لا يبارك له فيه[(٢)].

وفي الآية ملمح لحقيقة هذا الدين مفاده أنّ الدعوة للعمل لخيري الدنيا والآخرة دليل على أن الإسلام كفل لأتباعه وكل من سار على هديه سعادة الدنيا والآخرة، وهذا المنهاج المتوازن والخط المعتدل هو قوام الحياة الإسلامية القرآنية التي تعتمد الدنيا وسيلة ومزرعة، والآخرة مقصدًا وغاية، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أعمالهم في دنياهم، وينشدون ثواب الله في آخرتهم[(٣)].

وهذه الآية وإن نزلت في الجهاد خاصة لكنها عامة في جميع الأعمال؛ ذلك لأن الأصل في ذلك كله يرجع إلى نية العبد، فإن كان يريد بعمله الدنيا فليس له جزاء إلّا فيها، وكذلك من أراد بعمله الدار الآخرة فجزاؤه أيضًا فيها[(٤)].

فالتعبير بقوله: ﴿يُرِدْ﴾ دليل على أن الإرادة للشخص هي التي تكيّف العمل، فتارة يكون خيرًا، وتارة يكون شرًّا؛ ولذلك روي عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إنّما الأعمال بالنيات، وإنّما لكل امرئٍ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه)**[(٥)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(من كانت نيته طلب الآخرة جعل الله غناه في قلبه،**

(١) التفسير الوسيط، الزحيلي ١/ ٣٩٢.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٢٢٤.
(٣) التفسير الوسيط، الزحيلي ١/ ٣٩٣.
(٤) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ٣٠٥، التفسير الواضح، حجازي ١/ ٢٩١.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، رقم ١، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إنما الأعمال بالنية) رقم ١٩٠٧.

وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت نيته طلب الدنيا جعل الله الفقر بين عينيه، وشتّت عليه أمره، ولا يأتيه منها إلا ما كتب له)[1].

فالحق يقول: إن لنيل ثواب الدنيا سننًا ولنيل ثواب الآخرة سننًا، فمن سار على سنن واحدة منهما وصل إليها، فإذا كان المشركون قد استظهروا على المسلمين -يعني: في غزوة أحد- في هذه المرة فلأنهم طلبوا بعملهم الدنيا وأخذوا له أهبته من حيث قد قصّر المسلمون في اتباع السنن في ذلك بمخالفة الرسول.

كما أنه يقول لأولئك الذين ضعفوا وفشلوا وانقلبوا على أعقابهم: ما الذي تريدونه بعملكم هذا؟ إن كنتم تريدون ثواب الدنيا فالله لا يمنعكم ذلك، وما عليكم إلا أن تسلكوا طريقه، ولكن ليس هذا هو الذي يدعوكم إليه محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما يدعوكم إلى خير ترون حظًا منه في الدنيا، والمعوّل فيه على ما في الآخرة. فالمسألة معكم بين أمرين: إرادة الدنيا وإرادة الآخرة، كل يريد أمرًا، ولكل أمر سنن تتّبع، ولكل دار طريق تسلك[2].

وهذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠٠-٢٠٢].

وفيها بيان أن من يطلب الدنيا وحدها ولا يعمل للآخرة عملها فليس له في الآخرة من نصيب، وأن من هدي الإسلام أن يطلب المرء خير الدنيا وخير الآخرة ويقول: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ فالإنسان يطلب ويريد بحسب سعة معرفته، وعلو همته، ودرجة إيمانه، وله ما يريد كله أو بعضه، بحسب سنن الله وتدبيره لنظام هذه الحياة[3].

وعلى الإنسان أن يعلم أن له طورين: طور عاجل قصير، وهو طور الحياة الدنيا، وطور آجل أبدي، وهو طور الحياة الآخرة، وسعادته في كل من الطورين مرتبطة بإرادته وما توجهه إليه من العمل، فالناس إنما يتفاضلون بالإرادات والمقاصد: فقوم يحاربون حبًا في الربح والكسب، أو ضراوة بالفتك والقتل، فإذا غلبوا أفسدوا

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب القيامة، باب رقم ١٤، ٧/ ١٦٥. وفيه يزيد الرقاشي وهو ضعيف، وله شاهد عند ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت في الزهد، باب الهم في الدنيا، رقم ٤١٠٥، ٢/ ١٣٧٥. قال البوصيري في الزوائد: «إسناده صحيح ورجاله ثقات».

(٢) المنار، محمد رشيد رضا، ٤/ ١٣٨.

(٣) المصدر السابق ٤/ ١٣٨.

في الأرض وأهلكوا الحرث والنسل، وقوم يحاربون دفاعًا عن الحق وإقامة لقوانين العدل، فإذا غلبوا عمروا الأرض وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، فهل يستوى الفريقان، وهما في المقصد مفترقان؟

كذلك يطلب الرجل الربح والكسب أحيانًا بكل وسيلة مستطاعة طلبًا للذاته، والحصول على شهواته، فيغلو في الطمع، ويمعن في الحيل، ولا يبالي أمن الحرام أكل أم من الحلال؟ يأكل الربا أضعافًا مضاعفةً، فيجمع القناطير المقنطرة، وهو مع ذلك يمنع الماعون، ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ٣].

ولو سئل البذل في المصالح العامة كان أشد الناس بخلًا وأقبضهم كفًا، بينا يطلب آخر الكسب طلبًا للتجمل وحبًّا للكرامة في قومه وعشيرته، فيقتصد في الطلب، ويتحرى الربح الحلال، ويلتزم الصدق والأمانة، ويبتعد عن الفسوق والخيانة، وهو مع هذا ينفق مما أفاء الله به عليه، فيواسي البائسين، ويساعد المعوزين، وتكون له اليد الطّولى في الأعمال النافعة لأمته، فيشيد لها المدارس والمعابد، والملاجيء والمستشفيات، فهل ينظر الناس إلى هذين نظرة متساوية، وهل هما في القرب عند الله بمنزلة واحدة، أو يفضل أحدهما الآخر بحسن القصد والإرادة والميل إلى الخير وحب المصلحة العامة[١].

وقصارى القول إن أقدار الرجال تتفاوت وتختلف باختلاف إرادتهم، فبينما تتسع دائرة وجود الشخص بحسب كبر إرادته وسعة مقصده، فتحيط بالكرة الأرضية، بل فوق ذلك بما يكون له من الكرامة في العالم العلوي- إذا بآخر تضيق دائرة وجوده إذا هو أخلد إلى الشهوات، وركن إلى اللذات، فيكون حظه من عمله كحظ الحشرات، يأكل ويشرب ويبغي على الضعيف ويخاف من القوي. والله قد جعل عطاءه للناس معلقًا على إرادتهم، ولا يقدر مثل هذا إلا القليل منهم[٢].

فشتان بين حياة وحياة! وشتان بين اهتمام واهتمام! -مع اتحاد النتيجة بالقياس إلى العمر والأجل- والذي يعيش لهذه الأرض وحدها، ويريد ثواب الدنيا وحدها، إنما يحيا حياة الديدان والدواب والأنعام! ثم يموت في موعده المضروب بأجله المكتوب. والذي يتطلع إلى الأفق الآخر، إنما يحيا حياة الإنسان الذي كرّمه الله واستخلفه وأفرده بهذا المكان، ثم يموت في موعده المضروب بأجله المكتوب، كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥].

(١) تفسير المراغي ٤/ ٩١.
(٢) المصدر السابق ٤/ ٩٢.

﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ الذين يدركون نعمة التكريم الإلهي للإنسان، فيرتفعون عن مدارج الحيوان ويشكرون الله على تلك النعمة، فينهضون بتبعات الإيمان.

وهكذا يقرر القرآن حقيقة الموت والحياة، وحقيقة الغاية التي ينتهي إليها الأحياء، وفق ما يريدونه لأنفسهم، من اهتمام قريب كاهتمام الدود، أو اهتمام بعيد كاهتمام الإنسان! وبذلك ينقل النفس من الانشغال بالخوف من الموت والجزع من التكاليف -وهي لا تملك شيئًا في شأن الموت والحياة- إلى الانشغال بما هو أنفع للنفس، في الحقل الذي تملكه، وتملك فيه الاختيار. فتختار الدنيا أو تختار الآخرة. وتنال من جزاء الله ما تختار[1]!.

ولقد جاء هذا المعنى نفسه في آية أخرى في سورة الشورى فقال سبحانه أيضًا: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٤٢-٢٠].

فمن يزرع في النشأة الأولى بذور الأعمال الصالحة والأخلاق الحميدة ليحصد ما يترتب عليها من المثوبات والكرامات في النشأة الأخرى ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ ونضاعف ثوابها لأجله ونعطه من اللذات الروحانية ما لا مزيد عليه تفضلًا

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٨٧.

منًا عليه وتكريمًا له، ﴿وَمَن كَانَ﴾ منهم ﴿يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا﴾ ونوى نماء بذوره فيها ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ كمال مبتغاه ومتمناه فيها؛ إذ لكل امرئ ما نوى ولكن ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ﴾ من اللذات الجسمانية والروحانية الباقية ﴿مِن نَّصِيبٍ﴾ لاختياره لذات الدنيا وشهواتها الفانية على ما في الآخرة من اللذات الروحانية الباقية؛ لذلك ليس له في الآخرة نصيب من خيراتها الباقية، ونعيمها الدائم.

ولم يذكر في عامل الآخرة أن رزقه المقسوم يصل إليه للاستهانة بذلك إلى جنب ما هو بصدده من زكاء عمله وفوزه في المآب[2].

خلاصة القول: أنّ من أراد العمل لله بما يرضيه، أعانه الله على عبادته، ومن أراد الدّنيا مؤثرًا لها على الآخرة لأنه غير مؤمن بالآخرة، يؤته منها، وهو الذي قسم له، ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ لأنه كافر بها لم يعمل لها[3].

فعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(بشّر هذه الأمة بالسنا والرفعة والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب)**[4].

(٢) مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٢٥١.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٦٣.
(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ٣٥/ ١٤٥،

إذًا من يعمل العمل يبتغي به وجه الحق سبحانه وتعالى، يثيبه الله تعالى على عمله حسن الثواب والأجر؛ لأنه الكريم المتفضل على العباده، المجازاي بما يليق بعظمته وكرمه وإحسانه؛ لذا فإن الحق سبحانه يبشّر المؤمنين الذين هجروا أوطانهم فارين بدينهم، وألجأهم المشركون إلى الخروج من الديار، وتحملوا الأذى من أجل دين الله، وقاتلوا أعداء الله، وقتلوا في سبيله، أنه سيمحو ذنوبهم بمغفرته ورحمته وسيدخلهم جنات النعيم جزاءً من عند الله على أعمالهم الصالحة فالله ﴿عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ والجزاء، وهي الجنة التي فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥][1].

فقد ختم سبحانه وتعالى النص الكريم بقوله تعالى: ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ لبيان اختصاصه سبحانه بالثواب الحسن، كأن كل جزاء للأعمال في الدنيا لا يعدّ حسنًا بجوار ما أعده الله تعالى للمحسنين من عباده، وما في الدنيا من ثمرات الأعمال لا يعد شيئًا[2].

فالحق جل جلاله يرزق العبد على قدر نيته، ويمدّه على قدر همته، فمن كانت همته في الحظوظ العاجلة والشهوات الفانية، أمده الله فيها، ومتّعه بها ما شاء، على حسب القسمة، ثم أعقبه الندم والحسرة، ومن كانت همته الآخرة، أمدّه سبحانه في الأعمال التي توصله إلى نعيمها، كصلاة وصيام وصدقة وتدريس علم، وأذاقه من حلاوتها ما يهون عليه مرارتها، ثم أعقبه النعيم الدائم من القصور والحور، وأنواع الطيبات، مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

ومن كانت همته الله -أي: الوصول إلى حضرته دون شيء سواه- أمدّه الله في الأعمال التي توصله إليه، وهي أعمال القلوب من التخلية والتحلية، كالتخلية من الرذائل، والتحلية بالفضائل، وكقطع المقامات بأنواع المجاهدات....[3].

ومن خلال ما سبق نستطيع أن نعلم أن على الإنسان أن يكون مخلصًا في عمله لله تعالى، ويكون قصده إرضاء الله عز وجل دون غيره، وأن من يطلب الدنيا وحدها ولا يعمل للآخرة عملها فليس له في الآخرة من

رقم ٢١٢٣٠، والحاكم في المستدرك، ٤/ ٣١١ . وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ولم يتعقبه الذهبي. وصححه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٥٤٥، رقم ٢٨٢٥.

(١) وتمام الآية: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١٥٥٧.

(٣) البحر المديد، ابن عجيبة ٣/ ٣٥٨.

نصيب ولاحظ. كما يتبين أن ثواب الآخرة كله في غاية الحسن.

كما أنّ الذي يعيش لهذه الأرض وحدها، ويريد ثواب الدنيا وحدها، إنما يحيا حياة الديدان والدواب والأنعام! وهي حالة من لايؤمن بالآخرة ولايؤمن بالجنة والنار والحساب، وكذلك حياة المسلمين الذي استغرقتهم ملاذ الدنيا ومنافعها الزائلة حياتهم، وغفلوا عن الآخرة وما أعده الله من الثواب والجزاء الكبير فيها لعباده المؤمنين، فلا ينبغي أن يلهيهم طلب خير الدنيا عن طلب الآخرة؛ إذ الجمع بينهما أفضل، وكلاهما من عند الله.

انواع الثّواب

قلنا عند الحديث عن المفهوم اللغوي للثّواب والمثوبة أنهما يدلان على مطلق الجزاء في الخير والشّرّ، وليس جزاء الطّاعة والخير فقط، فالثّواب يكون في الخير والشّرّ، إلّا أنّه يستعمل في الخير أكثر من استعماله في الشر، والثواب دالًّا على الخير والشر قد ورد في القرآن الكريم، وهذا ما سنتاوله من خلال السطور القادمة:

أولًا: ثواب الخير:

ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦]

تشير الآية السابقة إلى أبرز لونين وأزهاهما في هذه الحياة الدنيا، التي يفتن الناس بها، وينشغلون بها عن الله، وعن الحياة الآخرة، وهما المال والبنون، وقدّم الحق سبحانه المال على البنين، لأنه المطلب الأول للإنسان، فكل إنسان طالب للمال، وليس كل إنسان طالبًا للولد، فكثير من الناس لا يطلبون الأولاد، بل يعيشون بغير سكن إلى زوجة، ولكنهم جميعًا لا يستغنون عن طلب المال، ومع هذا فإنه إذا حصل الإنسان على الولد، تعلق قلبه به، وكان الولد عنده مقدّمًا على المال! فالمال والبنون، هما أشدّ مظاهر الحياة فتنة للناس،

وأكثرها داعية لهم، وأقواها سلطانًا عليهم، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّمَا أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ..﴾ [التغابن: ١٥][1].

وفي التعبير بقوله سبحانه زينة، بيان بديع، وتعبير دقيق لحقيقتهما، فهما زينة وليسا قيمة، فلا يصح أن توزن بهما أقدار الناس، وإنما توزن أقدار الناس بالإيمان والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وهذا ردٌّ على المشركين الذين كانوا يفتخرون بالأموال والأولاد، فأخبر الله تعالى أن ذلك مما يتزيّن به في الدنيا، لا مما ينفع في الآخرة، وإنما كان المال والبنون زينة الحياة الدنيا لأن في المال جمالًا ونفعًا، وفي البنين قوة ودفعًا[2].

ثم بيّن الحق الأعمال التي تحقق ثواب الخير في الدنيا والآخرة فقال: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾

فالأعمال التي تبقى ثمراتها الأخروية، من الاعتقادات والأخلاق والعبادات الكاملات، خير عند ربك من المال والبنين، في الجزاء والفائدة وخير مما يتعلق بهما من الأمل، فإن ما ينال بهما من الآمال الدنيوية، أمرها إلى الزوال، وما ينال بالباقيات الصالحات من منازل القرب الربانيّ والنعيم الأبديّ، لا يزول ولا يحول[3].

فالباقيات وصف لموصوف محذوف، أي: والأعمال التي تبقى، ولا تفنى سريعًا، وهي صالحة في ذاتها عامرة لما بين العبد وربه أولًا، وبينه وبين الناس ويباركها الرب ثانيًا، سواء أكانت من شأنها أن تكون ذات أثر باق في الدنيا، من عمل طيب يبقى أثره بعد الموت، أم كان يرجى خيره في الآخرة، وفي الجملة الأعمال التي تكون كثيرة النفع في ذاتها ويبقى أثرها بعدها، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)[4]، هذا في الدنيا، أما في الآخرة فكل ما يحرثه العبد للآخرة يكون باقيًا، يقول عليّ رضي الله عنه: «الحرث حرثان حرث الدنيا المال والبنون، وحرث الآخرة الباقيات الصالحات، وقد يجمعهن اللّه تعالى لأقوام».

وقد حكم سبحانه بأن: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾، أي: خير فائدة وعائدة وعاقبة، وتفتح باب الأمل

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٨/ ٦٢٧.
(٢) انظر: زاد المسير ٣/ ٨٧، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٤١٣، الوسيط، طنطاوي ٨/ ٥٢٧.
(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٣٩.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثّواب بعد وفاته، رقم١٦٣١.

لخير عميم، ونعيم مقيم، وجنة خالدين فيها. وكرر كلمة ﴿خَيْرٌ﴾، لاختلاف نوعهما، فالأول عاجل في الدنيا، والثاني أمل ورجاء في الآخرة[1].

والظاهر أن ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ كل عمل خير، فلا وجه لقصرها على الصلاة كما قال بعض العلماء، ولا لقصرها على نوع من أنواع الذكر كما قاله بعض آخر، ولا على ما كان يفعله فقراء المهاجرين باعتبار السبب؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وبهذا فإن تفسير الباقيات الصالحات في الأحاديث لا ينافي إطلاق هذا اللفظ على ما هو عمل صالح من غيرها[2].

ومثلها قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم: ٧٦].

فالطاعات التي بها تنشرح الصدور، وتستنير القلوب، وتصل إلى القرب من الله، ونيل رضوان خير عند ربك منفعة وعاقبة مما متّع به أولئك الكفرة من النعم الفانية التي يفخرون بها من مال وولد وجاه ومنافع تحصل منها، فإن عاقبة الأولين السعادة الأبدية، وعاقبة أولئك الحسرة الدائمة والعذاب المقيم.

وخلاصة هذا أن الطاعات التي يبقى ثوابها لأهلها خير عند ربهم جزاء، وخير عاقبة من مقامات هؤلاء المشركين بالله وأنديتهم التي بها يفخرون على أهل الإيمان فى الدنيا[3].

فإن قلت: كيف قيل: خير ثوابًا كأنّ لمفاخراتهم ثوابًا، حتى يجعل ثواب الصالحات خيرًا منه؟ قلت: كأنه قيل: ثوابهم النار، ثم بنى عليه خير ثوابًا. وفيه ضرب من التهكم الذي هو أغيظ للمتهدد من أن يقال له: عقابك النار[4].

فلا يجوز أن يقال: هذا خير إلا والمراد أنه خير من غيره، فالمراد إذا: أنه خير مما ظنه الكفار بقولهم: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣][5].

وهكذا فإنّ الأعمال الصالحة التي يفعلها الإنسان من العبادات والمعاملات والأخلاق هي التي يكون عليها خير المثوبة

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٩/ ٤٥٣٩.
(٢) قال الإمام ابن جرير رحمه الله: «وأولى الأقوال بالصواب قول من قال: هن جميع أعمال الخير، لأن ذلك كله من الصالحات التي تبقى لصاحبها في الآخرة، وعليها يجازى ويثاب. وإن الله عز وجل لم يخصص من قوله: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ﴾ بعضًا دون بعض في كتاب، ولا بخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم». جامع البيان ١٥/ ١٦٧.
(٣) تفسير المراغي ١٦/ ٧٩.
(٤) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٨.
(٥) اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل ١٣/ ١٣١.

والجزاء من الله تعالى، وليس التفاخر بالمال والبنين وغيرهما من الزينة التي قد تتحول إلى نقمة إذا كانت مبعثًا للتفاخر والكبر والبطر، وأمثال ذلك مما لايرضي الله تبارك وتعالى، فمآل المال والجاه والثروة والسيادة إلى الحسرة والخسران وأنواع الخيبة والخذلان، ومآل العبادة إلى الجنة والغفران والرحمة والرضوان.

ثانيًا: ثواب الشر:

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

لما شد المشركون على المسلمين بأحد فهزموهم، دخل بعضهم المدينة، وانطلق بعضهم فوق الجبل إلى الصخرة فقاموا عليها، وجعل الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الناس: (إليّ عباد الله، إليّ عباد الله). فذكر الله صعودهم على الجبل، ثم ذكر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم إياهم فقال: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ...﴾[1].

وكأنه يقول للمسلمين: تستبقون إلى الهرب في مستوى الأرض، وفي بطون الأودية والشعاب، فالإصعاد: الذهاب في صعيد الأرض، أو الإبعاد فيه، والصعيد: ما على وجه الأرض من تراب وحجر ونحوهما، وقيل: هو من الصعود، وأنهم صعدوا هاربين في أحد ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ﴾ ولا تلتفتون والرّسول يناديكم وأنتم منهزمون: (إليّ عباد الله، إليّ عباد الله)، والمراد: أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يدعو المنهزمين إلى الثبات، وإلى ترك الفرار من الأعداء، وإلى معاودة الهجوم عليهم، وهو ثابت لم يتزعزع ومعه نفر من أصحابه.

﴿فَأَثَٰبَكُمْ﴾ أي: جزاكم الحق سبحانه وتعالى غمًّا، أي: هزيمة، بغمٍّ أي: مقابل غمكم للرسول -صلوات الله تعالى وسلامه عليه-، ومخالفتكم أمره. أو المعنى: غمكم بالهزيمة في أحد، مقابل غم الكافرين وهزيمتهم ببدر، وهو كقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وأصل الإثابة إعطاء الثواب، وهو شيء يكون جزاء على عطاء أو فعل، ولفظ الثواب لا يستعمل في الأعم الأغلب إلا في الخير، والمراد به هنا: العقوبة التي نزلت بهم. وسميت العقوبة التي نزلت بهم ثوابًا على سبيل الاستعارة التهكمية كما في قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[آل عمران: ٢١].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ١٢٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٣٧.

فالبشرى لا تكون إلا على الخير.

ويجوز أن يكون اللفظ مستعملًا في حقيقته؛ لأن لفظ الثواب في أصل اللغة معناه ما يعود على الفاعل من جزاء فعله، سواء أكان خيرًا أو شرًّا[1]؛ لأن الثواب يدل على مطلق الجزاء كما سبق القول.

يقول الإمام الخازن: «فمتى حملنا الثواب على أصل اللغة كان الكلام صحيحًا، ومتى حملناه على الأغلب كان على سبيل المجاز، فهو كقول الشاعر:

أخاف زيادًا أن يكون عطاؤه
أداهم سودًا أو محدرجةً سمرا

فجعل العطاء مكان العقاب؛ لأن الأداهم السود هي القيود الثقال، والمحدرجة هي السياط»[2].

وعلى كلٍّ فالمقصود تذكير للمسلمين بما كان منهم فى هذه المعركة -معركة أحد- وغمزة عتاب لهم على أن فرّوا صاعدين الجبل، لا يلوون على أحد، أي: غير ملتفتين إلى من وراءهم، وإن وراءهم إخوانًا لهم صمدوا للمشركين، واستقبلوا الموت راضين، بل وراءهم، نبيّهم يواجه العدوّ وحده في بضعة رجال من أصحابه فكيف يفرّون؟ ثم إذا كانت منهم فرّة أفلا كانت منهم لفتة إلى النبي وقد أحاط العدوّ به؟ ثم ألا كانت منهم كرّة إلى العدوّ، يدفعون يده الضاغطة على رسول الله ومن معه؟ وهل شيء أحبّ إلى المسلم وأعزّ عنده من النبي، ولو كانت نفسه التي بين جنبيه؟![3].

قلت: ولا يفهم من ذلك أنّ هناك خيانة وقعت من الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فهذا توهم غير صحيح، وإنما هو اجتهاد من الصحابة لم يصبهم التوفيق فيه، كانت نتيجته عدم تحقيق النصر على المشركين، وهو أمر كان ممكن تحقيقه لو لا مخالفة الرماة أمر النبي، وتركهم لأماكنهم في المعركة بحثًا عن الغنائم.

إذًا فكانت نتيجة مخالفتهم لأمر الرسول وعدم الاستجابة لأمره ثواب الشر الذي جنته أيديهم وعملته جوارحهم، فثواب الشر يكون جزاء كل عمل لا يرضي الله ورسوله، ويخالف منهجه صلى الله عليه وسلم.

---

(١) الوسيط، طنطاوي ٢/ ٣٠٠.
(٢) لباب التأويل، الخازن ١/ ٣٠٨.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٢/ ٦١٥.



المستحقون للثواب

تحدث القرآن عن المستحقين للثواب في الدنيا والآخرة، وسوف نبين ذلك فيما يأتي:

أولًا: المستحقون لثواب الدنيا:

أولًا: ثواب الخير:

- **المؤمنون الصادقون الموفون بعهدهم.**

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

يعني: لقد رضي الله يا محمد عن المؤمنين ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ يعني: بيعة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسول الله بالحديبية حين بايعوه على مناجزة قريش الحرب، وعلى أن لا يفرّوا، ولا يولوهم الدّبر تحت الشجرة، وكانت بيعتهم إياه هنالك فيما ذكر تحت شجرة.

وكان سبب هذه البيعة ما قيل: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أرسل عثمان بن عفان رضي الله عنه برسالته إلى الملأ من قريش، فأبطأ عثمان عليه بعض الإبطاء، فظنّ أنه قد قتل، فدعا أصحابه إلى تجديد البيعة على حربهم على ما وصفت، فبايعوه على ذلك، وهذه البيعة التي تسمى بيعة الرضوان[١].

ثم يقول تعالى ذكره: فعلم ربك يا محمد ما في قلوب المؤمنين من أصحابك إذ يبايعونك تحت الشجرة، من صدق النية، والوفاء بما يبايعونك عليه، والصبر معك فأنزل الطمأنينة، والثبات على ما هم عليه من دينهم وحسن بصيرتهم بالحقّ الذي هداهم الله له، حتى بايعوا على أن يقاتلوا ولا يفرّوا.

﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي: وعوّضهم ومنحهم -على الرّضى بقضائه- في العاجل مما رجوا الظفر به من غنائم أهل مكة بقتالهم أهلها فتحًا قريبًا، وذلك فيما قيل: فتح خيبر[٢].

فالحق أعطاهم ومنحهم فتحًا قريبًا، وهو فتح خيبر، الذي كان بعد صلح الحديبية بأقل من شهرين، وقيل: المراد به: فتح مكة، والأول أرجح؛ لأن فتح خيبر لم يكن فتح أقرب منه، ولأن المسلمين قد أصابوا من فتح خيبر غنائم كثيرة[٣].

وتوسع الإمام ابن كثير في المراد بـ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ حيث قال رحمه الله: «إن المراد: ما أجرى الله على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم، وما حصل

(١) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٢٢٤.
(٢) انظر: المصدر السابق ٢٢/ ٢٢٨.
(٣) الوسيط، طنطاوي ١٣/ ٢٧٦.

بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة»[(١)].

قال الألوسي رحمه الله: «والتعبير بالمضارع لاستحضار صورة هذه المبايعة»[(٢)]. وقوله سبحانه: ﴿تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ متعلق ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾... وفي التقييد بذلك إشارة إلى مزيد وقع تلك المبايعة في النفوس. ولذا استوجبت رضا الله تعالى الذي لا يعادله شيء، ويستتبع مالا يكاد يخطر على البال.

ويكفي فيما ترتب على ذلك ما رواه الإمام مسلم عن أم بشر، عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة)[(٣)].

وصح برواية الشيخين وغيرهما في أولئك المؤمنين من حديث جابر، أنه صلى الله عليه وسلم قال لهم: (أنتم خير أهل الأرض..)[(٤)].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٤٠.
(٢) روح المعاني، الألوسي ٢٦/ ١٠٨.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصّحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أصحاب الشّجرة أهل بيعة الرّضوان رضي الله عنهم رقم، ٢٤٩٦.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال، وبيان بيعة الرّضوان تحت الشّجرة رقم، ١٨٥٦.

وهكذا كان ثواب المؤمنين المخلصين الصادقين الموفين بعهودهم تجاه الله ورسوله، أنّ أعطاهم الله النصر على الأعداء والطمأنية والسكينة، إضافة إلى -رضى الله عنهم-، ورضا الله سبب كل الخير، وإثابة ونجاح وفلاح.

المجاهدون الصامدون الخاضعون لله.

قال تعالى: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٨]

يحكي لنا القرآن أنّ كثيرًا من الأنبياء كانوا يقاتون من أجل إعلاء كلمة الله، وأنّ هؤلاء الأنبياء قاتل معهم علماء ربانيون لم يضعفوا لما أصابهم من القتل والجراح في سبيل الله، ولم يذلوا ويخضعوا لعدوهم أثناء القتال، إلأ أنهم طلبوا المغفرة من الله لخطايهم، وتثبيتهم في مواطن الحرب، ونصرهم على أعدائهم ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾[(٥)].

فكانت الثمار التي ترتبت على هذا الدعاء الخاشع والإيمان الصادق والعمل

(٥) وتمام الآيات قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

الخالص لوجهه سبحانه فقال: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. والفاء في قوله: ﴿فَآتَاهُمُ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها.

فهؤلاء الذين آمنوا بالله حق الإيمان وجاهدوا في سبيله حق الجهاد لم يخيّب الله تعالى سعيهم، ولم يقفل بابه عن إجابة دعائهم، وإنما أعطاهم الله تعالى ثواب الدنيا من النصر والغنيمة وقهر الأعداء، وصلاح الحال.

كما أعطاهم حسن ثواب الآخرة بأن منحهم رضوانه ورحمته ومثوبته وجنته، وإنما خص ثواب الآخرة بالحسن للتنبيه على عظمته وفضله ومزيته، وأنه هو المعتدّ به عنده تعالى لأنه غير زائل، وغير مشوب بتنغيص أو قلق.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله، فإن محبة الله تعالى للعبد مبدأ كل خير وسعادة[1].

فأعطى الله الذين وصفهم بما وصفهم، من الصبر على طاعة الله بعد مقتل أنبيائهم، وعلى جهاد عدوهم، والاستعانة بالله في أمورهم، واقتفائهم مناهج إمامهم على ما أبلوا في سبيل الله ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ يعني: جزاء في الدنيا، وذلك: النصر على عدوهم وعدو الله، والظفر، والفتح عليهم، والتمكين لهم في البلاد.

﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ يعني: وخير جزاء الآخرة على ما أسلفوا في الدنيا من أعمالهم الصالحة، وذلك: الجنة ونعيمها[2].

فخص تعالى ثواب الآخرة بالحسن تنبيهًا على جلالة ثوابهم؛ وذلك لأن ثواب الآخرة كله في غاية الحسن، فما خصه الله بأنه حسن من هذا الجنس فانظر كيف يكون حسنه! ولم يصف ثواب الدنيا بذلك لقلتها، وامتزاجها بالمضار، وكونها منقطعة زائلة[3].

وبمفهوم آخر: خص ثواب الآخرة بالحسن دلالة على فضله وتقدّمه، وأنه هو المعتدّ به عنده ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾[الأنفال:٦٧][4].

وهذا تعليم من الله تعالى للمؤمنين ما يفعلون ويقولون عند لقاء العدوّ من الالتجاء والخضوع والتذلل لله[5].

وبالجملة فإنّ الحق سبحانه تعالى يبين لنا أنّه كلما كان العبد قريبًا من ربه متمسكًا بمنهجه، سائرًا على منهج نبيه صلى الله عليه وسلم كان له الثواب والمكأفاة من الله في العاجل والآجل، في الحياة وبعد الممات.

---

(١) التفسير الوسيط، طنطاوي ٢/ ٢٨٩.

(٢) جامع البيان ٧/ ٢٧٥.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٣٨٢.

(٤) الكشاف، الزمخشري ١/ ٤٢٥.

(٥) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٣٣٢.

ثانيًا: ثواب الشر:

* **اليهود.**

قال سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

يقول الإمام القرطبي في سبب نزول الآية: «قال ابن عباس رضي الله عنه: جاء نفر من اليهود -فيهم أبو ياسر بن أخطب ورافع بن أبي رافع- إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه عمن يؤمن به من الرسل عليهم السلام، فقال: نؤمن ﴿بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

إلى قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، فلما ذكر عيسى عليه السلام جحدوا نبوته وقالوا: والله ما نعلم أهل دين أقل حظًّا في الدنيا والآخرة منكم، ولا دينًا شرًّا من دينكم، فنزلت هذه الآية وما بعدها»[(١)].

والمشار إليه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ يعود إلى ما نقمه اليهود على المؤمنين من إيمانهم بالله وبالكتب السماوية. وقيل: يعود إلى الكثرة الفاسقة من أهل الكتاب المعبّر عنها بقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾. وتوحيد اسم الإشارة لكونه يشار به إلى الواحد وغيره، أو لتأويله بالمذكور ونحوه. والخطاب لأهل الكتاب المتقدم ذكرهم. وقيل: للكفار مطلقًا. وقيل: للمؤمنين.

والمثوبة: مصدر ميمي بمعنى الثواب الثابت على العمل، وأكثر استعمالها في الخير. وقد استعملت هنا بمعنى: العقوبة على طريقة التهكم بهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وهي منصوبة على أنها تمييز لقوله: ﴿بِشَرٍّ﴾. وقوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٠].

خبر لمبتدأ محذوف أي: هو من لعنه الله، والمراد اليهود؛ لأن الصفات التي ذكرت في الآية لا تنطبق إلا عليهم[(٢)].

وشر اسم تفضيل، أصله أشر، وهو للزيادة في الصفة، حذفت همزته تخفيفًا لكثرة الاستعمال، والزيادة تقتضي المشاركة في أصل الوصف فتقتضي أن المسلمين لهم حظ من الشر، وإنما جرى هذا تهكمًا باليهود لأنهم قالوا للمسلمين: لا دين شر من دينكم، وهو مما عبّر عنه بفعل (تنقمون). وهذا من مقابلة الغلظة بالغلظة كما يقال: «قلت فأوجبت»[(٣)].

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء اليهود الذين عابوا على المؤمنين إيمانهم بالله وبما أنزله من كتب سماوية والذين قالوا لكم: ما

(١) الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٢٣٣.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٥٥، الوسيط، طنطاوي ٤/ ٢٠٨.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٢٤٥.

نعلم أهل دين أقل حظًّا في الدنيا والآخرة منكم، ولا دينًا شرًّا من دينكم، قل لهم على سبيل التبكيت والتنبيه على ضلالهم: هل أخبركم بشر من أهل ذلك الدين عقوبة عند الله يوم القيامة؟ هو ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: أبعده من رحمته ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ بأن منع عنه رضاه ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ بأن مسخ بعضهم قردة وبعضهم خنازير، وجعل منهم من عبد الطاغوت، أي: من عبد كل معبود باطل من دون الله كالأصنام والأوثان، وغير ذلك من المعبودات الباطلة التي اتبعوها بسبب طغيانهم وفساد نفوسهم[1].

فإن قيل: إن قوله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً﴾ يفيد أن ما عابه اليهود على المؤمنين من إيمانهم بالله فيه شر، إلا أن ما عليه اليهود أشد شرًّا، مع أن إيمان المؤمنين لا شر فيه ألبتة، بل هو عين الخير فكيف ذلك؟.

فالجواب: أن الكلام مسوق على سبيل المشاكلة، والمجاراة لتفكير اليهود الفاسد، وزعمهم الباطل، فكأنه سبحانه يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم: إن هؤلاء اليهود -يا محمد- ينكرون عليكم إيمانكم بالله وبالكتب السماوية، ويعتبرون ذلك شرًّا -مع أنه عين الخير-، قل لهم على سبيل التبكيت وإلزامهم الحجة: لئن كنتم تعيبون علينا إيماننا وتعتبرونه شرًّا لا خير فيه في زعمكم، فشر منه عاقبة ومآلا ما أنتم عليه من لعن وطرد من رحمة الله، وما أصاب أسلافكم من مسخ بعضهم قردة، وبعضهم خنازير، وما عرف عنكم من عبادة لغير الله، وشبيه بهذه الآية في مجاراة الخصم في زعمه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤][2].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الممسوخون الملعونون ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ جعلت الشرارة للمكان وهي لأهله مبالغة ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ عن قصد الطريق الموصل إلى الجنة[3].

فأثبت سبحانه الشرية لمكانهم؛ ليكون أبلغ في الدلالة على كثرة شرورهم؛ إذ إن إثبات الشرية لمكان الشيء كناية عن إثباتها للشيء نفسه. فكأن شرهم قد أثر في مكانهم، أو عظم وضخم حتى صار متجسمًا[4].

ولذا قال في حقهم: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٣].

المستحقون لثواب الآخرة:

أولًا: الخير:

- المجاهدون والمهاجرون.

قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟

(١) الوسيط، طنطاوي ٤/ ٢٠٨.
(٢) المصدر السابق.
(٣) مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٤٥٨.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ٣٩١.

﴿مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

يبين الحق سبحانه وتعالى الثواب العظيم والأجر الكبير للذين هاجروا وتركوا أوطانهم من أجل إعلاء كلمة الله، وأخرجوا من ديارهم، فرارًا بدينهم من ظلم الظالمين، واعتداء المعتدين، ﴿وَأُوذُوا۟﴾ وتحملوا الأذى والاضطهاد في سبيل الحق الذي آمنوا به ﴿فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟﴾ أعداء الله ﴿وَقُتِلُوا۟﴾ وهم يجاهدون من أجل إحقاق الحق وإبطال الباطل. فهؤلاء تكفل لهم الله تعالى بالثواب والنعيم في الآخرة فضلًا عن الدنيا.

ففي هذا النص تعداد للأعمال الصالحات التي قام بها هؤلاء واستحقوا بها نعيم الجنة، واتقوا بها عذاب النار، وهي أمور ثلاثة، آخذ بعضها بحجز بعض، ومتلاقية في معناها ومغزاها[(١)].

الأول: أنهم هاجروا وأخرجوا من ديارهم فهم هجروا مغانيهم التي تربوا فيها غير راغبين ولا محبين للخروج، بل ملجئين مضطرين، ولذلك روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال مخاطبًا مكة عندما خرج منها: (إنك أحب أرض الله إليّ، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت)[(٢)]، ويروى أن ورقة بن نوفل قال للنبي صلى الله عليه وسلم: «ليتني أكون جذعًا إذ يخرجك قومك». فقال له عليه الصلاة والسلام: (أو مخرجيّ هم)؟! قال: (ما أوتى أحد بمثل ما أوتيت إلا عودي)[(٣)].

والله تعالى يقول: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ...﴾، فكان الإخراج سبب الهجرة.

الثاني: الذي استحقوا به الجزاء الأوفى هو أنهم تحملوا الأذى في سبيل الله تعالى، فهم أوذوا في مكة قبل الهجرة، واستمر الإيذاء بعدها، وكل ذلك في سبيل الله، وفي سبيل الحق وإعلائه، وجعل كلمته هي العليا، وكلمة الباطل هي السفلى، وإن هذا يزكي الخير فيهم، فإنهم ما أخرجوا من ديارهم، وهجروا أحباءهم وذويهم إلا في سبيل الله تعالى.

الثالث: أنهم قاتلوا في سبيل الله تعالى فجاهدوا الأعداء واستشهدوا في هذا القتال، فلهم فضلان: فضل القتال والتقدم،

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١٥٥٥.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٣١/ ١٣، رقم ١٨٧١٧، والترمذي في سننه، أبواب المناقب، باب فضل مكة، رقم ٣٨٦٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، رقم ٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الايمان، باب بدء الوحي، رقم ٢٣١، عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وأرضاها.

وفضل الاستمرار فيه والشهادة في سبيل الحق[1]، وإليه الإشارة ﴿وَقَـٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾.

وقد ذكر الله صفات المؤمنين هكذا، لينبّهنا إلى أن نرّوض أنفسنا ونختبرها، فإن رأيناها تحتمل الأذى في سبيل الله حتى القتل فلها الرضوان من ربها، وإلا فلنروّضها حتى تصل إلى هذه المنزلة، والسر في هذا التكليف الشاق أن الحق لا يقوى إلا إذا وجد من ينصره ويؤيده، ويقاوم الباطل وأعوانه؛ حتى تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الباطل هي السفلى، فيجب على أنصار الحق ألا يفشلوا ولا ينهزموا، بل يثبتوا مهما لاقوا من المحن والأرزاء، فقد كتب الله النصر لعباده المؤمنين[2].

وقد بيّن سبحانه وتعالى الجزاء والثواب بقوله تعالت كلماته: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّـٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَـٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

قلنا: الثواب والمثوبة يرادبه الجزاء، وقد جعله الدين أثرًا طبيعيًّا للعمل، فللأعمال تأثير في نفس العامل بتزكيتها فتكون منعمة في الآخرة، أو تدسيتها فتكون معذّبة فيها.

وقد وعد الله تعالى من فعل ذلك بأمور: هي بمثابة الإثابة على أعمالهم: فأثابهم بمحو السيئات وغفران الذنوب، ودل على ذلك بقوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾، ووعدهم كذلك بإعطائهم الثواب العظيم المتمثل في الجنة، وهو المشار إليه بقوله: ﴿وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّـٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَـٰرُ﴾ وهذا الثواب مقرون بالتعظيم والإجلال، وهو قوله: ﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ والمعنى لأكفرنّ عنهم سيئاتهم، ولأدخلنهم الجنات، ولأثيبنهم بذلك ثوابًا من الله لا يقدر عليه غيره.

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾ أي: هو ثواب من عنده مختص به، بحيث لا يقدر عليه غيره، وهذه الجملة تأكيد لشرف ذلك الثواب؛ لأنه تعالى قادر على كل شيء، غني عن كل أحد، فهو لا محالة في غاية الجود والكرم والإحسان[3].

ففي قوله تعالى: ﴿ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى أن هذا الجزاء والثواب الذي يجزونه، هو فضل عليهم من الله سبحانه وتعالى، إذ هداهم إلى الإيمان، ووفّقهم للعمل الصالح من الجهاد وتحمل الأذى في سبيل الله، الذي أنزلهم منازل الرضا والقبول عند الله.

روي عن جعفر الصادق أنه قال: «من حزبه أمر فقال خمس مرات: ربنا، أنجاه الله مما يخاف، وأعطاه ما أراد، وقرأ هذه الآية، قال: لأن الله حكى عنهم أنهم قالوا خمس

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١٥٥٦.
(٢) تفسير المراغي ٤/ ١٦٧.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٤٧١.

مرات: ربنا، ثم أخبر أنه استجاب لهم.

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾ وهو تأكيد؛ ليكون ذلك الثواب في غاية الشرف؛ لأنه تعالى لما كان قادرًا على كل المقدورات، عالمًا بكل المعلومات، غنيًّا عن الحاجات، كان لا محالة في غاية الكرم والجود والإحسان، فكان عنده حسن الثواب»[(١)].

❁ الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٧٩ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص:٧٩-٨٠].

يبين الحق سبحانه أن الإيمان بالله والصبر عن طلب زينة الحياة الدنيا خير من طلب الزينة والتكبر والغرور على الخلق.

إن الناس لما رأوا قارون على تلك الزينة قال من كان منهم يرغب في الدنيا: يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون من هذه الأمور والأموال، والراغبون يحتمل أن يكونوا من الكفار وأن يكونوا من المسلمين الذين يحبون الدنيا، وأما العلماء وأهل الدين فقالوا للذين تمنوا هذا: ويلكم ثواب الله خير من هذه النعم؛ لأن للثواب منافع عظيمة وخالصة عن شوائب المضار ودائمة، وهذه النعم العاجلة على الضد من هذه الصفات الثلاث، قال صاحب الكشاف: «ويلك أصله الدعاء بالهلاك، ثم استعمل في الزجر والردع والبعث على ترك ما لا يرتضى»[(٢)].

فقال: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ بالله، حين رأوا قارون خارجًا عليهم في زينته، -للذين قالوا: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾: ويلكم اتقوا الله وأطيعوه، فثواب الله وجزاؤه لمن آمن به وبرسله، وعمل بما جاءت به رسله من صالحات الأعمال في الآخرة، خير مما أوتي قارون من زينته وماله لقارون.

وقوله: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ يقول: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾، أي: ولا يوفّق لقيل هذه الكلمة، وهي قوله: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ والهاء والألف كناية عن الكلمة. وقال: ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ يعني بذلك: الذين صبروا عن طلب زينة الحياة الدنيا، وآثروا ما عند الله من جزيل ثوابه على صالحات الأعمال على لذّات الدنيا وشهواتها، فجدّوا في طاعة الله، ورفضوا الحياة الدنيا.

أو ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي: لا يؤتى الجنة، ولا يدخلها، أو لا يوفّق للأعمال الصالحة

(١) انظر: المصدر السابق، التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٢/ ٦٧٤.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٣٢.

﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ على الطاعات، وعن المعاصي[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١].

لقد جعل اللّه تعالى سبب ما يستقبلهم من النعيم والثواب أمرين:

الأول: إيمان صادق وإخلاص يعمر القلوب، فإنه لا ثواب من غير قلب منيب.

الثاني: عمل صالح نافع بأداء ما أمر اللّه به واجتناب ما نهى اللّه عنه في استقامة قلب، وكمال قصد واتجاه إلى النفع[2].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾ اعتراض، ولك أن تجعل ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾ و﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ خبرين معًا. أو تجعل ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ كلامًا مستأنفًا بيانًا للأجر المبهم. فإن قلت: إذا جعلت ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾ خبرًا، فأين الضمير الراجع منه إلى المبتدأ؟ قلت: ﴿مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ينتظمهما معنى واحد، فقام ﴿مَنْ أَحْسَنَ﴾ مقام الضمير. أو أردت: ﴿مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ منهم، فكان كقولك: السمن منوان بدرهم. من الأولى للابتداء، والثانية للتبيين[3].

وتنكير ﴿أَسَاوِرَ﴾ لإبهام أمرها في الحسن. وجمع بين السندس: وهو ما رقّ من الديباج، وبين الاستبرق: وهو الغليظ منه؛ جمعًا بين النوعين. وخص الاتكاء؛ لأنه هيئة المنعمين والملوك على أسرّتهم[4].

وإحسان العمل: أن يريد العبد العمل لوجه الله، متبعًا في ذلك شرع الله. فهذا العمل لا يضيعه الله، ولا شيئًا منه، بل يحفظه للعاملين، ويوفيهم من الأجر، بحسب عملهم وفضله وإحسانه، وافتتاح الجملة باسم الإشارة لما فيه من التنبيه على أن المشار إليهم جديرون لما بعد اسم الإشارة لأجل الأوصاف المذكورة قبل اسم الإشارة، وهي كونهم آمنوا وعملوا الصالحات[5].

فبيّن الحق جزاء وثواب السعداء، الذين آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين فيما جاءوا به، وعملوا بما أمروهم به من الأعمال الصالحة، فيقول في شأن الموصوفين بالإيمان والعمل الصالح: أن لهم الجنات العاليات التي قد كثرت أشجارها، فأجنت من فيها، وكثرت أنهارها، فصارت تجري

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٦٢٩.
(٢) زهرة الفاسير، أبو زهرة ٩/ ٤٥٢٥.
(٣) الكشاف ٢/ ٧٢٠.
(٤) المصدر السابق ٢/ ٧٢٠.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٣١١.

من تحت تلك الأشجار الأنيقة، والمنازل الرفيعة، وحليتهم فيها الذهب، ولباسهم فيها الحرير الأخضر من السندس، وهو الغليظ من الديباج، والإستبرق، وهو ما رق منه.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول صلى الله عليه وسلم قال: (**تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء**)[1].

وقد قالوا: ثلاثة مذهبة للحزن: الماء والخضرة والوجه الحسن.

ولفظ: ﴿عَدْنٍ﴾ بمعنى: إقامة لا رحيل بعدها ولا تحول. وأصله من عدن فلان بالمكان. إذ أقام به واستقر فيه.

﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾، وهي السرر المزينة، المجملة بالثياب الفاخرة، فإنها لا تسمى أريكة حتى تكون كذلك، وفي اتكائهم على الأرائك، ما يدل على كمال الراحة، وزوال النصب والتعب، وكون الخدم يسعون عليهم بما يشتهون، وتمام ذلك الخلود الدائم والإقامة الأبدية، فهذه الدار الجليلة ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾ للعاملين أي: نعمت الجنة ثوابًا لهم على أعمالهم ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي: حسنت منزلًا ومقيلًا ومقامًا يرتفقون بها، ويتمتعون بما فيها، مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، من الحبرة والسرور، والفرح الدائم، واللذات المتواترة، والنعم المتوافرة، وأي مرتفق أحسن من دار، أدنى أهلها، يسير في ملكه ونعيمه وقصوره وبساتينه ألفي سنة، ولا يرى فوق ما هو فيه من النعيم، قد أعطى جميع أمانيه ومطالبه، وزيد من المطالب، ما قصرت عنه الأماني، ومع ذلك، فنعيمهم على الدوام متزايد في أوصافه وحسنه، فنسأل الله الكريم أن لا يحرمنا خير ما عنده من الإحسان، بشر ما عندنا من التقصير والعصيان.

ودلت الآية الكريمة وما أشبهها على أن الحلية عامة للذكور والإناث، كما ورد في الأحاديث الصحيحة؛ لأنه أطلقها في قوله: ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ وكذلك الحرير ونحوه[2].

ونحو الآية قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ۝٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥-٧٦].

وبذلك نرى الآية الكريمة قد اشتملت على ألوان متعددة من التكريم والثواب لأولئك المؤمنين الذين عمروا دنياهم بالعمل الصالح. فقد بشّرهم سبحانه بجنات عدن، ثم بشّرهم ثانيًا بأن ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ﴾، ثم بشّرهم ثالثًا بأنهم ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾، ثم بشّرهم رابعًا بأنهم

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء، رقم، ٢٥٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٥٦، تفسير المراغي ١٥/ ١٤٥.

﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾، ثم بشّرهم خامسًا، بأنهم يتكئون في تلك الجنات ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾.

وفي هذه البشارات ما فيها من الحض على المسارعة إلى العمل الصالح، الذي يرفع درجات المؤمن إلى أعلى عليين، وذلك ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

نسأل الله تعالى أن يرزقنا هذا الفضل، فهو أكرم مسئول، وأعظم مأمول.

ويقول تعالى -في شأن بعض أهل النصارى الذين آمنوا- على لسانهم: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٨٤-٨٥]

قال الإمام الطبري: «هذا خبرٌ من الله تعالى ذكره عن هؤلاء القوم الذين وصف صفتهم في هذه الآيات»[(١)]، أنهم إذا سمعوا ما أنزل إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من كتابه، آمنوا به وصدّقوا كتاب الله، وقالوا: ﴿وَمَا لَنَا لَا﴾ نقرّ بوحدانية الله ﴿وَمَا جَاءَنَا﴾ من عند الله من كتابه وآي تنزيله، ونحن ﴿وَنَطْمَعُ﴾ بإيماننا بذلك ﴿أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾.

فالمقصود بـ﴿الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾: المؤمنون بالله، المطيعون له، الذين استحقّوا من الله الجنة بطاعتهم إياه. وإنما معنى ذلك: ونحن نطمع أن يدخلنا ربّنا مع أهل طاعته مداخلهم من جنته يوم القيامة، ويلحق منازلنا بمنازلهم، ودرجاتنا بدرجاتهم في جنّاته[(٢)].

فجزاهم الله بقولهم: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ [المائدة: ٨٣ - ٨٤].

﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [المائدة: ٨٥].

يعني: بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ يقول: دائمًا فيها مكثهم، لا يخرجون منها ولا يحوّلون عنها ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾، فيقول الحق: فهذا الذي جزيت هؤلاء القائلين بما وصفت عنهم من قيلهم على ما قالوا، من الجنات التي هم فيها خالدون، جزاء كل محسنٍ في قيله وفعله.

فقد بيّنت هذه الآية الكريمة أنه سبحانه قد أجابهم إلى ما طلبوا، بل أكبر مما طلبوا، فقد كانوا يطمعون في أن يكونوا ﴿مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾، وأن يكتبهم مع الشاهدين، فأعطاهم سبحانه جنات تجرى من تحتها

(١) جامع البيان ١٠/ ٥١١.

(٢) الوسيط، طنطاوي ٨/ ٥١٣.

الأنهار، وسماهم محسنين، والإحسان أعلى درجات الإيمان، وأكرم أوصاف المتقين.

هذا جزاء الذين ﴿سَمِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ صلى الله عليه وسلم فآمنوا به، وقالوا ما قالوا مما يشهد بصفاء نفوسهم(١).

و(إحسان المحسن) في ذلك، أن يوحّد الله توحيدًا خالصًا محضًا لا شرك فيه، ويقرّ بأنبياء الله وما جاءت به من عند الله من الكتب، ويؤدّي فرائضه، ويجتنب معاصيه. فذلك كمال إحسان المحسنين «الذين قال الله تعالى ذكره أنه أثابهم بما قالوا جنات...»(٢).

ثانيًا: ثواب الشر:

❁ **الكفار.**

قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٣٤ - ٣٦].

تأتي تلك الآيات من سورة المطففين في إطار حديث القرآن عن المقارنة بين أعمال الكفار وأعمال المؤمنين، وما يستحقه المؤمنون من الثواب العظيم والسعادة في الدنيا والأخرة والجنة التي عرضها السماوات والأرض، وما أعدّه الله لهؤلاء المؤمنين في الجنة من نعيم دائم؛ حيث يتنعمون في الجنة بكل ما يشتهون.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله تعالى: **(أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)**(٣).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إنّ أدنى أهل الجنّة منزلةً لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنةٍ، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوةً وعشيّةً)**(٤).

وبعد أن بيّن الحق سبحانه ثواب المؤمنين المتمثل في الجنة ونعيمها، أردف ذلك ببيان ما يستحقه الكفار من ثواب الشر الذي جنته أيديهم وعملته جوارحهم من الإنكار والمكابرة، وعدم الإيمان، والاستهزاء بالرسول والرسالة، وأتباع النبي من المؤمنين، فهؤلاء الكفار كانوا يسخرون من المؤمنين ويحتقرون من شأنهم، ويتهمونهم بالضلال لإيمانهم بسيدنا محمد، وتركهم شهوات الدنيا وملاذتها.

وبعد بيان حالة هؤلاء الكفار الذين كانوا يضحكون على المؤمنين في الدنيا،

(١) الوسيط، طنطاوي ٤/ ٢٥٩.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٥١٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم ٣٢٤٤، ومسلم في صحيحه، أوائل كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، رقم ٢٨٢٤.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة الجنة، رقم ٢٥٥٣.



يقول لهم الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَالْيَوْمَ﴾ يعني: ففي هذا اليوم يوم الجزاء والعدل والحساب وهو يوم القيامة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ أي: يضحك المؤمنون على الكفار في مقابلة ما ضحك بهم أولئك في الدنيا[1].

وقوله: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ حال، أي: يضحكون منهم، ناظرون إليهم وإلى ما هم فيه من الهوان والصغار بعد العزة والاستكبار، وهم على الأرائك -أي: على الأسرّة في حجالها آمنون-، وقيل: يفتح للكفار باب إلى الجنة فيقال لهم: هلموا إلى الجنة، فإذا وصلوا إليها أغلق دونهم فيضحك المؤمنون منهم[2].

فهذا بيان للحال التي عليها المؤمنون، وهم يضحكون من الكفار، إنهم يضحكون وهم جالسون، مستريحون على الأرائك، على حين يتقلب المجرمون على جمر جهنم[3].

فالمقصود من الآية الكريمة تسلية المؤمنين، وتبشيرهم بأنهم سيأخذون بثأرهم من المشركين عما قريب، وأنهم -أي: المؤمنون- سيكونون يوم القيامة على سرر قد فرشت بأجمل الفراش، وأنهم لا ينظرون إلا إلى ما يسرّهم ويبهج نفوسهم[4].

وقوله: ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي: هل جوزي الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والتنقص أم لا؟ يعني: قد جوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله[5].

فالاستفهام للتقرير كأنه خطاب للمؤمنين؛ تعظيمًا لهم وتكريمًا وزيادة في مسرتهم. أي: هل رأيتم كيف جازى الله الكافرين بأعمالهم، أي: أنه فعل. و﴿مَا﴾ مصدرية أو موصولة.

وثوّبه وأثابه بمعنى جازاه، وهو من (ثاب) بمعنى: رجع. فالثواب ما يرجع على العبد في مقابلة عمله. ويستعمل في الخير والشر، وهو هنا مستعمل في الشر؛ لأننا في سياق الحديث عن أحوال الكافرين وما يستحقونه من الجزاء[6].

فهم قد جوزوا يومئذ بأسوء الجزاء بسبب ﴿مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ من الاستهانة والاستهزاء بالمؤمنين، ومن ضحكهم بأعمالهم، وتغامزهم فيما بينهم بعيونهم تهكّمًا عليهم.

وجاء الجزاء بأسلوب الاستفهام لتأكيد هذا الجزاء، حتى لكأن المخاطب هو الذي نطق بهذا الجزاء العادل الذي استحقه

(١) مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٦١٨.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٥٤.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١٦/ ١٤٩٩.
(٤) الوسيط، طنطاوي ١٥/ ٣٢٩.
(٥) مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٦١٨.
(٦) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٤٣٧.

الكافرون، ولبيان أن عدالة الله تعالى تقتص من المعتدين مهما طالت بهم الحياة.

والتعبير بـ﴿ثُوِّبَ﴾ -مع أنه أكثر ما يستعمل في الخير- إنما هو من باب التهكم بهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1].

وهكذا تشير تلك الآيات إلى مجموعة من الومضات والإشارات الربانية، فتشير إلى أنّ المؤمنين المخلصين الذين تمسكوا بكتاب الله وسنة نبيه يرزقهم الله النعيم والثواب العظيم في الدنيا والآخرة. وتومىء إلى خبث الكافرين، وسوء أخلاقهم، وتعمدهم الاستهزاء بالمؤمنين، والتنكيل بهم، والنيل منهم بكل الوسائل والطرق. كما تشير إلى عدل الحق سبحانه وتعالى في الجزاء والعقاب، فمن يحسن يكون نصيبه الخير والفلاح، ومن يكون غير ذلك يكون نصيبه الخزي والندامة في الدنيا والآخرة، ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

فـ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[النساء: ٤٠].

مقاصد الثواب

للثواب في القرآن مقاصد عديدة، يمكن إجمالها فيما يلي:

أولًا: تحفيز العباد على الأعمال الصالحة:

الأصل في المسلم أن يؤدي ما كلّفه الله من العبادات والمعاملات والأخلاق، وأن يجتهد في أداء ذلك على الوجه الذي يرضي الله سبحانه وتعالى، إلا أنّ الحق سبحانه وتعالى عالم بأحوال عباده الذين قد يصيبهم ضعف في الهمة، وتكاسل عن أداء المطلوبات الشرعية، فحضّهم على الأعمال الصالحة من خلال مجموعة من المحفّزات التي تجعل الإنسان المسلم يسارع في أداء ما كلّف به بهمة ونشاط، ومن ثمّ يحصل على الثواب والأجر من الله.

فالتحفيز معناه أن تدفع الشخص لعملٍ ما، وتحثه عليه بإثارته لفعل هذا الشيء وحثه عليه، من خلال الترغيب والترهيب أو الوعد أو البشارة، وغيرها من أساليب التحفيز المختلفة المعروفة لدى علماء التربية والسلوك، وسواء أكان الثواب العظيم من الله تبارك وتعالى في الدنيا أو الآخرة، أو في الحال أو المآل، وسواء أكان الثواب ماديًا أو معنويًا.

فمن أولى أساليب التحفيز التي انتهجها

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١٦/ ١٤٩٩.

القرآن، إخبار الحق أنّ عمل العبد لن يضيعه الله، وسيثيب العبد عليه، ويجازيه على عمله، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

فالمراد بقوله: ﴿لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ أنه لا يترك أعمال العباد تذهب ضياعًا، بل يجازي الإنسان عليه بالثواب.

فأولى المحفزات نحو العمل والعبادة بيان الحق سبحانه للعباد أنّ أي عمل يعملونه في هذه الدنيا لن يضيع عند الله، بل يجازي الحق عباده، ويثيبهم عليه أحسن الجزاء والثواب.

وجعل القرآن من وسائل وأساليب التحفيز الترغيب في فعل الخير والعمل الصالح؛ ابتغاء الثواب من الله وأجره في الآخرة، والفوز بالحياة الكريمة الطيبة في الدنيا، فقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧][(١)].

قال الإمام الشوكاني: «هذا شروع في ترغيب كل مؤمن في كل عمل صالح، وجعل سبحانه الإيمان قيدًا في الجزاء المذكور؛ لأن عمل الكافر لا اعتداد به؛ لقوله سبحانه: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

ثم ذكر سبحانه الجزاء لمن عمل ذلك العمل الصالح فقال: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ وقد وقع الخلاف في الحياة الطيبة بماذا تكون؟ وأكثر المفسرين على أن هذه الحياة الطيبة هي في الدنيا لا في الآخرة؛ لأن حياة الآخرة قد ذكرت بقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾»[(٢)].

وقال الإمام الطبري: «وأولى الأقوال بالصواب قول من قال: تأويل ذلك: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ بالقناعة، وذلك أن من قنعه الله بما قسم له من رزق لم يكثر للدنيا تعبه، ولم يعظم فيها نصبه، ولم يتكدّر فيها عيشه باتباعه بغية ما فاته منها، وحرصه على ما لعله لا يدركه فيها»[(٣)].

فجعل سبحانه وتعالى من المحفزات لمن آمن وعمل الصالحات الحياة الطيبة في الدنيا، مما يدفع نحو العمل الصالح؛ لنيل تلك الحياة، ولنيل القرب والثواب من الله تبارك وتعالى.

كذلك من أساليب التحفيز الوعد بالثواب، وهو يتعلق بوصف ما أعده الله من شتى ألوان النعيم في الدار الآخرة لمن آمن وعمل الصالحات، وبهذا يكون

(١) انظر: التحفيز التربوي في القرآن الكريم وتطبيقاته التربوية، أحمد الحافظي، ص٥، ١٧، ٢٤.

(٢) فتح القدير ٢/ ٢٣١.

(٣) جامع البيان ١٧/ ٢٩٢.

الوعد حافزًا للإنسان للقيام بتلك الأعمال الصالحة، والإكثار منها؛ لنيل ما وعد الله به عباده الصالحين.

قال تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [الرعد: ١٥].

قال القرطبي: «لما قال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ﴾ [الحج: ١٤].

وصف تلك الجنات، أي: صفة الجنة المعدّة للمتقين. ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ أي: غير متغير الرائحة. ﴿وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ أي: لم يحمض بطول المقام كما تتغير ألبان الدنيا إلى الحموضة. ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ أي: لم تدنّسها الأرجل، ولم ترنقها الأيدي كخمر الدنيا، فهي لذيذة الطعم طيبة الشرب لا يتكرهها الشاربون. ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ العسل ما يسيل من لعاب النحل. ﴿مُّصَفًّى﴾ أي: من الشمع والقذى، خلقه الله كذلك لم يطبخ على نار ولا دنّسه النحل. ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ ﴿مِن﴾ زائدة للتأكيد. ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: لذنوبهم. ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ قال الفراء: «المعنى: أفمن يخلّد في هذا النعيم كمن يخلّد في النار»[1].

كذلك من أساليب التحفيز في القرآن البشارة أو التبشير بالثواب، من خلال تبشير المؤمنين الذين عملوا الصالحات بحسن العاقبة يوم القيامة، وفي الحياة الدنيا بالنصر والتمكين والتأييد، كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

قال الإمام ابن كثير: «﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فيبشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير»[2].

ومن أساليب التحفيز الإيجابي التي استخدمها القرآن إحياء الأمل وطرد اليأس، الأمل في الله والرجاء فيما عنده من النعيم والرحمة والمغفرة، وهذا ينبع من الإيمان بالله وعباته حق العبادة. قال تعالى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

قال الإمام الشوكاني[3]: «﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ أي: أعمال الخير، ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي: أفضل من هذه الزينة بالمال والبنين ثوابًا، وأكثر عائدة ومنفعة لأهلها، ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أي: أفضل أملًا، يعني: أن هذه الأعمال الصالحة لأهلها من الأمل

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٣٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٧/ ١٧٧.
(٣) فتح القدير ٣/ ٣٤٤.

أفضل مما يؤمله أهل المال والبنين؛ لأنهم ينالون بها في الآخرة أفضل مما كان يؤمله هؤلاء الأغنياء في الدنيا»[1].

وإضافة إلى ذلك قد يتخذ التحفيز في القرآن منحى التكريم، فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٨].

أي: وأمّا من آمن بالله، وأحسن العمل في الدنيا، وقدّم الصالحات فجزاؤه الجنة يتنعّم فيها ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ أي: نيسّر عليه في الدنيا، فلا نكلّفه بما هو شاق، بل بالسهل الميسّر[2].

كما قد يكون من أساليب التحفيز أسلوب المدح والثناء، كما أثنى الله تبارك وتعالى على بعض أنبيائه الأخيار ومدحهم فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

قال الإمام الخازن: «﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ يعني: الأنبياء المذكورين في هذه السورة -الأنبياء-. وقيل: زكريا وأهل بيته، والمسارعة في الخيرات من أكبر ما يمدح به المرء؛ لأنها تدل على حرص عظيم في طاعة الله عز وجل ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ يعني: أنهم ضموا إلى فعل الطاعات أمرين:

أحدهما: الفزع إلى الله لمكان الرغبة في ثوابه والرهبة من عقابه.

والثاني: الخشوع، وهو قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾.

الخشوع هو الخوف اللازم للقلب، فيكون الخاشع هو الحذر الذي لا ينبسط في الأمور؛ خوفًا من الوقوع في الإثم[3].

فالسبق إلى الخيرات يكشف عن المعادن النفيسة التي تواظب على الطاعات، وتستزيد من الحسنات، وتقلع عن السيئات، وتراقب رب الأرض السماوات، ووقت السبق هو الحياة الدنيا؛ لأنه وقت التكليف ووقت العمل[4]. وهكذا يحفّز القرآن إلى القيام بالعمل بهمة ونشاط، دون تكاسل أو تأخير[5].

هذا عن بعض جوانب التحفيز الإيجابية، وهناك نوع آخر من أنواع التحفيز، يسمى بالتحفيز السلبي أو الترهيبي، وهذا النوع من التحفيز يعتبر بمثابة الدرع الواقي وطوق النجاة للمسلم، حيث يمنع هذا النوع من التحفيز، أو على الأقل يحاول منع أو

(١) انظر: التحفيز التربوي في القرآن الكريم وتطبيقاته التربوية، أحمد الحافظي، ص٣٣-٣٥.
(٢) صفوة التفاسير، الصابوني ٢/ ١٨٨.
(٣) لباب التاويل ٣/ ٢٤٢.
(٤) السابقون إلى الخيرات، سعد الحجري ص٩.
(٥) انظر: التحفيز التربوي في القرآن الكريم وتطبيقاته التربوية، أحمد الحافظي، ص٣٣-٣٥.

تقليل ارتكاب المخالفات أو المعاصي من خلال تلك الأساليب التي تكوّن لديه وازعًا دينيًا أخلاقيًا متينًا، يكفّه عن عمل الشرور والمنكر، وقد تنوعت تلك الأساليب:

منها: الترهيب، والترهيب ضد الترغيب، وهو تخويف الإنسان، وتهديده بالعقوبة والعذاب والسخط من عند الله، إذا لم ينته عما نهاه الله عنه، أو لم يلتزم بما فرضه الله عليه وكلّفه به من الواجبات.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٤، ١٢٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ الذي أذكّره به فتولى عنه، ولم يقبله، ولم يستجب له، ولم يتعظ به فينزجر عما هو عليه مقيم من خلافه أمر ربه ﴿لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ يقول: فإن له معيشة ضيقة، والضنك من المنازل والأماكن والمعايش: الشديد، يقال: هذا منزل ضنك، إذا كان ضيقًا»[(١)].

وقال أيضًا: «﴿وَرَهَبًا﴾ يعني: رهبة منهم من عذابه وعقابه، بتركهم عبادته وركوبهم معصيته»[(٢)].

قال القرطبي عن قوله: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

«أي: خافون. والرّهب والرّهب والرّهبة الخوف. ويتضمّن الأمر به معنى التّهديد»[(٣)].

والترغيب والترهيب يمثلان قاعدة أساسية، وبناءً متينًا في تعاليم الدين الإسلامي الحنيف؛ ذلك أن الترغيب والترهيب في القرآن يأتيان مقرونين بتوضيح وبيان طبائع الحسن والقبح في الأفعال والأعمال، حتي يكون الإقبال عليها أو القيام بها، أو الابتعاد والنفور منها صادرًا عن قناعة ووعي[(٤)].

ومن ضمن الأساليب التحفيزية للامتناع عن كل ما يخالف منهاج الشرع وأوامر الله سبحانه وتعالى الوعيد، وهو ضد الوعد، وهو التهديد والتخويف بالعذاب يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣].

---

(١) جامع البيان ١٨/ ٣٩٠.
(٢) المصدر السابق ١٨/ ٥٢١.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٣٣٢.
(٤) انظر: التحفيز التربوي في القرآن الكريم وتطبيقاته التربوية، أحمد الحافظي، ص٣٦.

قال الشوكاني: «﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ بيّنّا فيه ضروبًا من الوعيد تخويفًا وتهديدًا، أو كررنا فيه بعضًا منه ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: كي يخافوا الله فيتجنبوا معاصيه، ويحذروا عقابه ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ أي: اعتبارًا واتعاظًا»[1].

وكذلك الذم من الأساليب للحث عن الابتعاد عن الذنوب والمعاصي، وهو ضد المدح، ويعني التوبيخ واللوم لمن يرتكب ما نهى الله عنه، أو يقصّر فيما أمره الله به، قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨].

قال الطبري: «﴿مَذْمُومًا﴾ على قلة شكره إيانا، وسوء صنيعه فيما سلف من أيادينا عنده في الدنيا ﴿مَّدْحُورًا﴾ يقول: مبعدًا، مقصى في النار.... وعن ابن عباس، قوله: ﴿مَذْمُومًا﴾ يقول: ملومًا»[2].

ويدخل في تلك الأساليب للتحفيز على تجنب ما لا يرضي الله ورسوله: النذارة أو الإنذار، ويعني: التحذير من سوء العاقبة المترتبة على مخالفة أمر الله، وعدم طاعة النبي صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

قال الإمام الطبري: «وأنذر يا محمد الناس الذين أرسلتك إليهم داعيًا إلى الإسلام ما هو نازل بهم، يوم يأتيهم عذاب الله في القيامة»[3].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

قال صاحب الظلال: «وقد كان الإنذار الأكبر والأشد والأكثر تكرارًا في القرآن هو الإنذار بيوم الجمع، يوم الحشر، يوم يجمع الله ما تفرق من الخلائق على مدار الأزمنة واختلاف الأمكنة؛ ليفرقهم من جديد: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ بحسب عملهم في دار العمل، في هذه الأرض، في فترة الحياة الدنيا»[4].

وقصارى القول: أنّ من مقاصد الثواب في القرآن التحفيز نحو إتيان الأفعال والأعمال التي ترضي الحق سبحانه وتعالى، ويستفيد من يأتي بتلك الأفعال وينفذها بالثواب الجزيل من الله تبارك وتعالى في الدنيا والآخرة، أو التحفيز نحو الابتعاد

(١) فتح القدير ٣/ ٤٥٩.
(٢) جامع البيان ١٧/ ٤٠٩.
(٣) المصدر السابق ١٧/ ٣٥.
(٤) في ظلال القرآن، ٥/ ٣١٤٤.

عن الأفعال التي لا ترضي الله ورسوله، ويستفيد من ينتهي ويبتعد عن تلك الأفعال بالثواب والأجر الكبير من الله.

ولقد تنوعت أساليب التحفيز في القرآن ما بين ترغيب وترهيب، ووعد ووعيد، وتبشير وإنذار وغيرها، وفي ذلك التنويع ما يدل على ثراء القرآن وإعجازه في إقناع المتلقين، ومن ثمّ استمالتهم وتحفيزهم على تحصيل الثواب.

ثانيًا: المبادرة إلى أحب الأعمال وأكثرها ثوابًا:

إن الحق سبحانه وتعالى قد يرغّب في فعل بعض الأعمال وذلك بزيادة المثوبة التي تترتب على فعلها، وذلك يقع في النفوس والقلوب موضع الإقبال والمبادرة، فيبادر الإنسان لفعل تلك التكاليف والعبادات التي يكون في مقابلها من الحق مزيد الثواب والأجر، فمزيد الثواب على بعض الأعمال يقصد به الحق سرعة الاستجابة لتنفيذ الأمر الإلهي بالفعل، سواء أكان الأمر يدل على وجوب الفعل أو الندب إليه أم حتى مجرد إباحته، فتعظيم الثواب يعظّم من الاستجابة والتنفيذ، وكلما كان التنفيذ على وجه السرعة كان دليلًا على حسن الاعتقاد، وزيادة الإيمان، وكمال الإسلام.

كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦١-٢٦٢].

فهذا المثل راجع إلى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ [البقرة: ٢٥٤].

والآية تثير في نفوس السامعين الاستشراف لما يلقاه المنفق في سبيل الله، فهذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف[1].

فقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في وجوه الخيرات من الواجب والنفل ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ لابد من تقرير مضافٍ في أحد الجانبين أي: ﴿مَّثَلُ﴾ نفقتهم ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ أو مثلهم ﴿كَمَثَلِ﴾ باذر ﴿حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ أي: أخرجت ساقًا تشعّب منها سبع، لكل واحدة منها سنبلة ﴿فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ﴾ كما يشاهد ذلك في الذرة والدخن في الأراضي

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٩١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٤٢.

المغلة، بل أكثر من ذلك، وإسناد الإنبات إلى الحبة مجازيٌّ كإسناده إلى الأرض والربيع، وهذا التمثيل تصويرٌ للأضعاف كأنها حاضرةٌ بين يدي الناظر[1].

وهذا المثل أبلغ في النفوس، من ذكر عدد السبعمائة، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل لأصحابها، كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة.

وروي عن ابن مسعود: أن رجلًا تصدق بناقة مخطومة في سبيل الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**لتأتين يوم القيامة بسبعمائة ناقة مخطومة**)[2].

وعن عبد الله بن مسعود كذلك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**إن الله عز وجل جعل حسنة ابن آدم بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلا الصوم، والصوم لي وأنا أجزي به، وللصائم فرحتان: فرحة عند إفطاره وفرحة يوم القيامة، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك**)[3].

ومعنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أن المضاعفة درجات كثيرة لا يعلمها إلا الله تعالى ؛ لأنها تترتب على أحوال المتصدق وأحوال المتصدق عليه، وأوقات ذلك وأماكنه. وللإخلاص، وقصد الامتثال ومحبة الخير للناس، والإيثار على النفس، وغير ذلك مما يحف بالصدقة والإنفاق، تأثير في تضعيف الأجر، ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[4].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: إنه تعالى لا ينحصر فضله، ولا يحد عطاؤه، وهو عليم بمن يستحق هذه المضاعفة كالمنفقين في إعلاء شأن الحق، وتربية الأمم على آداب الدين وفضائله التي تسوقهم إلى سعادة المعاش والمعاد، حتى إذا ما ظهرت آثار ذلك في قوة ملتهم وسعادة أمتهم جنوا من ذلك أجلّ الفوائد وعاد ذلك عليهم بالخير الوفير[5].

ثم بيّن ثواب الإنفاق في الآخرة بعد بيان منافعه في الدنيا فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: إن الذين يبذلون أموالهم يبتغون بذلك مرضاة ربهم، ولا يتبعون ذلك بمنّهم على من أحسنوا إليهم ولا بإيذائهم، لهم عند ربهم ثواب لا يقدر قدره، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ حين يخاف الناس وتفزعهم

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ٢٥٧.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل الصدقة في سبيل الله وتضعيفها، رقم ١٨٩٢.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٧/ ٢٩٠، رقم ٤٢٥٦. قال المحقق: «صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف».
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٤٢.
(٥) تفسير المراغي ٣/ ٣٠.

الأهوال، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ حين يحزن الباخلون الممسكون عن الإنفاق في سبيل الله، إذ هم أهل السكينة والاطمئنان والسرور الدائم[1].

مما سبق يمكن القول أن تعظيم القرآن لشأن الإنفاق، وتكثير ثوابه، وتضعيف الأجر عليه يجعل في النفس الهمة والمبادرة إلى ذلك العمل الذي يحبه الله، ويعظّم من شأنه، ويكثر من ثوابه وفضله، وهكذا فإن من مقاصد الثواب جعل الإنسان المؤمن يبادر ويسارع إلى فعل الخيرات، كما قال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

فدأب المؤمنين دائمًا المسارعة والمبادرة إلى فعل الخيرات؛ لنيل الثواب من الله، وكما قال: ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١].

ثالثًا: بيان عدل الله وفضله في معاملة الخلق:

إن الله تبارك وتعالى خلق الخلق، ونظّم لهم حياتهم بما يحفظ لكل ذي حق حقه، وأمر بالعدل، وجعل العدل هو ميزان الدنيا والآخرة، فلا جور ولا حيف، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

ففي الآية أمر بالعدل حتى مع الأعداء، فالعدل نظام هذا الوجود الإنساني، فلا يصح أن يكون البغض الشديد حاملًا على الاعتداء، ولا أن يكون البغض الشديد حاملًا على منع الحقوق، بل يعطي كل ذي حق حقه، ولو كان عدوًّا مبينًا، فالحق ليس منحة من شخص لشخص يسلبه إن أبغض، ويعطيه إن أحب، بل إن التمكين منه واجب مقدس أمر الله سبحانه وتعالى به، وحث عليه[2].

فعن أبي ذرٍّ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: **(يا عبادي إنّي حرّمت الظّلم على نفسي، وجعلته بينكم محرّمًا، فلا تظالموا)**[3].

وإذا كان العدل ينبغي أن يكون شعار كل مسلم فما بالنا بالخالق الذي من أسمائه العدل، ولذلك بيّن الحق سبحانه وتعالى أنه لا يظم أحدًا فقال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

قال الطبري: «ولا يجازي ﴿رَبُّكَ أَحَدًا﴾ يا محمد بغير ما هو أهله، لا يجازي بالإحسان إلا أهل الإحسان، ولا بالسيئة إلا

(١) المصدر السابق ٣/ ٣١.

(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٤/ ٢٠٥٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب تحريم الظّلم، رقم ٢٥٧٧، عن أبي ذر رضي الله عنه».

أهل السيئة، وذلك هو العدل»[1].

ولذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧- ٨].

و(المثقال) مفعال من الثقل، ويطلق على الشيء القليل الذي يحتمل الوزن، و(الذرة) تطلق على أصغر النمل، وعلى الغبار الدقيق الذي يتطاير من التراب عند النفخ فيه. والمقصود المبالغة في الجزاء على الأعمال مهما بلغ صغرها، وحقر وزنها[2].

قال الطبري: «فمن عمل في الدنيا وزن ذرة من خير، يرى ثوابه هنالك -يعني: في الآخرة- حتى ولو كان هذا العمل في نهاية القلة»[3].

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ يقول: ومن كان عمل في الدنيا وزن ذرة من شر يرى جزاءه هنالك. حتى ولو كان هذا العمل أيضًا في أدنى درجات القلة.

والآية تدل على أمرين مهمين:

الأول: أن الحق سبحانه وتعالى يسجّل لكل عبد من عباده -من خلال الملائكة- الحسنات والسيئات مهما قلّت أو كثرت، كما قال: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾[الكهف: ٤٩].

(١) جامع البيان ٢٠/ ١٥١.
(٢) الوسيط، طنطاوي ١٥/ ٤٧٩.
(٣) جامع البيان ٢٤/ ٥٤٩.

الثاني: أن الحق سبحانه وتعالى يجازي كل إنسان بما كسبت يديه، فمن يعمل خيرًا يجد جزاء ذلك خيرًا، ومن يعمل شرًّا يجد جزاء ذلك شرًّا، فالجزاء من جنس العمل، والثواب والجزاء من قبل الله يكون في الدنيا والآخرة. فعدل الله أنه يثيب المحسن ويجازي المسيء.

ولذا يقول الحق مؤكدًا هذا المعنى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

فقوله: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أي: فلا يظلم الله نفسًا ممن ورد عليه منهم شيئًا، بأن يعاقبه بذنب لم يعمله، أو يبخسه ثواب عمل عمله، وطاعة أطاعه بها، ولكن يجازي المحسن بإحسانه، ولا يعاقب مسيئًا إلا بإساءته. وقوله: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ أي: وإن كان الذي من عمل الحسنات، أو عليه من السيئات وزن ﴿حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ وجئنا بها فأحضرناها إياه. وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ يقول: وحسب من شهد ذلك الموقف بنا حاسبين؛ لأنه لا أحد أعلم بأعمالهم وما سلف في الدنيا من صالح أو سيِّء منا[4].

(٤) المصدر السابق ١٨/ ٤٥١.

وهكذا يتبين عدل الحق سبحانه وتعالى في معاملة الخلق، ومجازاة كل إنسان بما كسبت يداه وعملته جوارحه.

موضوعات ذات صلة

الإهلاك، الجزاء، العذاب



عناصر الموضوع

مفهوم الجاهلية

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (جهل) تدل على معنين: أحدهما: خلاف العلم، والآخر: الخفة وخلاف الطمأنينة[1].

والجاهلية في اللغة: «يعبّر بها عن التناهي في الجهل»[2]، «وأصل الجهل من قولهم: استجهلت الريح الغصن، إذا حرّكته، فكأن الجهل إنما هو حركةٌ تخرج عن الحق والعلم»[3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الجاهلية في الاصطلاح: «هي عادة القوم قبل الإسلام»[4]؛ «لأن الناس الذين عاشوا فيها كانوا جاهلين بالله وبالشرائع»[5]، وقد أطلق عليها القرآن أحيانًا لفظ: (الجاهلية الأولى)، «ويجوز أن تكون الجاهلية الأولى - جاهلية الكفر قبل الإسلام. والجاهلية الأخرى - جاهلية الفسوق والفجور في الإسلام»[6].

فيكون بهذا لفظ الجاهلية ليس معناه شيئًا واحدًا! وإنما هو مجموعة العادات والتقاليد التي كان يتسم بها الناس قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، مما جاء الإسلام بإبطالها.

«وأحسب أن لفظ الجاهلية من مبتكرات القرآن، وصف به أهل الشرك تنفيرًا من الجهل، وترغيبًا في العلم؛ ولذلك يذكره القرآن في مقامات الذم في نحو قوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾[المائدة: ٥٠]، ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾[الأحزاب: ٣٣]»[7].

العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي:

الجهل في اللغة ضد العلم، وفي الاصطلاح وصف به أهل الشرك تنفيرًا من الجهل، وترغيبًا في العلم.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٤٩٠.
(٢) كشف المشكل من حديث الصحيحين، ابن الجوزي ٢/ ٥٩٧.
(٣) نظم الدرر، البقاعي ٥/ ٢٢٠.
(٤) كشف المشكل، ابن الجوزي ٢/ ٣٧٥.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١٣.
(٦) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٥٣٧.
(٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ١٣٦.

الجاهلية في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (ج هـ ل) في القرآن(٢٤) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٥	﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾[الأنعام:١١١]
مصدر صناعي	٤	﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾[المائدة:٥٠]
اسم الفاعل	١٠	﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة:٢٧٣]
مصدر سماعي	٤	﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ [النساء:١٧]
صيغة مبالغة	١	﴿وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾[الأحزاب:٧٢]

وجاءت الجاهلية في القرآن بمعناها في اللغة وهي من الجهل، والجهل في اللغة على ثلاثة أضرب[٢]:

الأول: وهو خلو النفس من العلم، هذا هو الأصل.

الثاني: اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه.

الثالث: فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل، سواء اعتقد فيه اعتقادًا صحيحًا أو فاسدًا، كمن يترك الصلاة متعمدًا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾[البقرة:٦٧].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ١٨٤.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٢٠٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الإسلام:

الإسلام لغة:

الاستسلام، والانقياد[١].

الإسلام اصطلاحًا:

الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله[٢].

الصلة بين الجاهلية والإسلام:

الجاهلية هي مجموعة العادات والتقاليد التي كان يتسم بها الناس قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، مما جاء الإسلام بإبطالها، فالإسلام مرحلة مهمة في إبطال مجموعة العادات والتقاليد المخالفة التي انتشرت في الجاهلية.

٢ الشرك:

الشرك لغة:

مأخوذ من شرك، ومنه: (أشرك بالله: كفر، أي: جعل له شريكًا في ملكه تعالى الله عن ذلك)[٣]، وقد يأتي بمعنى المخالطة والنصيب، لكن المراد هنا هو الكفر.

الشرك اصطلاحًا:

تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائصه سبحانه[٤].

الصلة بين الجاهلية والشرك:

من أخطر الأمور المتفشية في الجاهلية المتعلقة بالعقيدة هو الشرك، والذي كان للشياطين العلاقة الوطيدة فيه، روى الطبراني في «الكبير» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة رنّ إبليس رنة اجتمعت إليه جنوده، فقال: ايئسوا أن تردّوا أمّة محمد على الشرك بعد يومكم هذا، ولكن افتتنوهم في دينهم، وأفشوا فيهم النوح)[٥].

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري، ٥/ ١٩٥٢، مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ٩٠.
(٢) انظر: ثلاثة الأصول وشروط الصلاة والقواعد الأربع، محمد بن عبد الوهاب، ص١٤.
(٣) تاج العروس، الزّبيدي، ٢٧/ ٢٢٤.
(٤) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، نخبة من العلماء، ص ٥٨.
(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ١٢/ ١١، رقم ١٢٣١٨. وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة،

الجهل والطبيعة الإنسانية

قال الله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

قال طاووس ومقاتل وغيرهما: «لا يصبر عن النساء»، وقال الحسن: «هو خلقه من ماءٍ مهينٍ»، وقال الزجاج: «ضعف عزمه عن قهر الهوى».

قال ابن القيم: «والصواب أن ضعفه يعم هذا كلّه، وضعفه أعظم من هذا وأكثر؛ فإنه ضعيف البنية، ضعيف القوة، ضعيف الإرادة، ضعيف العلم، ضعيف الصبر، والآفات إليه مع هذا الضعف أسرع من السيل في صيب الحدود»[1].

لقد فطر الله الإنسان على صفات النقص كتقدير كوني، لكنه سبحانه أرشده إلى ما يزيل به نقصه ذلك أو بعضه، فمثلًا: طبع الله الإنسان على الخطأ، كما قال صلى الله عليه وسلم: (كلّ بني آدم خطاءٌ، وخير الخطائين التّوابون)[2]، فانظر كيف دلّه على ما يمحو به أخطاءه!

وكذلك طبع الإنسان على الظلم والجهل، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ثم دلّه ربّه سبحانه على ما يرفع به عن نفسه ذلك الظلم والجهل، فقال لرفع الظلم: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

وقال سبحانه لرفع الجهل: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وعن أول خروج الإنسان للدنيا قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ ثم أعطاه الله ما يرفع به عن نفسه ذلك الجهل الفطري فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

بهذا نعلم أن الجهل من طبيعة الإنسان البشري، لكنه مأمور شرعًا برفع ذلك الجهل عن نفسه؛ ليسلم من تبعات الأخطاء التي يرتكبها بسبب جهله، خاصة إن كان في حاضرة علم وعلماء.

٧/ ١٣٧٣، رقم ٣٤٦٧.

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم ص ١٠٨.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة، باب رقم ٤٩، ٤/ ٦٥٩، رقم ٢٤٩٩، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، ٢/ ١٤٢٠، رقم ٤٢٥١. وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٨٣١، رقم ٤٥١٥.

تنزيه الرسل عن أخلاق الجاهلين

الإيمان بأنبياء الله تعالى ركن من أركان الإيمان بالله تعالى، لا يصح إيمان عبد بدونه.

قال الله تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَٰٓئِكَةِ وَالْكِتَٰبِ وَالنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ولا شك أن الأنبياء والرسل هم المبلّغون عن الله تعالى دينه ورسالته؛ لذا فلم يرسل الله تعالى لتلك المهمة إلا الخلّص من عباده.

قال سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ الْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

أي: «يختار ويجتبي من الملائكة رسلًا ومن الناس رسلًا يكونون أزكى ذلك النوع، وأجمعه لصفات المجد، وأحقه بالاصطفاء، فالرسل لا يكونون إلا صفوة الخلق على الإطلاق، والذي اختارهم واصطفاهم ليس جاهلًا بحقائق الأشياء! أو يعلم شيئًا دون شيء! وإنما المصطفي لهم السميع البصير، الذي قد أحاط علمه وسمعه وبصره بجميع الأشياء، فاختياره إياهم عن علم منه أنهم أهل لذلك، وأن الوحي يصلح فيهم، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]»[1].

وبعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى في سورة المائدة ثمانية عشر نبيًّا ورسولًا.

قال سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَٰفِرِينَ ۝٨٩ أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩، ٩٠].

ولما أمر موسى عليه السلام قومه أن يذبحوا بقرة، كان جوابهم: ﴿قَالُوٓا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾! فكان جوابه عليه السلام أن: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]: «تبرؤ وتنزّه عن الهزء؛ لأنه لا يليق بالعقلاء الأفاضل، فإنه أخص من المزح؛ لأن في الهزؤ مزحًا مع استخفاف واحتقار للممزوح معه، على أن المزح لا يليق في المجامع العامة والخطابة، على أنه لا يليق بمقام الرسول؛ ولذا تبرأ منه موسى بأن نفى أن يكون من الجاهلين، كناية عن نفي المزح بنفي ملزومه، وبالغ في التنزه بقوله:

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٤٦.

﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ﴾ أي: منه؛ لأن العياذ بالله أبلغ كلمات النفي، فإن المرء لا يعوذ بالله إلا إذا أراد التغلب على أمر عظيم لا يغلبه إلا الله تعالى»[1].

إذن فهم عليهم الصلاة والسلام منزّهون معصومون عن الوقوع في أعمال الجاهلين.

وما بعث الله أنبياءه عليهم الصلاة والسلام إلا لينهوا أقوامهم وأممهم عن أعمال الجاهلين، فنبينا عليه الصلاة والسلام قرأ على قومه لوم الذين ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾[آل عمران: ١٥٤].

وبلّغ أمّته نكير الله على الحاكمين بالجاهلية إذ قال: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وتلا عليه الصلاة والسلام على نسائه ونساء المؤمنين: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾[الأحزاب: ٣٣].

وكانت أقواله وأفعاله صلى الله عليه وسلم تنهى عن حمية الجاهلية، وبيّنت هذه الآية أنها في قلوب الكافرين لا المؤمنين بالله: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦].

بل إن المتأمل في سيرتهم عليهم الصلاة والسلام، يجد -بلا عناء- أنهم دعاة إلى ضد الجهل والجاهلية والجهالة، ولنستعرض هنا بعض الآيات التي تدل على ذلك:

فهذا نوح وهود وصالح وشعيب عليهم السلام يقول كلّ منهم لقومه: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩].

فتوحيد الله في العبادة هو أعظم العلم، والشرك به سبحانه أعظم الجهل.

وهذا هود عليه السلام يقول لقومه: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

وكما سيأتي معنا أن كلّ من عصى الله فهو جاهلٌ، وكلّ من أطاعه فهو عالمٌ، وهذا الاستغفار الذي أمرهم به هو من أعظم العلم الذي يهدم جهل المعصية، وكلما كان العبد صادقًا في توبته واستغفاره كان أكثر علمًا بالله تعالى وبعظيم قدره.

بهذا نعلم مدى بعد أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام عن أخلاق الجاهلين وأعمالهم وصفاتهم. ولله الحمد.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٥٤٨.

أنواع الجاهلية

تحدث القرآن عن أنواع الجاهلية، وسوف نبيّن ذلك فيما يأتي:

أولًا: الجاهلية العقدية:

وهذه أخطر أنواع الجاهلية؛ لأنها تمس دين المسلم وعقيدته -والعياذ بالله-.

ومن أدلة هذه الجاهلية العقدية:

أولًا: قوله جل في علاه: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤].

و«إنما وصفهم بالجهل لأنه تقدم وصف الإله بكونه خالقًا للأشياء، وبكونه مالكًا لمقاليد السموات والأرض، وظاهر كون هذه الأصنام جمادات أنها لا تضر ولا تنفع، ومن أعرض عن عبادة الإله الموصوف بتلك الصفات الشريفة المقدسة، واشتغل بعبادة هذه الأجسام الخسيسة؛ فقد بلغ في الجهل مبلغًا لا مزيد عليه؛ فلهذا السبب قال: ﴿أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ ولا شك أن وصفهم بهذا الأمر لائق بهذا الموضع»[(١)].

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩].

ثانيًا: قول الحق سبحانه: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

قال ابن كثير رحمه الله في الكلام عن هذه الآية: «ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات، التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات، مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكزخان، الذي وضع لهم اليساق: وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها عن شرائع شتى، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعًا متبعًا، يقدّمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله؛ حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فلا يحكّم سواه في قليل ولا كثير»[(٢)].

فالحكم من أعظم خصائص ألوهية الرب سبحانه وتعالى، كما قال تعالى:

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٤٧١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٣١.

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فلا يجوز لأحد سواه أن يحكم في الناس بغير حكمه سبحانه، ولا يجوز لمسلم أن ينصاع لأحد يريد أن يحكمه بغير حكم الله تعالى، وقد حصر الله الحكم له سبحانه فقال في ثلاث آيات من القرآن: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[الأنعام: ٥٧]، [يوسف: ٤٠]، [يوسف: ٦٧].

ثالثًا: قول الله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

أي: «إنكم أيها القوم قوم تجهلون عظمة الله وواجب حقه عليكم، ولا تعلمون أنه لا تجوز العبادة لشيء سوى الله الذي له ملك السموات والأرض»[1].

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما بيّن أنواع نعمه على بني إسرائيل، بأن أهلك عدوهم وأورثهم أرضهم وديارهم، أتبع ذلك بالنعمة العظمى: وهي أن جاوز بهم البحر مع السلامة، ولما بيّن تعالى في سائر السور كيف سيّرهم في البحر مع السلامة، وذلك بأن فلق البحر عند ضرب موسى البحر بالعصا، وجعله يبسًا؛ بيّن أن بني إسرائيل لما شاهدوا قومًا يعكفون على عبادة أصنامهم جهلوا وارتدوا وقالوا لموسى: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة! ولا شك أن القوم لما شاهدوا المعجزات الباهرة التي أظهرها الله تعالى لموسى على فرعون، ثم شاهدوا أنه تعالى أهلك فرعون وجنوده، وخص بني إسرائيل بأنواع السلامة والكرامة، ثم إنهم بعد هذه المواقف والمقامات يذكرون هذا الكلام الفاسد الباطل؛ كانوا في نهاية الجهل وغاية الخلاف»!![2].

وقد قال لهم موسى عليه السلام بعد بيانه جهلهم -محذّرًا لهم عاقبة أولئك العاكفين على عبادة غير الله تعالى-: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ثم مبيّنًا لبعض نعم الله عليهم: ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝١٤٠ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٤٠-١٤١]! أي: فكيف بعد كل هذه النعم تريدون عبادة غيره؟! ما هذا إلا من أعظم أدلة جهلكم بقدر خالقكم ومنجيكم سبحانه وتعالى!

(١) جامع البيان. للطبري ١٣/ ٨٠.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣٤٩.

ثانيًا: الجاهلية السلوكية:

وهذه الجاهلية السلوكية دون تلك العقدية، لكنها قد تصل بصاحبها إلى الكفر بالله تعالى عياذًا بالله إذا عملها مستحلًا لها، بل حتى لو لم يعملها لكنه اعتقد حلّها بعد أن حرّمها الله تعالى.

ولهذا النوع من الجاهلية أمثلة في القرآن الكريم، نذكر هنا بعضها لتدل على ما سواها، فمن ذلك:

أولًا: قول نبي الله يوسف عليه السلام حين دعته امرأة العزيز والنسوة من ورائها ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

«فإن قلت: نزول السجن مشقة على النفس شديدة، وما دعونه إليه لذةٌ عظيمة، فكيف كانت المشقة أحبّ إليه من اللذة؟

قلت: كانت أحبّ إليه وآثر عنده نظرًا في حسن الصبر على احتمالها لوجه الله، وفي قبح المعصية، وفي عاقبة كل واحدة منهما، لا نظرًا في مشتهى النفس ومكروهها»[١].

وقوله: ﴿وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي: «من الذين لا يعملون بما يعلمون؛ لأنّ من لا جدوى لعلمه فهو ومن لا يعلم سواء.

أو من السفهاء؛ لأنّ الحكيم لا يفعل القبيح»[٢].

والتعبير بـ«قوله: ﴿وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أبلغ من قول: وأكن جاهلًا»[٣].

وفي قوله عليه السلام: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ...﴾ دلالة «على أن أحدًا لا يمتنع عن معصية الله إلا بعون الله»[٤].

ثانيًا: وقال لوط عليه السلام لقومه: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥].

أي: «تفعلون فعل الجاهلين بأنها فاحشة مع علمكم بذلك! أو تجهلون العاقبة، أو أراد بالجهل السفاهة والمجانة التي كانوا عليها»[٥].

إن «مجرد الكشف عن هذه الفاحشة يكفي لإبراز شذوذها وغرابتها لمألوف البشرية، ولمألوف الفطرة جميعًا! ثم دمغهم بالجهل بمعنييه: الجهل بمعنى فقدان العلم، والجهل بمعنى السفه والحمق، وكلا المعنيين متحقق في هذا الانحراف البغيض؛ فالذي لا يعرف منطق الفطرة يجهل كل شيء، ولا يعلم شيئًا أصلًا! والذي يميل هذا الميل عن الفطرة سفيه أحمق معتدٍ على جميع الحقوق»![٦].

(١) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٤٦٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٢٦٣.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٨٥.

(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٦٢.

(٦) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٤٧.

«ثم إنه تعالى بيّن جهلهم بأن حكى عنهم أنهم أجابوا عن هذا الكلام بما لا يصلح أن يكون جوابًا له فقال: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]!»[(١)].

«سبحان الله! ومتى كان الطهر ذنبًا وجريمة تستوجب أن يخرج صاحبها من بلدة؟ إنها نغمة نسمعها دائمًا من أهل الباطل في كل زمان ومكان حينما يهاجمون أهل الحق، ويسعون لإبعادهم من الساحة لتخلو لباطلهم.

ومن عدل الله تعالى أن يظهر في منطقهم دليل إدانتهم وخبث طباعهم، فكلمة ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ التي نطقوا بها تعني: أنهم أنفسهم أنجاس تزعجهم الطهارة، وما أحلّ الله من الطيبات، وكأن الله تعالى يجعل في كلامهم منافذ لإدانتهم، وليحكموا بها على أنفسهم»[(٢)].

ثالثًا: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

«وقوله تعالى: ﴿ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن المراد من كان في زمن نوح، والجاهلية الأخرى من كان بعده.

وثانيهما: أن هذه ليست أولى تقتضي أخرى؛ بل معناه تبرّج الجاهلية القديمة، كقول القائل:

أين الأكاسرة الجبابرة الأولى»[(٣)].

«كأن المعنى: ولا تحدثن بالتبرج جاهلية في الإسلام تتشبهن بها بأهل جاهلية الكفر»[(٤)].

ثم «أمرهن أمرًا خاصًّا بالصلاة والزكاة ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، ثم جاء به عامًّا في جميع الطاعات ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾؛ لأن هاتين الطاعتين البدنية والمالية هما أصل سائر الطاعات، من اعتنى بهما حق اعتنائه جرّتاه إلى ما وراءهما.

ثم بيّن أنه إنما نهاهن وأمرهن ووعظهن؛ لئلا يقارف أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم المآثم، وليتصوّنوا عنها بالتقوى، واستعار للذنوب: الرجس، وللتقوى: الطهر؛ لأنّ عرض المقترف للمقبحات يتلوّث بها ويتدنس، كما يتلوث بدنه بالأرجاس، وأما المحسنات فالعرض معها نقي مصون كالثوب الطاهر.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ وفي هذه

---

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٦٢.
(٢) تفسير الشعراوي ١٧/ ١٠٨٠٦
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٦٧.
(٤) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٥٣٧.

الاستعارة ما ينفر أولي الألباب عما كرهه الله لعباده ونهاهم عنه، ويرغّبهم فيما رضيه لهم وأمرهم به»[1].

من صور الجهالة

عرض القرآن الكريم صورًا للجهالة، نتناولها بالبيان فيما يأتي:

أولًا: الوقوع في المعصية:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧].

والسوء: «هو العمل القبيح الذي يسوء فاعله إذا كان عاقلًا سليم الفطرة»[2].

قال ابن رجب: «فإنّ كلّ من عصى اللّه فهو جاهلٌ، وكلّ من أطاعه فهو عالمٌ، وبيانه من وجهين:

أحدهما: أنّ من كان عالمًا باللّه تعالى وعظمته وكبريائه وجلاله، فإنّه يهابه ويخشاه، فلا يقع منه -مع استحضار ذلك- عصيانه، كما قال بعضهم: لو تفكّر الناس في عظمة اللّه تعالى ما عصوه، وقال آخر: كفى بخشية اللّه علمًا، وكفى بالاغترار باللّه جهلًا.

والثاني: أنّ من آثر المعصية على الطاعة فإنّما حمله على ذلك جهله، وظنّه أنها تنفعه عاجلًا باستعجال لذّتها، وإن كان عنده إيمان فهو يرجو التخلّص من سوء عاقبتها بالتوبة في آخر عمره، وهذا جهل محضٌ!

(١) المصدر السابق.

(٢) تفسير المراغي ٤/ ٢٠٧.

فإنّه يتعجّل الإثم والخزي، ويفوته عزّ التقوى وثوابها ولذّة الطاعة، وقد يتمكّن من التوبة بعد ذلك، وقد يعاجله الموت بغتةً، فهو كجائع أكل طعامًا مسمومًا لدفع جوعه الحاضر، ورجا أن يتخلّص من ضرره بشرب الدّرياق بعده، وهذا لا يفعله إلا جاهلٌ»[1].

ولهذا يوصف من لم يعمل بعلمه بالجهل وعدم العلم، «قال أبو العالية: سألت أصحاب محمد عن هذه الآية: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ...﴾ فقالوا لي: كل من عصى الله فهو جاهل، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب، ومنه قول ابن مسعود: كفى بخشية الله علمًا، وكفى بالاغترار بالله جهلًا! وقيل للشعبي: أيها العالم! فقال: العالم من يخشى الله!

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[فاطر: ٢٨]»[2].

«وقيل: معنى الجهالة أن يأتي الإنسان بالذنب مع العلم بأنه ذنب، لكنه يجهل عقوبته»[3].

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩].

ثانيًا: عدم التثبت في الأخبار:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

«والجهل: فوق الخطأ؛ لأن المجتهد إذا أخطأ لا يسمى جاهلًا، والذي يبني الحكم على قول الفاسق إن لم يصب جهل، فلا يكون البناء على قوله جائزًا»[4].

قال ابن عاشور: «والجهالة: تطلق بمعنى ضد العلم، وتطلق بمعنى ضد الحلم مثل قولهم[5]:

بجهل كجهل السيف

فإن كان الأول: فالباء للملابسة، وهو ظرف مستقر في موضع الحال، أي: متلبسين أنتم بعدم العلم بالواقع لتصديقكم الكاذب، ومتعلق ﴿تُصِيبُوا۟﴾ على هذا الوجه محذوف دل عليه السياق سابقًا ولاحقًا، أي: أن تصيبوهم بضر، وأكثر إطلاق الإصابة على

(١) روائع التفسير. ابن رجب الحنبلي ١/ ٢٩٧.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/ ٥٣٩.
(٣) لباب التأويل، الخازن ١/ ٣٥٥.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ٩٩.
(٥) الشاهد من بيت لابن الرومي، تمامه:
بجهل كجهل السّيف والسيف منتضى
وحلم كحلم السيف والسّيف مغمد
انظر: الصناعتين. للعسكري ص ٤٢٤.

إيصال الضر.

وعلى الإطلاق الثاني: الباء للتعدية، أي: أن تصيبوا قومًا بفعلٍ من أثر الجهالة، أي: بفعل من الشدة والإضرار»[1].

علاج الجهالة

تحدث القرآن الكريم عن علاج الجهالة، وهذا ما سوف نبينه فيما يأتي:

أولًا: التوبة:

من رحمة الله تعالى أنه (ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاءً)[2]؛ لعلم الله سبحانه بضعف هذا الإنسان من كل جهة -كما سبق-، وداء الجهالة التي معناها: الوقوع في الذنب عن علم أو غير علم، جعل الله تعالى له علاجًا ناجعًا، وهذا العلاج مكوّن من أمرين اثنين، أولهما: التوبة الصادقة لله تعالى.

قال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩].

والجهالة هنا إما:

- عدم العلم بتحريم ذلك، وسبب عدم العلم «عدم أسبابه: من النظر التام، والاستماع التام لآيات الحق وأعلامه، وسبب عدم النظر والاستماع: إما عدم المقتضي فيكون عدمًا محضًا، وإما وجود مانع من الكبر أو الحسد في

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٣٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء، رقم ٥٣٥٤.

النفس ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣]»[١].

- وإما «بجهالة بعاقبة ما تجني عليه، ولو كان متعمدًا للذنب، فإنه لابد أن ينقص ما في قلبه من العلم وقت مفارقة الذنب، فإذا تاب وأصلح بأن ترك الذنب، وندم عليه، وأصلح أعماله، فإن الله يغفر له ويرحمه ويتقبل توبته ويعيده إلى حالته الأولى أو أعلى منها»[٢].

«والتوبة: الرجوع، وصحتها مشروطة باستدامة الإصلاح بعدها في الشيء الذي تيب منه»[٣].

ففتح باب التوبة من أعظم نعم الله تعالى على عباده، فله الحمد سبحانه.

وعند قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥] الآية، يروى عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قوله: «هذه الآية خيرٌ لأهل الذنوب من الدنيا وما فيها»[٤].

وقال ابن سيرين: «أعطانا اللَّه عز وجل هذه الآية مكان ما جعل لبني إسرائيل في كفارات ذنوبهم»[٥].

وعند هاتين الآيتين: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٢، ٧٣].

يلفت شيخ الإسلام رحمه الله الانتباه لنكتة قيّمة فيقول: «وذكر التوبة لعلمه سبحانه وتعالى أنه لابد لكل إنسان من أن يكون فيه جهل وظلم، ثم يتوب الله على من يشاء، فلا يزال العبد المؤمن دائمًا يتبين له من الحق ما كان جاهلًا به، ويرجع عن عمل كان ظالمًا فيه، وأدناه ظلمه لنفسه، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]..»[٦].

ثانيًا: الإصلاح:

عطف الله سبحانه وتعالى الإصلاح على التوبة في ثماني آيات من القرآن الكريم، منها الآية التي ذكرت في العلاج الأول: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩].

ومنها قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية ١٤/ ٢٣.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٥١.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢٩٧.
(٤) انظر: الترغيب والترهيب، قوام السنة ١/ ١٧١، رقم ٢١٩.
(٥) تفسير ابن رجب الحنبلي ١/ ٥٦٤.
(٦) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣/ ٣٤٨.

﴿ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٥].

ومنها كذلك: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ [النساء: ١٦].

ولا شك أن هذا التكرار لهذا العطف يدعو المسلم للتدبر في سر ومعنى هذا العطف.

قال الألوسي: «﴿وَأَصْلَحُوا﴾: أي: أصلحوا أعمالهم أو دخلوا في الصلاح، وفسّر بعضهم الإصلاح بالاستقامة على التوبة»[١].

وقال ابن كثير: «أي: أقلعوا عما كانوا فيه من المعاصي، وأقبلوا على فعل الطاعات»[٢].

وقال شيخ الإسلام عن آدم عليه السلام: «فإن قيل: وهو قد تاب فلماذا بعد التوبة أهبط إلى الأرض؟ قيل: التوبة قد يكون من تمامها عمل صالح يعمله؛ فيبتلى بعد التوبة لينظر دوام طاعته، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٩]»[٣].

وهنا لطيفة يسعفنا بها الشعراوي رحمه الله فيقول: «ومعنى كلمة (أصلح) أنه زاد شيئًا صالحًا على صلاحه، والكون ليس فيه شيء فاسد -اللهم إلا ما ينشأ عن فعل اختياري من الإنسان- وعلى التائب أن يزيد الصلاح في الكون، وهكذا نضمن ألا يجيء التائب إلى الشيء فيفسده؛ لأن من يريد أن يزيد الصالح صلاحًا، لن يفسد الشيء الصالح.

وربما كان هؤلاء الذين أسرفوا على أنفسهم في لحظة من لحظات غفلة وعيهم الإيماني ساعة يذكرون الذنب أو الجريرة التي اقترفوها بالنسبة لدينهم، يحاولون أن يجدّوا ويسارعوا في أمرٍ صالح حتى يجبر الله كسر معصيتهم السابقة بطاعتهم اللاحقة»[٤].

(١) روح المعاني، الألوسي ٧/ ٤٨٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٦١٠.
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٨/ ٣٢٢.
(٤) تفسير الشعراوي ٣/ ١٦٠٥.

التعامل مع الجاهلين

أرشد القرآن الكريم إلى وسائل التعامل مع الجاهلين؛ ليسلكها المؤمنون مع الجاهلين، وهذه الوسائل نذكرها فيما يأتي:

أولًا: الإعراض:

قال الله تعالى لنبيه الكريم عليه الصلاة والسلام: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

اعلم أن «الحقوق التي تستوفى من الناس وتؤخذ منهم، إما أن يجوز إدخال المساهلة والمسامحة فيها، وإما أن لا يجوز.

أما القسم الأول: فهو المراد بقوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ ويدخل فيه ترك التشدد في كل ما يتعلق بالحقوق المالية، ويدخل فيه أيضًا التخلق مع الناس بالخلق الطيب، وترك الغلظة والفظاظة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ومن هذا الباب أن يدعو الخلق إلى الدين الحق بالرفق واللطف، كما قال تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وأما القسم الثاني: وهو الذي لا يجوز دخول المساهلة والمسامحة فيه، فالحكم فيه أن يأمر بالمعروف، والعرف، والعارفة، والمعروف: هو كل أمر عرفِ أنه لابد من الإتيان به، وأن وجوده خير من عدمه؛ وذلك لأن في هذا القسم لو اقتصر على الأخذ بالعفو ولم يأمر بالعرف ولم يكشف عن حقيقة الحال، لكان ذلك سعيًا في تغيير الدين وإبطال الحق وأنه لا يجوز، ثم إنه إذا أمر بالعرف ورغّب فيه ونهى عن المنكر ونفّر عنه، فربما أقدم بعض الجاهلين على السفاهة والإيذاء! فلهذا السبب قال تعالى في آخر الآية: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقال في آية أخرى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣].

وقال في صفة أهل الجنة: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ [الواقعة: ٢٥]»[1].

«وفي قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ قولان:

أحدهما: أنهم المشركون، أمر بالإعراض عنهم، ثم نسخ ذلك بآية السيف.

والثاني: أنه عام فيمن جهل، أمر بصيانة النفس عن مقابلتهم على سفههم، وإن وجب عليه الإنكار عليهم.

وهذه الآية عند الأكثرين كلها محكمة، وعند بعضهم أن وسطها محكم وطرفيها

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٤٣٥.

منسوخان على ما بيّنا»[1].

قال ابن جرير: «وذلك وإن كان أمرًا من الله نبيه؛ فإنه تأديب منه عز ذكره لخلقه باحتمال من ظلمهم أو اعتدى عليهم، لا بالإعراض عمن جهل الواجب عليه من حق الله، ولا بالصفح عمن كفر بالله وجهل وحدانيته وهو للمسلمين حرب!»[2].

وقد ورد في البخاري مثال تطبيقي لهذه الآية مع الخليفة الثاني رضي الله عنه عمر بن الخطاب، يحكيه ابن عباس رضي الله عنهما، فيقول: (قدم عيينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته، كهولًا كانوا أو شبانًا»، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، هل لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: «فاستأذن الحر لعيينة فأذن له عمر»، فلما دخل عليه، قال: هي يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى همّ أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. وإن هذا من الجاهلين، «والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافًا عند كتاب الله)[3].

ثانيًا: الخطاب بالحسنى:

لم يكتف الحق سبحانه وتعالى في أمر عباده الأتقياء بالإعراض عن الجاهلين فحسب، بل وحثهم على أن يقولوا لهم قولًا حسنًا، ويردوا عليهم ردًّا جميلًا، فقال تعالى حاكيًا حال عباده مع أهل الجهالة: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

«أي: صوابًا من القول وسدادًا.

وقال الحسن البصري رحمه الله: هذا دأبهم في النهار، فإذا دخل الليل كانوا كما وصف الله في آخر الآية: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾»[4].

«وقال مجاهد: معنى ﴿سَلَامًا﴾ قولًا سديدًا، أي: يقول للجاهل كلامًا يدفعه به برفق ولين فقالوا على هذا التأويل عامل في قوله ﴿سَلَامًا﴾ على طريقة النحويين، وذلك أنه بمعنى قولًا، وهذه الآية كانت قبل آية السيف فنسخ منها ما يختص الكفرة، وبقي أدبها في المسلمين إلى يوم

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ١٨١.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٣٣٢.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، ٦/ ٦٠، رقم ٤٦٤٢.
(٤) انظر: لطائف الإشارات، التستري ١/ ١١٤.

القيامة»[١].

قال الشعراوي: «والجاهل: هو السفيه الذي لا يزن الكلام، ولا يضع الكلمة في موضعها، ولا يدرك مقاييس الأمور، لا في الخلق ولا في الأدب.

وسبق أن فرقنا بين الجاهل والأمي:

الأمي خالي الذهن، ليس عنده معلومة يؤمن بها، وهذا من السهل إقناعه بالصواب. أما الجاهل فعنده معلومة مخالفة للواقع؛ لذلك يأخذ منك مجهودًا في إقناعه؛ لأنه يحتاج أولًا لأن تخرج من ذهنه الخطأ، ثم تدخل في قلبه الصواب.

والمعنى: إذا خاطبك الجاهل، فحذار أن تكون مثله في الرد عليه فتسفه عليه كما سفه عليك، بل قرعه بأدب وقل: ﴿سَلَٰمًا﴾ لتشعره بالفرق بينكما»[٢].

موضوعات ذات صلة:

الأمية، العلم، الفقه

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٢١٨.
(٢) تفسير الشعراوي ١٧/ ١٠٥٠٢.



عناصر الموضوع

مفهوم الجبال

أولًا: المعنى اللغوي:

«الجيم والباء واللّام أصلٌ يطّرد ويقاس، وهو تجمّع الشّيء في ارتفاعٍ؛ فالجبل معروفٌ، والجبل: الجماعة العظيمة الكثيرة، قال[1]:

أمّا قريشٌ فإن تلقّاهم أبدًا   إلّا وهم خير من يحفى وينتعل

إلّا وهم جبل اللّه الّذي قصرت   عنه الجبال فما ساوى به جبل»[2].

وعلى هذا فإن الجبل يعني في اللغة: المرتفع من الأرض ارتفاعًا ملحوظًا يجعله يعظم ويطول على ما حوله من الأرض، فإن انفرد فأكمةٌ أو قنّةٌ، ودونه في الارتفاع التل، ودون التل الربوة أو الرابية، أو النتوء الأرضي، أو الأكمة وجمعها آكام، ودون الأكمة النجد أو الهضبة، ودون الهضبة السهل، ودون السهل المنخفض من تضاريس الأرض.

والجمع: أجبلٌ كأفلسٍ، وجبالٌ بالكسر، وأجبالٌ، والثّاني في القرآن كثيرٌ[3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

«الجبل» في الاصطلاح: هو كلّ وتدٍ للأرض، عظم وطال، وقيل: هو منطقة من الأرض ترتفع بشكل مفاجئ عما حولها.

و«السلاسل الجبلية» هي مجموعة كبيرة من الجبال تمتد لآلاف الكيلو مترات وتشكل ما يشبه الأحزمة، مثل سلسلة جبال الهملايا شمال الصين، وسلسلة جبال الألب في قلب أوربا.

وبالنظر إلى هذه التعريفات يتبين أن مصطلح الجبال حمّال لجميع مدلولاتها، وبالتالي فإن هذه الدراسة القرآنية ستركّز على بيان هذه المدلولات، واستخراج ما فيها من نتائج دعوية.

---

(١) البيتان من شواهد مقاييس اللغة، ولم يعلم لهما قائل. انظر: مقاييس اللغة ١/ ٥٠٢.

(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٥٠٢.

(٣) هذا البيت مما أنشده ابن الأعرابي ولم يعلم له قائل.
انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٨/ ٢٧، الفصول والغايات، المعري ص ١٣٢.

الجبال في الاستعمال القرآني

وردت مادة (جبل) في القرآن (٤١) مرة، والذي يخص موضوع البحث منها (٣٩) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
اسم مفرد	٦	﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾[الأعراف:١٧١]
اسم جمع	٣٣	﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾[الأعراف:٧٤]

وجاءت (الجبال) في القرآن الكريم بمعناها اللغوي، وهو تجمّع الشيء في ارتفاع، فالجبل معروف[٢]، وهو: ما علا من سطح الأرض واستطال وجاوز التل ارتفاعًا[٣].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧]، يعني: ولن تساوي الجبال طولًا بفخرك وكبرك[٤].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص١٦٣- ١٦٤.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٥٠٢.
(٣) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ١٠٥.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٥٩٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ الأوتاد:

الأوتاد لغةً:

ما نزل في الأرض، وأوتاد الأرض الجبال، وأوتاد البلاد رؤساؤها[(١)].

الأوتاد اصطلاحًا:

ما يثبّت به الجبل في الأرض.

الصلة بين الأوتاد والجبال:

من خلال التعريفين اللغوي والاصطلاحي للأوتاد تبين أن الجبال أعم وأشمل منه؛ إذ إن الأوتاد يعني ما يثبّت به الجبل، والجبل يشمله، ويشمل ما فوقه من مرتفع.

٢ العلم:

العلم لغةً:

اسم يطلق على العلامة، والأثر، والجبل، والراية[(٢)].

العلم اصطلاحًا:

الجبل المرتفع الذي تعرف من خلاله الطريق، فهو كالبرق في لمعانه، واهتداء الناس من خلاله في سيرهم.

الصلة بين العلم والجبال:

من خلال التعريفين اللغوي والاصطلاحي للعلم تبين أن الجبل أعم منه وأشمل؛ إذ إن العلم يعني ما زاد ارتفاعه بحيث يكون دالًّا على الطريق، والجبل يعني: كل ما ارتفع من الأرض، وكان ثابتًا بوتد.

٣ السهل:

السهل لغةً:

هو «كل شيء يميل إلى اللين وقلة الخشونة»[(٣)].

(١) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ٢/ ١٠٠٩.
(٢) انظر: المصدر السابق ٢/ ٦٢٤.
(٣) المصدر السابق ١/ ٤٥٨.



السهل اصطلاحًا:

«أرض منبسطة لا تبلغ الهضبة»[1].

الصلة بين السهل والجبل:

السهل هو الأرض المنبسطة التي هي غير مرتفعة أبدًا، وبالتالي فإنه لا يحتاج إلى وتد وما شابه، كما أن مناخه وطبيعة منافعه تختلف عمّا يرتفع على الأرض، وأما الجبل فإنه يحتاج إلى وتدٍ إضافة إلى خاصية منافعه، إضافة إلى أن كليهما دالٌّ على قدرة الله تعالى وعظمته.

٤ الرابية:

الرّابية لغةً:

وهي «ما ارتفع من الأرض»[2].

الرّابية اصطلاحًا:

كل شيء ارتفع عن الأرض، سواء أكان جبلًا، أم غير ذلك.

الصلة بين الرابية والجبل:

الرابية أعمّ وأشمل من الجبل، من كون الرابية تعني كل ما ارتفع عن الأرض، وهي بذلك تعني الجبل والهضبة والتل وغير ذلك؛ غير أن الجبل أوضح دلالة، وأعظم اعتبارًا في المدلول الدعوي.

٥ الوادي:

الوادي لغةً:

هو ما كان في المنخفض من الأرض، وجمعه أودية[3].

الوادي اصطلاحًا:

هو سيل الماء الواقع في منخفض بين جبلين.

الصلة بين الوادي والجبل:

الوادي منخفض عن سطح الأرض، والجبل مرتفع مثبّت بوتد.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص١٢٨٦.

(٣) انظر: الصحاح، الجوهري، ٦/ ٢٥٢١.

الجبال والأرض

اقترن ذكر الجبال بالأرض في القرآن؛ وذلك لعلاقتهما اللازمة؛ حيث حاجة الأرض إلى التثبيت وعدم الاضطراب، وسوف نوضح ذلك بالبيان فيما يأتي:

أولًا: الجبال وخلق الأرض:

هناك مجموعة من الآيات تتحدث عن عملية تكوين الجبال وأصل نشأتها.

يقول تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [ق: ٧].

ويقول تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩].

ويقول تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ﴾ [النحل: ١٥ - ١٦].

قال الطاهر ابن عاشور في تفسير هذه الآية: «انتقال إلى الاستدلال والامتنان بما على سطح الأرض من المخلوقات العظيمة التي في وجودها لطف بالإنسان، وهذه المخلوقات لما كانت مجعولة كالتكملة للأرض وموضوعة على ظاهر سطحها عبّر عن خلقها ووضعها بالإلقاء الذي هو رمي شيء على الأرض؛ ولعل خلقها كان متأخرًا عن خلق الأرض؛ إذ لعل الجبال انبثقت باضطرابات أرضية كالزلزال العظيم، ثم حدثت الأنهار بتهاطل الأمطار، وأما السّبل والعلامات فتأخّر وجودها ظاهر، فصار خلق هذه الأربعة شبيهًا بإلقاء شيء في شيء بعد تمامه.

ولعل أصل تكوين الجبال كان من شظايا رمت بها الكواكب فصادفت سطح الأرض، كما أن الأمطار تهاطلت فكوّنت الأنهار، فيكون تشبيه حصول هذين بالإلقاء بيّنًا، وإطلاقه على وضع السّبل والعلامات تغليب، ومن إطلاق الإلقاء على الإعطاء، ورواسي جمع راسٍ، وهو الثبات والتمكن في المكان.

قال تعالى: ﴿وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ [سبأ: ١٣].

ويطلق على الجبل رأس بمنزلة الوصف الغالب.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥].

تعليلٌ لإلقاء الرواسي في الأرض، والميد: الاضطراب، وضمير تميد عائد إلى الأرض بقرينة قرنه بقوله تعالى: ﴿بِكُمْ﴾؛ لأن الميد إذا عدي بالباء علم أن المجرور بالباء هو الشيء المستقر في

الظرف المائد، والاضطراب يعطّل مصالح الناس، ويلحق بهم آلامًا.

ولما كان المقام مقام امتنان علم أن المعلل به هو انتفاء الميد لا وقوعه.

ولعل الله جعل نتوء الجبال على سطح الأرض معدلًا لكرويتها، بحيث لا تكون بحدٍّ من الملاسة يخفّف حركتها في الفضاء تخفيفًا يوجب شدة اضطرابها»[1].

ثانيًا: الجبال والتوازن:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

قال ابن كثير: «﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ أي: جعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض، وأرساها بجبال راسيات شامخات، وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون؛ ليسقي ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح من كل زوجين اثنين، أي: من كل شكل صنفان.

﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ أي: جعل كلًّا منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا، فإذا ذهب هذا غشيه هذا، وإذا انقضى هذا جاء الآخر، فيتصرف أيضًا في الزمان، كما يتصرف في المكان والسكان، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: في آلاء الله وحكمه ودلائله»[2].

والنظرة العلمية: في طيات هذه الآية الكريمة ثلاث حقائق أيدها العلم بدلائل قوية، وهي:

أولًا: أن الله مدّ الأرض، وجعل فيها رواسي، ومدّ الأرض، أي: بسطها أينما سار الإنسان عليها.

ثانيًا: أنه سبحانه جعل في الأرض رواسي، أي: جبالًا لتحفظ التوازن اللازم للكرة الأرضية التي تتكون من منخفضات عميقة في البحار والمحيطات ومرتفعات شامخة من الجبال والهضاب، وأنه لابد في هذه الحالة من استقرار للأرض، واتزان لانتظام حركتها مع ثباتها.

ثالثًا: أنه سبحانه جعل من كل الثمرات زوجين اثنين، أي: جعل في الأشجار التي تحمل الثمار نوعي الذكر والأنثى حتى يتم تلقيح الأعضاء الأنثية بطريق حبوب اللقاح الموجودة بالأعضاء الذكرية، وبذلك تتوالد الأنواع وتتكاثر[3].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٦ - ٧].

قال ابن كثير: «﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ أي:

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ١٢٠ - ١٢١.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٣١.

(٣) القرآن وإعجازه العلمي، محمد إسماعيل إبراهيم ص١٤٥ - ١٤٦.

جعلها لها أوتادًا أرساها بها، وثبّتها وقرّرها حتّى سكنت، ولم تضطرب بمن عليها»[١].

والنظرة العلمية: تمكّن الإنسان بوسائله العلمية المختلفة أن يثبت أن الجزء الصلب من القشرة الأرضية يبلغ سمكه (٦٠) كيلومترًا، وأن بعض هذه القشرة يرتفع مكوّنًا الجبال وينخفض بعضها؛ ليكون قيعان البحار والمحيطات، وأن وجود الجبال على سطح الكرة الأرضية موزعة بدقة وحكمة يساعد على التوازن بين المرتفعات والمنخفضات، بحيث لا تميد الأرض ولا تضطرب، فكأن هذه الجبال تعمل عمل الأوتاد التي تحفظ توازن الخيمة واستقرارها.

وهناك حقيقة علمية أخرى وصل إليها البحث العلمي في توزيع الجبال واليابس والماء على سطح الأرض بنسب أحجامها الحالية، علاوة على التوازن بحيث لا تميد الأرض ولا تحيد عن موضعها، وهي أنه لو كانت الأرض بحجمها الحالي مكوّنة من الماء بنسبة أكبر لبلغ وزنها أقل مما هي عليه الآن؛ ولما تمكّنت من حفظ نسبة بعدها عن الشمس، بل لانجذبت إليها واحترقت، ولو كان أكثرها مكوّنًا من اليابس لزاد وزنها عما هي عليه الآن؛ ولبعدت عن الشمس البعد الذي لا تتحقق معه الحياة؛ لأنها في هذه الحالة تتجمد من شدة البرودة[٢].

ثالثًا: الجبال والأنهار:

فضلًا عما تحتويه المناطق الجبلية من قدر كبير من التنوع الإحيائي العالمي، فإنها تقوم بوظيفة أخرى هامة جدًّا؛ إذ تعتبر مستجمعات لمعظم الموارد المائية في العالم، فهناك مجموعة من الآيات تصف الارتباط والعلاقة بين الجبال والماء والأنهار.

قال الرازي: من الاستدلال بأحوال الجبال أنّ بسببها تتولّد الأنهار على وجه الأرض؛ وذلك أنّ الحجر جسمٌ صلبٌ فإذا تصاعدت الأبخرة من قعر الأرض ووصلت إلى الجبل احتبست هناك، فلا تزال تتكامل، فيحصل تحت الجبل مياهٌ عظيمةٌ، ثمّ إنّها لكثرتها وقوّتها تثقب وتخرج وتسيل على وجه الأرض، فمنفعة الجبال في تولّد الأنهار هو من هذا الوجه؛ ولهذا السّبب ففي أكثر الأمر أينما ذكر اللّه الجبال قرن بها ذكر الأنهار مثل ما في هذه الآية، أي: قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

ومثل قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٨/ ٣٠٢.

(٢) القرآن وإعجازه العلمي، محمد إسماعيل إبراهيم ص٦٤، ٦٥.

﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧][1].

وقال أبو حيان: «ومن جهة تولّد الأنهار منها، قيل: وذلك لأنّ الجبل جسمٌ صلبٌ، ويتصاعد بخاره من قعر الأرض إليه ويحتبس هناك، فلا يزال يتكامل فيه فيحصل بسببه مياهٌ كثيرةٌ، فلقوّتها تشقّ وتخرج وتسيل على وجه الأرض، ولهذا في أكثر الأمر إذا ذكر الله تعالى الجبال ذكر الأنهار كهذه الآية: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

وكقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧].

﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا﴾ [النحل: ١٥].

فقال المفسّرون: الأنهار المياه الجارية في الأرض، وقال الكرمانيّ: مسيل الماء»[2].

وقال النيسابوري: «من الدلائل الدالة على وجود الصانع ووحدانيته جريان الأنهار العظيمة على وجه الأرض الكائنة فيها من احتباس الأبخرة، وأكثر ذلك إنما يتكوّن في الجبال؛ فلذا قرن الجبال بالأنهار في القرآن كثيرًا؛ كقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧]»[3].

رابعًا: ألوان الجبال:

ورد اختلاف الألوان الجبال في آية كريمة تحدثت عن ألوان صخور الجبال، وأثر الماء في تعدد هذه الألوان وعلاقته به، وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧].

وقد يعجب الإنسان من علاقة إنزال الماء من السماء باختلاف ألوان الجبال، ففي بحثٍ مطوّلٍ ومعقّدٍ جدًّا ملخّصه أنّ الماء هذا العنصر الحيويّ، والذي يعدّ من أعلى العناصر المذيبة والفعّالة، تبيّن أنه هو العامل الحاسم في تلوين الجبال، التي تأخذ ألوانها من ألوان معادنها التي تشترك في بنيتها، والمعادن تتلوّن بقدر أكسدتها، حيث إنّ الماء له علاقةٌ بهذه الأكسدة؛ لذلك تجد أنّ أحد عوامل تلوينها واختلاف ألوانها من جبالٍ كالغرابيب السود، وجبالٍ جددٍ بيضٍ، وحمرٍ مختلفٍ ألوانها يعود إلى الماء؛ لذلك قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧].

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ١٩، محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٢٥٧.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٤٦.

(٣) غرائب القرآن ٤/ ١٣٨.

فكل ما تقدّم العلم كشف عن جانب من إعجاز القرآن الكريم العلميّ من أجل أن نعلم علم اليقين أنّ الذي أنزل هذا القرآن هو الذي خلق الأكوان، وأنّ هذا التوافق بين معطيات العلم ومعطيات الوحي هو منطقيٌّ إلى درجةٍ قطعيةٍ؛ لأنّ الوحي كلام الله؛ ولأنّ الكون خلق الله، واتّحاد المصدر يعني اتّحاد الفروع، فلابدّ من تطابق العلم الحقيقيّ مع النقل الصحيح...، فلابد أن نعلم علم اليقين أنّ الذي خلق الأكوان هو الذي أنزل هذا القرآن.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٣]. وهنا عطفٌ.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧].

فقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ أي: وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان كما هو المشاهد أيضًا من بيضٍ وحمرٍ، وفي بعضها طرائق، وهي الجدد، جمع جدّة، مختلفة الألوان أيضًا، قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: الجدد: الطرائق[1]. والغرابيب: الجبال الطوال السود.

وقال ابن جرير: «والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد قالوا: أسود غربيب، إذا وصفوه بشدّة السّواد، وجعل السّواد ها هنا صفةً للغرابيب»[2].

فما أعظم كمال وقدرة المولى سبحانه وتعالى في وصف بديع خلقه، فقد خلق الله الجبال مختلفة الألوان من بيضٍ وحمرٍ وأسود غرابيب أي: شديد السواد، فوضع لنا القرآن بإعجازه العلمي سرًّا من أسرار علوم الجيولوجيا، وأطلعنا على أنواع الجبال، ومهّد لنا مجال البحث في هذا العلم، حيث يقوم علماء الجيولوجيا بتصنيف الجبال تبعًا للصخور التي تغلب على تركيبها إلى ثلاثة أقسام رئيسية:

١ . جبال رسوبية طبقية.

وهي المشار إليها في الآية بـ﴿جُدَدٌۢ بِيضٌ﴾ [فاطر: ٢٧].

فـ«الجدد البيض» هي صفة للجبال الرسوبية التي تكونت بفعل ترسيب الطبقات.

فمن المعاني اللفظية لكلمة ﴿جُدَدٌ﴾ الوارد ذكرها في الآية الكريمة معنى الشيء المتجدد، ويستدل العلماء على هذا الرأي بأن جبال الجليد الهائلة المتجمدة منذ ملايين السنيين تشكّل ٩٠٪ من الماء المخزون في كوكب الأرض.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٨١.

(٢) جامع البيان ١٩/ ٣٦٣.

وأيضًا «الجدد» بمعنى الغنى، ويفسّر العلماء هذا بأن جبال المعادن النفيسة والرخام والأحجار الكريمة ذات الألوان المختلفة تعدّ من مصادر الثروة للبشر.

ويقول علماء الجيولوجيا: إنها تتجدد ببطء مع مرور الزمن على الرغم مما يؤخذ منها عن طريق العوامل الطبيعية، أو ما تأخذه أيدي الإنسان، فكلما استنزفت قمم هذه الجبال ترتفع جذورها من الأعماق فتعوّض، أي: تجدد ما استنزف منها، وهي (بيض)؛ لأن اللون الغالب على هذه الجبال هو الأبيض حيث أن صخورها تنتمي إلى عائلة الصخور الجرانيتية التي تتكون أساسًا من معادن المرو الأبيض اللون، ومعادن أخرى مختلفة في ألوانها ودرجاتها مثل الفلسبار البوتاسي المقارب إلى اللون الأحمر، والبايوتايت الذي يتراوح بين الأصفر والبني المائل إلى الحمرة والعسلي؛ لذا نجد اختلاف الألوان ودرجاتها في الجبل.

٢. جبال قاعدية متبلورة.

وهي المشار إليها في الآية بـ﴿وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ [فاطر: ٢٧].

ويفسّر العلماء اللون الأحمر لهذه الجبال التي ورد ذكرها في الآية الكريمة نتيجة لشيوع عنصر الحديد فيها، وهو الذي يتأكسد فيظهر الصخر بلون أحمر، ويصاحب الحديد معادن أخرى كالنحاس والرصاص، وتختلف نسبة وجود هذه المعادن؛ لذلك يظهر اللون الأحمر بدرجات متفاوتة.

٣. جبال بركانية نارية.

وهي المشار إليها في الآية بـ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧].

و«الغرابيب السود» هي الجبال النارية البركانية غير المتبلورة، حيث يشيع اللون الأسود عليها؛ لأن البازلت وهو صخر ناري أسود اللون يغلب على تكوين هذه الجبال ويتكون بفعل تجمد الألفا.

وهي المادة المنصهرة التي تخرج من فواهات البراكين، ربط الله سبحانه وتعالى بين اختلاف ألوان الثمار واختلاف ألوان الجبال في الآية الكريمة، ورغم غرابة هذا الارتباط إلا أنه يبدو طبيعيًّا من جانب الدراسة العلمية للألوان، فسبحان الله الذي أبدع كل شيء بكلمات موجزة معبّرة عن المعجزات خلق الله، وصف الله الجبال بمعنى آخر هو: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٦ - ٧][1].

وقال تعالى أيضًا عن نزول الأمطار: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن

(١) القرآن وإعجازه العلمي، محمد إسماعيل إبراهيم ص ١٧٤.

﴿يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٣].

قال أبو السعود: «﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الغمام، فإن كلّ ما علاك سماءٌ ﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا﴾ أي: من قطعٍ عظامٍ تشبه الجبال في العظم كائنة فيها، وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَرَدٍ﴾ مفعول ينزل، على أنّ ﴿مِنۢ﴾ تبعيضيّةٌ، والأوليان لابتداء الغاية على أنّ الثّانية بدل اشتمالٍ من الأولى بإعادة الجار أن ينزل مبتدئًا من السماء من جبال فيها بعض برد»[1].

وقال الشوكاني والبيضاوي بمثل ما قال أبو السعود إلا أنهما اعتبرا ﴿مِنۢ﴾ الثالثة بيانية، فقال: ﴿مِنۢ بَرَدٍ﴾ بيان للجبال والمفعول محذوف؛ أي: ينزل مبتدئًا من السماء من جبال فيها من برد[2].

فقوله تعالى: ﴿خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ [النور: ٤٣].

فيه سر لا يعرفه إلا من تمكّن من مراقبة مراحل تكوين البرد داخل السحاب، ومن الذي أنبأه بأن للبرد برقًا، وأن البرد هو السبب في حصوله، وأنه يكون أشد أنواع البرق ضوءًا؟ إن ذلك لا يعرفه إلا من درس الشحنات الكهربائية داخل السحاب واختلاف توزيعها ودور البرد في ذلك؛

ولشدة خفاء هذا الأمر فقد نسب المفسرون البرق إلى السحاب، وإن كان السحاب يشتمل على البرد في كلام المفسرين، ولم نجد من نسب هذا البرق إلى البرد مع أنه المعنى الظاهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٣][3].

(١) إرشاد العقل السليم، ٦/ ١٨٤.

(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١١٠، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٤٩.

(٣) انظر: الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، جامعة المدينة العالمية ص٣٠٢- ٣٠٣، ٣١٥.

الجبال والإنسان

أخبر القرآن عن اتخاذ الإنسان الجبال كحصون وبيوت للسكن، وسوف نبين ذلك فيما يأتي:

أولًا: الجبال والوزر:

الوزر في اللّغة: ما يلجأ إليه الإنسان من حصنٍ أو جبلٍ أو غيرهما.

ومنه قول طرفة[1]:

ولقد تعلم بكرٌ أنّنا
فاضلو الرّأي وفي الرّوع وزر

وقول حسان بن ثابت[2]:

الناس ألبٌ علينا ثم ليس لنا
إلا السيوف وأطراف القنا وزر

وقال الطاهر ابن عاشور: «الوزر: المكان الّذي يلجأ إليه للتّوقّي من إصابة مكروهٍ مثل الجبال والحصون»[3].

ومنه قول الله تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣].

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ [القيامة: ١٠ - ١١].

فـ﴿كَلَّا﴾ ردع عن طلب المفرّ وتمنّيه، و﴿لَا وَزَرَ﴾ أي: لا ملجأ ولا حصن، استعير من الجبل، فـ﴿لَا وَزَرَ﴾ أي: لا ملجأ من النّار. فـ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ أي: لا، ليس هنالك يا ابن آدم فرار ولا جبل ولا حصن، ولا مكان يلجأ إليه ويفر إليه، ولا جبل ولا معقل، ولا ملجأ من اللّه.

وقال ابن مسعودٍ والضحاك: لا حصن، وقال الحسن: لا جبل، وقال ابن عباس: ﴿لَا وَزَرَ﴾ لا حصن ولا ملجأ.

وقال عكرمة: لا منعة، وقال ابن جبيرٍ: لا محيص ولا منعة، وقال مطرف بن الشخير: ﴿لَا وَزَرَ﴾ لا جبل، إن الناس إذا فروا قالوا: عليك بالوزر، وقال السّدّيّ: كانوا في الدّنيا إذا فزعوا تحصّنوا في الجبال، فقال اللّه لهم: لا وزر يعصمكم يومئذٍ منّي، واشتقاقه من الوزر وهو الثقل، أي: ملجأً للخائف، وكذلك هو قول أبي قلابة ومجاهد وقتادة[4].

قال القرطبي: «المعنى في ذلك كلّه واحدٌ»[5].

وأصل هذا أنهم كانوا إذا ضيق عليهم في الحروب والهزائم الشداد لجؤوا إلى الجبال والمعاقل، فأعلموا أنه لا ملجأ من عذاب الله في القيامة إلى جبل ولا إلى غيره[6].

(١) انظر: ديون طرفة بن العبد ص٣٠.
(٢) انظر: ديوان حسان بن ثابت ص٩٩.
(٣) التحرير والتنوير ٢٩/ ٣٤٦.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن القرطبي ١٩/ ٩٨.
(٥) المصدر السابق.
(٦) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب

وقال عبد القادر العاني: «كانوا إذا فزعوا من شيء يلجأون إلى الجبال؛ ولذلك قال ابن نوح عليه السلام: ﴿سَآوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ [هود: ٤٣].

فتقدّم الله تعالى لهؤلاء بما يقطع أملهم بأن لا شيء هناك يعصمهم من عذاب الله إلا هو؛ ولهذا قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١٢]»[1].

وقوله تعالى: ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ﴾ [الشرح: ٢].

قال محمد ثناء الله: «﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ﴾ الوزر في الأصل الجبل، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ يعني: جبل هناك يلتجىء إليه، والمراد ها هنا الثِّقل على سبيل الاستعارة»[2].

ثانيًا: الجبال بيوت وسكن:

تحدثت عدة آيات عن اتخاذ الجبال بيوتًا وسكنًا، فهل سكنى الجبال أمر محمود؟ أو مرغوب فيه ابتداء؟ أم يلجأ إليه عند الحاجة فقط؟ سنقف عند هذه الآيات أولًا، ثم نذكر جوابًا جامعًا من خلالها:

قال تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨].

تفسير علماء الدين: ألهم ربك النحل أسباب حياتها ووسائل معيشتها بأن تتخذ من الجبال بيوتًا في كهوفها، وتتخذ من فجوات الشجر ومن عرائش المنازل والكروم بيوتًا لها كذلك.

قال البغوي والبيضاوي في تفسير الآية: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾: «أي: ألهمها وقذف في أنفسها، ففهمته»[3] أو جعل في غرائزها ذلك، كما قال السمعاني[4] أي: اتخذي ﴿مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ﴾ أي: يبنون ﴿مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا﴾ أي: أوكارًا مع ما فيها من الخلايا[5].

والنظرة العلمية: إن بعض العلماء الذين كرّسوا جهودهم لدراسة حياة الحشرات، وقفوا على حقائق عجيبة، وألّفوا مئات الكتب التي أثبتت صحة ما جاء في القرآن من أن هناك فصائل بريّة من النحل تسكن الجبال، وتتخذ من مغاراتها مأوى لها، وأن منه سلالات تتخذ من الأشجار سكنًا بأن تلجأ إلى الثقوب الموجودة في جذوع الأشجار وتتخذ منها بيوتًا تأوي إليها، ولما أراد الإنسان أن ينتفع بعسل النحل استأنسها وصنع لها خلايا من الطين، أو الخشب

١٢/ ٧٨٦٨.

(١) بيان المعاني، عبد القادر العاني ١/ ٢٤٠.

(٢) التفسير المظهري، محمد ثناء الله ١٠/ ٢٩١.

(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٨٦، أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٢٣٢.

(٤) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ١٨٥.

(٥) انظر: الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، جامعة المدينة العالمية ص٢٧٦.

يعيش فيها، وهكذا تبيّن الآية الكريمة كيف كانت هذه الحشرات بإلهام من الله تأوي إلى مساكنها المختلفة منذ القدم إلى يومنا هذا[1].

وقال تعالى في معرض الامتنان على بني آدم: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١].

قال الكفوي: ﴿مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ مواضع تستكنون بها من الكهوف والبيوت المنحوتة فيها، من «الكن» وهو السترة[2].

وأخبرنا تعالى أن صالحًا عليه السلام قال لقومه ثمود: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤].

وأخبرنا عنهم أيضًا: ﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢].

قال ابن كثير: «أي: من غير خوفٍ ولا احتياجٍ إليها، بل أشرًا وبطرًا وعبثًا، كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بوادي الحجر الذي مرّ به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو ذاهب إلى تبوك، فقنع رأسه وأسرع دابته، وقال لأصحابه: (لا تدخلوا بيوت القوم المعذّبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تبكوا فتباكوا؛ خشية أن يصيبكم ما أصابهم)[3]»[4].

وقال أيضًا عنهم: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ۝١٤٩ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٤٩ - ١٥٠].

قال ابن كثير: «قوله: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ قال ابن عبّاسٍ وغير واحدٍ: يعني: حاذقين، وفي رواية عنه: شرهين أشرين، وهو اختيار مجاهد وجماعة، ولا منافاة بينهما، فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشرًا وبطرًا وعبثًا من غير حاجة إلى سكناها، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها، كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم؛ ولهذا قال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي: أقبلوا على ما يعود نفعه عليكم في الدنيا والآخرة من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم؛ لتعبدوه، وتوحّدوه، وتسبّحوه بكرة

---

(١) القرآن وإعجازه العلمي، محمد إسماعيل إبراهيم ص١٥١.

(٢) الكليات، الكفوي ص١٦٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾، ٤/ ١٤٩، رقم ٣٣٨٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، رقم ٢٩٨٠.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٤٥.

وأصيلًا»[1].

وأثبت العلم الحديث أن سكان الجبال الذين تختفي أحوالهم دائمًا خلف جمالها الخلّاب، وتبعدهم عن مرمى السمع والبصر عزلتهم وصعوبة الوصول إليهم، ويواجهون تدهورًا مستمرًّا في النظم الإيكولوجية وتزايدًا في مستويات الفقر وتفاقمًا في الأوضاع المزعزعة والصراعات المسلحة.

ويقدّر على وجه العموم أن زهاء ١٠ في المائة من سكان الأرض يقطنون مناطق الجبال، وإن رأى «برونو ميسيرلي» من جامعة «برن» بسويسرا أن المسوحات الجديدة كشفت عن وجود أكثر من ٢٥ في المائة من سكان العالم يقطنون مناطق الجبال أو في محيط قدره (٥٠) كيلو مترًا منها.

ويميل سكان الجبال بسبب وجودهم في مناطق نائية أن يكونوا أفقر من نظرائهم في الأراضي الواطئة، وهو سبب يدفع كثرة من شبيبة هذه المناطق إلى هجرها.

ويقول «لاكاباشيربا» مدير برنامج «كومولانغما» للمحافظة على الطبيعة التابع لمعهد الجبال في منطقة التبت الصينية المتمتعة بالاستقلال الذاتي أنه بمجرد أن يغادر الشباب مناطق الجبال فإنهم «يحلّقون بعيدًا ولا يعودون أبدًا»، وأكد أن مشاركة أهالي الجبال أساسية في تنمية مناطقهم وتطوير أنفسهم، وبدون ذلك سيكون كسر دائرة الفقر مستحيلًا حسب رأيه.

إذن الجواب: الجبال سكن للنحل بوحي من الله، وحصن عند الحاجة، ولا يلجأ إليها للمعيشة العادية؛ نظرًا لصعوبة الحياة بها، والله أعلم.

ثالثًا: الخشوع، والإشفاق عن حمل الأمانة، والتأويب، والذكر:

بالرغم من ضخامة الجبال وعظمتها إلا أن هناك لغة مشتركة بين الجبال والإنسان، وهي لغة تسبيح الله عز وجل، ولكن لا نعلمها ولا نعرفها، إنما يعرفها خالقها -جل شأنه-.

فهناك مجموعة من الآيات الكريمة تشير إلى إحساس الجبال الإيماني، وخضوع الجبال وتسبيحها للخالق -تبارك وتعالى-، فذكر الله عز وجل في مواضع عديدة من كتابه العزيز أن هناك لغة مشتركة بين الجبال والإنسان في معرفة حقوق المولى عز وجل، ومن هذه المواضيع:

الخشوع:

قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

---

(١) المصدر السابق ٦/ ١٥٦.

في هذه الآية الكريمة يذكر المولى عز وجل أن الجبال تسابق الإنسان في معرفة الله والخوف منه، فإنها تتصدّع من خشية الله.

قال ابن كثير: «يقول تعالى معظّمًا لأمر القرآن، ومبيّنًا علو قدره، وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب، وتتصدع عند سماعه؛ لما فيه من الوعد الحق والوعيد الأكيد ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته لو فهم هذا القرآن فتدبّر ما فيه لخشع وتصدع من خوف الله عز وجل، فكيف يليق بكم أيها البشر أن لا تلين قلوبكم وتخشع وتتصدع من خشية الله، وقد فهمتم عن الله أمره، وتدبرتم كتابه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]»[١].

الإشفاق من حمل الأمانة:

قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

في هذه الآية الكريمة يذكر المولى عز وجل أن الجبال تشفق من حمل الأمانة التي هي بالمعنى العام.

قال السعدي: «يعظّم تعالى شأن الأمانة التي ائتمن الله عليها المكلّفين، التي هي امتثال الأوامر واجتناب المحارم في حال السر والخفية كحال العلانية، وأنه تعالى عرضها على المخلوقات العظيمة السماوات والأرض والجبال عرض تخيير لا تحتيم، وأنك إن قمت بها وأدّيتها على وجهها فلك الثواب، وإن لم تقومي بها ولم تؤديها فعليك العقاب.

﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ﴾ أي: خوفًا أن لا يقمن بما حمّلن، لا عصيانًا لربهن، ولا زهدًا في ثوابه، وعرضها الله على الإنسان على ذلك الشرط المذكور، فقبلها، وحملها مع ظلمه وجهله، وحمل هذا الحمل الثقيل»[٢].

التأويب والذكر:

قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠].

بل ذكر المولى عز وجل أن الجبال في حالة من التسبيح الدائم! فقال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨]

(١) تفسير القرآن العظيم ٨/ ٧٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص٦٧٣.

قال سيد قطب: «لقد يقف الناس مدهوشين للنبأ؛ إذ يخالف مألوفهم، ويخالف ما اعتادوا أن يحسّوه من العزلة بين جنس الإنسان، وجنس الطير، وجنس الجبال! ولكن فيم الدهش؟ وفيم العجب؟ إن لهذه الخلائق كلها حقيقة واحدة، وراء تميّز الأجناس والأشكال والصفات والسمات، حقيقة واحدة يجتمعون فيها ببارئ الوجود كله: أحيائه وأشيائه جميعًا، وحين تصل صلة الإنسان بربه إلى درجة الخلوص والإشراق والصفاء، فإن ذلك الحاجز تنزاح، وتتكشف الحقيقة المجردة لكل منهم، فتتصل من وراء حواجز الجنس والشكل والصفة والسمة التي تميزهم وتعزلهم في مألوف الحياة! وقد وهب الله عبده داود هذه الخاصية، وسخّر الجبال معه يسبّحن بالعشي والإشراق، وحشر عليه الطير ترجّع مع ترانيمه تسبيحًا لله، وكانت هذه هبة فوق الملك والسلطان مع النبوة والاستخلاص»[1].

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠١٧.

الجبال والساعة

تحدث القرآن عن أحوال الجبال في أحداث القيامة، وسوف نوضّحها فيما يأتي:

أولًا: دكّ الجبال:

اعلم أنّه جلّ وعلا بيّن الأحوال الّتي تصير إليها الجبال يوم القيامة في آياتٍ من كتابه، فبيّن أنّه ينزعها من أماكنها ويحملها فيدكّها دكًّا، وذلك في قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٣ - ١٤].

قال الطبري: «﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ يقول: فزلزلتا زلزلةً واحدةً»[2].

وقال البغوي: «﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ رفعت من أماكنها ﴿فَدُكَّتَا﴾ كسرتا ﴿دَكَّةً﴾ كسرةً ﴿وَاحِدَةً﴾ فصارتا هباءً منبثًّا»[3].

وقال ابن كثير: «﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤].

أي: فمدّت مدّا لأديم العكاظي، وتبدّلت الأرض غير الأرض»[4].

ثانيًا: الجبال كثيب مهيل، كالعهن:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤].

قال السعدي: «﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ

(٢) جامع البيان ٢٣/ ٢٢٤.

(٣) معالم التنزيل ٥/ ١٤٥.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٨/ ٢١.

﴿وَالْجِبَالُ﴾ من الهول العظيم ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ﴾ الراسيات الصّم الصلاب ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ أي: بمنزلة الرمل المنهال المنتثر، ثم إنها تبس بعد ذلك، فتكون كالهباء المنثور»[1].

وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٩].

قال الطبري: «قوله: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ يقول: وتكون الجبال كالصوف»[2].

وقال البغوي: «﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ كالصّوف المصبوغ»[3].

ولا يقال: عهنٌ إلّا للمصبوغ.

وقال مقاتلٌ: كالصّوف المنفوش.

وقال الحسن: كالصّوف الأحمر وهو أضعف الصّوف، وأوّل ما تتغيّر الجبال تصير رملًا مهيلًا ثمّ عهنًا منفوشًا ثمّ تصير هباءً منثورًا»[4].

وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥].

قال الطبري: «قوله: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ يقول تعالى ذكره: ويوم تكون الجبال كالصّوف المنفوش؛ والعهن: هو الألوان من الصّوف»[5].

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٨٩٣.
(٢) جامع البيان ٢٣/ ٢٥٦.
(٣) معالم التنزيل، ٨/ ٢٢١.
(٤) انظر: المصدر السابق ٥/ ١٥٢.
(٥) جامع البيان ٢٤/ ٥٩٤.

ثالثًا: نسف الجبال:

قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧].

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ أي: هل تبقى يوم القيامة أو تزول؟ ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ أي: يذهبها عن أماكنها ويمحقها ويسيّرها تسييرًا ﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي: الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أي: بساطًا واحدًا، والقاع هو المستوي من الأرض، والصفصف تأكيد لمعنى ذلك، وقيل: الذي لا نبات فيه، والأول أولى، وإن كان الآخر مرادًا أيضًا باللازم؛ ولهذا قال: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ أي: لا ترى في الأرض يومئذٍ واديًا، ولا رابية، ولا مكانًا منخفضًا ولا مرتفعًا، كذا قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن البصري والضحاك وقتادة وغير واحد من السلف»[6].

وقال الشنقيطي: «جرت العادة في القرآن: أن الله إذا قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: يسألونك قال له: قل بغير فاء، كقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ﴾ [الإسراء: ٨٥].

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ

(٦) تفسير القرآن العظيم ٥/ ٣١٦.

﴿وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٩].

وقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ﴾ [البقرة: ٢١٥].

وقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ [المائدة: ٤].

وقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧].

إلى غير ذلك من الآيات، أما في آية (طه) هذه فقال فيها: ﴿فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ بالفاء.

وقد أجاب القرطبي عن هذا في تفسير هذه الآية بما نصه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ أي: عن حال الجبال يوم القيامة، فقل، جاء هذا بفاء، وكل سؤال في القرآن (قل) بغير فاء إلا هذا؛ لأن المعنى: إن سألوك عن الجبال فقل، فتضمن الكلام معنى الشرط، وقد علم الله أنهم يسألونه عنها فأجابهم قبل السؤال، وتلك أسئلة تقدمت، سألوا عنها النبي صلى الله عليه وسلم فجاء الجواب عقب السؤال؛ فلذلك كان بغير فاء، وهذا سؤال لم يسألوه عنه بعد فتفهمه انتهى منه، وما ذكره يحتاج إلى دليل، والعلم عند الله تعالى»[1].

قوله تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٦ - ١٠٧].

الضمير في قوله: ﴿فَيَذَرُهَا﴾ فيه وجهان معروفان عند العلماء:

أحدهما: أنه راجع إلى الأرض، وإن لم يجر لها ذكر، ونظير هذا القول في هذه الآية قوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

وقوله: ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [النحل: ٦١].

فالضمير فيهما راجع إلى الأرض، ولم يجر لها ذكر.

والثاني: أنه راجع إلى منابت الجبال التي هي مراكزها ومقارها؛ لأنها مفهومة من ذكر الجبال، والمعنى: فيذر مواضعها التي كانت مستقرة فيها من الأرض قاعًا صفصفًا، والقاع: المستوي من الأرض، وقيل: مستنقع الماء، والصفصف: المستوي الأملس الذي لا نبات فيه، ولا بناء، فإنه على صف واحد في استوائه، وأنشد لذلك سيبويه قول الأعشى[2]:

وكم دون بيتك من صفصف
ودكداك رمل وأعقادها

وقوله: ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٧].

أي: لا اعوجاج فيها ولا أمت، والأمت: النتوء اليسير، أي: ليس فيها اعوجاج، ولا ارتفاع بعضها على بعض، بل هي مستوية،

(١) أضواء البيان ٤/ ٩٨.

(٢) انظر: ديوان الأعشى ص١٢٦.

ومن إطلاق الأمت بالمعنى المذكور قول لبيد[(١)]:

فاجرمزت ثم سارت وهي لاهية
في كافر ما به أمت ولا شرف

وقول الآخر[(٢)]:

فأبصرت لمحة من رأس عكرشة
في كافر ما به أمت ولا عوج

والكافر في البيتين: قيل الليل، وقيل المطر؛ لأنه يمنع العين من رؤية الارتفاع، والانحدار في الأرض.

وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة: فإن قلت: قد فرّقوا بين العوج، والعوج فقالوا، العوج بالكسر في المعاني، والعوج بالفتح في الأعيان، والأرض عين فكيف صح فيها المكسور العين؟ قلت: اختيار هذا اللفظ له موقع حسن بديع في وصف الأرض بالاستواء والملاسة، ونفي الاعوجاج عنها على أبلغ ما يكون؛ وذلك أنك لو عمدت إلى قطعة أرض فسوّيتها، وبالغت في التسوية على عينك وعيون البصراء من الفلاحة، واتفقتم على أنه لم يبق فيها اعوجاج قط، ثم استطلعت رأي المهندس فيها، وأمرته أن يعرض استواءها على المقاييس الهندسية، لعثر فيها على عوج في غير موضع لا يدرك ذلك بحاسة البصر، ولكن بالقياس الهندسي، فنفى الله عز وجل ذلك العوج الذي دقّ ولطف عن الإدراك، اللهم إلا بالقياس الذي يعرفه صاحب التقدير والهندسة، وذلك الاعوجاج لما لم يدرك إلا بالقياس دون الإحساس لحق بالمعاني فقيل فيه: عوج بالكسر، والأمت: النتوء اليسير، يقال: مد حبله حتى ما فيه أمت. انتهى منه.

وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾ [طه: ١٠٨].

قوله: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ أي: يوم إذ نسفت الجبال ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ﴾ والداعي: هو الملك الذي يدعوهم إلى الحضور للحساب، قال بعض أهل العلم: يناديهم أيتها العظام النخرة، والأوصال المتفرقة، واللحوم المتمزقة، قومي إلى ربك للحساب والجزاء، فيسمعون الصوت ويتبعونه، ومعنى ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ أي: لا يحيدون عنه ولا يميلون يمينًا ولا شمالًا، وقيل: لا عوج لدعاء الملك عن أحد، أي: لا يعدل بدعائه عن أحد، بل يدعوهم جميعًا، وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من اتباعهم للداعي للحساب، وعدم عدولهم عنه بينه في غير هذا الموضع، وزاد أنهم يسرعون إليه كقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ

---

(١) انظر: ديوان لبيد بن ربيعة ص٤٥.

(٢) البيت مذكور في: تهذيب اللغة، الأزهري ١٠/ ١١٢، لسان العرب، ابن منظور ٥/ ١٤٧ دون تسمية قائله.

﴿ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ٦ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ٧ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾ [القمر: ٦ - ٨].

والإهطاع: الإسراع، وقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ٤١ يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ﴾ [ق: ٤١ - ٤٢].

وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٥٢].

إلى غير ذلك من الآيات[١].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ﴾ [المرسلات: ١٠].

قال القرطبي: ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ﴾ أي: ذهب بها كلها بسرعة، يقال: نسفت الشيء وأنسفته: إذا أخذته كله بسرعة، وكان ابن عباس والكلبي يقول: سويت بالأرض، والعرب تقول: فرس نسوف إذا كان يؤخر الحزام بمرفقيه، قال بشر[٢]:

نسوف للحزام بمرفقيها

ونسفت الناقة الكلأ: إذا رعته، وقال المبرد: نسفت قلعت من موضعها، يقول الرجل للرجل يقتلع رجليه من الأرض أنسفت رجلاه، وقيل: النسف تفريق الأجزاء حتى تذروها للرياح، ومنه نسف الطعام؛ لأنه يحرّك حتى يذهب الريح بعض ما فيه من التبن[٣].

رابعًا: تسيير الجبال:

ثمّ بيّن أنّه يسيّرها في الهواء بين السّماء والأرض؛ وذلك في قوله: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ٨٧ وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٧ - ٨٨].

وقوله: ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٧]. وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ﴾ [التكوير: ٣]. وقوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠]. وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ٩ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا﴾ [الطور: ٩ - ١٠].

ثمّ بيّن أنّه يفتّتها ويدقّها كقوله: ﴿وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا﴾ [الواقعة: ٥].

أي: فتّتت حتّى صارت كالبسيسة، وهي دقيقٌ ملتوتٌ بسمنٍ أو نحوه على القول بذلك، وقوله: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [الحاقة: ١٤].

---

(١) أضواء البيان ٤/ ٩٦- ١٠٠.

(٢) انظر: ديوان بشر ص٧٤.
وتمام البيت:
نسوفٌ للحزام بمرفقيها
يسدّ خواء طبييها الغبار

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٥٧.

ثم بيّن أنه يصيّرها كالرمل المتهايل وكالعهن المنفوش؛ وذلك في قوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٨ - ٩].

في المعارج والقارعة، والعهن: الصوف المصبوغ، ومنه قول زهير بن أبي سلمى في معلقته[1]:

كأن فتات العهن في كل منزل
نزلن به حب الفنا لم يحطم

ثم بيّن أنها تصير كالهباء المنبث في قوله: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ٥ - ٦].

ثم بيّن أنها تصير سرابًا؛ وذلك في قوله: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠].

وقد بيّن في موضع آخر: أن السراب لا شيء؛ وذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩].

وبيّن أنه ينسفها نسفًا في قوله هنا: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥][2].

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ عن الأرض فنبسّها بسًّا، ونجعلها هباء منبثًا ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ ظاهرة، وظهورها لرأي أعين الناظرين من غير شيء يسترها من جبل ولا شجر هو بروزها، وبنحو ذلك قال جماعة من أهل التأويل»[3].

وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨].

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ [النمل: ٨٨].

أي: تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ أي: تزول عن أماكنها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ٩ - ١٠]. قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧]. وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧]»[4].

وقال تعالى: ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ٩ - ١٠].

قال القنوجي: «﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ أي: تزول عن أماكنها، وتسير عن مواضعها

(١) انظر: ديوان زهير بن أبي سلمى ص٦٦.
(٢) انظر: أضواء البيان ٤/ ٩٦ - ١٠٠.
(٣) جامع البيان ١٥/ ٢٨١.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٢١٧.

كسير السحاب، وتطير في الهواء، ثم تقع على الأرض مفتّتة كالرمل، ثم تصير كالعهن أي الصوف المندوف، ثم تطيّرها الرياح فتكون هباء منبثًا، كما دل عليه كلامه في سورة النمل، قيل: ووجه تأكيد الفعلين بالمصدر الدلالة على غرابتهما وخروجهما عن المعهود، والحكمة في مور السماء، وسير الجبال الإعلام والإنذار بأن لا رجوع ولا عود إلى الدنيا لخرابها وعمارة الآخرة، وقد تقدم تفسير مثل هذا في سورة الكهف»[1].

وقال القاسمي: «﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ٩ - ١٠] أي: تسير عن وجه الأرض فتصير هباء منثورًا»[2].

وقال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠].

قال الطبري: «قوله: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ يقول: ونسفت الجبال فاجتثت من أصولها، فصيّرت هباء منبثًا، لعين الناظر، كالسراب الذي يظنّ من يراه من بعد ماء، وهو في الحقيقة هباء»[3].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣].

قال الطبري: «قوله: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ يقول: وإذا الجبال سيّرها اللّه، فكانت سرابًا وهباءً منبثًا»[4].

وقال القاسمي: «﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أي: رفعت عن وجه الأرض ونسفت، من أثر الرجفة والزلزال الذي قطّع أوصالها»[5].

خامسًا: الجبال هباء منبث:

قال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۝ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾ [الواقعة: ٥ - ٦].

قال الطبري: «وقوله: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ يقول تعالى ذكره: فتّتت الجبال فتًّا، فصارت كالدقيق المبسوس، وهو المبلول، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤].

والبسيسة عند العرب: الدقيق والسويق تلتّ وتتخذ زادًا»[6].

وقال القاسمي: «قوله: ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾ أي: متفرقًا، قال قتادة: الهباء ما تذروه الريح من حطام الشجر، وقال غيره: هو ما يرى من الكوة كهيئة الغبار»[7].

موضوعات ذات صلة:

الآيات الكونية، الأرض، السماء، البحر، الماء

(١) فتح البيان ١٣/ ٢٢٠.
(٢) محاسن التأويل ٩/ ٥٠.
(٣) جامع البيان ٢٤/ ٢٠.
(٤) المصدر السابق ٢٤/ ١٣٣.
(٥) محاسن التأويل ٩/ ٤١٢.
(٦) جامع البيان ٢٢/ ٢٨٢.
(٧) محاسن التأويل ٩/ ١١٩.